محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية

الشيخ / محمد الخضرى

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الخضري ، محمد .

الدولة العباسية / محمد الخضري . ـ ط٢ . ـ المنصورة :

مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٤٨٠ ص ، ٢٤ سم

تدمك 3 ـ 339 ـ 290 ـ977

١ـ الدولة العباسية (٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م) .

أ ـ العنوان .

٩٥٣,٠٤

رقم الإيداع : ١١٤٦٠/ ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله، فإنِّي أقدم للمشتغلين بالتاريخ محاضراتي الثانية في تاريخ الأمم الإسلامية، وهي تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسي في المشرق، والتاريخ العباسي جزء عظيم من تاريخ المسلمين، يبتدئ من (سنة ١٣٢) إلى سنة (٦٥٦)؛ أي: (٥٢٤ سنة)، وقد بقي بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى (سنة ٩٢٣)، ولكني لم أسر معهم من العراق إلى مصر، وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر؛ لِمَا بين التاريخين من الارتباط، وقد بذلك جهدي في تصوير حالهم السياسي من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعاتهم بخراسان والعراق إلى منتهاها على يد هولاكو خان المغولي حفيد جنكيزخان. بيَّنت تلك الحال في أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف، مع توضيح الأسباب التي رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا؛ من سعة الملك، ونفوذ الكلمة، والأسباب التي نزلت بها إلى الحضيض؛ من ضيق رقعة الملك؛ وسقوط الهيبة؛ وضعف النفوذ، وقد ختمت الحديث عنها بفصل إجمالي، لتلك الأسباب.

وتركت تاريخها العلمي؛ لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة تنظم تاريخ الإسلام العلمي كله؛ لارتباط بعضه ببعض، ولعدم اتّباع الحركة العلمية لقوة بني العباس السياسية، فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسى شديد؛ لأن الخلفاء لم يكن لهم - إذ ذاك - إلا الاسم، ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قويَّة.

وإني أعدُ قرَّاء كتابي هذا، بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية وأرجو من الله التوفيق.

وقد كانت الأقاليم الإسلامية في عهد الدولة العباسية، ميداناً عظيما للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصاميين، يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غرباً إلى بلاد الترك والهند شرقاً. فكم من دولة قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها، ومن هذه الدولة من كان يقوم باسم الملك تاركاً اسم الخلافة لبني العباس، ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعاً؛ كالدولة الأموية بالأندلس، والإدريسية بالمغرب الأقصى، والفاطمية بإفريقية ومصر، والزيدية بطبرستان. فرأيت من الواجب، أن أَذْكُرَ مع كل خليفة عباسي، من كان في عصره متغلِّبا على أي إقليم من الأقاليم الإسلامية. وإذا ابتدأت دولة في عهد خليفة، ذكرت عنها جملة مختصرة تبيِّن

كيف نشأت والمدة التي قامت فيها وثَبْت ملوكها، وقصدت بذلك، أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة في جميع العصور، وقد ألممتُ ـ في أكثر الأحيان ـ بذكر الملوك المعاصرين في أوروبا، ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدولة المشرقية في عهد الدولة العباسية؛ كملوك الروم بالقسطنطينية، وملوك فرنسا، ومما عنيت به: أحوال البيت العلوي الذي ظلَّ ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها، وقد كانوا من أكبر الأسباب في ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم. فذكرتُ أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث، وهي: الزيدية، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية، وما قامت به كل طائفة من الرجة في أنحاء العالم الإسلامي.

وإنِّي أظنّ، أنَّ هذه المجموعة ـ على صغر حجمها ـ قد سدَّت حاجة، كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامي يشعرون بها.

وأرجو من الله التوفيق لإتمام سلسلة هذا التاريخ. إنه نعم المُعِين.

* * *

الدولة العباسية

• البيت العباسي:

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، بقي عقبه من كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم، كان من ولديه العباس وأبي طالب، فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر في بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر في أواسط آسيا.

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية، ونحن الآن شارعون في تاريخ البيت الأول.

• العباس بن عبد المطلب:

أمّه نتيلة بنت جناب بن كُليب من النمر بن قاسط، إحدى قبائل ربيعة بن نزار، وُلِدَ قبل حادث الفيل بثلاث سنين، فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

كان العباس من سادات بني هاشم وعقلائهم، وكان صديقاً وفيًا لأبي سفيان صخر بن حرب. ولما جاء الإسلام، كان من المخلصين لرسول الله ﷺ ـ وإن لم يظهر متابعته ـ. وكان هو الذي تولّى إحكام الأمر لرسول الله ﷺ مع الأنصار حين الهجرة، فقد قال لهم في ليلة البيعة: يا معشر الخزرج، إنّكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعزّ الناس في عشيرته، يمنعه والله من كان منّا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنت أهل قوة وجَلَد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبةً، فإنها سترميكم عن قوس واحدة، فارتأوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملإٍ منكم واجتماع، فإنّ أحسن الحديث، أصدقه، وأخرى صفوا لي الحرب كيف تقاتلون عدوّكم؟ قال: فأسكت القوم وتكلّم عبد الله بن عمرو بن خزام، فقال: نحن ـ والله ـ أهل حرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابرٍ نرمي بالنبل حتى تفنى ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منها أو من عدونا. فقال العباس: أنتم أصحاب حرب، فهل فيكم دروع؟ قالوا: نعم، شاملة. وقال البراء بن معرور: سمعنا ما قلت، إنّا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مُهج أنفسنا دون

رسول الله ﷺ . وتلا رسول الله ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغَّبهم في الإسلام، وذكر الذي اجتمعوا له. فأجاب البراء بن معرور بالإيمان والتصديق، فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك، والعباس بن عبد المطلب آخذٌ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار.

ولما خرجت قريش إلى بدر، أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرهاً. ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر: «من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفل وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين». وكان العباس في جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة، وكان مقامه بها أنه كان لا يخفى على رسول الله ﷺ خبراً يكون إلا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه، وكان لهم عوناً على إسلامهم. ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ، فكتب إليه - عليه السلام - إنَّ مقامكم مجاهد حسن. فأقام بأمر رسول الله ﷺ. وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة، وكان سبباً في نجاة أبي سفيان وفي تشريفه بقول رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وحضر غزوة حنين، وكان له فيها أحسن بلاء، ثم خرج إلى المدينة فأقام بها.

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه، وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده، وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة (٣٢هـ)، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، ودُفِنَ بالبقيع.

وأعقب من الولد: الفضل، وهو أكبر أولاده، وبه كان يُكنَى، وعبد الله، وعُبيدالله، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وأم حبيبة. وأمهم جميعاً: لُبابة بنت الحارث بن حزن من بني هلال بن عامر من قيس عيلان، وفي ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله ابن يزد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحلٍ	بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل	أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هُذيل. وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب. عقب العباس من سواهم - ولا سيما من عبد الله - فإنَّه هو الذي انتشر منه عقب العباس؛ وهو جدّ الخلفاء العباسيين.

● **عبد الله بن العباس:**

هو ثاني ولد العباس بن عبد المطلب. وُلد قبل الهجرة بسنتين، فكانت سنّه حين تُوفي رسول الله ﷺ ثلاث عشـرة سنة. وكان - ﷺ - يحبه ودعـا له، فقال: «**اللّهمّ عـلّمه التأويل**». فكان - رضي الله عنه - أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه في الدين على ما أُوتيه من لسان طلق، ذلق، غواص على موضع الحجّة. وكان عمر - رضي الله عنه - يحبّه ويدخله مع كبار الصـحابة في مجلس شوراه الخـاص ويستفتيه فـي كثير من المسائل عـلى صغر سنّه. وولاه عثمان الموسم سنة (٣٥) من الهجرة، وهو محصور، فأقام الموسم. ولما بُويع علي - رضي الله عنه - بالخلافة، كان له عضداً ونصيراً في حروبه كلها، وولاه البصرة وأعمالها، ويُقال: إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلـى مكة فأقام بالطائف، وقيل: إن ذلك كان بعد مقتل عليّ.

ظلّ ابن عباس مـقيماً في الطائف حياة مـعاوية كلها، وكان معاوية يـجلّه ويتودد إليه كثيراً، كما كان يفعل مع سائر بني هاشم، وكانت وفاته سنة (٦٨هـ).

وعبد الله هـو الذي نما من نسله البيت العباسـي؛ لأنّ إخوته لم يكن لهـم نسل باقٍ عقب عبد الله الذي نما، إنّما هو من ولده علي بن عبد الله بن العباس.

● **علي بن عبد الله بن العباس:**

أمُه زرعة بنت مشرح بن معد يكـرب من كندة. وُلد ليلة قُتل علي بن أبي طالب سنة (٤٠) من الهجرة، فـسُمّيَ باسمه وكني بكنيـته أبي الحسن، وهو أصغـر أولاد أبيه، وكان سيداً شريفاً بليغاً، ويُقال: كان أجـمل قرشي على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة، وكان مفرطاً في الطول إذا طاف فكأنّما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله. وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالـشراة (وهي صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشُّوبك؛ وهو من إقليم البلقاء)، فأقام بهـا، وفيها وُلد أكثر أولاده، وكانت وفاته سنة (١١٧هـ).

وأعقـب على اثنـين وعشـرين ولداً ذكراً وإحـدى عشـرة أنثى. وذكـور أولاده هم: محمـد، وداوود، وعيسى، وسليمـان، وصالح، وأحمد، وبشـر، ومبشر، وإسمـاعيل، وعبد الصمد، وعبد الله الأكبر، وعبيد الله، وعـبدالملك، وعثمان، وعبد الرحمن، وعبد الله الأصغر، ويحيى، وإسحـاق، ويعقوب، وعبد العزيز، وإسماعـيل الأصغر، وعبد الله الأوسط. ستة منهم لا عـقب لهم، والباقون أعقبوا كـثيراً. ومنهم انتشر البـيـت العباسي

وكثر جدًّا، وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده.

• **محمد بن علي:**

هو: والد إبراهيم الإمام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية. وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك في حياة أبيه علي، ولكن لم يكن لأبيه ذكر في هذه الدعوة.

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد. فلنشرع في بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين؟ وكيف كانت الدعوة إليهم؟ وكيف تمكّنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلّها؟

❊ ❊ ❊

كيف نشأت فكرة الخلافة في بني العباس؟

تُوفي رسول الله ﷺ وليس يُؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده، وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده، فإن كانت فيهم، وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة. فامتنع من ذلك عليٌّ قائلاً: إنَّه إن منعنا إياها لا ننالها أبداً.

تُوفي رسول الله ﷺ والحال ما ذكرنا. فمال الجمهور الإسلامي إلى مبايعة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بعد المناظرات التي جرت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة. وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة في بني هاشم رهط النبي الأدنين. ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب، وكان من بني أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم علي بن أبي طالب. ومع أن العباس كان في ذلك الوقت أسن بني هاشم، لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علي بن أبي طالب؛ لمَا لعليٍّ من المزايا الكثيرة التي بيَّنَّاها فيما سبق. وكان علي نفسه، يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله ﷺ، وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه. ومن أجل ذلك، امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ. فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور، وبايع أبا بكر على ملإ من الناس.

عاش عليٌّ والعباس في عهد أبي بكر، ثم بايعا عمر، لما عَهِدَ إليه أبو بكر بالخلافة، وظلا مدة حياته محترمين مطيعين. إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عَهِدَ إليهم عمر اختيار الخليفة من بعده، وكان يرى أن رجال الشورى اتَّبع كثير منهم هواه في العدول عنه.

وفي أواخر خلافة عثمان، تُوفي العباس بن عبد المطلب تاركاً عقباً كثيراً، أشهرهم: عبد الله بن عباس، وهو ثاني أولاده، ولم يعلم أن أحداً منهم كان يتطلع إلى الخلافة، أو يأمل أن تكون له أو لأحدٍ من أولاده.

بعد مضي ست سنوات من خلافة عثمان، وجدت حركة في بعض النفوس تتجه إلى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب، وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الأمصار الإسلامية الكبرى؛ وهي الكوفة، والبصرة، والفسطاط. وتذرَّعُوا إلى ذلك بالعيب

في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها. وكان من في مصر يكتب إلى من في المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس، فيقول الناس: أما نحن، ففي عافية مما ابتلي به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملأوا البلاد طعناً. و لما وجدوا لذلك ارتياحاً من بعض النفوس، انتقلوا من ذلك إلى الطعن في عثمان نفسه، فنسبوا إليه أموراً؛ منها ما هو غير صحيح، ومنها ما هو صحيح. وقد فعل أسلافه مثله، فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن، وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة، على ما قصدوا إليه.

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة، ممن تأثر بهذه الفتن، فذهبت إلى المدينة وهي حرم رسول الله ﷺ وحاضرة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة الإسلامية، متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه، ولان لهم جدّاً؛ حتى لا يوجد لهم سبيلاً إلى الفتنة، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم، وسار كل وفد في الطريق التي توصله إلى مصره. وبعد أيام، عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقاباً لهم وتنكيلاً، والكتاب مختوم بخاتم عثمان. فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته، وهو صادق في يمينه، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياهم فأبى، فأعلنوا العداء وصرَّحوا بما في أنفسهم من الشرّ، وحصروا عثمان في داره مدة، ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلماً وعدواناً، ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كرّ الأيام.

بعد أن تم لهم ما أرادوا، عرضوا الخلافة على عليّ بن أبي طالب، فقبلها بعد تردّد. أمضى ـ رحمه الله ـ حياته في حرب مخالفيه في البصرة والنهروان وصفين، ولم تصف له الخلافة يوماً واحداً إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان سنة (٤٠) من الهجرة في حاضرة خلافته، وهي الكوفة.

كان الجمهور الإسلامي في ذلك الوقت، قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان، حيث كان في بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر. أمَّا الكوفة، فكانت مقرّاً لشيعة عليّ ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط، بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً. ومع هذا، فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص، بل كثيراً ما أهملوا أوامره التي كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام. ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن.

لما قُتِلَ ـ رحمه الله ـ، رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحسن ـ وهو السيد العظيم الشأن ـ: أبوه علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ. وقد رأى ـ رضي الله عنه ـ بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم، ففضَّل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة، مفضلاً جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله ﷺ، وأقام على ذلك حتى تُوفي بها سنة (٥٠) من الهجرة.

وظلَّ معاوية يسوس الناس بما عُرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت، وخبت نار التشيع، إلاَّ أنها كانت مستكنة في أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد، فلما تولاَّها، هبَّت أعاصير الفتنة في المدينة ومكة والكوفة.

فأمَّا المدينة: فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار، ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المري الذي أوقع بأهلها وقعة الحرَّة المشهورة.

وأمَّا مكة: فعاذ بها عبد الله بن الزبير، طالباً الخلافة لنفسه.

وأمَّا الكوفة: فإنَّ مَنْ بها من الشيعة، أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن علي شقيق الحسن؛ ليبايعوه بالخلافة، وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد، فلم يكن من الحسين إلا أن لبَّى دعوتهم، مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به. فقابلته ببعض الطريق، جنود عبد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام، فلم يكن له قِبَل بمدافعتهم، وقُتِلَ ـ رحمه الله ـ بكربلاء. ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة، بل ظلُّوا في مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول:

لا ألفينك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي

انتهت هذه الحوادث، ومات يزيد، وعظم أمر ابن الزبير، ودخل في دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق، وأبى أن يبايعه رجال بني هاشم الذين كانوا بمكة؛ كمحمد بن علي المشهور بـ «ابن الحنفية»، وعبد الله بن عباس وغيرهما، فاضطهدهم وحبسهم.

ظهر في تلك الأوقات، رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً في البلاد العراقية، مستعيناً بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو

المختار بن أبي عبيد الثقفي. فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن علي، وداعياً إلى الإمام المهدي، وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه، أكبر أبناء علي - ﷺ -، وتوسَّل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقًّا كانت أم كذباً، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب؛ لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة، وأرسل إلى محمد بن علي ـ وهو مضطهد محبوس بمكة ـ جنداً يخلّصونه من شدته، فنجحوا. واجتمع في حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن الزبير، ولواء لبني أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن علي؛ إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضاً.

لم يطل حبل المختار بالكوفة، فإنَّ عبد الله بن الزبير جهَّزَ له جيشاً يقوده أخوه مصعب، فسار إليه. ومالأه أكثر أشراف أهل العراق؛ لمّا ظهر لهم من أكاذيب المختار، وسوء طويّته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب، إلا أن ذلك لم يقض على التشيع في بلاد العراق، بل ظلّ كامناً ينتظر من يثيره؛ لينتفع به.

أمَّا محمد بن علي: فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقرَّ له الأمر وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة، لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة، إلا أنه مغلوب على أمره، حتى أنَّه لما مات، غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال: إنه تغيَّب وسيرجع، وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري:

ألا إنَّ الأئمة من قريش	ولاة الحقّ أربعة سواء
علي والأئمة من بنيه	هم الأسباط ليس بها خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي، فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته ـ كما قلنا ـ. ومنهم من تولَّى بعده ابنه أبا هاشم، ويُقال لهذا الفريق والذي قبله: الكيسانية؛ يُنسبُون إلى كيسان، وهو لقب للمختار بن أبي عبيد.

ومنهم من تولَّى بعد الحسين ابنه عليًّا، المعروف بـ «زين العابدين»، وهو ممن بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان، ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه. قال هؤلاء: إن الخلافة محصورة في أولاد عليّ من فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، ولما كان الحسين هو الذي

قُتل دون الخلافة، فهي في عقبه؛ وعليّ هو الذي بقي من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون: إنَّ عليًّا هو الوصي، أوصى إليه رسول الله ﷺ بالخلافة، ثم الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم عليّ... وهكذا، لا بد للأمَّة من إمام منصوص عليه، ويُقال لهؤلاء الشيعة: «الإمامية».

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت: علي بن عبد الله بن عباس، وهو الذي انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والتي أنزله بها الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ علي هذا، ويُقال: إنَّ السبب في ذلك، أنَّ أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب، لما حانت منيته، كان مقيماً بالحميمة عند بني عمّه، فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أولياءه به، فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس.

أمَّا بقية الشيعة: فإنَّهم بعد وفاة علي زين العابدين، افترقت بهم الطرق. فمنهم من تولَّى بعده محمداً الباقر، زاعمين أنَّه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال: إنَّ الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي ابن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بني أمية، هم: الشيعة الكيسانية الذي ساعدوا علي بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيداً وابنه يحيى.

وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر، في زمن متقارب بالحميمة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ لأنَّ أباه أوصى إليه. وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة إلى ذوي الحق فيها ـ حسب رأيهم ـ.

أمَّا الشيعة الزيدية: فقد دعاهم إلى النصر، زيد بن علي. فقاموا بنصرته؛ حيث خرج بالكوفة، طالباً الخلافة، إلا أن بني أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التي أودت بحياتهم بعد؛ فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفأوا ثورته وقتلوه وصلبوه. وثار بعده ابنه يحيى، فكانت خاتمته خاتمة أبيه.

أمَّا محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم. فإنه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت، لا بد أن يُسبَق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل، وأن كل محاولة فجائية، لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير في

المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم، فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً؛ خوفاً من بني أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عُرِفَ، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة، هي الكوفة وبلاد خراسان. أمَّا الكوفة: فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم، فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان: فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين:

الأول: أن فكرة التشيع، يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة؛ لأنَّ مؤداها، نقل الخلافة إلى بيت النبي ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس.

الثاني: أن البلاد الفارسية، كانت ذات تاريخ وملك قديمين، ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدّين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم في دولة بني أمية. قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب «البلدان»:

(وقد كان محمد بن علي بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار: أما الكوفة وسوادها، فشيعة علي وولده. وأما البصرة وسوادها، فعثمانية تدين بالكف، تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة، فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى. وأمَّا أهل الشام، فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم. وأمَّا مكة والمدينة، فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإنَّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد، فإنِّي أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق).

* * *

تأليف الجمعية السريَّة للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية، وعلي بن عبد الله بن عباس حيٌّ لم يمت بعد؛ لأنها ابتدأت في أوائل القرن الثاني، وعليّ لم يمت إلا سنة (١١٧هـ) على قول، وسنة (١١٤هـ) على قول. وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

● **وجعل للدعوة مركزان:**

أحدهما: بالكرفة: التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى علي بن عبد الله.

والثاني: بخراسان: التي هي محل الدعوة الحقيقي، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً، وهم:

١ ـ سليمان بن كثير الخزاعي.

٢ ـ مالك بن الهيثم الخزاعي.

٣ ـ طلحة بن زريق الخزاعي.

٤ ـ عمرو بن أعين الخزاعي.

٥ ـ عيسى بن أعين الخزاعي.

٦ ـ قحطبة بن شبيب الطائي.

٧ ـ لاهز بن قريظ التميمي.

٨ ـ موسى بن كعب التميمي.

٩ ـ القاسم بن مجاشع التميمي.

١٠ ـ أبو داوود خالد بن إبراهيم الشيباني.

١١ ـ أبو علي الهروي شبل بن طهمان الحنفي.

١٢ ـ عمران بن إسماعيل المعيطي.

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليهم محمد بن عليّ كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها.

وقد ظلَّ رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني إلى سنة (١٣٢هـ)، وهي السنة التي تم فيها النجاح، وبُويع فيها لأبي العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين:

الأول: عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة: وذلك قبل أن ينضم إلى القوة أبو مسلم الخراساني؛ وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه، ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان، وذلك نحو (٢٧) سنة.

والعصر الثاني: عصر استعمال القوة مع الدعوة: حينما تهيَّأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

* * *

العصر الأول
(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧هـ)

● ● العصر الأول للدعوة:

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية، ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة، حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة؛ لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان، سافروا حجاجاً. وكانت إقامة محمد بن علي بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان سنة (١٠٢هـ)؛ حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، الذي يقال له: سعيد خذينة، وقال له: إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجار. قال: فما هذا الذي يُحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري. قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا. فسأل: من يعرف هؤلاء؟ فجاء أُناسٌ من أهل خراسان، جلّهم من ربيعة واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم، وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه فخلّي سبيلهم.

وفي سنة (١٠٥هـ): انضم إلى هذه الجمعية، بكير بن ماهان، وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها، وكان موسراً، فساعد القوم بماله. وصادف أن تُوفي في ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن علي مقامه، فكان هو ربان هذه الدعوة، يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التي لحقت بهم: أنهم وُشِيَ بجمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان، وهو والٍ شديد قاسٍ، فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي، فقطّع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصَلَبَهم، وأفلت عمار العبادي حتى أتى الكوفة، فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم، فكتب به إلى محمد بن علي فأجابه: «الحمد لله الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستُقتل»، وقد وقع بعد ذلك عمار العبادي في يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد الله أشدّ ولاة خراسان على الشيعة، فكان لا يرحم أحداً منهم وقع في يده، بل شرَّد بهم ونكَّل ونفى من نفى وقتل من قتل، ولذلك لم يكن للدعوة في أيامه كبير أثر حتى عُزل عن خراسان سنة (١٠٩هـ)، وتلك ولايته الأولى. ثم ولي خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى. ففي سنة (١١٧هـ): أخذ جماعة منهم، فقتل بعضهم، ومثَّل ببعضهم، وحبس بعضهم. وكان فيمن أُخذ: سُليمان بن كثير شيخ الدعوة، ومالك ابن الهيثم، وموسى بن كعب، ولاهز بن قريط، وخالد بن إبراهيم، وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء. فأتى بهم فقال: يا فسقة! ألم يقل الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[1]؟ فقال سليمان بن كثير: أتكلّم أم أسكت؟ قال: بل تكلَّم. قال: نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شرق ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تدري ما قصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير: إنَّا أناس من قومك (اليمن)، وإنَّ هذه المضرية إنَّما رفعوا إليك هذا؛ لأنَّا كنا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم، وإنَّما طلبوا بثأرهم.

فانظر كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية في أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحياناً وقد كان ذلك الجواب سبباً في خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبّر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا، وكانت وفاة أسد سنة (١٢٠هـ)، فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك في العالم الإسلامي، ما كان له أعظم الفضل في نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فلّ حدّهم، وذلك:

أولاً: انشقاق البيت الأموي حتى تزعزع بنيانه وتصدَّعت أركانه، وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك واستعان على ذلك بالقدح في الوليد ونسبته إلى العظائم من الفسوق والكُفر وإحلال ما حرَّمَ الله، فكان معه قوم ساعدوه على ذلك، وكان بعض بني أمية يتمثَّل بقول الشاعر:

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامي ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تغني ولا جزع

---

(١) المائدة: ٩٥.

ولَمَّا تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح، انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان، فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه، وقال في ذلك الكتاب: «أما بعد، فإنَّ هذه الخلافة منَّ الله على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلَّدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم، فلم يزالوا أهل رعاية لِمَا استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحقّ، فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود، وقام بذلك من أشعل ضرامها، وإن كانت القلوب عنه نافرة. والمطلوبون بدم الخليفة، ولاته من بني أمية، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لا مردَّ له. وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى، فإني مطرق إلى أن أرى غيراً فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعي قوم أسكن الله طاعتي قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعاً وللنقمة دولة تأتي من الله ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان، غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزاري وأضربهم بسيفي جارحاً وطاعناً يرمي قضاء الله في ذلك حيث أخذ أو يرمى في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقي إلا لما أنتظر مما يأتيني عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك، فإنَّ الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً».

وكان مروان في ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق في هذا البيت ولا شبهة أنَّ انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً في قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانيا: ظهور العصبية القومية في خراسان، وانشقاق القبائل العربية؛ وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين: قحطان، ونزار. وملك العرب القديم كان في اليمن، فلما جاء الإسلام، تحوَّل إلى نزار؛ لمكان رسول الله ﷺ منهم، وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية، فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم، فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمَّة قبلهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم.

ولما طال الزمن، تراجع الناس إلى شيء مما كانوا عليه في الجاهلية؛ بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبّتها، وظهر ذلك في

أقوال شعرائهم التي لها أثر شديد في أنفسهم. وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك. فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدي:

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة دهماء ملتجة غياطلها
يمسي السفيه الذي يعنف بالجهـ ـل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته في وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم.
كان بخراسان واليان مختلفان، جاء أحدهما بعد الآخر.

فأمّا أولهما: فهو أسد بن عبد الله القسري وهو من اليمن، فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قويّة إلى قوة الدولة نفسها، فلم يكن هناك ما يهيجه.

وثانيهما: نصر بن سيار، وهو من كنانة، ثم من مضر. فكان ضلعه من قومه، إلا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك، وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذي ولاّه يعلم ذلك، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد، كان مستشاره يسمّي له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذامّ، فلما جاء ذكر نصر بن سيار، قال: إن اغتفرت له واحدة، فإنه عفيف مجرَّب عاقل، قال هشام: وما هي؟ فقال المشير: عشيرته بها قليلة، فقال هشام: أتريد عشيرة أكثر مني أنا عشيرته؟ وهذه جملة صحيحة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين. فأمّا بعد الانصداع، فليست بصحيحة.

ظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا، بين النزارية واليمانية، وكان رئيس النزارية وكبيرهم: نصر بن سيار الأمير، وكبير اليمانية: جديع بن شبيب المعني المعروف بالكرماني، وإنّما عُرف بذلك؛ لأنه ولد بكرمان. وكان نصر والكرماني قبل ذلك متصافيين، إلا أن

الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية، فرَّقت بينهما، وكانت النزارية أيضاً منشقَّة. فربيعة في جانب، ومضر في جانب. وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فكانت هذه الفِرَق الثلاث متعادية.

حصلت حروب بين نصر والكرماني، وكانت القوة للكرماني، فأجلى نصر عن مرو حاضرة خراسان، فهدم اليمنيون دور المضرية، فقالت امرأة من ضبة، وهي أم كثير الضبية:

لا بارك الله في أنثى وعذبها ... تزوجت مضرياً آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذلّ والفقر
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعيدوا رجال الأزد والظهر
إنِّي استحيت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزوني يجبيكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمني والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو ... تقضي في الحكومة ما تشاء
يجور قضاؤها في كل حكم ... على مضر وإن جار القضاء
وحمير في مجالسها قعود ... ترقرق في رقابهم الدماء
فإن مضر بذا رضيت وذلت ... فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلاَّ ... فحل على عساكرها العفاء

في أثناء وقوع هذه الحوادث، توفي محمد بن علي، إمام الشيعة الذي يدعون إليه، وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك، فقاموا بالدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفي بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة، فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال، وأصله مولى لبني الحارث بن كعب، وكان صهراً لبكير ابن ماهان، فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم في تلك الأوقات، شاب من نوابغ الشباب وذوي المقدرة والعزيمة، وهو أبو مسلم الخراساني، وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلي، اشتراه منه بكير بن ماهان، وعنه تلقَّى أصول التشيع، ثم اتصل بمحمد بن علي سنة (١٢٥هـ)، ثم بابنه إبراهيم، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم ، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق، فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة،

وكتب إلى أصحابه: إنّي قد أمَّرْتَه بأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله، فإنّي قد أمَّرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك، وكان مما أوصى به أبا مسلم، قوله:

«يا عبد الرحمن، إنك رجلٌ منّا أهل البيت، فاحفظ وصيتي. وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم، فإنَّ الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم. وانظر إلى هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً، فافعل. فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه، وإن أشكل عليك أمر، فاكتف به مني».

وإنَّما أمره بتقريب أهل اليمن؛ لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك. ولهذا السبب، أوصاه بالشدَّة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة. ومما يدلّ على اعتماد بني العباس على أهل خراسان دون العرب، قول الإمام: (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربيا فافعل). سار أبو مسلم مزوداً بهذه الوصية حتى حلَّ بخراسان، وذلك سنة (١٢٨هـ)، وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيَّأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة، ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه: (إنّي قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث ألقاك كتابي ووجه إلى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم)، فعاد أبو مسلم إلى مَرْو مستعداً للعمل.

●● دور العمل:

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مَرْو يُقال لها: «سفيذنج»، وهناك بث دعاته في الناس ليجتمعوا إليه، فانثال إليه الناس، وكان ذلك في رمضان سنة (١٢٩هـ)، ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً وعقد الراية التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(1). ولبسوا السواد الذي جُعِلَ شعاراً للدولة العباسية، وقدم على أبي مسلم الدعاة من أهل مَرْو بمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم: أن أمر برم حصن «سفيذنج» وأقام به هو ومن معه، ولما حضر عيد الفطر سنة (١٢٩هـ)، أمر سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبراً

---

(١) الحج : ٣٩.

في العسكر وأمره أن يبدأ الصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ الخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوساً في الجمعة والأعياد. وأمَرَهُ أن يكبّر ست تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسادسة، ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن، وكانت بنو أمية تكبّر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد، وفي الثانية ثلاث تكبيرات. ولما تمت الصلاة، انصرف هو ومن معه إلى طعام أُعِدّ لهم مستبشرين.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له: (أما بعد)، فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر أقواماً في القرآن، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1]. فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه، أن وجه إلى أبي مسلم مولى له اسمه يزيد في خيل عظيمة، فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي، فالتقوا بقرية تدعى «آلين»، وكانت بين الفريقين موقعة، انتهت بانتصار الشيعة وأُسِر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح. فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيَّره بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته، وأن يرجع إلى مولاه سالماً، ويعطي عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم، وأن يقول فيهم ما رأى. فاختار الرجوع إلى مولاه، وقال أبو مسلم لمن معه: إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاة، فإنّا ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر، فقال له نصر: لا مرحباً بك، والله ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجَّة علينا، فقال يزيد: هو والله ما ظننت وقد استحلفوني ألاّ أكذب عليهم وأنا أقول: إنهم يصلُّون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ، وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرق، ما رجعت إليك ولأقمت معهم.

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبي مسلم، ووجدت الدعوة في قلوبهم مكاناً صالحاً، فضاقت عليه «سفيذنج» فرحل إلى «الماخوان» وهي قرية كبيرة من قرى «مرو»

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

كانت للعلاء بن حريث ولأبي خالد بن عثمان، فحصنها وخندَقَ حولها، وكانت عدة من معه في الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب، تشدّ أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق ـ كما قدَّمنا ـ وكان الكرماني قد قُتِلَ في إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن «مرو» وخلفه في قيادة اليمانيين ابنه «علي» فكتب نصر إلى شيبان الحروري يقول له: إن شئت فكف عني حتى أقاتله، وإن شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه، ثم نعود إلى أمرنا الذي كنا عليه، فهمَّ شيبان أن يفعل، ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام، فأرسل إلى علي بن الكرماني يقول له: إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان، وإنَّما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرماني على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه، فأرسل نصر إلى شيبان: إنك لمغرور وايم الله، ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرني بجانبه.

وفي أثناء ذلك، كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبي مسلم، أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة، فأجاب إلى ذلك، وتوادعوا سنة. بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرماني يهيجه بأخذ الثأر، فقال: إني ما صالحت نصراً، وإنَّما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور، ولا أدع قتاله. فعاود القتال، وأبى شيبان أن يعينه، وقال: لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرماني إلى أبى مسلم يستنصره. وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إنى معك على نصر ، فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذي ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعاً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا، وأمر مسلم متكلمي الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان، فإن السلطان في مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود، فعل الشيعة ما أُمِرُوا به، فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبَّأه لهم الغيب.

بذلك ظفر أبو مسلم ظفراً عظيماً، فإنه فرَّق كلمة العرب، بعد أن كادت تجتمع عليه، فقام من الماخوان في جمادى الأولى سنة (١٣٠هـ)، يريد مرو. وأرسل إليه ابن الكرماني أن ادخل حائط مرو من قبلك وادخل أنا وعشيرتي من قبلي، فأرسل إليه أبو مسلم: أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربي، ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب، فدخل ابن الكرماني وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو، فدخلها. وأعقبه أبو مسلم. دخل والقتال دائر بين ابن الكرماني ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو:

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[1]، ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة، وهرب نصر مستخفياً.

صفَت مرو لأبي مسلم، وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها. ونص البيعة: (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم). وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحروري يدعوه إلى بيعته، فأبى. وسار عن مرو إلى سرخس، فوجه إليه أبو مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قُتِلَ فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه. وبعد نيل هذا الانتصار، عمد إلى ابني الكرماني علي وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما.

صفَت خراسان كلها لأبي مسلم، فبعث العمال إلى جميع الولايات، وأمر أحد قواد قحطبة بن شبيب أن يتبع نصر ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالري ومات بساوة، فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الري، فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل، ثم سير قحطبة ابنه الحسن، فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر، ثم فُتحت وتلاها شهر زور الموصل. سار قحطبة بعد ذلك واغلاً في بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربي الفرات على نحو (٢٣) فرسخاً من الكوفة، وقبل أن تقع الموقعة الكبرى، مات قحطبة، فولي إمرة الجيش ابنه الحسن، وكان قحطبة قبل موته قد قال: إذا قدمتم الكوفة، فوزير آل محمد أبو مسلمة الخلال، فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة، فسار منها حتى أتى واسطاً. وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة، خرج منها محمد بن خالد القسري مسوداً فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة، فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها في المحرم سنة (١٣٢هـ)، وسلَّم الأمر لأبي سلمة الخلال، فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً. ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى. وبعث المهلبي وشراحيل إلى

---

(١) القصص : ١٥.

عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز، وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

●● افتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ، ولا يعلم السرّ إلا النقباء والدعاة. أما العامة: فمبلغ علمها، أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبي مسلم جواب كتاب لأبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلّم بالعربية بخراسان، فأرسل مروان في الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر وقبض على إبراهيم، ولما أحسّ إبراهيم بما يُراد به، نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبي العباس، وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس. أما إبراهيم، فحُبِس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني أمية، ولم يزل في سجنه حتى مات. وكيفية موته مبهمة. اختلف فيها المؤرخون. فمنهم من قال: إنه سُقِي سمًّا، ومنهم من قال: هدم عليه بيت، فمات. ومما قيل في رثائه:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني	قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم	بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته	وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة	لكن عفا الله عمن قال آمين

وأمًّا أهل بيته، فتجهَّزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة (١٣٢هـ)، ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يُعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد، فأنزلوهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة، وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويُقال: إنه لما سبر أحوالهم، عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر، عبد الله المحض بن حسن بن حسن، وعمر الأشرف زين العابدين. وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال له: اقصد أولاً: جعفر ابن محمد، فإن أجاب، فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالقِ عبد الله المحض، فإن

أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب، فالق عمر. فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال: ما لي ولأبي سلمة وهو صنعة لغيري؟ فقال له الرسول: اقرأ الكتاب، فقال جعفر لخادمه: أدن السراج مني، فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجيبه، فقال: قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبّله وركب في الحال إلى جعفر، وقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان، فقال له جعفر: ومتى صار أهل خراسان شيعتك أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته، فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : كأن هذا الكلام منك لشيء ، فقال جعفر . قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإنَّ هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك، فانصرف عبد الله من عنده غير راض. وأما عمر بن زين العابدين، فإنه ردَّ الكتاب وقال: أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة، فأحبطوا ما أراده، وذهبوا إلى الكوفة، فقابلوا أبا العباس، وسلموا عليه بالخلافة، ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا، وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى، فترتب عليه ما يأتي ذكره.

خرج أبو العباس يوم الجمعة (١٣ ربيع الأول)، فصلّى بالناس، وكان في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه، أن افتخر بقرابته من رسول الله ﷺ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم، ثم قال: «وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محل محبّتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن عليّ، ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح». وبهذه الجملة الأخيرة لُقِّبَ السفاح.

كان السفّاح إذ ذاك، موعوكاً. فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر وصعد داوود بن علي عمه وكان من أفصح بني العباس، فخطب خطبة جاء فيها: «إنَّا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً، وإنّما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم، لكم ذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ

وذمة العباس - رحمه الله - أن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله ﷺ».

ثم منّى الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهم. وقال في آخر خطبته: «ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه».

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة، خرج السفاح إلى القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلّى بهم العصر، ثم صلّى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبوالعباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داوود بن علي.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ، بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي بالجزيرة، وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة، ومنها سار حتى أتى الموصل، فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن علي ليكون قائداً للجنود التى اختيرت لحرب مروان، وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى - وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق - وكانت الواقعة شديدة جدًا انتهت بانتصار عبد الله وجنده، فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله، وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة (١٣٢هـ)، وكان مع مروان من الجنود (١٢٠ ألفاً) من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها. انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه أبان مسوداً مبايعاً له ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين، وعبد الله يتبعه، ثم مضى منها إلى حمص، ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فلما أحسّ باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقُتِل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قُتِل.

مرّ مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط، ومنها خرج إلى بوصير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سويف.

أما عبد الله بن علي، فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في

ملاحقة مروان، فسار صالح في ذي القعدة سنة (١٣٢هـ)، وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر. ومن هناك، سار حتى أتى بوصير، وهناك قُتل مروان ابن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة (١٣٢هـ). وبقتله، انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأمَّا يزيد بن عمير بن هبيرة، فإنَّه لما انهزم من جيش خراسان، أتى واسطاً وتحصَّن بها، وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يُقتل أو يظفر وحذروه واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل، فخالف تلك الشورى فسيَّر أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر، أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين، وظلُّوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة، قُتل مروان ابن محمد وطلب من معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر، حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأي أبي جعفر: الوفاء له بما أعطاه. وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له: إنَّ الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تمَّ الكتاب، خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر، فدخل عليه وحادثه ساعة، وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة، ومداد الأمان لم يجف، وقتل معه عدة من وجوه أصحابه، ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي، بقوله:

منع العزاء حرارة الصدر ... والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت ... بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر أن عرضت ... دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل أمرهم بفتى ... مثل النجوم حففن بالبدر
عالي نعيهم فقلت له ... هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا ... أن قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم ... أو من يسد مكارم الفخر
فإذا ذكرتهم شكا ألماً ... قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنهم ... إلا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم ... خير الحماة ليالي الذعر

وبِقَتْلِ ابن هبيرة، انطفأ مصباح للدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية، ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، ومكّن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس، وسنأتي على وصفه بعد أن نبدي ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة.

قامت هذه الدولة باسم الدين. والسلاح الذي استُعْمِلَ فيها للتأثير في العقول هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان؛ الذين وصفهم الدّاعُون بما شاؤوا من صفات النقص والبُعد عن الدين، ووضعوا في ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدِّثين.

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها.

اختار القوم لغرس دعوتهم بلاداً كانت قبل مهداً للتشيع وحب آل البيت وهي الكوفة وخراسان، فقديماً قامت بلاد العراق بنصر علي بن أبي طالب وقامت لتثأر بالحسين بن علي وجاهدت في نُصرة زيد بن الحسين وابنه يحيى، فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها، ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقاً لقوتهم وأذاعوا في ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك. وكان الذين دخلوا في الإسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة؛ لأنهم لا يفرّقون بين خلافة ومُلك، وكان الْمُلك عندهم ينال بالإرث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة، فمن عارضها فيه، فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة. فإذا أُلقي إليهم في التعاليم أن بني أمية غصبوا أهل بيت النبي حقهم، سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بني أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم. ولهذا كان من الوصايا التي بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية: (إن قدرت ألا تُبقي بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل)، وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة، وإنّما لُوحظت فيها الفوائد العاجلة.

وفوق ما تقدّم، كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم، وكانت لها السيادة على أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن، ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالي للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم، فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة، يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ. وتأثير هذا السبب في الخاصة أكثر منه في العامة، فهذا النزاع كان في الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بني

أمية وبني العباس وحدهم.

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي أحيته العصبية الجاهلية، وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين. وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك. على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة، كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة. وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء، متى رأوا مصلحتهم في إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم، وعملوا بذلك، يزول بسرعة ملكهم.

استعمل في الوصول إلى إحياء الدولة العباسية، عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التي أُلقيت إلى أبي مسلم: (واقتل من شككت فيه). ولا يخفى أن حزم أبي مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم، فلم يكن يتأخّر لحظة في قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه. وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً. وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً، فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم، وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام، سهّلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته، واستحقُّوا بذلك ما حلاهم به محمد بن علي بن طباطبا في كتابه المعروف بـ «الفخري في الآداب السلطانية»، قال: اعلم أن الدولة العباسية، كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر، وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدّة.

❋ ❋ ❋

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات، وطولها ـ على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بـ «البشاري» في كتابه الموسوم بـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ـ (٢٦٠٠ فرسخ)، وتمتد عرضاً من شاطئ بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة إلى أقسام كبرى، وكل قسم يشتمل على ولايات. وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

١ ـ جزيرة العرب، وتشتمل على أربع كور جليلة:

الأولى: الحجاز، وقصبته مكة، ومن مدنه: طيبة، وينبع، والجار، وجدة، والطائف وغيرها.

الثانية: اليمن وما كان نحو البحر، فهو غور واسمه: تهامة، وقصبته زبيد، وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء.

الثالثة: عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند.

الرابعة: هجر وقصبتها الأحساء.

ويتبع اليمن من النواحي: الأحقاف وبها من المدن حضرموت، ومهرة وبها من المدن الشحر. ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر. ويتبع الحجاز: وادي القرى، وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها الله قياماً للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم. وبها طيبة: وهي مهاجر رسول الله ﷺ ومبعث النور الإسلامي.

أمة هذا القسم عربية محضة، تتكلَّم اللسان العربي إلا بصحار، فإنَّ نداءهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجدة فُرْس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية: التشيع ببلاد اليمن، والخوارج بعمان وهجر، والسُّنَّة فيما عداهما.

وبشمال هذا القسم: بادية العرب، وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل، قليلة الجبال، كثيرة العرب، مخيفة السبل، خفيفة الطرق، طيبة الهواء، ردية الماء، ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق، ولا مدينة إلا تيماء، وفيها اثنا عشر طريقاً توصل إلى مكة؛ منها تسع طولاً يؤدين إلى مكة، وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام. وبها طريق آخر لوادي القرى يؤدي إليها من البصرة، ثم إلى مصر. وهذ الطرق، هي:

١ ـ طريق مصر.
٢ ـ طريق الرمة.
٣ ـ طريق الشراة.
٤ ـ طريق تبوك.
٥ ـ طريق وبير.
٦ ـ طريق بطن السر.
٧ ـ طريق الرحبة.
٨ ـ طريق هيت.
٩ ـ طريق الكوفة.
١٠ ـ طريق القادسية.
١١ ـ طريق واسط.
١٢ ـ طريق وادي القرى.
١٣ ـ طريق البصرة.

وقد أجاد وصف هذه الطرق: «البشاري» في كتابه «أحسن التقاسيم»، (ص٢٤٩) وما بعدها. فراجعه.

٢ ـ إقليم العراق، وبه ست كور:

الأولى: الكوفة وقصبتها الكوفة، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: القادسية وعين التمر.

الثانية: البصرة وقصبتها البصرة، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: الأبلة وعبادان.

الثالثة: واسط وقصبتها واسط، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: فم الصلح.

الرابعة: المدائن وقصبتها المدائن، وهي مدينة كسروية، وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة: حلوان وقصبتها حلوان، وبها من المدن: خانقين والسيروان.

السادسة: سامراء وقصبتها سامراء، وبها من المدن: الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى في القديم: إقليم بابل، وهكذا كان اسمه في التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمَّا هذا الإقليم نبطية، دخل عليها العرب في بلادها، فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية، وأصح لغاتهم الكوفية؛ لقربها من البادية وبُعدهم عن النبط. وأمَّا البطائح، فنبطٌ، والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا

منهم بأي إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة، وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق، والغساسنة بالشام، إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك، بل كانوا تحت رعاية الفُرس والروم. فلما جاء الإسلام، اتسق لهم الملك بالإقليمين، وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن (١٢٥ فرسخاً)، وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان (٨٠ فرسخاً)، فإذا كسرته كان (١٠٠٠٠ فرسخ).

٣ - إقليم الجزيرة، جزيرة أقور أو أثور أو أشور، وهي ما بين دجلة والفرات، وبها ثلاث كور:

الأولى : ديار ربيعة، وقصبتها الموصل. ومن مدنها: الحديثة، وسنجار، ونصيبين، ودارا، ورأس العين، وثمانين، وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية: ديار مضر وقصبتها، الرقة، وبها من المدن: باجروان، وحصن مسلمة، وحران، والرُّها.

الثالثة: ديار بكر، وقصبتها آمد. وبها من المدن: ميافارقين، وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سُمِّيت كورة بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربيًّا محضاً؛ لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم. وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤ - إقليم الشام، وبه ست كور:

الأولى : قنسرين، وقصبتها حلب. ومن مدنها: أنطاكية، وبالس، وسميساط، ومنبج، وقنسرين، ومرعش، وإسكندرية، ومعرة النعمان.

الثانية: حمص، وقصبتها حمص. ومن مدنها: سلمية، وتدمر، واللاذقية، وأنطرسوس.

الثالثة: دمشق، وقصبتها دمشق. ومن مدنها: بانياس، وصيدا، وبيروت، وطرابلس.

الرابعة: الأردن وقصبتها طبرية. ومن مدنها: صور، وعكا، وبيسان، وأذرعات.

الخامسة: فلسطين، وقصبتها الرملة. وبها: بيت المقدس، وعسقلان، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وأريحا، وعمان.

السادسة: الشراة، وقصبتها صفد. ومن مدنها: مآب، وعمان، وتبوك، وأذرح.

وهذا الإقليم، دخله العرب قبل الإسلام، وملكوا به، وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام، كان مهداً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الإسلامية، ولغة أهله عربية.

وحدود هذا الإقليم: من الشمال بلاد الروم، وكانت المدن التي على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها: الثغور، وعندها يكون الجهاد لردّ غارة الروم وحفظ البلاد الإسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان.

وبهذا الإقليم: بيت المقدس، وهو ثالث المساجد المقدسة، بناه سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ حينما كان ملكاً على بني إسرائيل، واحتفل في بنائه كثيراً، ويعظمه جميع الأديان من موسوي وعيسوي وإسلامي.

٥. إقليم مصر، وبه سبع كور على حسب التقويم القديم:

الأولى: الجفار، وقصبتها الفرما. وبها من المدن: البقارة، والواردة، والعريش.

الثانية: الحوف، وقصبتها بلبيس. وبها من المدن: مشتول، وفاقوس، وغيرهما.

الثالثة: الريف، وقصبتها العباسية، وبها من المدن: دمنهور، وسنهور، وبنها العسل، وشنطوف، ومليج، والمحلة الكبيرة، ودقهلة.

الرابعة: إسكندرية وقصبتها إسكندرية. وبها من المدن: رشيد، ومريوط، والبرلس، وذات الحمام.

الخامسة: مقدونيا وقصبتها الفسطاط. ومن مدنها: العزيزية، والجيزة، وعين شمس.

السادسة: الصعيد وقصبتها أسوان. وبه من المدن: قوص، وإخميم، والبلينا، والفيوم وغيرها.

السابعة: الواحات.

وأمة هذا الإقليم، كانت في القديم مصرية قبطية، ساكنها كثير من الأمم التي ملكتها كاليونان والرومان، وغيرهم. وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها.

ولما جاء الإسلام، جاءها كثير من العرب الفاتحين، فأقاموا في مدنها الكبرى، ثمّ جاءت قبائل كثيرة من قيس في عهد الدولة الأموية، وأقامت بالحوف (الشرقية)، ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط، فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربي والدين الإسلامي، وذلك بعد تملك الدولة العباسية.

أمّا أول عهدها: فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم.

٦ . إقليم المغرب، وهو ثماني كور:

الأولى : برقة، وقصبتها برقة. وبها من المدن: رمادة، وطرابلس.

الثانيـــة: إفريقية، وقصبتها القيـروان. وبها من المدن: أسفاقس، وسوسة، وتونس، وبونة، وجزيرة بني زغناية، ومنستير.

الثالثـــة: تاهرت، وقصبتها تاهرت. وبها من المدن: مطماطة، ووهران وغيرهما.

الرابعـــة: سلجماسة، وقصبتها سلجماسة. وبها من المدن: درعة، وأمصلى، وتازروت.

الخامســـة: فاس، وقصبتها فاس. وتسمى هذه الكورة: «السوس الأدنى». وأمّا فاس، فمحدثـة بعد عهد العبـاسيين. ومن مدنـها: البصرة، وورغة، وصـنهاجة، وهوارة، وسلا.

السادسة: السوس الأقصى، وقصبتها طرفانة. ومن مدنها: أغمات، وماسة وغيرهما.

السابـعـة: الأندلس، وقصبتها قرطبة. وكانت لعهد بني أمية تتبع أمير إفريقية، وعليها والٍ من قبله.

وهذا الإقـليم كان يـسكنه قـبل الإسلام، البـربر. وساكنـهم فيه كـثير من الـرومان والويزيغوط الـذين ملكوا المغرب قبل الإسـلام. فلما جاء الإسلام، دخله الـعرب الفاتحون وزاحموا البربر، إلا أنهم لم يكثروهم؛ لقتلهـم. ولم يكثر العنصر العربي بها إلا بعد ذلك في منتصـف القرن الخامس. فأمة هذا الإقـليم الغالبة علـيه لهذا العهد، بربـرية. واللسان الغالب هو اللسان البربري.

٧ . إقليم المشرق، وهو إقليم ذو جانبين:

الأول: في الشرق، وهو ما كان شرقي جيحـون أو أموداريا، ويسمى بما وراء النهر أو هيطل.

والثاني: في الغرب، وهو ما كان غربي جيحون، ويسمى خراسان.

أ ـ مـا وراء النـهـر. قال البشاري: (هـذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكـثرها خيراً وفقهاً وعـمارة ورغبة في العلـم واستقامة في الـدين وأشد بأساً وأغلظ رقـاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب في الجماعات مع يسار وعفّة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم).

وبهذا القسم ست كور:

الأولـــى : فرغانة، وقصبتـها أخسيكت. ومن مدنها: نصرابـاذ، وأوزكند، ومرغينان وغيرها.

الثانيـــة: أسبيجاب، وقصبتها أسبيجاب. ومن مدنها: فاراب، وترار، وطراز، وبلاسكون وغيرها.

الثالثـة: الشاش، وقصبتها بنكث. ومن مدنها: نكث وغيرها.

الرابعـة: أشروسنة، وقصبتها بنجكث.

الخامسـة: الصغد، وقصبتها سمرقند، وهي مصر الإقليم.

السادسة: بخارى، وقصبتها بخارى. ومن مدنها: بيكند.

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم، ويتشعب منه أنهار كثيرة، ويقلب فيه أنهار ستة، وعليه كور ومدن. فالكور هي: الختل، وقصبتها هلبك. ثم قواديان، ومدينتها نير. ثم خوارزم وهي على حافتي جيحون، قصبتها العظمى شرقي النهر، وهي كاث، ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية، وعلى النهر من المدن: ترمذ، وكالف، ونويدة زم، وفربر، وآمل.

ب ـ خراسان، وبها تسع كور:

الأولى: بلخ، قصبتها بلخ، وبها ناحية طخارستان. ومن مدنها: ولوالج، والطالقان.

الثانيـة: غزنين، وقصبتها غزنين. وبها من المدن: كابل.

الثالثـة: بست، وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها: كابلستان.

الرابعـة: سجستان، وقصبتها زرتج.

الخامسـة: هراة، وقصبتها هراة. ومن مدنها: باذغيس.

السادسة: جوزجانان، وقصبتها اليهودية.

السابعة: مرو الشاهجان، وهي القصبة، وبها ناحية مرو الروز.

الثامنـة: نيسابور، والقصبة إيرانشهر. وبها من المدن: بيهق، وطوس، ونسا، وأبيورد.

التاسعـة: قهستان، وقصبتها قاين.

وهذا الإقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية، وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيَّدُوا صرحها، ومعظمهم كان شيعة لهم. أمَّا أهل ما وراء النهر، فجلّهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين. وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا في عهد الدولة الأموية. وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي العامل من قِبَل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم

وما يأتي بعد من الأقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامي شملهم، فصار منهم أمة إسلامية قادرة، عمّها العلم ـ ولا سيما الديني ـ، ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدِّثين والعلماء في العلوم كافة.

قال البشاري في «أحسن التقاسيم»: (وألسنتهم مختلفة. أما لسان نيسابور، ففصيح مفهوم، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء، وفيه رخاوة ولجاج. وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفي كلام سجستان تحامل وخصومة، يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملاً وطولاً ومدًّا في أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح. ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة...) إلى آخر ما قال.

٨ ـ إقليم الديلم، وبه خمس كور:

الأولى: قومس، وقصبتها الدامغان. ومن مدنها: سمنان، وبسطام.

الثانيــة: جرجان، وقصبتها شهرستان. ومن مدنها: أستراباذ، وآبسكون.

الثالثــة: طبريستان، وقصبتها آمل. ومن مدنها: سالوس، وسارية.

الرابعــة: الديلمان، وقصبتها بروان.

الخامسة: الخزر، وقصبتها أتل. ومن مدنها: بلغار، وسمندر. وبهذه الكورة نهر أتل.

وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا في عهد الدولة العباسية، ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية.

٩ ـ إقليم الرحاب، وهو ثلاث كور:

الأولى: أران، وقصبتها برذعة. ومن مدنها: تفليس، وشروان، وباب الأبواب، وملازكرد.

الثانيــة: أرمينية، وقصبتها أردبيل. ومن مدنها: مدليس، وخلاط، وخوى، وسلماس، وأرمية، ومراغة، ومرتد، وقاليقلا.

الثالثــة: أذربيجان، وقصبتها أردبيل. ومن مدنها: تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة، فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم، ويخترقه نهر الكرد، وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس، وبه نهر الرس، ونهر الملك. ولم يفش الإسلام بهذه البلاد، إلا في عهد الدولة العباسية، اللغة العربية به قليلة.

١٠ . إقليم الجبال، وبه ثلاث كور:

الأولى : الري، وقصبتها الري. وبها من المدن: آوه، وساوة، وقزوين، وأبهر.

الثانيـة: همذان، وهي القصبة ومصر الإقليم.

الثالثـة: أصفهان، وقصبتها اليهودية.

١١ . إقليم خوزستان، ويعرف بالأهواز، وبه سبع كور،وهي:

الأولى : السوس، وهي تتاخم العراق والجبال.

الثانيـة: جنديسابور، وهي القصبة، وكانت مصر الإقليم.

الثالثـة: تستر، وهي القصبة، وليس بالإقليم أجلّ منها.

الرابعـة: عسكر مكرم، وهي القصبة. وبها من المدن: جوبك، وزيدان، وسوق الثلاثاء.

الخامسـة: الأهواز. وبها من المدن: تيرى، ومناذر الكبرى، ومناذر الصغرى.

السادسة: الدورق، كورة تتاخم العراق. من مدنها: آزر، وأجم وغيرهما. وقصبتها الدورق.

السابعة: رامهرمز، كورة تتاخم فارس، وهي القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يُعرف باللسان الخوزي.

١٢ . إقليم فارس، وبه ست كور:

الأولى : أرجان، وهي القصبة.

الثانيـة: أردشير خرة، وقصبتها سيراف. وهي ممتدة على البحر.

الثالثـة: درابجرد، وهي القصبة. وكانت في القديم مصر الإقليم.

الرابعـة: شيراز، قصبتها على اسمها. وهي مصر الإقليم. وبها من المدن: البيضاء، وفسا.

الخامسـة: سابور، وقصبتها شهرستان. ومن مدنها: كازرون، والنوبندجان، وتوز.

السادسة: أصطخر، وهي أوسع الكور. وقصبتها على اسمها.

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد، وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها.

١٣ . إقليم كرمان، وبه خمس كور:

الأولى : بردسير، وقصبتها على اسمها. ومن مدنها: ماهان، وكوغون، وزرند.

الثانيــة: نرماسير، وهي القصبة.

الثالثــة: السيرجان، وقصبتها على اسمها. وهي مصر الإقليم.

الرابعــة: بم، وهي تتاخم فارس.

الخامسـة: جيرفت، وهي على البحر.

١٤ ـ إقليم السند، وبه خمس كور:

الأولى : مكران، وقصبتها بنجبور.

الثانيــة: طوران، وقصبتها قصدار.

الثالثـة: السند، وقصبتها المنصورة. ومن مدنها: ديبل.

الرابعــة: ويهند، والقصبة اسمها.

الخامسـة: قنوج، وهي القصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران، وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح.

فهذه أربعة عشر إقليماً، منها ستة عربية وثمانية أعجمية. والمراد بكونها عربية: تغلب اللسان العربي على أهلها، وإلا فأصل إقليم العرب هو جزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقي عن مصروفها، وذلك شيء عظيم.

هذا هو الملك الطويل العريض الذي ورثه العباسيون بهمَّة شيعتهم من أهل خراسان. وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التي بيَّنَّاها، بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يُضَمّ إلى إقليم آخر حسب الأحوال.

ففي بعض أيام بني أمية، قد جمع العراقان وفارس كلها لوالٍ واحد كما كان الحجاج ابن يوسف، فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون، وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التي تحت يده. وفي بعض الأحيان كانت تضم إفريقية كلها إلى والي مصر ويرسل من قبله والياً على إفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوالٍ واحد، بل كان للحجاز والٍ ولليمن والٍ. أمَّا اليمامة وعُمان، فربما أضيفتا إلى والي العراق، كما كان الحجاج بن يوسف.

ونحن الآن شارعون في تفصيل أحوال بني العباس، وتبيين ما فعلوه في هذا الميراث مقارنين ذلك ـ عند اللزوم ـ بما كان عليه الحال في الدولة الأموية.

* * *

فصل
في ولاية العهد والبيعة

الأصل في انتخاب الخليفة، رضا الأمة. فمن ذلك يستمد قوته. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ. فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم. لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ. وبعد أن انتخبوه، بايعوه. ومعنى ذلك: عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله ـ سبحانه ـ، كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ. وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة، هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائع والمشتري، فإنهما كانا يتصافحان بالأيدي عند إجراء عقد البيع.

فمن هذه البيعة، تكون قوة الخليفة الحقيقية، وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة.

وقد سنَّ أبو بكر - رضي الله عنه - طريقة أخرى في انتخاب الخليفة، وهي: أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة. وقد وافق الجمهور الإسلامي على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه، وذلك العمل هو ولاية العهد.

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين: معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ، حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له، وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط. وقد بيَّنَّا في تاريخ الدولة الأموية، الأغلاط التي ارتكبها الأمويون في ولاية العهد، وأنها كانت من الأسباب التي قضت عليهم.

اتّبع بنو العباس في ولاية العهد، الأسلوب الذي سار عليه الأمويون، وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة، ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم؛ فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة. ولَمَّا سار هؤلاء سيرة أسلافهم، جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف ـ كما يتضح مما يأتي:

ولي السفاح عهده رجلين، يلي أحدهما الآخر؛ أخاه أبا جعفر المنصور، فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي. فلما تولَّى أبو جعفر وشبّ ابنه محمد المهدي، عزَّ عليه أن يلي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه، فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن

تكون رتبته تلو رتبة المهدي، فأظهر عيسى إباء، فساموه خطة لا يرضى بها إلا الذَّليل، حتى أظهرت ذات نفسه في شعر قاله، وهو:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا الله والرَّحم

ويُقال: إن أبا جعفر سقاه شراباً يتلفه، فكاد يموت منه، ولكنه أُبل من علته، فقال في ذلك شعراء الدولة:

أفلت من شربة الطبيب كما ... أفلت ظبي الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا ... ركب سهم الحتوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليـ ... ـث يريد الأسد في ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة ... تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه ... وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه، هذا ما كان من حُسْن أثر عيسى بن موسى في الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولي المهدي وشبَّ ابناه موسى وهارون، أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى، وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة؛ ليولي المهدي العهد ولده، فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدي من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولَّى ولديه موسى الهادي فهارون الرشيد.

جاء الهادي، فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم، فلم يفلح؛ لأنَّ الدفاع عن الرشيد كان قويًّا. وقربت منية الهادي، فأخَّرت النتائج السيئة. ويُقال: إنه مات مسموماً.

ولي الرشيد، ففكر في ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون، فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين؛ لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. والمأمون أمّه أمَةٌ جليبة من بلاد فارس، وكان ذلك العقد سنة (١٧٣هـ)، وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين، وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه، فعقد له سنة (١٨٣هـ). ثم طلب عبد الملك بن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد، ففعل. وسمّاه المؤتمن، وقسّم البلاد بين أولاده الثلاثة، فجعل الشرق للمأمون، وهو خراسان والري إلى همذان. وجعل

الغرب، للأمين، وهو المغرب ومصر والشام. وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم، فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر:

أقول لغمة في النفس مني ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذي للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فإنك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأي ... لقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
والقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
والبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجري من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم ... أغيّا كان ذلك أم رشادا

وحجَّ الرشيد بعقب ذلك، وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه، كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما؛ أحدهما: على محمد الأمين بما اشترط عليه الوفاء بما فيه، والآخر: نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة، والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده ووزرائه وكتّابه وغيرهم، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدَّم إلى الحجبة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، وقرئ الكتابان في داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر في العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد، ولكن طبيعة الملك غلابة. ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك في صدره ما حاك في صدر أسلافه، وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه، وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقوّاده بخراسان، فأباه طبعاً؛ لأنَّ من ورائه قوة تدفع عنه، وكان من جرَّاء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون، وتعطلت المسالك والدروب، وحصرت بغداد حصراً شنيعاً، وانتهى الأمر بخلع الأمين، ثم قَتْلَه. وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر

البلدان الإسلامية، ولو كانت لخصومهم من آل عليٍّ قوة منظمة، لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين.

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم، وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق، ومات الواثق عن غير عهد، فاختير للخلافة أخوه المتوكل. اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق.

جاء المتوكل وغلط غلطة جدّه الرشيد، فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة، وهم: محمد المنتصر بالله، ومحمد المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله، وعقد لكل منهم لواءين؛ أحدهما: أسود، وهو لواء العهود، والآخر: أبيض، وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر إفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسِّنْد ومكران. وأقطع ثانيهما: خراسان وما يُضاف إليها، وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس. وأقطع ثالثهم: جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين.

حذا هذا الرجل حذو جدّه مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق، ثم زاد الطين بلة، فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد، فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولَّى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته. فأمَّا المؤيد، فقابل ذلك بالسمع والطاعة. وأمَّا المعتز، فأبى، وقال: إن أردتم القتل فشأنكم، ثم أجاب بعد تهديد ووعيد. وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع: القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلي العهد. وأعقب ذلك موت المنتصر، فلم يتمتع بما استعجل به، فمات من غير عهد.

اختير للخلافة بعده، أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم، أخرجها الموالي عن أولاد المتوكل؛ خوفاً أن يفتكوا بهم؛ لقتلهم أباهم.

اختلَّ نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت؛ إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة، يولون من شاؤوا. وبعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره، حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم، فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل، وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفي، ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل

في الخلفاء حتى جاءت دولة بني بُوَيْه. وفي عهدهم، لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولّوا في عهدهم خلعوا، إلا أحمد القادر بالله، فإنه طال حكمه، وعهد من بعده إلى ابنه القائم.

بعد ذلك، تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار؛ حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة (٦٥٦هـ).

وخلاصة القول: أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب، وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة، ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أمَّا البيعة، فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع: أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ، ثم زيدت عليه أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً في أوائل عهد الدولة العباسية. ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللَّذيْن كتبهما الأمين والمأمون وحُفِظَا في البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم الأهمية:

أولاهما: طلاق المكره؛ لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين. وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره، وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين، وقد تغلَّب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية: إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات، بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة، وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح، ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز؛ كالشافعي محمد بن إدريس، وقد تغلَّب طبعاً رأي فقهاء العراق.

* * *

١ ــ السَّفَّاح

هو: أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارث. ولد سنة (١٠٤هـ) بالحميمة، وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها، وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم، ولما أحسَّ إبراهيم باقتراب منيته، عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة، فسار إليها وبُويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣٢هـ/ ٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩م)، وكان مروان لا يزال حيًّا، ثم قُتِل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢هـ/ ٥ أغسطس ٧٥٠م). ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة (سنة ١٣٦هـ/ ٩ يونية سنة ٧٥٤م)، فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بُويع إلى أن مات، وأربع سنوات وأربعة عشر يوماً من لدن قُتِل مروان.

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥م)، وكان يملك فرنسا في عهده بابن بيراف من العائلة الثانية الكارولونجيانية. ابتدأ ملك أبي العباس بالكوفة، ومنها انتقل إلى الحيرة، ثم إلى الأنبار، ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة؛ لأنهم كانوا يتشيَّعُون لآل أبي طالب.

●● الأحوال الداخلية:

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين، فإنه كان لا يزال في الأمة العربية قوَّاد ضلعهم مع بني أمية، ولا يزال عندهم شيء من القوة، فكانوا يثورون؛ إما خوفاً على أنفسهم من بني العباس، الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبيهم، وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر، فقضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة، ولا سيما بالشام والجزيرة، والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصَّن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها.

من الناس من إذا أظفر بخصومه، قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم، ولعمري إن ذلك لمن عزم الأمور، وليس يكون إلا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنّما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة. فأمّا من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فُرْقَة رعيته، فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد.

انظروا إلى ما فعله رسول الله ﷺ حينما ظفر بخصومه من أهل مكة، وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده، ثم جرَّدُوا السيوف لحربه وهيَّجُوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته. إنهم فعلوا ذلك. لكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة، قال لهم: ما تظنون أنّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم! فقال لهم كما قال يوسف الصديق: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

أمّا بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلا في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى. فعل ذلك السفّاح بالعراق، وعبد الله بن علي بالشام، ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداوود بن علي بالحجاز.

فأمّا السفّاح: فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني» بسنده قال: كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي، فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، بالباب رجلٌ حجازي أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك، قال: هذا مولاي سديف يدخل، فدخل. فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله، حسر اللثام عن وجهه، وأنشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديماً ... والرؤوس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأسٌ منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والأتعاس

(١) يوسف: ٩٢.

خوفهم أظهر التودد منهم . وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس
والإمام الذي بحران أمسى رهن قبر ذي غربة وتناسي

فتغيَّر لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة، فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال: يا بني الفواعل أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذَّذون بالدنيا، خذوهم. فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات فأهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداوود بن علي فأجاره واستوهبه من السَّفَّاح.

وهذا عمل شنيع جدّاً ولولا تضافر الروايات بالحادثة، لما تحملنا عناء تسطيرها، وقد بلغ الضعف الإنساني حدَّه بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة. وهؤلاء أعداؤهم بالأمس يخافون أن يكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة.

ودخل سديف هذا على السَّفَّاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان، فقُتِل. ومما قاله سديف هذا يهيج السَّفَّاح:

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوهم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وترات
والإمام الذي أصيب بحرا ن إمام الهدى وراس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأمَّا عبد الله بن علي، فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام، تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذوهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم، ولما فرغ من قتلهم، قال:

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض

إن كان غيظي لفوت منكم فلقد ... منيت منكم بما ربي به راضي

ولم يكفه ذلك، بل عمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك، فإنه وجد صحيحاً لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح.

وأمّا سليمان بن علي، فإنه قتّل بالبصرة جماعة منهم، أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقُتِلُوا وجُرّوا بأرجلهم فقتلوا على الطريق.

وأما داوود بن علي، فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً، وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بني هاشم وعدد من بني أمية، فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... ولا أمية بئس المجلس البادي
كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبني من هاشم أحد ... فيما أقول ولو أكثرت تعدادي

فشمّر عن ساعده في قتل الأمويين حتى لم يُبق أحداً؛ إرضاءً لشهوة الانتقام التي تمكّنت من قلوب بني العباس، ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية.

ومما قيل من الكلام في رثاء هؤلاء التعساء، ما قاله مولاهم عبد الله بن عمر الغبلي:

تقول أمامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الأعين النعس
أبي ما عراك؟ فقلت الهمو ... م عرون أباك فلا تبلسي
لفقد الأحبة إذ نالها ... سهام من الحدث المبئس
رمتها المنون بكل نكل ... ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها المتلفات النفو ... س متى ما تصب مهجة تخلس
فصرعاهم في نواحي البلا ... د ملقى بأرض ولم يرمس
تقي أصيب وأثوابه ... من العيب والعار لم تدنس
وآخر قد دس في حفرة ... وآخر قد طار لم يحس
إذ عن ذكرهم لم ينم ... أبوك وأوحش في المجلس
فذلك الذي غالني فاعلمي ... ولا تسألي بامرئ متعس

أذلـوا قـنـاتـي لـمـن رامـهـا وقـد ألـصقـوا الـرغـم بـالمعـطـس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة، سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته، وكانت تناصي في العلو والاحترام خلافة بني العباس في المشرق على صغر رقعتها.

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بني أمية سوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، فلما رأى أنه لا يكون في قبيلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدي حرمه بنفسه وصار إلى سليمان بن علي بالبصرة، فقال سالماً: أصلح الله الأمير، لفظتني البلاد إليك، ودلّني فضلك عليك، فإمّا قبلتني غانماً وإما رددتني سالماً، فقال: ومن أنت؟ ما أعرفك، فانتسب له، فقال سليمان: مرحباً بك اقعد نتكلم آمناً غانماً، ما حاجتك؟ فقال: إن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه، فدمعت عينا سليمان ثم قال: يا ابن أخي يحقن الله دمك ويحفظك في حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكنني ذلك في جميع أهلك لفعلت، فكن متوارياً كظاهر وآمناً كخائف ولتأتني رقاعك، فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان إلى السفاح: (يا أمير المؤمنين، إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا وإنّا إنّما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف، والرحم تبل ولا تقطع وتُرفع ولا توضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فيجعل كتاباً عاما إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا)، فأجابه إلى ما سأل، فكان هذا أول أمان بني أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلاً واطمأن من جهتهم بآل السَّفَّاح، ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحاً لا يمكنه رتقه، وهو: وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربي من قارة أوروبا.

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم، بل نال أولياءهم منها شيء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان، الذي كان يُقال له: وزير آل محمد. لما تم الأمر لبني العباس، اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب، وكانوا يريدون قتله، لكنهم أحبُّوا مشاورة أبي مسلم في ذلك، فبعث السَّفَّاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك ، فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلمة، فقال: أكفيكموه، ثم

انتدب رجلاً وأمره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لأبي سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة في طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عمّاله بفارس، هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الأثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته، بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة.

وفي هذا الوقت، اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبي سلمة، وهو: سليمان بن كثير، الذي قال في حقه إبراهيم الإمام: (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أُشكل عليك أمر فاكتف به مني)، فأحضره وقال له: أتحفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، قال: فإني قد اتهمتك، فقال: أنشدك الله، قال: لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غش الإمام، فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حُسن أثره.

وعلى الجملة، فإنَّ حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بني أمية، والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في إخلاصه، فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال المخالفين.

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة، ثلاثة رجال:

١ ـ أبو مسلم الخراساني بالمشرق.

٢ ـ أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ ـ عبد الله بن علي بالشام ومصر.

فهؤلاء الثلاثة، كانوا أساطين دولته، وعلى أيديهم كان كل ما يجري فيها من خير وشر، إلا أن هؤلاء الثلاثة، لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض، فإن أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر في ذلك، وكان السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة. وعبد الله ابن علي كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح؛ لمَا له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة، وأنه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بني أمية، وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر. فكانت هذه الأفكار سبباً في حوادث جسام سيمرّ بكم ذكرها.

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح، فكتب إليه يستأذنه في الحج، وأذن له.

ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبي مسلم موسم الحج، أرسل إلى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج، ففعل، وأذن له. وبطبيعة الحال، ولاه الموسم. ولم يكن لأبي مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبي جعفر عليه، وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته، حيث قال: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا؟

ولما وصل أبو مسلم الأنبار، قال السفاح: لولا أن أبا جعفر أرسل إليَّ يستأذني في الحج هذا العام، لوليتك الموسم. وقد حجَّ في هذا العام وهو سنة (١٣٦هـ)، فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حسد أبي جعفر له، وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به.

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبني أعمامه. وكان في عهده من الإصلاح الداخلي ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة، وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين، وهكذا. وقد جعلوا في الطريق مناراً به يأمن السارون الضّلال في تلك الفيافي. وهو عمل عظيم.

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح: الكوفة أولاً، ثم انتقل منها إلى الحيرة، ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار، ونقل إليها دواوينه وهي التي بات فيها.

●● ولاية العهد:

في سنة (١٣٦هـ)، عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين، ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي، وكتب العهد بذلك، وصيّره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى، وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا، الغلطة الشنيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة.

●● وفاة السفاح:

أُصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار، وتوفي بها في (١٣ ذي الحجة ١٣٦هـ)، ودُفِنَ بالأنبار في قصره، وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

❋ ❋ ❋

٢ ـ المنصور

هو: أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي، وأمه أم ولد اسمها سلامة. وُلد بالحميمة سنة (١٠١هـ)، ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة، كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس، كان عضده الأقوى، وساعده الأشد في تدبير الخلافة. وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس، عقد العهد لأخيه أبي جعفر، وكان إذ ذاك أميراً على الحج، ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له، فلقيه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي تُوفي فيه أخوه (٨ يونية سنة ٧٥٤م)، واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد ـ سابع ذي الحجة (سنة ١٥٨هـ ـ ٨ أكتوبر سنة ٧٧٥م)، فكانت خلافته (٢٢ سنة) هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ ـ ١٧٢هـ).

ويعاصره في فرنسا بابن ببراف، ثم شرلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤م)، ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

■■ الأحوال في عهد المنصور:

تولَّى المنصور الخلافة، ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة ـ دولة الأمويين؛ لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها، وإنَّما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر، لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس؛ لأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذي أمَّره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزو بهم الروم، وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.

الثانية: من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة، فإنه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه أمراً ولا حكماً ومثل المنصور في علو نفسه لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبي مسلم، على أن

هناك أمراً آخر ربما كان يدور بخاطره، وهو: أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلاً آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه، فيعود الأمر لأهل فارس.

الثالثة : وهي أقوى هذه الجهات الثلاث : خوفه من بني عمه آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين، وأخصهم: محمد بن عبد الله بن حسن ابن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب؛ لِمَا سيأتي بيانه. فكان المنصور يتخوَّف أن يخرج عليه طالباً بالخلافة والذي كان يزيد هواجسه أنه عام حج في حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد الله مع من شهده من سائر بني هاشم.

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبُعْد الهمة : المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعا .

● عبد الله بن علي:

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن علي، ببيعة المنصور، وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران، وقد علم بذلك المنصور، وقد نزل الأنبار وجمع بها خزانته ودواوينه، فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله، فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع إليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة [١] وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلاً فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عدداً كبيراً فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم. ومما دلَّ على قلة حزمه: أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد في الدولة العباسية، فأراد أن يستريح منه، ولكنه لم يجرؤ أن يقتله في المعسكر؛ خوفاً من تغير الجند، فكتب له كتاباً ووجَّهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم. وفي الكتاب: إذا قدم عليك حميد، فاضرب عنقه، ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة، فك الكتاب في الطريق وقرأه. ولما علم ما فيه، دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم، وقال: من أراد منكم أن ينجو ويهرب، فليسر معي فإني أريد أن آخذ طريق العراق، ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير، فلا يفشين سري وليذهب حيث أحبّ، فاتّبعه على ذلك ناس من أصحابه، وبذلك فقد عبدالله قائداً محنكاً مثل حميد.

---

(١) العلوفة : بالفتح هى الناقة أو الشاة تعلفها ولا ترسلها فترعى. كما فى مختار الصحاح .

ترك عبد الله مدينة حران وأقبل إلى نصيبين فاتخذها معسكراً ، وحصّنها فأقبل إليه أبو مسلم، وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره، فأراد أن يحتل موقع عبد الله لحصانته، فكتب إليه: لم أومر بقتالك ولم أوجه له، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام، وإنَّما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلي على عبد الله؛ لأنه يعرف مكايد خصمه، ولكن جند الشام الذين معه قالوا له: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا، ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا، فقال لهم عبد الله: والله ما يريد الشام، وما وجه إلا لقتالكم، ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبو إلا المسير إلى الشام. فارتحل عبدالله متوجهاً إلى الشام، وحينئذ تحوَّل أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن علي، ولما بلغ ذلك عبد الله، علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبي مسلم.

كان أهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدَّة، ولكن المركز الحصين الذي احتله أبو مسلم، عوَّض عليه كثرة عدوه، وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال، إلا أن القوة راجحة في معسكر أهل الشام، حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة (١٣٧هـ)، كانت بينهما الموقعة الفاصلة، وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربي فاكتسب الظفر، وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك، فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بإزاء ميسرة أبي مسلم، ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مُر أهل القلب فليحملوا مع من يبقى في الميمنة على ميسرة أهل الشام، فحملوا عليها فحطَّموها وجاء أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة.

وهنا فعل عبد الله بن علي فعلاً لا يليق بشرف بني هاشم وعلوّ اسمهم في ميادين القتال، فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الأبيَّة، فإما ظفر أو قتل، ولكن عبدالله قال لأحد قوَّاده: ما ترى؟ فقال: أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت، فإن الفرار قبيح بمثلك، وقبل عبت على مروان، فقلت: قبَّح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفرَّ إلى العراق تاركاً معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحداً وأمر بالكف عنهم.

أمَّا عبد الله، فإنَّه سار إلى البصرة ـ وكان أميرها أخاه سليمان بن علي ـ فآواه وأقام عنده مدة متوارياً، ولما علم المنصور بذلك، أرسل إلى سليمان يأمره بإشخاص عبد الله بن علي إليه وأعطاه من الأمان لعبد الله ما رضيه ووثق به، فخرج به سليمان حتى قدم به إلى

المنصور سنة (١٣٩هـ)، فأمر بحبسه وحبس من كان معه، ثم أمر بقتل بعضهم، وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقُتِلُوا هناك، واستمر عبد الله في محبسه حتى مات سنة (١٤٧هـ).

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذي كان على يده أكبر عمل في تأسيس الدولة العباسية، كما كان على يده أكبر الفظائع في إهلاك البقايا من بني أمية. ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التي يلجأ إليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التي تجلب الشر على أمنهم. فإنَّ المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التي أعطاها لعبد الله واستخفَّ بها كما استخفَّ بأمان ابن هبيرة قبل ذلك، كما أنا لا نحجم عن أن نقول: إن عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال، فإن طلاب العظائم إذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنيَّة لأنفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم.

● **أبو مسلم:**

استراح المنصور من عبد الله بن علي على يد أبي مسلم، فوجَّه الهمَّة إلى الراحة من هذا العدو الثاني الذي لا يطمئن على ملكه وهو حيّ؛ لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان في الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك، والذي زاد الأمر عنده: أنه قد ألقي إليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبي مسلم.

حصلت حادثة أوقعت الريبة في قلب أبي مسلم، وذلك أنه بعد تمام الهزيمة، أرسل المنصور من قبله رسولاً ليحصي المغانم التي غنمت من عبد الله، فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له: ما ذنبه، إنَّما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له، وقال: أأكون أميناً على الدماء غير أمين على الأموال، فعاد الرسول وأخبر المنصور، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه؛ لخوفه أن يمضي إلى خراسان، وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها. وليأمن من ذلك، كتب إلى أبي مسلم: (إني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب).

فلما جاء الكتاب أبا مسلم، غضب وقال: هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي وصمم على المضي إلى خراسان، وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف مريداً خراسان.

رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لإيقاع أبي مسلم في فخ ينصبه له حتى لا يثير حرباً شعواء لا نعلم نتيجتها، فتوجَّه إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم، بالمصير إليه فكتب إليه أبو مسلم: (إنه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك، كنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا (١) بنفسي). وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالاً في قلب المنصور؛ لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرناً للخليفة إذلالاً بمركزه وسابقته في إقامة دعائم الخلافة العباسية، فكتب إليه المنصور: (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنَّما راحتهم في انتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت في طاعتك ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لنسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتح عليك).

أُرْسِلَ هذا الكتاب مع عيسى بن موسى، ووجه معه أبا حميد المروزي، وأمره أن يكلم أبا مسلمَ بألين ما يكلم به أحداً وأن يمنِّيه فإن أبى قال له: يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سواي، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك.

سار أبو حميد حتى ورد على أبي مسلم، فكلَّمه كلاماً رقيقاً فيه نصيحة وتذكير بحقوق الإمام وتخويف من تفريق الكلمة، فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور؛ لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع في نفسه ما وقع، فقال لأبي حميد: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه وحينئذ بلَّغه أبو حميد الرسالة الأخيرة، فوجم لها أبو مسلم؛ لأنَّ هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوّهم،فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور، جعلته يخنع ويلين والذي زاده حيرة وارتباكاً ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذي يضعف آمال أبي مسلم من خراسان

(١) ضن بالشيء يضن بالفتح ، ضنا بالكسر وضنانة بالفتح أى بخل كما فى مختار الصحاح .

وجنودها، ذلك أنه كتب إلى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامة خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم، فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان: (إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه)، فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور، فزاده ذلك رعباً ولم يجد بُدّاً من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمماً على قتل أبي مسلم، ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمناً لا يحس بشيء من الجفاء، فلما قارب أبو مسلم المدائن، أمر الناس وبني هاشم فقتلوه حتى إذا دخل على المنصور وسلّم عليه سلاماً لا يشوبه شيء مخيف أمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة. ولما جاء الغد، أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة، فجاء بأربعة رجال من الحرس، وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق، فإذا هو صفق، خرجوا فقتلوا أبا مسلم. ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدّثه.

ومن تمام تدبيره: أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهما في متاع عبد الله بن علي، فقال: هذا أحدهما للذي هو معه، فقال المنصور: (أرنيه فانتضاه[١] وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه. وإنّما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر، ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه. وأخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما، فقال : دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه. ثم أراد أن يفرق الجمع الذي أقبل مع أبي مسلم فأعطاهم جوائز ألْهَتهم عن التفكير في الخلاف، ثم أرسل إلى القواد الذين في جيش أبي مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا.

وبقتل أبي مسلم، عرف المنصور، أنه ابتدأ سلطانه الحقيقي الذي لا يشارك فيه ولم يأس على أبي مسلم؛ لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه.

من الضروري أن ننبه الأفكار، إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم، انتهت حياتهم في الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم؛ وسبب ذلك: أن هؤلاء القواد يكونون في بادئ الأمر ذوي الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم؛ ~~لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع، وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم.~~ فإذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة، وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم، لم يكن لنفوذهم في الدولة حد يقفون عنده؛ لأنهم يرون الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه، فإذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكي الفؤاد، لم يسعه أن يحمل كل هذا، وإذا ألجأته الضرورة، حَمله على مضضٍ، وإذا أمكنته الفرصة، لم يتأخر عن انتهازها. وليس

---

(١) انتضاه : يقال: نضا سيفه أي سله كما في مختار الصحاح .

من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحاً عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها.

ومع ما بدا من أبي مسلم من العسف الشديد، لا نبخسه حقه ونتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام، ولو كانت الضحايا التي ذهبت في تأسيس الدولة أقل مما ضحى، لعددناه من كبار السواس، إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة في نظره كافية لإزهاق نفس المتهم، فمثل هذا نَصِفَهُ بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء، ولكن لا نصفه بحُسْن السياسة. وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعدما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله: أتذكر قول الإمام لي من اتهمته فاقتله. فإذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجباً، أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو إلى الريبة فيه واستحقاقه القتل، فهو إذا كان قادماً على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه. ولذا، لا يكون قتله محلاً للنظر والاستغراب: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] .

- **محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن علي:**

قدَّمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقاً ثلاثة:

فرقة : ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ، وهؤلاء: إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور، جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق.

وفرقة: ترى أن إمام المسلمين يكون من بين فاطمة، إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم، وهؤلاء: إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بني فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك، وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى.

وفرقة: ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة، وهم الذين نصروا بني العباس.

وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية، وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة؛ لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبي ﷺ، فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها، نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدّوهم غاصبين للأمر، كما عدوا بني أمية من قبلهم ـ وأعظمهم في ذلك رجلان:

أحدهما: جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضي بما تم ولم يحرك ساكناً، وكان يوصي أصحابه بالخلود إلى السكينة؛ لأنه لم ير فرصة معقولة.

وثانيهما: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهذا كان أطمع في الأمر لما زعموه من أن بني هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بني أمية، وكان ممن بايعه: أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعاً، إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم، فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبد الله الحارثي أمير المدينة: ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما، فضمنه إياهما وأبقاه عاملاً على المدينة. ثم إنه دعا بني هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول: يا أمير المؤمنين، قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن بن زيد بن حسن بن علي، فإنه أخبره خبره، وقال: والله ما آمن وثوبه عليك فرّ رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل، ليعرف الأخبار عن محمد، واستخراج ما عند أبيه عبد الله بن حسن من أخباره، ولما علم أن عبد الله يعرف نية ابنه، حجَّ سنة (١٤٠هـ)، وسأل عبد الله عن ابنيه، فأنكر أن عنده علم بهما، فتيقَّن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقاً في الحصول على محمد وإبراهيم، فعزله وولَّى بدله على المدينة، محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وبسط يده في النفقة في طلبه فأنفق كثيراً من المال في هذا السبيل، وبحث بحثاً كثيراً في المدينة وخارجها، فلم يصل إلى نتيجة، فعزله المنصور وأُشير عليه أن يولي المدينة رجلاً من آل الزبير؛ ليكون ما بين آل الزبير وآل عليّ من العداوة سائغاً له إلى البحث الشديد والجدّ في الأمر، فلم يرق هذا في عيني المنصور، وقال: أعاهد الله ألا أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكاً من صعاليك العرب، فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المري، فورد المدينة في شهر رمضان سنة (١٤٤هـ)، وهو عازم على عسف الأعراب الذين يستخفي محمد بن عبد الله عندهم، فكان أول شيء فعله، أن استهان بمحمد بن خالد القسري، الذي كان قبله والياً وعذَّبه هو وكاتبه، ثم أرهق محمد بن عبد الله طلباً حتى لقي شدائد، ما كان يراها في عهد أسلافه من ولاة المدينة، فقال في ذلك:

منخرف السربال [1] يشكو الوجى	تنكبه أطراف مر وحداد
شرده الخوف وأزرى به	كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في إرهاق محمد، فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلاً وحبسهم بالمدينة، ولما علم محمد بذلك، جاء إلى أمه هند، وقال لها: إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم، فتنكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول، فأذن لها، فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد، فقال: كلا بل نصبر، فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً، قُولي له: فليدع إلى أمره، وليجدّ فيه، فإنَّ فرجنَا بيد الله، فانصرفت وتم محمد على اختفائه.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة (١٤٤هـ)، فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم، أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو أخو بني حسن بن زيد بن حسن لأمهم، وأمهم جميعاً: فاطمة بنت حسين بن علي، وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته. فحملوا مقيَّدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق، فحبسوا بقصر ابن هبيرة، وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات. وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا طاقة للإنسان على تسطيره. و كان أعظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد، أن مات أكثرهم في الحبس مع أن بني العباس ملأوا الدنيا تهويلاً ورياءً بأنهم خرجوا انتقاماً من قتلة الحسين بن عليّ وزيد بن حسن ويحيى بن زيد. وهؤلاء إنَّما قُتلُوا في ميادين القتال وهم خارجون، ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل علي بالشكل الفظيع الذي ذهب به بنو حسن في عهد بني عمهم من آل العباس.

كانت نتيجة هذا الإخراج وهذه الفظائع: أن عزم محمد على الظهور بالمدينة، وتحدَّث أهلها بذلك، وعلم به رياح أمير المدينة، فأحبّ أن يعد عدته لذلك فعوجل. دخل محمد المدينة ومعه (١٥٠ رجلاً)، فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة، بل أعانوه وخذلوا رياحاً، وكان خروجه في أول يوم من رجب سنة (١٤٥هـ)، وبعد أن استولى على البلد، صعد منبر الحرم وقال: (أيها الناس، إنه كان أمرنا وأمرالطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً الله في ملكه

(١) السربال: القميص كما في مختار الصحاح.

وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنَّما أخذ الله فرعون حين قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين، اللهمَّ إنهم أحلُّوا حرامك، وحرَّمُوا حلالك، وأمنوا من أخَفْتَ، وأخافوا من أمنت، اللهمَّ فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. أيها الناس، إني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسي، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لي فيه البيعة).

وكان الذي أوقع محمداً في هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البقاع: أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول: لو التقينا مال إلي القواد كلهم، فهذا الذي جعله يظن هذا الظن. ومما زاده خطأ في قدر قوة نفسه: أنه كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يخرج بالبصرة في اليوم الذي يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبو جعفر؛ فيفتّ ذلك في عضده، ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم، لمرض أصابه، أو أن محمداً سبق الميعاد. والنتيجة: أنهما لم يخرجا معاً وأعظم خطر على الإنسان ما يصيبه من قبل فهمه في نفسه، فإنه إذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها، كان حرياً بالفشل والخيبة.

على أنه فضلاً عن ذلك كله ، جعل نفسه محصوراً بالمدينة، وهي ليست بمركز حربي يمكّن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلاً، وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً، فلم يكن محمد موفقاً في تدبيره مع ما كان يتحلَّى به من الخصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر، فإنهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم، بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً ويحب الخير للناس، وكان لذلك يلقب عندهم بـ «النفس الزكية»، وبـ «المهدي». ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة في الخروج مع محمد، وقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور، قال: إنَّما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعي، ولذا قال له محمد بن خالد القسري لما ظهر: إنَّك قد خرجت في هذا البلد، والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعاً وعطشاً، فانهض معي، فإنَّما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف، فأبى عليه ذلك. ولما علم المنصور بخروجه، قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان، خرج محمد، فقال: أين؟ قال: بالمدينة، فقال الربيع: هلك والله خرج في غير عدد ولا رجال.

(١) النازعات : ٢٤ .

كان للمنصور حين بلوغه الخبر مشتغلاً ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه؛ لأنَّ أهلها شيعة لآل علي ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد، فأقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، ثم أحب أن يراسل محمداً قبل الحرب، فكتب إليه كتاباً هذه نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد: فـ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ، إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف ألف درهم، وأن أنزلك من البلاد حيث شئت، وأقضي لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من في سجني من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه، فإن شئت أن تتوثق لنفسك، فوجّه إليَّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت، والسلام).

فكتب إليه محمد بن عبد الله: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن محمد: أما بعد: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[2]. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنَّما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً ـ عليه السلام ـ كان الوصي والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنَّا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً لم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلّى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهنّ وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين

---

(١) المائدة: ٣٣، ٣٤. (٢) القصص: ١ ـ ٦.

سيدا شباب أهل الجنة، ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليّا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل جدّي الحسن والحسين، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً أفأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدّا من حدود الله أو حقًا لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى للعهد منك وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت عليَّ فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟ والسلام).

فكتب إليه أبو جعفر: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعد: فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء، ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الولد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه - ﷺ -: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1]. ولقد علمت أن الله - تبارك وتعالى - بعث محمداً ﷺ وعمومته أربعة فأجابه اثنان؛ أحدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك، فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن، فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه، فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب، فإنّ الله لم يهد من ولدها أحداً إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك، فقال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2]. فأمّا ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد عليّا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله، فإنّ الله - عز وجل - أبى ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[3]. ولكنكم بنو ابنته، وإنها لقرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طالب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخين. ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله

---

(١) يوسف: ٣٨.

(٢) القصص: ٥٦.

(٣) الأحزاب: ٤٠.

ﷺ فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً، فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى، فكلّ دفعه عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أبوك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلّمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم شيء فقد بعتموه. فأمّا قولك: إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً، فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هيّن ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]:

وأمّا قولك: إنك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أما وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خيرٌ منك أولاً وآخراً وأصلاً وفضلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غدا وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله ﷺ أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك، ولقد علمت أن جدك عليًا حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه.
ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطبة كالسبي المجلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنّفناهم وكفّرناهم وبيّنّا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجّة وظننت أنّا لما ذكرنا من فضل عليّ أنّا قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلي أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرك في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته، فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حيًا إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب. وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أب رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب

(١) الشعراء: ٢٢٧.

بفضل القـديم والحديث، ولولا أن العباس أخرج إلـى بدر كرهاً لمات عماك طالـب وعقيل جوعاً أو يـلحسان جفـان عتبة وشيـبة فأذهب عـنهما العـار والشنار. ولقـد جاء الإسلام والعباس يموّن أبا طـالب للأزمة التي أصابتهم ثـم فدى عقيلاً يوم بدر فقدمنـاكم في الكفر وفديناكـم من الأسْرِ وورثنا دونكم خاتم الأنبـياء وحزناً شرف الآباء وأدركنا مـن ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام).

بعد هـذه المكاتبة التـي لم تجد إلا إظهار العـيوب،لم يكن إلا الجد فـي الأمر. وكان المنصور يتخـوَّف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسـان فتفسد قلوبهم، فكـان يعمِّي الأخبار عليهم. واختـار لمناضلة محمد عيسى بـن موسى، الذي كان السفاح جعلـه ولي عهد بعد المنصور، فقال عيسى للمنصور: شـاور عمومتك، فقال: امض أيها الرجل، فوالله ما يُراد غيري وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزوّد عيسى بوصية يحمد عليها، إذ قال: يا عيسى، إني بعثـتك إلى ما بين هذين ـ (وأشار إلى جنبيه) ـ فإن ظـفرت بالرجل، فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك بـه فإنهم يعرفون مذاهبه. وجهز المنصور الجيشَ أحسن جهاز، فلمـا وصل إلى فيد، بعث إلى رجال من أهل المديـنة في خرق من الحرير، فلما وردت كتبه المدينة، تفرَّق ناس عن محـمد، وخرج بعضهم إلى عيسى، ومنهم: ناس من آل علي.

ولما شعر محمد بـقرب عيسى بن موسى، خندق حول المدينـة. أمَّا عيسى، فإنه أهلَّ بجنوده حتى وصل إلـى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحـرس طريق مكة، حتى إذا أراد محمد الهرب إليـها، لم يجد طريقاً. وكان نزول عيسى علـى المدينة في (٢١ رمضان سنة ١٤٥هـ)، وقبـل اللقاء، قدم دعوة محمـد إلى الخضوع، فلم يجبـه. ثم دارت الموقعة بين الفريقين، وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهوراً عظيماً ولكن عدوه كان عظيماً فلم يـلبث أن قتل وظـهرت الأعلام السـوداء على مرتفـعات المدينة وعـلى منارة المـسجد النبوي، فسلَّم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وعند ذلك، أرسـل عيسى إلى أبي جـعفر ببشارة الـفتح وبرأس محمـد بن عبد الله، وأمن المدينة وأهلها. وفي (١٩ رمضان)، شخص يـريد مكة بعد أن قبض أموال بني حسن كلها. وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قُتِل، شهرين و (١٧ يوماً).

● **إبراهيم بن عبد الله:**

هو: أخو محمد. دخل الـبصرة، ودعا الناس سرّاً إلى أخيه، فبايعه كـثير من أهلها، وأجابه فتيـان من العرب. وكان أبو جعفر يظـن أنه خرج بها، فإنه لما بلغـه خروج محمد

بالمدينة، استشار جعفر بن حنظلة البهراني ـ وكان صاحب رأي ـ فقال: حصن البصرة؛ لأن محمداً ظهر بالمدينة، وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبـي طالب، فلم يبق إلا البصرة، فاهتم بإرسال الجنود وإقامة المسالح بين الكوفة والبصرة؛ لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم.

ظهر إبراهيم بالبصرة، واستولى عليها وعلى ما قرب منها والأهواز وواسط، ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر (سنة ١٤٥هـ) بثلاثة أيام، فصلَّى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار.

أرسل أبو جعفر إلـى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبـراهيم، فجاء مسرعاً وسار نـحو البصرة، وخرج إبراهيـم لملاقاته، فالتقيـا عند باخمرى وكانت الـعاقبة لعيسى، فقُتِل إبراهيم لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة (سنة ١٤٥هـ).

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبين خلقاً وأنظفهم تاريخاً، لم يعرف عنهما ما يشيـنهما (١) في معاملة الـناس، وفي صدق العزيمة، إلا أن الحظ خانهمـا. وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بني الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم، قال فيها:

(يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتـنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإنَّ أهل بيتي هؤلاء من ولد علـي بن أبي طالب، تركناهم والذي لا إلـه إلا هو والخلافة فلم نعرض لهـم فيها بقليل ولا كثير، فقام علي بن أبـي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان فافترقـت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عـليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقـاته فقتلوه. ثم قام من بعده ابنه الحسن، فوالله مـا كان فيها برجل قد عرضت عليه الأمـوال فقبلها فدس إليه معـاوية إني أجعلك ولي عهدي من بـعدي فخدعه فانسلخ لـه مما كان فيه وسلمه إلـيه فأقبل على النسـاء يتزوج في كل يوم واحدة، فيـطلقها غداً، فلم يزل عـلى ذلك حتى مات على فراشـه ثم قام من بعده الحسين بن عـلي فخدعه أهل العراق وأهل الكـوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق والفـتن أهل هذه المدرة السوداء ـ وأشار إلى الكوفة ـ فو الله ما هي بحرب فأحاربها ولا سـلم فأسالمها، فرَّق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه. ثم قام من بعده زيد بن علـي فخدعه أهل الكوفة وغروه، فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه، وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وقال: إنا نجد في بعض علمنا أن بعـض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا خائف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داوود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجـه فقُتِل وصُلب بالكناسة. ثم وثـب علينا بنو أمـية فأماتوا شرفنا وأذهـبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا تـرة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسـبب خروجهم عليهم

(١) يشينهما: يعيبهما.

فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقّنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فقرّ الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا ، وثبُوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ:

جهلاً علي وجبناً عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

إني والله يا أهل خراسان، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة. بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالاً، فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج عليّ فلا ترون أني أتيت ذلك على غير يقين).

ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾(٢):

وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد أبي جعفر بعد أن قُتل منهم من قُتل ومات من مات وحبس من حُبس. ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جريرالطبري: أن المهدي آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجته ريطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان. ا.هـ. هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور.

وكانت الطريقة التي تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بني أمية. فكان في كل ولاية والٍ يعينه الخليفة وأعماله هي إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو جباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس، وقد كان الوالي تسند إليه ـ أحياناً ـ هذه الأمور الخمسة، فيكون إمام القوم وقائد الجند، وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلاً للقيام بها ـ وأحياناً ـ يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر

---

(١) الأنعام : ٤٥ .

(٢) سبأ : ٥٤ .

مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قِبَل الخليفة رأساً.

ولم تكن الـولاية متعينـة العدد، بل تارة تضـم ولايتان إلى وال واحد، وتارة يـفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالي فكان أبو مسلم مثلاً والِياً لخراسان كلها وبلاد الري والجبـل وعليهـا ولاة من قبله. وكـان أكثر الولاة لـعهد المنصـور من أهل بيـته وممن اصطنعهم من العرب والموالي ولم يكونـوا يحبون أن تطول مدة الوالي في ولاية ـ ولا سيما في الأطراف كمصر وخراسان ـ؛ خوفا أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة. وقد حصلت من ذلك حوادث في خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته.

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذي هو صاحب الأمر المطاع، ومعينوه هم:

أولاً: الوزير.

والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم في عهد الدولة الأموية. وأول من سمي بها لعهد أبي العـباس السفـاح أبو سلمـة الخلال شيخ الدعـوة بالكوفـة، فقد كان يُعـرف بوزير آل محمد، وأصـله من مولى لبـني الحارث بن كعب، وكـان سمحاً كريماً مـطعاماً كثيـر البذل مشغـوفاً بالتنوف فـي السلاح والدواب، فصـيحاً عالماً بـالأخبار والأشعار والسـير والجدل والتفسير، حاضـر الحجَّة، ذا يسار ومروءة ظاهرة، وقد قدَّمنا خبر اتهـامه بالميل لآل علي. ومقتله بسبب ذلك، فقال شاعر في رثائه:

إن الوزير وزير آل محمـــد أودى فمن يشناك كان وزيـــرا
إن السلامة قد تبين وربمـــا كان السرور بما كرهت جديـرا

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولي المنصور، فكان في نفسه منه أشياء، فيُقال: إنـه سمَّه. والصحيح: أن السفاح اسـتوزر بعد أبي سلمة، خـالد بن برمك جد البرامـكة الذين ظهر مـجدهم في عهد هارون الـرشيد، وكان خالد مـن رجال الدعوة العباسية الذين أقـاموا دولتها، وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إلـيهم بيوت العبادة قبل شـيوع الإسلام بالبـلاد الفارسية، وهـو أول من اعتنـق الإسلام من أهل بيـته. وكان خالد، فاضلاً كريماً حازماً يقظاً، استوزر السـفاح، ويُقال: إنه لم يكن يتسمَّى باسم الوزير تطيراً مما جرى على أبي سلمة، فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً.

لما تولى المنصور، لم تكن للوزارة في أيامه أبهة ولا كبير قدر؛ لمَا كان موصوفاً به من الاستبداد بأموره، أبقى في وزارته خالداً مدة ليست بالطويلة، ثم أعفاه وولَّى:

● **أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد المورياني الخوزي؛**

وموريان: قرية من قرى الأهواز. كان في أواخر دولة بني أمية كاتباً لسليمان بن حبيب ابن المهلب بـن أبي صفرة، وكان المنصور في ذاك الـزمن ينوب عن سليمـان هذا في بعض كور فارس فاتهمه بأنه احـتجز مالاً لنفسه فضربه بالسياط ضرباً شـديداً وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب، فاعتدهـا المنصور يداً له فضلاً عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنـباهة فاستوزره المنـصور وخف على قلبه وتمـكّن منه وكان يخشى المـنصور جداً وترعد فرائصه إذا دعاه إليه.

روى ابن خلّكان: أن خالد بن يزيد الأرقط قال: بينا أبو أيوب جالس في أمره ونهيه، أتاه رسول المنصور فـتغيّر لونه، فلما رجع تعـجبنا من حالته، فضرب مـثلاً لذلك، وقال: زعموا أن البـازي قال للديك: ما في الأرض حـيوان أقل وفاءً منك، قـال: وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بـيضة فحضنوك ثم خرجت عـلى أيديهم وأطعموك في أكـفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت، صرت لا يدنو منك أحـد إلا طرت هـهنا وهـهنا وصوّت، وأخذت أنامسنا من الجـبال فعلموني وألفوني ثـم يخلى عني فآخذ صيداً فـي الهواء وأجيء به إلى صاحبي، فقـال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة فـي سقافيدهم المعدة للـشيء مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفر مني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكّن حالي.

وقد كان مـا خافه أبو أيوب، فإنَّ المـنصور غضب عـليه سنة (١٥٣هـ) وعـذَّبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبني أخيه سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً، وطالبهم، وكانت منازلهم المناذر، وقد قال في هذه النكبة أحد شعراء العصر:

قـد وجدنا الملـــوك تحسـد ... من تعطين طوعا أزمة التدبيـــر

فإذا ما رأوا له النهي والأمر ... أتـوه مـــن بأسهـــم بنكيـــر

شرب الكأس بعدــ حفـص ... سليمان ودارت عليه كف المدير

ونجا خالد بن برمك منهـــا ... إذ دعوه مـــن بعدها بالأميـــر

أسوأ العالمين حالاً لديهـــم ... من تسمى بكاتب أو وزيـــــر

وهذه الأبيات الـقليلة، تشـرح لنا ما كان يدور علـى ألسنة القوم؛ إذ ذاك فـي نكبات الوزراء التي لم تكن قـليلة، بل قلّما نجد في وزراء بني العـباس من سَلَم منها. ويقال: إن سبـب نكبة أبـي أيوب: سعـي أبان بن صـدقة كاتبـه به عنـد المنصـور. وكان موته سـنة (١٥٤هـ).

● الربيع بن يونس:

استوزر المنصور بعد أبي أيوب، الربيع بن يونس، كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان، من سبي جبل الجليل، ونشأ أولاده في الكتابة في عهد بني أمية، ولما جاءت الدولة العباسية، كان الربيع ممن يخدم المنصور، وكان كثير الميل إليه، حسن الاعتماد عليه، فكانت إليه الحجابة وهي من الوظائف الكبرى في الدولة، وسيأتي شرحها.

ولما قبض المنصور على أبي أيوب، استوزره بعد ، فظل في خدمته إلى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفاً بخدمة الخلفاء محبوباً عندهم ـ ولا سيما المنصور ـ، وكان جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور، مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال، حاذقاً بأمر الملك، بصيراً بما يأتي ويذر، محبًا لفعل الخير.

ولما مات المنصور بمكة، كان معه، وهو الذي أخذ البيعة للمهدي بعده، وكان ذلك مما جعل المهدي يبقيه على درجته التي كان عليها في عهد أبيه، إلا أنه كان حاجباً لا وزيراً، وكانت وفاته سنة (١٧٠هـ) في عهد الهادي، ويُقال: إنه سمّمه.

ثانياً: الحاجب:

وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدي الخليفة إلا بإذنه. وقد وُجدَ الحاجب في عهد بني أمية، وقد أحدثوه؛ لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع عليّ وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان مع ما في فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات، فاتخذوا من يقول لهم بذلك، وسموه «الحاجب». وقد روي أنّ: عبد الملك قال لحاجبه: قد وليتك حجابة بابي إلا من ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد. وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير في الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم.

وقد ظلت الحجابة في ارتقاء، كلما ارتفعت الحضارة. وقد سار خلفاء بني العباس على نمط بني أمية في ذلك، وكان للحاجب في عصرهم مرتبةٌ عليَّةٌ، وكثيراً ما كان يستشار في الأمور التي تنزل بالخلافة.

ثالثاً: الكاتب:

وهو الذي يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم. وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة، كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبدالله

قال له كاتبه: دعني أجبه عليها، فقال أبو جعفر: لا، بل أنا أجيبه عنها؛ إذ تقارعنا على الأحساب، فدعني وإياه. وأحياناً كان يتولى الكتابة الوزير.

رابعاً: صاحب الشرط:

وهو المحافظ على الأمن. وكان المنصور يختار صاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم. وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة، إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها، كانا يقللان من أهمية كل عامل.

خامساً: القاضي:

وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها، ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم؛ لأن منصب قاضي القضاة لم يكن أُنشئ بعد. ومن مشهوري قضاة المنصور: محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى. وُلِدَ سنة (٧٤هـ)، وتفقَّه بالشعبيّ. أقام قاضياً بالكوفة ثلاثين سنة في الدولتين الأموية والعباسية، وهو معدود من فقهاء أهل الرأي، وكان بينه وبين أبي حنيفة الإمام وحشة يسيرة، وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه، وهو أصغر منه سنًّا، فشكاه ابن أبي ليلى للأمير، فمنعه الأمير من الفُتْيَا، وكانت وفاة ابن أبي ليلى سنة (١٤٨هـ).

هذه المناصب الخمسة، من أهم المناصب في الدولة، وجميع المناصب الأخرى ترجع إليها. وكان في كل ولاية صورة من ذلك.

■■ الجيش:

أهم ما تظهر به الدولة، جيشها الذي يذود عن حياضها ويحمي بيضتها. وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربيًا محضاً جنوده وقوَّاده، فلما جاءت الدولة العباسية، كان ظهور نجمعها على يد أهل خراسان، الذين يُرجع إليهم الفضل في ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها؛ لذلك كان جيش الديوان في أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين:

الأول: الجيوش الخراسانية.

الثاني: الجيوش العربية.

وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالي. وكان التنازع شديداً بين الفريقين؛ بداعي العصبية، كلٌّ يتعصّب لأبناء جنسه. وكان أكبر القواد المعروفين في أول

عهد الدولة: أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق الخراسانية، وعبد الله بن علي لجيوش المغرب وأعظمها عربي من الجزيرة والشام. ولما خرج عبد الله بن علي عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه، رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم، ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظر إليه نظرة الشريك المساوي في القوة والسلطان. ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ألا تظل كفة أهل خراسان راجحة، فاصطنع كثيراً من رجالات العرب وسلَّمهم قيادة الجيوش، كما استعان بأهل بيته.

ومن أعظم قوّادهم: عيسى بن موسى، الذي سيّره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم.

ومن مشهوري قواده العرب: معن بن زائدة الشيباني، وهو قائد شجاع، كان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين، فلما جاءت الدولة العباسية وحُوصر يزيد بن عمر بواسط، أبلى معه يومئذ بلاءً حسناً، فلما سلَّم يزيد وقُتل، خاف معن على نفسه من المنصور، فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب، من أظرفها: أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية، فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلّد سيفاً فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدي معن، وقال: أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة، فلما رأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن، فقال للأسود: خذه ولا تكن سبباً لسفك دمي، فتأمّله الأسود وقال: لست أقبله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، إن الناس وصفوك بالجود، فهل وهبت مالك كله؟ قال: لا. قال: فنصفه؟ قال: لا، ولم يزل حتى بلغ العشر، فقال معن: نعم، فقال له الأسود: أنا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفاً، فقال له معن: قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون عليَّ مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني في غنى عنه فضحك، وقال: أردت أن تكذبني في مقالي، والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفي ثمناً ومضى لسبيله.

وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية، يوم أن ثار الراوندية بالمنصور ـ وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان ـ، وكانوا على رأي أبي مسلم صاحب

دعوة بني هاشم، يقولون بتناسخ الأرواح، ويظهر على رغم الروايات المتناقضة، أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر، فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور، فنادى الناس وغلقت أبواب المدينة، فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من قصره، وفي ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبي جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه في منطقته وأخذ بلجام دابة المنصور وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا رجعت فإنك تكفى فلم يرجع، وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة، فقال له معن: ليس هذا من أيامك، ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً، و شرفت تلك الفعلة معناً في نظر أبي جعفر حتى سمَّاه: أسد الرجال. فقال معن: والله يا أمير المؤمنين، لقد أتيتك وأنا وجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم، رأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني. وكان ذلك سبباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن، فمكث فيها مدة، أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردّهم إلى الطاعة والجماعة. ثم ولي في آخر أمره سجستان.

ولما كان سنة (١٥١هـ)، كان في داره صنَّاع يعملون له عملاً، فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. وكان معن جواداً ممدحاً، وشاعره الخصيص به: مروان بن أبي حفصة، له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجعة. ومن طرف بدائهه: أن معناً دخل على المنصور مرة فقال له: إيه يا معن، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين، وإنَّما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

ومنهم: عمروبن العلاء. من أعظم قواد المنصور، وهو الذي يقول فيه بشار بن برد الشاعر:

فقل للخليفة إن جئته ... نصيحا ولا خير في المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ... ولا يشرب الماء إلا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية:

إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت إليك سبا سبا ورحالا

فـإذا وردن بـنـا وردن مـخـفـة   وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجّه المنصور سنة (١٤١هـ) لحرب بلاد طبرستان، وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوندو الأصبهذ، وكان توجيهه إليها بمشورة أخي المصمغان، فإنه قال للمنصور: يا أمير المؤمنين، إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان، فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمة، وهو من القواد الكبار، فدخل الرويان ففتحها، وأخذ قلعة الطاق وما فيها، وطالت الحرب، فألح خازم على القتال، ففتح طبرستان، وقتل من أهلها، فأكثر وصار الأصبهذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره، ثم بدا للأصبهذ، فدخل جيلان من الديلم، فمات بها، وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد، وهي أم ابنه إبراهيم. وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به.

ولم يزل عمرو بن العلاء في رتبته إلى مدة المهدي محمد بن أبي جعفر.

■■ حاضرة الخلافة:

لَمَّا ولي أبو جعفر، انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس، وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم، وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة، فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد، وقال: هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك، فنزل وضرب عسكره على الصراة ـ وهو نهر بين دجلة والفرات ـ ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهو مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين؛ أحدهما داخل، وهو سور المدينة وسمكه في السماء (٣٥ ذراعاً)، وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع، وعلى السور شُرف، وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً، ويليه من الخارج فصيل بن السورين وعرضه (٦٠ ذراعاً)، ثم السور الأول، وهو سور الفصيل، ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب، كل اثنين منها متقابلان، ولكل منها باب دون باب، بينهما دهليز

ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين، فالأول: باب الفصيل، والثاني: باب المدينة. فإذا دخل من باب خراسان، عطف على يساره في دهليز معقود بالآجر والْجُصّ، عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون، المدخل إليه في عرضه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب الثاني طولها (٦٠ ذراعاً) وعرضها (٤٠)، ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني، في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثاني، وهو باب المدينة، وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقات. ثم الباب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير، فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والْجُصّ طوله (٢٠ ذراعاً) وعرضه (١٢)، وعلى كل آزاج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقي إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها (٥٠ ذراعاً) مزخرفة، وعلى رأس كل قبة منها، تمثالٌ تديره الريح لا يشبه نظائره.

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى، باب حديد عظيم جليل المقدار، كل باب منها فردان.

وابتنى قصره الذي يُسمَّى «الخلد» على دجلة، وكان موضعه وراء باب خراسان. ومدَّ المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها، فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في أي وقت، وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر، يُقال لأحدهم: نهر الدجاج، وللثاني: نهر القلائين، وللثالث: نهر طابق، وللرابع: نهر البزازين. والكرخ: هو أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى، بناها المنصور ورتَّب كل صنف منها في موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجداً يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة، وسُمِّيت الشرقية؛ لأنها شرقي الصراة، ولأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه في الكرخ:

سقى أربع الكرخ الغوادي بديمة ... وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسنٍ وبهجة ... وتلك لها فضل على كل منزل

وفي سنة (١٥١هـ)، بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه، وعمل لها سوراً وخندقاً

وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي؛ لأن المهدي عسكر به عند شخوصه من الري.

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة، وكان في صدر قصر المنصور: إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفي صدر الإيوان: مجلس عشرون ذراعاً في عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً، فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح.

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه، ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت. وفي بعض الروايات أقل من ذلك. ولما تم بناؤها، حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم، فأمها الناس أفواجاً ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين.

قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميّز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدد سكانها. وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً، في أيام الرشيد؛ إذ الدنيا قارة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المواقع، موردة المشارع.

■■ الأحوال الخارجية:

في عهد المنصور، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس، وأسس بها الدولة الأموية الثانية، وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكاً في هذه البلدان القاصية، ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ، ولم يتسم عبد الرحمن بأمير المؤمنين ، بل تَسَمَّى بـ «الأمير» فقط. وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالمشرق. أما مملكة

الروم التي كانت تحاد الخلافة الإسلامية من الشمال، فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس ـ كما قدّمنا ـ، وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة. وكان من النظام المتبع في الخلافة، إرسال الجيوش تغزو الروم في الصيف، وتسمى بـ «الصوائف»، ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع.

أول ما حصل في عهد المنصور: أن الروم بقيادة ملكهم، أغاروا سنة (١٣٨هـ) على ملطية، وكانت إذ ذاك من الثغور الإسلامية، فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها، ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية.

ولما علم بذلك المنصور، أغزى الطائفة عمه صالح بن علي ومعه أخوه العباس بن محمد بن علي، فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية. وقد أقام في استتمام ذلك إلى سنة (١٣٩هـ). ثم غزوا الصائفة من درب الحدث، فوغلا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي ـ وكانتا نَذَرَتا إن زال ملك بني أمية، أن تجاهدا في سبيل الله ـ ، وغزا من درب ملطية: جعفر بن حنظلة البهراني.

وفي هذه السنة، استقر الأمر بين المنصور وبين ملك الروم على المفاداة، فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفي سنة (١٤٠هـ): غزا «الصائفة» الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، وأقبل قسطنطين صاحب الروم في جيش كثيف فنزل جيحان، فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم، ثم لم تكن «صائفة» بعد ذلك إلى سنة (١٤٦هـ)؛ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وإبراهيم ابني عبد الله.

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى سنة (١٥٥هـ)، وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدي للمسلمين الجزية.

وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح، بل كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية، ولم تكن المصالحات يطول زمنها، بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه.

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى، فكانت - في الغالب - محلاً للاضطرابات، ولكنها كانت تسكن حالاً بما يبذله المنصور من الهمَّة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها. وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المترتزقة: وهم المفروض لهم عطاء في الديوان، ومن المتطوعة: وهم الذين ينتدبون للجهاد في سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من الله، وكان الخليفة هو الذي يعيّن قائدهم، وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً.

■■ صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدَّة وبأساً ويقظة وثباتاً، ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

■■ كيف كان يقضي وقته:

كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي، والولايات والعزل، وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل، والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية؛ لطرح عالتهم، والتطلف لسكونهم وهدوئهم، فإذا صلَّى العصر، جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلَّى العشاء الآخرة، نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق، وشاور سماره من ذلك فيما أرب. فإذا مضى ثلث الليل، قام إلى فراشه وانصرف سمَّاره. فإذا مضى الثلث الثاني، قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

■■ كيف كان خلقه في بيته وخارجه:

قال سلامة الأبرش: كان المنصور من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس، وأشدّ احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثيابه، تغيَّر لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون. فإذا قام من مجلسه، رجع بمثل ذلك، فنستقبله في ممشاه، فربما عاتبنا. وقال له يوماً: يا بني، إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي، فلا يدنونَّ مني أحد منكم؛ مخافة أن أعره بشيء.

■■ الجِدّ في بلاطه:

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع: لم يُرَ المنصور في لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث، إلا يوماً واحداً، فإنّا رأينا ابنا له يُقال له: عبد العزيز قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمماً بعمامة متردياً ببرد في هيئة غلام أعرابي راكباً على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعرابي، فعجب الناس من ذلك، وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى إليه ذلك، فقبل المهدي الجوالقين وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين، فعلم أنه ضرب من عبث الملوك.

وذكر حماد التركي، قال: كنت واقفاً على رأس المنصور، فسمع جلبة في الدار، فقال: ما هذا ياحماد؟ انظر. فذهبت، فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن، فجئت فأخبرته، فقال: وأي شيء الطنبور؟ فوصفه له، فقال له: أصبت صفته، فما يدريك أنت ما الطنبور؟ فقال: رأيته بخراسان. ثم قام حتى أشرف عليهم، فلما بصروا به، تفرَّقُوا. فأخذ الخادم الضارب وكسَّر الطنبور على رأسه وأُخْرِجَ من قصره.

■■ كيف كان يهتم بعمّاله:

قال المنصور: ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين، من هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، إن نقصت واحدة تداعى وهي: أما أحدهم: فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث: صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غني. والرابع: ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وولّى رجلاً من العرب حضرموت فكتب إليه والي البريد: أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدهما، فعزله، وكتب إليه: (ثكلتك أمك، وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدَّة التي أعددتها للنكاية في الوحش، إنا إنَّما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك

أمور الوحوش. سلِّم ما كنت تبلى من عملنا إلى فلان ابن فلان والْحَق بأهلك ملوماً مدحوراً).

وظفر مرة برجلٍ من كُبراء بني أمية، فقال: إني سائلك عن أشياء، فاصدقني، ولك الأمان. قال: نعم، فقال المنصور: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار. قال: فأي الأموال وجدوا أنفع؟ قال: الجوهر. قال: فعند من وجدوا الوفاء. قال: عند مواليهم. فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته، ثم قال: أضع من أقدارهم، فاستعان بمواليه.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى: أن ولاة البريد في الآفاق كلها، كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلُّوا المغرب، ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلُّوا الغداة، فإذا وردت كتبهم، نظر فيها، فإذا رأى الأسعار على حالها، أمسك، وإن تغير شيء عن حاله، كتب إلى الوالي والعامل هناك، وسأل عن العلَّة التي نقلت ذاك عن سعره، فإذا ورد الجواب بالعلَّة، تلطَّف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. وإن شك في شيء مما قضى به القاضي، كتب إليه في ذلك، وسأل من بحضرته عن عمله، فإن أنكر شيئاً عمل به، كتب إليه يوبِّخه ويلومه.

■■ ثباته عند الشدائد:

من الخلال التي ذلَّلت للمنصور طريق النجاح: أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهمّ صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعاً إذا وقع، بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالي، فيعدّ له ما يلزم من العدَّة. لَمَّا تتابعت الأحداث على أبي جعفر في عهد محمد وإبراهيم ابني عبد الله، تمثَّل:

تفرقت الظباء على خداش ... فما يدرى خداش ما يصيد

ثم أمر بإحضار القواد والموالي والصحابة وأهل بيته، وأمر حماداً التركي بإسراج

الخيل، وسليمان بن مجالد بالتقدّم، والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب. ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر، فأزم عليه طويلاً لا ينطق، ثم قال:

ما لي أكفكف عن سعد ويشتمني ... ولو شتمت بني سعد لقد سكتوا
جهلاً عليَّ وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس، وقال:

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن ... لأكشفه إلا لإحدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمن قمنا به، فما شكروا الكافي، ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا، فماذا حاولوا أشرب رنقاً على غصص أم أقيم على ضيم ومضض، والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسي، والله لئن لم يقبلوا الحق، ليطلبنه ثم لا يجدونه عندي، والسعيد من وُعِظَ بغيره. قدّم يا غلام، ثم ركب.

لما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد، كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المداني، فقال عثمان: أظن محمداً خائباً ومن معه من أهل بيته. إن حشو ثياب هذا العباسي لمكر ودهاء. إنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما، قال ابن جذل الطعان:

فكم من غارة ورعيل خيل ... تداركها وقد حمي اللقاء
فرد مخيلها حتى ثناها ... بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم: قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً، وغمرته فوجدته صليباً، وذقته فوجدته مرّاً، وإن من حوله من بني أبيه لكما، قال ربيعة بن مكدم:

سمالي فرسان كأن وجوههم ... مصابيح تبدو في الظلام زواهد
يقودهم كبش أخو مصمئلة ... عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع: هو والله خيس ضيغم شموس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس، وإنه نيما يهيج من الحروب، كما قال أبو سفيان بن الحرث:

وإن لنا شيخاً إذا الحرب شمرت ... بديهته الإقدام قبل النوافل

ويكفيه فخراً، أنه قام في وجه معانديه ومخالفيه ـ وهم كثيرون ـ في جهات شتى، فقهرهم جميعاً ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر، إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه: غدراته الثلاث التي عُرفت عنه؛ فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان، ولم يبد من الرجل شيء يرتب . وغدر بعمه عبد الله بن علي، بعد أن أعطاه الأمان. وغدر بأبي مسلم، وربما تكون له شبهة في القضاء على عمه وعلى أبي مسلم، ولكن الذي لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم، أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم.

ومن غريب أمره: أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميري، وهي أم ولديه محمد وجعفر الأكبر، وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه شهوداً، فعزب بها عشر سنين في سلطانه، فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة، فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد.

فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عَقْدٍ عَقَدَهُ على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم، وإن كان هذا الحديث في الجملة يدلّنا على أن الغدر لم يصر طبعاً للمنصور، وإنَّما كانت حوادث مرَّت وحمله عليها، السبب الذي لم يمكنه تلافيه.

■■ اقتصاده:

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات، حتى امتلأت بالأموال خزائنه، ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاداً. ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حدّ السرف، وإنّما كانت أُعطياته إلى القلة أميل، وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف.

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠ درهم)، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون. فكان أول من سنَّ زيادة الأرزاق: الفضل بن سهل.

وعلى الجملة، فلم يقم في بني العباس مثل المنصور، في ثباته وعلو همته وشدته على المريب، واهتمـامه بأمر العامة، وجدّه في بلاطـه. وكان ـ فوق ذلك كله ـ فصيحـاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة.

وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع أمره، إلا أنهـا لم تكن عربية خالصة ـ كما كان الحال في الدولة الأموية ـ وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة.

■■ **وفاة المنصور:**

فـي سنـة (١٥٨هــ): حجَّ المنصور. شخـص من مدينة السـلام متوجهاً إلى مـكة في شوال، فلما صار مـن منازل الكوفة، عرض له وجعه الذي تُوفي بـه، ولم يزل يزداد حتى وصل بُستان ابن عـامر، فاشتد به وجعه، ثـم صار إلى بئر ميمون، وهـو يسأل عن دخول الحرم، ويوصي الربيع بما يريد.

وتوفي في سَحَر ليلة السبت (٦ ذي الحجة سـنة ١٥٨هـ)، ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب، فـكتم موته ومنع النساء وغيـرهن من البكاء عليه، ثم أصـبح فحضر أهل بيته الخلافة وجلسوا مجالسهم، فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده، ثم دعا بالقواد فبايعوا، وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس، فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام.

ثم أخذ في جهاز المنـصور وغسله وكفنه، ففرغ من ذلك مـن صلاة العصر، وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات م حرماً، وصلَّى عليـه عيسى بن موسى، ودُفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢ سنة) إلاَّ ستة أيام ـ رحمه الله ـ.

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت. فالذكور: محمد المهدي، وجعفر الأكبر، وأمهما أروى بنت منصور الحميرية. وسليمان بن عيـسى، ويعقوب، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عـبيد الله. وجعفر الأصغر، وأمه أم ولد كردية. وصـالح المسكين، وأمه أم ولد رومـية. والقاسـم، وأمه أم ولد. وقـد مات منهـم جعفـر الأكبر والـقاسم قبـل وفاة المنصور، . والبنت اسمها العالية، وأمها امـرأة من بني أمية، وقد تزوج العاليةَ، إسحاق بن سليمان بن علي.

❋ ❋ ❋

٣ ـ المهدي

هو: محمد المهدي بن المنصور، وأمه أروى بنت منصور الحميرية، وكانت تُكنَّى «أم موسى». ولد سنة (١٢٦هـ) بالحميمة من أرض الشراة، وكانت سنّه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات. ولما استُخلف أبوه، كان فتى سنّه عشر سنوات، ولما بلغ مبلغ الرجال، كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة (١٤١هـ)، وسنّه (١٥ سنة) قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان.

وبعد انتهاء تلك الفتنة، أمره بغزو طبرستان، ثم انصرف عائداً من خراسان سنة (١٤٤هـ)، فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة؛ لمراقبة ثغورها. وفي هذه السنة، بنى المهدي بـ «ريطة» بنت أبي العباس السفاح، وفي سنة (١٤٧هـ) ولاَّه أبوه العهد وقدَّمه على عيسى بن موسى، ثم عاد إلى الريّ فأقام إلى سنة (١٥١هـ)، وفيها قَدِمَ على أبيه، فبنى له ولجنده «الرصافة» وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج سنة (١٥٣هـ)، وفي سنة (١٥٥هـ) أسس مدينة «الرافقة» على طراز مدينة بغداد، ولم يزل يستعين به في الأعمال، حتى تُوفي في التاريخ الذي تقدَّم ذكره (٦ من ذي الحجة ١٥٨هـ ـ ٧ أكتوبر سنة ٧٧٥م).

●● بيعة المهدي:

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه، ووجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة، وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة، فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة. وفي ذلك اليوم، بايعه أهل مدينة السلام، ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة (١٦٩هـ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥م) بـ «ماسبذان» فتكون مدته: عشر سنين وشهراً ونصفاً.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس، عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية في المغرب. ويعاصره في فرنسا، شارلمان. ويعاصره في مملكة الروم الشرقية، لاون الرابع

(٧٧٥ـ ٧٨٠م)، ثم قسطنطين السادس. ولصغره، كانت أمه إيريني تدبر أمره.

●● الحال في عهد المهدي:

كانت خلافة المهدي مرفهّة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدَّة أيام المنصور، فقد كان المنصور يؤسس ملكاً له خصوم فكان يكتفي بالريبة والظنة فيعاقب بهما، وفي مثل ذلك كثيراً ما يؤخذ البريء بالمذنب والمطيع بالعاصي. فلما جاء المهدي، كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت ـ وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة ـ فهم لا يحتاجون في الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة، فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد، والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم، فكانوا يعرضون عليه كل يوم، ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته. وهو بعد أبيه، يشبه في كثير من الوجوه، الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

في أول ولايته، أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور، إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل. ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد، أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق. فالذين أطلقهم، مَنْ كانَ جُرمهم سياسيا. أمَّا أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية، فإنهم ظلُّوا في حبسهم. وكان ممن أطلق: يعقوب بن داوود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي.

ومما أجراه من الإصلاح: أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في قصور السفاح، وترك منازل المنصور التي بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتُملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات، وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا من المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به، وأمر أن يجري على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق؛ حتى لا يحتاج المجذومون إلى المشي في الطرق وسؤال الناس، فيكونون سبباً في انتشار المرض، وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه.

وأقام البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن، بغالاً وإبلاً. ولم يقم هناك بريد قبل ذلك.

ومن آثاره: زيادته في المسجد الحرام، فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به.

ومما يؤخذ عليه: أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي، وكتابة اسمه مكانه. وقديماً شغف الملوك بهذه الإغارات التي تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار، فإنَّ الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثراً باقياً يستحق به المدح والثناء، فسرعان ما يأمر بإزالة اسم الباني ويضع اسمه كما حكي ذلك في الآثار المصرية. وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه ـ فضلاً عن الملوك ـ ولكن هكذا كان.

وكان المهدي يجلس للمظالم، وتدخل القصص إليه. فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها، فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تُطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فأولاً، فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفي من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم. والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراساني كان من إحدى قرى مرو، وكان يقول بتناسخ الأرواح، فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر، فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد، فيهم معاذ بن مسلم، وهو يومئذ على خراسان، ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيداً الحبشي وضم إليه القواد، فاستعدّ المقنع للحصار في قلعة كبش، فحاصره سعيد بقلعته، ولما اشتدَّ عليه الحصار وأحسّ بالهلكة، شرب سمًّا وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه.

●● الوزارة:

كان مظهر الوزارة في عهد المهدي، أوضح منه في عهد أبيه المنصور؛ لمّا كان من ركون المهدي إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر ممّا كان يعتمد أبوه. وكان أول وزرائه كبير الكفاءة، فإنه جمع له حاصل المكة ورتب الديوان وقرر القواعد، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار، مولى الأشعريين. كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة، ضمّه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره، لكنه آثر به ابنه المهدي، فكان غالباً على أموره لا يعصي له قولاً، وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته، فلما مات المنصور وولي المهدي، فوَّض إليه تدبير المملكة وسلَّم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته وله ترتيبات في الدولة، منها: أنه نقل الخراج إلى

المقاسمة، وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم، فلما تولَّى أبو عبيدالله الوزارة، قرَّرَ أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنَّف كتاباً في الخراج، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده، وهو أول من صنف كتاباً في الخراج، وتبعه الناس بعد ذلك، فصنَّفُوا كتباً في الخراج سيأتي ذكرها.

وكان الربيع الحاجب، يساعد أبا عبيد الله، ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد بشكوى. فلما توفي المنصور، وقام الربيع بأمر بيعة المهدي بمكة، عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولاً أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدي، فحضر إليه واستأذن عليه، فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء. ولما دخل عليه، كان متكئاً فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط، وأبو عبيد الله متكئ، فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل في أمر بيعة المهدي، فذهب الربيع يبتدئ بذكره، فقال له: قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغيِّر القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل: والله الذي لا إله إلاّ هو، لأخلعنَّ جاهي ولأنفقن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله. كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء، فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التي كانت في تلك الأزمنة سلماً للوزارة، وكان ـ مع ذلك ـ من أعف الناس، فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حياته مطعناً في أبي عبيد الله؛ لأنه كان بعيداً عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم.

كان لأبي عبيد الله ابن متهم في دينه. وقد أسلفنا ما كان المهدي يكره من الزندقة، فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للإفساد بين الخليفة ووزيره، فما زال يحتال في ذلك حتى اتهم المهدي ابن أبي عبيد الله، فأمر بإحضاره، وقال: يا محمد، اقرأ. فذهب ليقرأ، فاستعجم عليه القرآن، فقال لأبي عبيد الله: يا معاوية، ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ سنين، وفي هذه المدة نسي القرآن، فقال: قم فتقرَّب إلى الله بدمه، فذهب ليقوم، فوقع فقال العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين، إن شئت أن تعفي الشيخ، ففعل، وأمر المهدي بابنه فضرب عنقه.

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوَّف المهدي من أبي عبيد الله؛ لأنه قتل ابنه، فاستوحش منه، وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد. وتلك حال الأمراء المستبدِّين الذين جعلوا آذانهم صيداً لكل قول، فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التي من السهل على المفسدين توجيهها؛ لأنهم لا ينتظرون تحقيقاً. وكانت وفاة أبي عبيد الله معزولاً سنة (١٧٠هـ)، وكان عزله سنة (١٦١هـ).

استوزر المهدي بعده، أباه عبد الله يعقوب بن داوود بن طهمان، مولى بني سليم. كان

أبوه قديماً كاتبا لـنصر بن سيار عامل بني أمية علـى خراسان. خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام النـاس وسيرهم وأشعارهم، ونظروا فإذا لـيس لهم عند بني العبـاس منزلةٌ فلم يطعموا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبدالله بن الحسن بن الحسن بـن علي وطمعوا أن يكون لهم دولـة فيعيشوا فيها، فكـان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع إبراهيم بن عبد الله أحيـاناً في طلب البيعة لمحمد بن عبدالله، فلما ظهر مـحمد وإبراهيـم كان علي بن داوود كاتـباً لإبراهيم وكـان يعقوب من الخـارجين مع إبراهيم، فلما قُتل توارى علي ويعقوب وإخوانهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليّا ويعقوب وحبـسهما في المطبق أيـام حياته. فلما مات المـنصور وبُويع المهدي، منَّ علـيهما فيمن منَّ عليه، وكان مـعهما من المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الـرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فكانت بينهما صداقة كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكـه، فكان يطلب رجلاً له معرفة بهـم؛ ليدخل بينهم وبينه، فـدلَّ على يعقوب، فلما دخل عليـه وفاتحه، وجده رجلاً كاملاً، فسأله عن عيسى بـن زيد، فوعده يعقوب أن يدخل بـينه وبينـه، وكان الناس فـي ذلك الزمن رموه بـأن منزلته عـند المهدي إنَّمـا كانت للسعاية بآل علي، وكان يعقوب يتبرأ من ذلك.

قرب المهدي يعقوب بن داوود إليه وولاَّه وزارته بعد أبي عبد الله، فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغـرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه.

ومن علوّ منزلته، أنه أمره المهدي بتوجيه أمـنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

كان ذلك العلوّ داعياً لأن حسده موالي المهدي، فـسعوا عليه، وأعانهم الشعراء، فقال في ذلك بشار بن بُرد:

بـنـي أميـة هـبـوا طـالـب نومـكـم ... إن الخـلـيـفـة يـعـقـوب بـن داوود
ضاعـت خلافتـكم يا قوم فـالتمـسوا ... خـلـيـفـة الله بـين الـنـاي والـعـود

كانت الـسعاية بيعـقوب؛ بسبب مـيله لإسحاق بـن الفضل، وأنه يربـض له الأمور. وأفهموا المهدي أن إسحاق يروم الخلافة، وأن يعقوب يساعده، وأن المشرق والمغرب في يده وفي أيدي أصحابه، وإنَّما يكـفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعاً فـي يوم واحد على ميعاد، فيأخذ الدنـيا لإسحاق بن الفضل. فمـلأ ذلك قلب المهدي وصادف أن طلـب يعقوب من المهدى عقب ذلك ولاية مـصر لإسحاق بن الفضل فتغيَّر وجه المـهدي، ثم دس إليه جارية

من جواريه وهبها له تتسمع ما يبدر منه، ثم سلم إليه علويًا أمره بقتله فمنَّ عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدي أنه قتله، وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي إليه، فأرسل من جاءه به من الطريق، ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي بإعادته إلى المطبق فحُبس ولم يزل محبوساً حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا، ففعل ذلك بهم، وكان ذلك سنة (١٦٦هـ)، فكانت وزراته خمس سنوات.

وفي هذه الوزارة، أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمة، وأول من عمل ديوان الزمام: عمر بن بزيع؛ وذلك أنه لما جمعت له الدواوين، فكَّرَ فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولي كل ديوان رجلاً، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح، ولم يكن لبني أمية ديوان أزمة. وفي سنة (١٦٨هـ) ولى المهدي علي بن يقطين ديوان زمام الأمة على عمر بن بزيع.

استوزر المهدي بعده: الفيض بن أبي صالح، وهو من أهل نيسابور، وكان أهل بيته نصارى، فانتقلوا إلى بني العباس وأسلموا وتربَّى الفيض في الدولة العباسية وتأدَّب وبرع وكان سخيًا مفضالاً متخرقاً في ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمَّة كثير البر والتيه، واستمر الفيض وزيراً للمهدي حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده، ومات في أول أيام الرشيد سنة (١٧٣هـ).

●● الأحوال الخارجية:

كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهراً، وكان كذلك مظهرها في نظر الأمم الأخرى، إلا أنه مما يؤسف سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبدالرحمن الداخل. فقد كان المنصور والمهدي يهتمان بأمره ويودّان إزالة دولته، ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة، فلم يمكن واحد منهما أن يجرد له جيشاً يخترق صحارى إفريقية ويغزوه في بلاد الأندلس، فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر، وكان شارلمان في ذلك الوقت مهتماً بإعادة الدولة الرومانية الغربية التي امحت آثارها. وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة، فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد، ليكتسب بذلك نفوذاً في الخلافة الإسلامية، ويرتفع قَدَره على ملك الروم في القسطنطينية، وجَدَّ في ذلك؛ حتى تمكَّن من إتمام هذه المواصلات في عهد الرشيد كما سيأتي.

أمَّا العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم، فكانت سيئة. فلم تكن الإغارات من

الطرفين تبطل، بل كانت الصوائف من طرف المسلمين، كما كانت الإغارات من ملك الروم وكانت الحرب براً وبحراً.

وفي سنة (١٦٣هـ):احتفل المهدي بأمر الصائفة، وولى أمرها ابنه هارون، وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم، وخرج المهدي مع الجيش حتى أتى البردان، فأقام به نحواً من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطي الجنود وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي، فتح الله عليهم فيها فتحاً كثيراً وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءً جميلاً، ففتحوا حصن سمالا بعد أن قاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة، وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط: ألا يقتل أهلها، ولا يرحلوا، ولا يفرّق بينهم. فأعطُوا ذلك، فنزلوا ووفّى لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا.

وفي سنة (١٦٥هـ): غزا الصائفة هارون مرة أخرى، فوغل في بلاد الروم، وكان عدد جيشه (٩٥٧٩٣) رجلا حمل لهم من العين (١٩٤٤٥٠) ديناراً ومن الورق (١٤١٤٨٠٠) درهم، ولم يزل الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكان الذي يقوم بأمر الروم «إيريني» أم الملك نيابةً عن ابنها، فجرت بينها وبين هارون مكاتبات في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية، فقبل منها ذلك هارون، واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه؛ لأنه قد دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل. والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها (٩٠٠٠٠) دينار، تؤديها في نيسان من كل سنة، وفي حزيران، فقبل ذلك وأقامت له الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بدلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب و الفضة والعروض، وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى. وقال مروان بن أبي حفصة في هذه الغزوة لهارون:

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً ... إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا، محرَّم سنة (١٦٦هـ)، وقدمت الروم بالجزية معه وتبلغ (٦٤٠٠٠) دينار رومية، و(٢٥٠٠) دينار عربية، و(٣٠٠٠٠) رطل مرعزي.

وفي رمضان سنة (١٦٨هـ)؛ أي: قبل انقضاء مدة الهدنة، نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم علي بن سليمان بن علي - وهو والي الجزيرة وقنسرين - يزيد بن بدر البطال في سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا.

والنتيجة: أن مدة المهدي كان أكثرها حرباً مع المسلمين والروم، وكان الفريقان في

موقف الدفاع أحياناً والهجوم أحياناً، إلا أن الظفر كان في الغلب للمسلمين.

●● غزو الهند:

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند، فأراد المهدي أن يغزي جنوده بلاد الهند. ففي سنة (١٥٩هـ): وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات (١٥٠٠)، ووجه معه قائداً من أبناء الشام في (٧٠٠) من أهل الشام، وخرج معه من متطوعة أهل البصرة (١٠٠٠) رجل ومن الأسواريين والسبابجة (٤٠٠٠)، فكان تمام عدتهم (٩٢٠٠) رجل، مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة (١٦٠هـ)، فناهضوها بعد قدومهم بيوم، وأقاموا عليها يومين، فنصبوا المنجنيق وباهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة، ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجأوهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قُتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض، مات بسببها نحو ألف منهم، ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس يُقال له: بحر جمران، فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض، ونجا بعض، ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملاً يُقصد به توسيع المملكة.

●● صفات المهدي:

كان المهدي لا يشرب النبيذ ـ وإن كان سمّاره يشربونه في مجلسه ـ وكان يسمع الغناء. وكان من خُلقه: الحياء والعفو. فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده، عفا عنه، وكان يتأثر بالقرآن. كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي، فقرأ مرة في صلاته: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1]. فأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى، فلما جيء به، قال له: يا موسى، إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك، فوثق لي أنك لا تخرج عليَّ، فقال: نعم، فوثق له، فخلاه.

وكان خليفة عادلاً، يجلس للمظالم بنفسه، وبين يديه القضاة، فيزيل عن الناس مظالمهم، ولو كانت قبله. وكان إذا جلس للمظالم، قال: ادخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردِّي للمظالم إلا للحياء منهم، لكفَى. قال المسور بن مساور: ظلمني وكيل المهدي

(١) محمد: ٢٢.

وغصبني ضيعة لي، فأتيت سلاماً صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي، فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها، فقال له: ترضى بأحد هذين؟ فقال: نعم، فقال: تكلَّم. فقال مساور: أصلح الله القاضي إن ظلمني في ضيعتي، وأشار إلى المهدي، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي في يدي، فقال مساور: أصلح الله القاضي، سله متى صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها؟ قال المهدي: بعد الخلافة، قال القاضي: أطلقها له، قال: قد فعلت. والعدل والحلم والعفو في الخلفاء من الصفات التي تدل على علوّ أقدارهم وعظيم سلطانهم.

وهكذا كان المهدي مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان، وكان أبوه قد علَّمه تعليماً عربيًّا محضاً في صغره، وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم، وكان يقول: ما تقرَّب إليَّ أحد بوسيلة ولا تذرَّع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها فأحسن ربها؛ لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

وكان المهدي ميَّالاً إلى السنَّة، يحب ألا يخالف سنَّة رسول الله ﷺ. فمن ذلك: أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق، فعمل به. وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له: أوصني بحاجتك، فشكره أبو عون وقال: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن ترضى عن عبد الله ابن أبي عون وتدعو به، فقد طالت موجدتك عليه، فقال: يا أبا عون، إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك، إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ويسيء القول فيهما، فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم. ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية، ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبين وثوراتهم المتتالية، فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلي - ﷺ - على الدرجة التي كان عليها من التأخّر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم أجمعين - .

●● ولاية العهد:

قدَّمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد، عيسى بن موسى بن علي، وجعل محله ابنه موسى الهادي، ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

●● وفاة المهدي:

في سنة (١٦٩هـ): أراد المهدي الخروج إلى جرجان، فلما وصل إلى ماسبذان، أدركته

هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يُقال لهـا: الروذ، وصلّى عليه ابنه هارون؛ لأنه كان في صحبته.

***

٤ ــ الهادي

هو: مـوسى الهادي بـن محمد المـهدي بن جعـفر المنصـور، وأمه أم ولد، اسمـها: الخيزران، كانت ملكاً للمهدي. وفي سـنة (١٥٩هـ)،أعتقها وتزوجها؛ أي: بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. ولد الهادي سنة (١٤٤هـ)، وولاه أبوه العهد، وسنّه (١٦) سنة، وكان يوليه قيـادة الجنود في المشرق، فقادها فـي نواحي بجرجان؛ لمحاربة الخـارجين والمخالفين. وفي اليوم الذي تُوفي فيه أبوه، كان مقيماً بجرجان، وكان مع المهدي ابنه هارون، فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبُردة والتعزية والتهنئة. وكان ذلك في (٢٢ محرم سنة ١٦٩هـ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥م)، ولم يزل خليفة حتى توفي في (١٣ ربيع سنة ١٧٠هـ ـ ١٣ سبتمبر سنة ٨٧٦م)، فكانت مدته: سنة وشهراً و(٢٢ يوماً)، وسنّه حين مات (٢٦ سنة).

وكان يعاصره في الممالك الثلاث، من كانوا يعاصرون أباه.

■■ الحال في عهده:

كان الهـادي على سنن أبيـه في كراهة الـزنادقة، فالتـفت إليهم ونـكّل بهم تنـكيلاً. والزندقة ـ على مـا يظن ـ كانت عندهم عنوانـاً على ترك التدين والمجازفة في الـتعبير عن الدين. روى الطبري: أن ممن قتل الهادي، يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عنه: أنه حجَّ فنظر إلى الناس في الطواف يـهرولون، فقال: ما أشبههم إلا ببقرة تدوس فـي البيدر، وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيـا أمـين الله فـي خـلـقـه ... ووارث الـكـعـبـة والمـنـبـر
مـاذا تـرى فـي رجـل كـافـر ... يـشـبّه الـكـعـبـة بـالـبـيـدر
ويـجـعـل الـنـاس إذا مـا سـعـوا ... حـمـراً تـدوس الـبـر والـدوسـر

وروى الطبري بسنده: أن المـهدي قال يوماً لموسى ـ وقد قدم إليه زنديق فـاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه ـ : يا بنـي، إن صار لك هذا الأمر فتجود لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فـإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتـناب الفواحش والزهد في

الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه عبادة اثنين؛ أحدهما: النور. والآخر: الظلمة، ثم تبيح ـ بعد هذا ـ نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإنّي رأيت جدّك العباس في المنام قلّدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى: أنه أُتي للمهدي برجلين من بني هاشم، أحدهما: ابن لداوود ابن علي، والثاني: يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن حارث بن عبد المطلب، وقد اتهما بالزندقة وأقرّا عنده بالزندقة، فأمّا يعقوب بن الفضل، فقال له: أقرّ بها بيني وبينك، فأمّا أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض، فقال له: ويلك، لو كشف لك السموات وكان الأمر كما تقول، كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد، ولولا محمد ﷺ من كنت؟ هل كنت إلا إنساناً من الناس.

أما والله لولا أني كنت جعلت لله عليّ عهداً إذا ولأني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً، لمّا ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادي، فقال: يا موسى، أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة، فمات ابن داوود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي، وأمّا يعقوب: فبقي حتى مات المهدي، وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً وأقعدت عليه الرجال حتى مات.

■■ ثورة الحسين بن علي:

وفي عهد الهادي: خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث سنة (١٦٩هـ)، وكان والي المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسبب خروجه: أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً، ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال، وطِيفَ بهم في المدينة، فصار إليه الحسين بن علي فكلّمه فيهم، وقال له: ليس هذا عليهم، وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم؛ لأن أهل العراق لا يرون به بأساً، فَلِمَ تطوف بهم؟ فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط، فردّهم وأمر بهم إلى الحبس فحُبسوا يوماً وليلة، ثم كلّم فيهم فأطلقهم جميعاً وكانوا يعرضون ـ كما قدمنا ـ «يراقبون»، ففقد الحسن بن محمد، وكان الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاء؛ لأن العمري كان كفل بعضهم من بعض، فغاب

عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه، فحلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه، فلما خرجا قال الحسين: سبحان الله، ما دعاك إلى هذا؟ وأين تجد حسناً؟ حلفت له بشيء لا تقدر عليه. قال: والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال حسين: تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة! قال: قد كان الذي كان فلا بد منه، وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم، وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن علي، ففي آخر الليل، خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان علي العمري، فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤوا حتى اقتحموا المسجد. ولما أذّن الصبح، جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد، فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون، فلما صلّى الغداة، جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد، وقاومهم جماعة من نصراء الدولة، فلم يفلحوا. ولما تم للحسين بن علي ما أراد، انتهبت جماعته ما في بيت المال.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً، ثم فارقها لست بقين من ذي القعدة قاصداً مكة.

انتهى خبر الحسن إلى الهادي، وقد كان حجّ في تلك السنة رجالٌ من أهل بيته، منهم: محمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد، وموسى بن عيسى، سوى من حج من الأحداث، وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد ابن سليمان قد خرج في عدة من السلاح، فشمّر للحرب وسار نحو الحسين بن علي فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية، وهو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، والثاني: أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم. وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد.

ومما يحسن ذكره: ما رواه الطبري، قال: دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ، فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل، فقال: أصلح الله الأمير، أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - قال: أنشدني، فأنشده:

يا أيها الراكب الغادي لطيته ... على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشاً على شحط المزار بها ... بيني وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الإله وما ترعى به الذمم
عتقتم قومكم فخراً بأمكم ... أم حصان لعمري برة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد ... بنت النبي وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قسم
إني لأعلم أو ظناً كعالمه ... والظن يصدق أحياناً فينتظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها ... قتلى تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي إن البغي مصرعة ... وإن شارب كأس البغي يتخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً ... فرب ذي بذخ زلت به القدم

قال: فسري عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه.

صفات الهادي:

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه، ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بني أمية، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها. (قالوا): كانت الخيزران في خلافة موسى الهادي تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك. وكانت الخيزران في خلافة موسى، كثيراً ما تكلمه في الحوائج، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فاعتلّ بعلة فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: ويلي، على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: إذاً والله لا أبالي، وحمي غضبه فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعبي كلامي والله وإلا فأنفي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصّتي أو خدمي، لأضربنّ عنقه ولأقبضن ماله فمن

شاء فليلزم ذلك. مـا هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك فـي كل يوم! أما لك مغزل يشغـلك أو مصحف يـذكّرك أو بيت يصونك. إيـاك ثم إياك فتحـك بابك على مـسلم أو ذميّ، فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

وكان شجاعاً قويا. رُوي عنه أنه كان يثب على الدابَّة وعليه درعان.

وكان يرى النـاس لا يصلحون إذا حجب خـليفتهم عنـهم. حتى أنه قال للـفضل بن الربيع الذي أقامه في حجابته بعد أبيه: لا تحـجب عني الناس، فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تلق إليَّ أمراً إذا كـشفته أصبته باطلاً، فـإن ذلك يوقع الملك ويضر بالـرعية. وقال مرة لعلي ابـن صالح: ائذن للناس عـليَّ بالجفلى لا النـقرى، ففتحت الأبواب، فـدخل الناس على بكرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل.

وكان الهادي يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس وأهل العراق يتوسعون في أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يُسْكِر.

وكان كريماً يشبه أباه في أعطياته. ولم تـطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر.

■■ ولاية العهد:

كان الرشيد ولي العهد بمقتضى عهد المهدي، فـخطر للهادي أن يخلعه ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلَّموا في أمرالرشيد وتنقَّصُوه في مسجد الجماعـة، وقال: لا نرضى بـه. وأمر الهادي ألا يسـار بحربة أمام الـرشيد ومرَّ يـوماً هو وجعفر بن الهـادي راكبين فبلغا قنطرة من قنـاطر عيساباذ فالتفت أبو عصـمة الشرطي إلى هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولي العهد، فقال هارون: السمع والطاعة للأمير فوقف حتى جاز جعفر. دعا ذلـك إلى اجتناب الرشيد، فلم يكن أحد يجـترئ أن يسلّم عليه ولا يقرّبه، وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادي أن الذي يفسد عليك هارون هـو يحيى، وكان هارون قد طاب نفـساً بالخلع، فقال له يحـيى: لا تفعل، فدعا الهادي بيحيـى وكلَّمه في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك إن حـملت الناس على نكث الأيمان، هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. فقال له الهادي: صـدقت ونصحت ولي في هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة رأي يحيى، لم يتركه مشـيروه بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جدّ فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه، فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه في الخروج إلى الصيد، فـأذن له الهادي. فلما غـاب أكثر مما استأذن، جعل يـكتب إليه ويصرفـه، فتعلَّل

الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادي شتمه وبسط مواليه وقوّاده ألسنتهم فيه.

قطع ذلك النزاع كلـه مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقـد اتهم الناس أمه الخيزران بسمّه؛ لما كان منه من غل يدها عن المداخلة في أمر الملك، ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها، وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادي من الإساءة إلى الرشيد، وإرادة عزله أو قتله. وكان الرشيد باراً بها، وقد يؤكد ذلك، أنها أرسلت إلى يحيى - والهادي مريضٌ - تعلمه أن الرجـل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبـغي، فاستعدَّ يحيى للأمر أكـمل استعداد وهيَّأ الكتب للـعمال من الرشيد بوفاة الهـادي، وأنه قد ولاهم الرشيد وما كانوا يـولون. فلما مات الهادي، نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

* * *

٥ ـ الرشيد

هو: هارون الرشيد بـن محمد المهدي، وأمه أم الهادي. ولد بـالري سنة (١٤٥هـ)، ولما شبّ كان أبوه يرشحه للخلافة، فولاّه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة سنة (١٦٣هـ)، وسنة (١٦٥هـ)، وفي سنة (١٦٤هـ) ولاه المغرب كلـه من الأنبار إلـى أطراف إفريقـية، فكانت الولاة ترسل مـن قبله. وفي سنة (١٦٦هـ) جعله أبوه ولي عـهد بعد الهادي. وفي سنة (١٦٩هـ)، وهي السنـة التي تُوفي فيها المهدي، أراد أن يقدمه عـلى الهادي؛ لِمَا ظهر من شجاعته وعلوّ شأنه، فحالت منية المهدي دون ذلك.

بُويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ ـ ١٤ سبتمـبر سنة ٧٨٦م)، وسنّه (٢٥ سنـة)، ولم يزل خليفـة إلى أن توفي في ثالـث جمادى الآخرة سنة (١٩٤هـ ـ ٢٤ مـارس سنة ٨٠٨م)، فكانت مدته (٢٣ سـنة) وشهرين و (١٨ يوماً) وكان سنّه إذا تُوفي (٤٨ سنة).

وكان يعاصره في الأندلس: الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢هـ)، ثم هشام ابن عبد الرحمن (١٧٢ ـ ١٨٠هـ)، ثم الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ).

وفي المغرب الأقصى: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ ـ ١٧٧هـ)، وهـو أول المتـغلبـين من الـبيـت الإدريسي، ثـم ابنـه إدريس (١٧٧ ـ ٢١٣هـ).

ويعاصره في فرنسا: شارل الكبير، المعروف بـ «شارلمان» (٧٦٧ ـ ٨١٤م).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية: قسطنطين السادس، وكانت تدبره لصغره: أمه أريني (٧٨٠ ـ ٧٩٧م)، ثم استبدت بالملك من سنة (٧٩٧) إلى سنة (٨٠٢م)، ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١).

● **الحال لعهده:**

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها، مما سنفصله بعد، ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حدّ يؤذن بقرب الهبوط، وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة في الداخل والخارج، وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي ـ كما سنبين ذلك كله مفصلاً ـ، ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة.

● **الطالبيون:**

كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل، فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة، كما كانت شيعتهم تتحيّن الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم. وكان بنو العباس من أجل ذلك، لا يأمنون جانبهم، لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم، وكان أول ما فعله معهم: أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي، وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه، لم يتركه الطالبيون على سجيته، فكان من أول الخارجين عليه: يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم، فاشتدت شوكته بها وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد، فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذَّره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى، وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به

مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقاً سنيَّة وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره، وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه. وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك. وسنبيّن خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة، ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الإسلامية.

• **إدريس بن عبد الله:**

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهذا أخو يحيى سار إلى مصر ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى، فالتف عليه برابرة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة، وكان نزوله بمدينة وليلى سنة (١٧٢هـ)، وكانت بيعته في تلك السنة. ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان، وأنه عازم على غزو إفريقيا، همَّ أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك؛ لبُعد الشقة. واختار رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير ويُعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس وزوّده مالاً وطرفاً يستعين بها على أمره، فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية، فقبّله إدريس واختص به وأعجب بحديثه. ولما انتهز الفرصة سمَّه إما في طيب، وإما في سنون وفرَّ هارباً، فمات إدريس سنة (١٧٧هـ)، ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمِّيَ إدريس على اسم أبيه، وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

بذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية، وهما: بلاد الأندلس، على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي. وبلاد المغرب مع تلمسان، على يد إدريس بن عبد الله.

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث، يخاف الطالبيين جداً. ومن اتهم من الناس بالميل إليهم، عاقبه أشد العقوبات، وأخذ موسى بن جعفر، المعروف بالكاظم، إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

• **الخارجون عليه من غير العلويين:**

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم، بل كان هناك فريق من الأمة يعني على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من

كتاب الله وسنَّة نبيه. وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على عليّ بن أبي طالب إلى زمن الرشيد، إلا أن خلفاء بني أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد؛ كالمهلب بن أبي صفرة وغيره. ومع ذلك، فإنهم لم يقدروا على إفناء روحهم الشورية من الأمة، فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب.

وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة. وأشهر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً: الوليد بن طريف الشاري الشيباني؛ كان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي نصيبين. خرج على الرشيد سنة (١٧٨هـ)ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة سنة (١٧٩هـ)، واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه، فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني، وهو ابن أخي معن بن زائدة. فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعاً في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد، فقالوا له: إنه يراعيه لأجل الرحم، وإلا فشوكة الوليد يسيرة. فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً، وقال: ولو وجهت أحداً من الخدم، لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن متعصب، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد، ليبعثنَّ إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين، فلقي يزيد الوليد، ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب، ناداه: يا وليد، ما حاجتك إلى التستر بالرجال، ابرز لي، فقال: نعم والله، فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري ... قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد، فتطاردا ساعةً وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار، فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار سنة (١٧٩هـ)، ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن ألطف الرثاء: ما قالته الفارعة أخت الوليد:

بتل نهاكي رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف
تضمن محدباً عد مليا وسؤدداً ... وهمة مقدام ورأس حصيف
فيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم ... معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم ... مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة ... من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح ... وسمر القنا ينكرانها بألوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه ... شجا لعدو أو نجا لضعيف
ألا يا لقوم للحمام وللبلى ... وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومي للنوائب والردى ... ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى ... وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه ... إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشا حيث أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف
فإن يك أوداه يزيد بن مزيد ... فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفاً فإنني ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف

- **خطر المشرق:**

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب، فقد انتفضت أطرافها بخروج عبد الرحمن ابن معاوية وإدريس بن عبد الله. وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون، فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والي خراسان.

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسى بن ماهان خراسان، فأشار إليه ألا يفعل، فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع مالاً جليلاً ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال، فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به علي بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد، فقال له: هذا الذي أشرت ألا نوليه هذا الثغر، فقد خالفناك فيه فكان في

خلافك بركة وهو كالمازح معه إذ ذاك، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي، فأنا أحب إليّ من ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي ومعرفته فوق معرفتي وما أحسن هذا وأكثره، إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين، وأسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه. قال: وما ذاك؟ قال: أحسب أن هذه الهدايا ما جتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بصفتها الساعة من بعض تجار الكرخ، قال: و كيف ذاك؟ قال: قد ساومنا عوناً على السفط الذي جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجبي يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف، ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك، وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علي بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها. فأجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه عليّ في ثلاث سنين. فوقرت في نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر علي بن عيسى.

فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم، كتب رجال من كبرائها ووجهائها إلى الرشيد، وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء مسيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه، ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به. فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر علي بن عيسى وفي صرفه، فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد: إن علي بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى الري من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة (١٨٩هـ)، ثم سار إلى الري ثم إلى قرماسين، ثم عاد إلى الري فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتّابه وخَدَمه وقوّاده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يُقال فيه، فرضي عنه وردّه إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد علي بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلّم فيه بسوء، فآذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار، وجدّه نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي. أمّا رافع: فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد، التمست سبباً للتخلص منه

وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها فدسّ إليها من قال لها: إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوماً عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تنوب فتحل للأزواج، ففعلت ذلك وتزوجها رافع. وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرّق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيّده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحدّ وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه، فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى طالباً أمانه فلم يجبه علي إليه، وهمّ بضرب عنقه، فكلّمه فيه ابنه عيسى بن علي وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علي بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقي رافع عيسى بن علي وهزمه. فأخذ علي في فرض الرجال والتأهب للحرب. أمّا رافع: فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي، فوجه صاحب الشاش في أتراكه وقائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه، وكان علي بن عيسى في ذلك الوقت ببلخ، فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتي مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولي عليها وكان عيسى ابنه قد دفن في بستان داره ببلخ أمولاً عظيمة، قيل: إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم، ولا يعلم بها علي بن عيسى ولا أطلع عليها إلا جارية كانت له، فلما شخص علي إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة، فبلغ الرشيد الخبر، فقال: خرج من بلخ بغير إذني وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلي نسائه، فما أنفق على محاربة رافع؟ في ذلك الوقت، تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته، فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين ـ وهو قائد شجاع بطل ـ، فقال له: إني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سرّي فيك، وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى؛ إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أني أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور، فإذا نزلتها، فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله، وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهوّن عليه أمر علي فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهّب للمسير وأظهر لخاصتك وعامّتك أني أوجهك مدداً

لعلي بن عيسى وعوناً له. وكان كتابه لعلي بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه. أما عهده لهرثمة فهو:

(هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاّه ثغر خراسان وأعماله وخراجه، أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له في كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرّم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله أو يردّه إلى إمامه ليريه الله - عز وجل - فيه رأيه ويعزم له على رشده. وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماله وكتّابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منه كل مال يصلح عليه من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين، فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يردّه إليه، فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تَلِفَت نفوسهم وبطلت أرواحهم، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأة وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله. فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي فكذلك فليكن عملك. وعليه، فليكن أمرك ودبّر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله. هذا عهدي وكتابي بخطي وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً). وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته.

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذي عينه لهم حتى إذا وصل مرو، خرج علي بن عيسى لمقابلته؛ لأن هرثمة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه، فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبئ عن يقينه فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيّده وكذلك قيّد أولاده وكتّابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق علي بن عيسى وما أمره به فيه وفي عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء

وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه علي بن عيسى هو وأولاده وكتّابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا: إنه حمل على (١٥٠٠ بعير)، وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند علي بن عيسى، أرسله هو وأولاده في الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر سنة (١٩٣هـ)، وهي السفرة التي مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

● وزراء الرشيد:

أول وزراء الرشيد: يحيى بن خالد بن برمك. ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً في صدر الدولة العباسية، أحببنا أن نشرح أوليتها.

●● أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من محبوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ تُوقد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدنة له، وكان برمك عظيم المقدار عندهم، ولم يعلم هل أسلم أو لا؟

لما جاءت الدعوة العباسية خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلّته للسيادة ورفعة القدر في صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال، فكان مدبر أمره، غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبي العباس، فلما ولي أبو جعفر أبقى خالداً في منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبي أيوب المورياني الذي تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة، ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبري في حوادث سنة (١٥٨هـ): أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك، فاستعان في ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم. وفي غد ذلك اليوم الذي أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل، وكان ممدوح الولاية حسن السيرة. قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلي: ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبة كانت له في صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة (١٦٣هـ) في أوائل خلافة المهدي.

أمّا يحيى بن خالد، فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً، ربّاه أبوه

فأحسن تربيته، كـان مولده سنة (١٢٠هـ)، فكانت سنه حين جاءت الدولة الـعباسية اثنتي عشرة سـنة، فتربّى في كـنف الدولة وكان عـضد أبيه في مـلمّاته وشدائده. وقـد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة (١٥٨هـ)، قال له: أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور. وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقـتهم به عظيمة، فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفي سـنة (١٦٣هـ)، اختاره المهدي ليكون كاتبـاً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بيا أبي؛ وذلك لأن زوجة يحيى أم الـفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه في غزوة الصائفة سنة (١٦٣هـ)، وكان على أمر العسكر ونفقاته وكـتابته والقيام بأمره. وكان في تلك الغزوة الربيـع بن يونس الحاجب غـازياً عن المهدي، فـكان الذي بين الربـيع ويحيى علـى حسب ذلك، وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهمـا. ولما ندب المهدي يحيى لذلك المهم قال له: إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليـك خبرتي له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره.

ولما ولى المـهدي ابنه هارون المغـرب كله سنة (١٦٤هـ) مـن الأنبار إلى إفريقـية، أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها، واستـمر على حاله تلك إلى أن مـات المهدي، ولما ولي الهادي أبقاه عـلى حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد، ابتدأت محنة يحيى، فإنه هو الذي جرأه علـى الاستمساك بحقه الـذي منحه إياه أبو المهدي، وكـان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال لـه يحيى: لا تفعل. فقال: أليس يترك لي الهنيء والمـريء فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة، ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يـخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسعى إلى الهادي بيحـيى. وقيل له: إنه ليس عليـك من هارون خلاف وإنّما يفسده يحـيى بن برمك فأرسل إلـيه الهادي، وقال لـه: لم تدخل بينـي وبين أخي وتفسـده علي؟ فقال: يـا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بـينكما؟ إنّما صيرني المهدي معه وأمرني بالـقيام بأمره، فقمت بما أمرني به ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلـى أمرك. ثم قال له لما كلمه في أمر الخلع: يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان، هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير، ومما قاله في هذا: يا أميـر المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألاَّ نبلغه

وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال: والله ما أظن ذلك. قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك، فقال: نبّهتني يا يحيى. قال: وكان يقول ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى، وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له، ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلّغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله. ولكن يظهر أن الذي كان يحرك الهادي إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته، فاشتدّ غضبه منه وضيق عليه، فقال يحيى لهارون: استأذن في الخروج إلى الصيد، فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وعمه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقوّاده ألسنتهم فيه وكان الذي ينوب عن يحيى والرشيد بالباب: الفضل بن يحيى، فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه، ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتلّ موسى علته التي مات فيها، فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلّده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه. وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها. وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة، غرّة في دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد. وقد ضم إليه الرشيد في سنة (١٧١هـ) خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان.

وكان ليحيى أربعة من الأولاد، كلهم سادة نجب، وهم: الفضل، وجعفر، ومحمد، وموسى بنو يحيى.

فأمّا الفضل: فهو أكبر الإخوة، وُلد سنة (١٤٨هـ) قبل ولادة الرشيد بأيام. وقد

أرضعت كلاً منهما أم الآخر، ولما شبَّ كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد، ولما ولي أبوه وزارة الرشيد، كان الفضل ينوب عنه في جلائل أعماله. ولما وُلِد محمد الأمين، جعله الرشيد في حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً.

وفي سنة (١٧٦هـ): كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم، فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى، فولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان، ولم يزل يحتال في أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة. وقد عرف الرشيد ذلك للفضل، فبلغ الغاية في إكرامه ومدحه شعراء العصر؛ بسبب ذلك. فقال مروان بن أبي حفصة:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة ... من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً ... لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب:

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ... في غزوتين توالتا يومان
سد الشغور ورد ألفة هاشم ... بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها ... عظم النبا وتفرق الحكمان

وفي سنة (١٧٨هـ): ولأه الرشيد خراسان وثغورها، فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد. وغزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك أشروسنة وكان ممتنعاً، ويُقال: إنه اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت (٥٠٠٠٠٠ رجل)، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد «الكرنبية» وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم. وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم غرّ سهمهم ... من الوراثة في أيديهم سبب
أمست يد لبني ساقي الحجيج بها ... كتائب ما لها في غيرهم أرب

كتائب لبني العباس قدِ عرفت ... ما ألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم ... من الألوف التي أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم ... أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق ... يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره ... إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية في الندى والبأس أحرزها ... للطالبين مداها دونه تعب
يعطي اللها حين لا يعطي الجواد ولا ... ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته ... إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله ... غيث مغيث ولَا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان، خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقّاه بنو هاشم والناس من القواد والكتّاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها، وذلك سنة (١٧٩هـ). وكان الفضل في جميع الأعمال التي أسندت إليه كفؤًا نزيهاً، وكان من أكثر البرامكة كرماً، وكان أكرم من أخيه جعفر، وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بـ «الوزير الصغير»، واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس في المهمات حتى كانت النكبة الآتي ذكرها.

وأمَّا أبو جعفر: فهو ثاني أولاد يحيى، وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبُعد الهِمَّة وعظَم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأَخلاق طلق الوجه ظاهر البشر. وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه، فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبي يوسف يعقوب القاضي حتى علَّمه وفقّهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل؛ لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير، ولا يسمون جعفراً بذلك؟ فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني. قال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل، فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك، فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمي بـ «الوزير الصغير»، وقال له يوماً: قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى، فاكتب أنت إليه، فكتب يحيى إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين ـ أعلى الله أمره ـ أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالك، فأجابه الفضل: قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه؟ فقال جعفر: لله در أخي، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منَّة العقل عنده وأوسع في

البلاغة ذرعه.

وفي سنة (١٧٦هـ): ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال في دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران.

وفي سنة (١٨٠هـ): هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها، فاغتمَّ الرشيد لذلك، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام، وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا. فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي. فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة. وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك، فقال منصور النميري:

لقد أوقت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذ جاش موج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبائها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلافي صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية ... دموع لها الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية في رؤوسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح حال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب بإحياء الأمور إذا التوت ... من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة ... يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام يا ويل أمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها
فإن سالموا كانت غمامة نائل ... وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد ... أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى في البرمكيين من ندى ... ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله ... إليك وعزت عصبة أنت جارها

عـذيرى مـن الأقـدار هل عـزمـاتهـا مـخلـفتـي عن جـعفـر واقتـسارهـا
فـعـين الأسـى مـطـروقـة لـفـراقـه ونـفـسـي إلـيه مـا يـنـام ادكـارهـا

ولما شخص جعفر مـن هذه المهمة، ازداد الرشيد له إكراماً وخطب جعـفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفي هذه السنة، ولاَّه الرشيد خراسان، ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاَّه الحرس، وكان يخلفه في هذا العمل: هرثمة بن أعين، وهو من كبار قواد الدولة.

وفي سنـة (١٨٢هـ): بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بـولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين، وضمه إلـى جعفر بن يحـيى ليكون المدبر لأمـره، كما كان الأمين مع الـفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والي المغرب كله، والمأمون والي المشرق كله، وكانت الولاة التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولي العهد.

وأما موسى بـن يحيى، فكان أشجـع القوم وأشدهم بأسـاً لم ينل من الشهـرة ما ناله أخواه الفضل وجعفـر، إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سريًا وقائـداً باسلاً، ولاه الرشيد الشام سنة (١٨٦هـ) لما هاجت بها الفتن والعصيـان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه مـن القواد والأجناد ومشـايخ الكتَّاب جماعة، فـلما ورد الشام، أقام بـهـا حتى أصلح بين أهلها وسكنـت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلـى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يـحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهـم وأقدمهم بغداد. فقيل في موسى بن يحيى:

قـد هـاجـت الـشـام هـيـجـاً • يـشـيـب رأس ولـيـده
فـصـب مـوسـى عـلـيـهـا بـخـلـيـه وجـنـوده
فـدانـت الـشـام لمـا أتـى بـسـنـخ وحـيـده
هـو الجـواد الـذي بـذ كـل جـود بـجـوده
أعـداه جـود أبـيـه يـحـيـى وجـود جـدوده
فـجـاء مـوسـى بـن يـحـيـى بـطـارف وتـلـيـده
ونـال مـوسـى ذرى المجـد وهـو حـشـو مـهـوده
خـصـصـتـه بمـديـحـي مـنـشـوره وقـصـيـده
مـن الـبـرامـك عـود لـه فـأكـرم بـعـوده
حـووا عـلـى الـشـعـر طـراً خـفـيـفـه ومـديـده

وقد اتهمه علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه، فلما قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة في حجه سنة (١٨٧هـ)، وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى، فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردّها في شيء، فقال: يضمنه أبوه فقد رفع إليه فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه الرشيد وخلع عليه.

وأمَّا يحيى بن يحيى، فكان سرياً بعيد الهمَّة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته. كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته، جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقُّوا به ثناء معاصريهم من الكتَّاب والشعراء والقصَّاد، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء، تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة (١٨٧هـ)، التي نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

•• نكبة البرامكة:

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة، وأجهدوا قرائحهم في تعرّف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية، فإنَّ للمنصور والمهدي سلفاً في ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياني قتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدي بوزيريه أبي عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحُسن سيرته، ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه في الله. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ، أن طبيعة الملك الاستبداد؛ أي: يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يُشَارَك، والحَوْل الذي لا يُقَاوَم، واليد الطولَى التي لا تضارعها يد، وكبارالرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم، فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون

والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلوّ أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم، وحينئذ يرى هذا السلطان المستبدّ أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوبِ إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه فينتقص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصاً بالرشيد والبرامكة، بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر؛ لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال. على أن أبا عبد الله وزير المهدي - مع نزاهته وبُعْدُه عما يوجب غيرة سلطانه - جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدي: إنه زنديق فقتله المهدي، فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدي ووزيره.

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه: يا أبي، وكانت أم الفضل بن يحيى ظئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيى، فكان يحيى هو الذي يكفله ويقوم بتربيته من لدن وُلِدَ إلى أن شبَّ. وهو الذي كانت له اليد الطولَى في إخفاق المساعي التي بُذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي، فلما تولى الرشيد قلَّده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي، فاجتمعت له الوزارتان وأعانه في العمل أبناؤه، إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية، حتى روى القاضي يحيى ابن أكثم، قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، قال القاضي: فقلت: يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة ؟ فقال موسى بن يحيى: وقد رأيت أن أوليه ثغر السِّنْد.

ولم يكونوا في الاتصال بالرشيد على درجة واحدة، فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة، وحاله في سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة، وكان الفضل في الأخلاق مثله، فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه، فكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته وكان مشغوفاً بالسماع. أمَّا جعفر، فكان أخف الجميع على قلب الرشيد، فكان لذلك يدخل في منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره

بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه، ويقال: إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه: إني إنَّما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنين، أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليَّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي وأمن لك عليَّ. قال الرشيد: يا أبت، ليس بك هذا ولكنك إنَّما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك، كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً، حتى كان يقضي أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد، ابن يحيى وأخي الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار في آخر ليلة من محرم سنة (١٩٧هـ) بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدي ولديه الأمين والمأمون، ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أُحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون. ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق. ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمراً بالنداء في جميع البرامكة، أن لا أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه، فإن الرشيد استثناهم؛ لمَا ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنُّوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسين ذلك لحادث فجائي حدث فغيَّر قلب الرشيد هذا التغيير، وأداه إلى هذا العمل - شأن الناس في الأعصار كافة، إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع -.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم، فقال: والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد لهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذي هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب - ﷺ - وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح، وأيام عثمان - ﷺ - حتى قتلوهم، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه

إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأماه الرشيد. ذكر أبو محمد اليزيدي ـ وكان فيما قيل: من أعلم الناس بأخبار القوم ـ قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه؛ وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً. فَرَقَّ عليه، وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك؟ فوجه معه من أدّاه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه، فعلم الأمر فوجده حقّا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال: ما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري، فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده، قال: نعماً فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي. فلما خرج، أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي التي رواها الطبري عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها، وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية، بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضاً.

كان من موالي العباسيين: الفضل بن الربيع. وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدي، ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر؛ لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً، ففي اليوم الذي توفيت فيه سنة (١٧٤هـ) دعا به هارون، فقال له: وحق المهدي إني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده. فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب: أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء، فأحب أن يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفونه. وولي الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى.

في سنة (١٧٦هـ): حصلت حادثة يحيى بن عبد الله، فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد، لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام، فإن السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب، وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء، فرفع إليه أن يحيى لايزال يدعو إلى نفسه وإنّما ينتظر الفرص. وكان أكثر الناس سعايةً في ذلك: بكار بن عبدالله الزبيري وكان شديد البُغض لآل أبي طالب، ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم، فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيّق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً، لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف. فأمّا محمد بن الحسن، فإنه قال له: ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً. وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد، ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد. وأمّا أبو البختري، فقال: إن الأمان منتقض وأقبل يعدد وجوه نقضه، ولذلك قال له الرشيد: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك، فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة؛ ليسعى بيحيى بن عبد الله عند الرشيد؛ لأن في قتله إذلالاً لمن كان السبب في استنزاله. وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم؛ لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم. والذي أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة للسعي بيحيى: أن الرشيد لما كان كان يحاج يحيى، نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا والله من آفاتك.

كان المفهوم بعد ذاك، أن يجتهد البرامكة في تخليص يحيى، ففعل جعفر فعلته التي قدّمنا ذكرها. والرشيد ـ وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال ـ لا يحتمل له هذا؛ لأنه متعلق بملكه. ومن الغريب، ما ورد في هذه الحادثة، من أنّ الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه، وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقّب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقي بها إليه. كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء، وهي الإخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ. وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك، وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي، وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك، أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم، وينفس

عليهم ما صار إليه من عظيم الأموال وجلائل المدح. وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون. روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد؛ إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلَّم، ردَّ عليه ردًّا ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيَّر ثم أقبل الرشيد على جبريل، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، قال: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون: قال جبريل: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدَّث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربد لونه. قال: وكان الغلمان والحجَّاب إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.

وحدَّث يعقوب بن إسحاق، عن إبراهيم بن المهدي، قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال: أما تعجب من منصور بن زياد، قال: قلت له: في ماذا؟ قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت له: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له. قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له: يا أمير المؤمنين، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه؟ وما ظنّك يا أميرالمؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والوقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت لأمير المؤمنين: نعماً على قوم قد كفروها بالستر أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا.

وحدَّث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً ـ وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي قرَّبه منه ـ : إني قد استربت بأمر هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت، فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه، قال إبراهيم: ففعلت ذلك في يومي.

فلما نهض الرشيد من مجلسه، كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في طريقي فدخلتها ومن معي وأمرتهم بإطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحداً بعد واحدٍ فأراهم ولا يرونني حتى إذا لم يبق منهم أحد، إذا أنا بجعفر قد طلع، فلما جاوز الشجرة قال: اخرج يا حبيبي، قال: فخرجت. فقال: ما عندك؟ فقلت: حتى تعلمني كيف علمت أني ههنا؟ قال: عرفت عنايتك بما أُعْنَى به، وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمني ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه، ثم قال: هات ما عندك. قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت، قال: كذا هو عندي، فانصرف يا حبيبي.

من كل هذا، يتبيَّن أن النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر، وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا ما ركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة، وكان الرشيد يتحيَّن الفرصة للإيقاع بهم ـ ولا سيما جعفر ـ ؛ لمَا كان منه من تخليص يحيى بن عبد الله. وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العباسي، وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعه في ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر؛ لقيامه في أمر المأمون، فإنه هو الذي قام في ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوَّفون من جعفر أن يكون سبباً للإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد. لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة.

في سنة (١٨٦هـ): حجَّ الرشيد، ولما انصرف من حجّه، أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضي عنه بعد غضبه عليه. وفي غاية المحرم، أمر فيهم أمره فقُتل جعفراً وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها، وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه، وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم، ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعمهم بالتسقف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد، فضيَّق عليهم.

●● حادثة عبد الملك بن صالح:

هو: عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها، وأن البرامكة كانوا له عوناً والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد، فلما دخل عليه، قال: أكفراً بالنعمة وجحوداً لجليل المنّة والتكرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لقد بؤت إذاً بالندم وتعرّضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية. إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادثها والغفران لذنوبها. فقال له الرشيد: أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنابك؟ هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه. فقال عبد الملك: أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني، وأحضر قمامة فقال له الرشيد: تقدّم غير هائب ولا خائف. قال: أقول: إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك، فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قمامة؟ قال: نعم، لقد أردت ختل أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: كيف لا يكذب عليّ من خلفي وهو يبهتني في وجهي؟ فقال له الرشيد: وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوّك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك، فبم تدفعهما عنك؟ فقال عبد الملك: هو مأمور أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً فمعذورٌ، وإن كان عاقاً فـفاجر كفور أخبر الله - عز وجل - بعداوته وحذّر منه بقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1]. قال: فنهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك، فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك. فقال عبد الملك: رضيت بالله حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكماً، فإنّي أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه.

فلما كان بعد ذلك، جلس مجلساً آخرً، فسلّم عبد الملك لما دخل، فلم يرد عليه الرشيد، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً، فقال الرشيد: لمَ؟ قال: لأن أوله جرى على غير السنّة فأنا أخاف آخره، قال: وما ذاك؟ قال: لم ترد عليَّ السلام نصف نصفة العوام، فقال الرشيد: السلام عليكم اقتداءً بالسنّة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحيّة. ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال:

أريد حياته ويريد قتلي! أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع،

[1] التغابن: ١٤.

وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم فمهلاً مهلاً بي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك: اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيتك التي استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر لا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يلملم وتركت عدوك مشتغلاً، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بللته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو ببغي باغ ينهش ويلغ في الدم، فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته، كما قال أخو بني جعفر بن كلاب:

ومقام ضيق فرجته ببنان ولسان وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي و زحل

فقال له الرشيد: أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم، لضربت عنقك، ثم أمر بحبسه فحُبِسَ عند الفضل بن الربيع. وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في السجن: إن عبد الملك ابن صالح أراد الخروج عليَّ ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه، إن صدقتني أعدتك إلى حالك، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا، ولو اطلعت عليه، لكنت صاحبه دونك؛ لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه علي ولي، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني؟! وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك، أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن، ولكن كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله، فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله. فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال: إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل، فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء، فالذنب فيه لي، فبم يدخل الفضل في ذلك؟ فقال الرسول للفضل: قم فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك، فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له: ألست راضياً عني؟ قال: بلى، فرضي الله عنك ففرَّق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً، جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سُقْنَا هذا؛ لندلّ على أن التهم التي وُجِّهَت إلى البرامكة كافة - ولا سيما جعفر - سياسية محضة، وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم. وإذا أُضيف إلى ذلك: غيرة السلطان ممن يساميه في سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره، كان ذلك

أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التي يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التي سار عليها بنو العباس فقد كان مما عدَّه المنصور على أبي مسلم من ذنوبه ـ وهو من هو في الدولة وتشييد بنيانها ـ أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت علي بن عبد الله بن عباس، ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلّط آل سلجوق عليهم، فكيف يظن بمثل الرشيد أن يُقْدِم على زواج سري كهذا سببه خسيس؟! هذا بعيد جداً

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد، كفاية. فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس حتى جعله ذلك إذناً يسمع لكل واشٍ ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها ـ بل زهرة الدولة العباسية كلها ـ فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا. وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين. فما هي إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بحلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل، بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة. وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر، فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون ـ كما سيجيء ـ؛ لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار. ويرى ذلك يحسن في آذان الخلفاء، فلم يكن يصطبر على ذلك، فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنَّا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء، فهم آفة الأمم وَسُوسُ عِظَامِها.

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة: الفضل بن الربيع، فلم يسد المكان الذي سدُّوا.

● العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة، دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية. ودولة شرلمان، الذي كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية. ودولة الأمويين بالأندلس. وحدثت في عهده دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى ـ كما سبق ـ.

●● أولاً: العلاقة مع الروم:

من أعمال الرشيد: أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً. وسميت العواصم، وجعل قاعدتها منبجاً وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة (١٧٣هـ)، وسميت العواصم؛ لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا

انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون. ومن تلك المدن الشهيرة: طرسوس، وقد عمرت في زمن الرشيد على أيدي أبي سليم فرج الخادم التركي، ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح. ووصل سنة (١٧٥هـ) إلى إقريطية. وفي سنة (١٨١هـ) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح عنوة حصن الصفصاف، وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة.

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة (١٨٧هـ)، فولي بعده القاسم بن الرشيد، وسكن منبجاً فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها. ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل (٣٢٠ رجلاً) من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصني قرة وسنان. كان يملك الروم في ذلك الوقت إريني وكانت في أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة (٧٨٠م)، ثم استبدلت بالملك سنة (٧٩٠م)، فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له؛ وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة، وبين شارلمان من جهة أخرى. وكلتا الدولتين تناوئها العداوة؛ لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التي كانت لها في القدَم.

وفي سنة (٨٠٢م): نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور، فقعد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحُمقهنّ. فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزَّه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرَّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبدّ برأيه دونه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون أن تسمعه. والسلام).

ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة، نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكره في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد بن عبد الله بن يوسف فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شعل الضرام (١) تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواخر بحره ... فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً ... عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه ... فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه ... والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة ... ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أوقد فعل نقفور ذلك، وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد. فقال أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب ... من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والإياب

---

(١) الضرام: بالكسر هي اشتعال النار في الحلفاء ونحوها كما في مختار الصحاح .

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك. **وفي سنة (١٨٩هـ)**: حصل فداء بين المسلمين والروم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فُودي به، وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم، فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها مـحابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وفي سنة (١٩٠هـ): غزا الرشيد الصائفة بنفسه، ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دخلها في (١٣٥ ألف) مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له، وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال، فأضرّ بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها وولّى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر، فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة، فعسكر بها، ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر، وأمره بابتناء منزل هنالك. وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق ديناران. وكتب مع بطْريقيْن من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم: سلام عليك، أما بعد: أيها الملك، إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هيّنة يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. واستهداه ـ أيضاً ـ طيباً وسرادقاً من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأُجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق، فسلم ذلك كله رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون واثني عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ـ وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار ـ.

وفي سنة (١٩١هـ): غزا الصائفة هرثمة بن أعين، أحد كبار القواد، وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان، ومعه مسرور الخادم وإليه في النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة. ومضى الرشيد إلى درب الحدث، فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن

سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها. وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس. فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة، فإنَّ قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيِّناً على الروم؛ لمَا كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالي ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

●● ثانياً: العلاقة مع أوروبا:

كان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن، وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية، واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديارالشرقية؛ لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية، وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية ـ وخصوصاً زائري القدس ـ، فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هارون الرشيد، وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدَّم؛ وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس، ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسرَّ بذلك؛ لأنه عدَّه فوزا على نقفور، ولهذا لما قَدِمَ سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام، واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين:

الأولى: تمكّنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها.

والثاني: نيله رضا الرشيد.

وقد أراد ـ أيضاً ـ أن يغتنم غنيمة علمية، فإن أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة؛ لأنه بانقراض الرومانيين، وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا، انطفأ مصباح العلم. أمَّا الحال في البلاد الإسلامية، فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد وقرطبة، فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلَّموا في البلاد الإسلامية، وكانوا من اليهود، فانتخب منهم شارلمان رجلاً يُقال له: إسحاق، وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا، وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا، وهي: ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان، ظنُّوها من الأمور السحرية، وأوقعتهم في حيرة وهمُّوا بكسر الساعة، فمنعهم الإمبراطور. وفي ذلك التاريخ، اتفقوا على أمور تتعلق بحماية

المسيحيين الذي يتوجّهُون لزيارة القدس.

أمَّا علاقة بغداد بقرطبة، فكانت شر علاقـة؛ إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بني أمية نظر الخارجين على دولته، فكان يود محوهم، ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى، فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة، ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

- **حضارة بغداد في عهد الرشيد:**

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أمَّا من حيث العمارة: فقد فاقت كل حضارة عرفت لعهدها. بُنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الـدنانير. وتأنَّق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكـنتها وتشيـيد بنيانها. وصـارت قصور الجانب الشـرقي بالرصافة تنـاوح قصور الجانب الغـربي، كان في الشرق قـصور البرامكـة وما أنشأوه هناك من الأسـواق والجوامع والحمـامات، وبالجانب الغـربي قصور الخـلافة التى كانـت تبهر النـاظرين اتساعاً وجـمالاً وامتدت الأبنية امـتداداً عظيماً حتى صارت بغـداد كأنها مدن متلاصقـة تبلغ الأربعين على جانبي دجلـة واستبحر العمـران فيها لما جاورها مـن الثنايا، وصار سكانها نـحو ألفي ألف نسمة حتى ازدحمت بساكـنيها. وكانت متاجر البلدان القاصية تصلهـا براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومـن الهند والصين ومن الشام والجزيرة. والطـرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة. وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص.

وأمَّا من حيث ثروة الدولة: فقد كان يرد على الخليفة ببغداد، ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعـد أن تُقضى جميع حاجاتـها. وقدّر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربـعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف مـنه في مرتبات الوزراء المساعدين له والباقي يتصرف فيـه حسبما يرى وهو شيء جسيـم، وكان الرشيد أسمح خلفاء بنـي العباس بالمال يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصَّاد والـشعراء والكتَّاب والمنتجعين. وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حـتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد يتردد الإنسان في صـحتها. وتلك الثروة العظيـمة تتداولها الأيدي فتروج التـجارة وتقضى الحاجات وتكثر المـدنية. وعلى تلك السنَّة زادت ثروة الناس بتلك المدينـة العظمى و اشتد بهم الترف حتى يُقال: إن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوّارها؛ لمَا يرونه من بعد الـشبه بين ما عندهم وما يرون مـن ثرائها وبذخ أهلها وانغمـاسهم في الملاذ

وإعطائهم أنفسهم ما تصبوا إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأمَّا العلم: فإنَّ بغداد صارت قِبْلَةً لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية، يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون، فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها، فقد كان فيها كبار المحدِّثين والقرَّاء والفقهاء وحفَّاظ اللغة وآداب العرب والنحويون، وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقِّي هذه العلوم. وقلَّمَا كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدِّث أو كاتب، إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء، كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومَنْ دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا؛ كالطب، والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات. فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصنَّاع من الأقاليم المختلفة، فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدينة؛ كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية. وسنرجئ الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون.

- **أخلاق الرشيد:**

كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة.

فأمَّا صلاته: فكان يصلِّي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علَّة، وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني. كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته. سمعه مرة يقرأ في صلاته: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فقال ابن أبي مريم: لا أردى والله فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب، فقال: يا ابن أبي مريم، في الصلاة - أيضاً - ثم قال: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما.

وأمَّا صدقته: فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه. ولم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وأمَّا حجه: فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو. فهو في كل عام بين

---

(١) يس: ٢٢.

غاز وحاج. وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه، وهي: السنوات (٧٠)، و(٧٣)، و(٧٤)، و(٧٥)، و(٧٧)، و(٨٠)، (٨١)، و(٨٦)، و(٨٨)، بعد المائة. وكان إذا حجَّ، حجَّ معه من الفقهاء وأبنائهم. وإذا لم يحج، يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك، رقيق القلب سريع الدمعة. دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين، اتقِّ الله وحده لا شريك له، واعلم أنك غداً بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار. فبكى هارون حتى اخضلت لحيته، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال: سبحان الله! وهل يتخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله؛ لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله. فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا ـ يعني الفضل بن الربيع ـ ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتقِّ الله وانظر لنفسك. فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع، فلم ينطق بحرف. ودخل عليه مرة أخرى، فبينا هو عنده، إذ استسقى ماء فأتي بقلة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها، قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين، بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي. قال: اشرب ـ هَنَاكَ الله ـ. فلما شربها، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي. قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه. فبكى هارون. ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثَّروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم.

وأمّا جهاد الرشيد: فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده، بل كان ـ غالباً ـ في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى. قال مروان بن أبي حفصة:

وسدت بهارون الثغور وأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لوائه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الشغور
ففي أرض العدو على طمر وفي أرض الترفه فوق طور
وما حاز الشغور سواك خلق من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهده في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الداخل والخارج، كان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال. وكان لا يضيع عنده إحسان محسنٍ ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه. وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالحري لا يكون فيه ثواب. وكان يحب المديح ـ ولا سيما من شاعر فصيح ـ، ويشتريه بالثمن الغالي. وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

والخلال التي كانت واضحة في أعماله: الشجاعة، وشدة الغضب، ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة، فكان يقود الجيش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر. وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه، اشتدّ غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه. وإذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له، وقلما كان يعفو. وبهذا فضَّله ابنه المأمون ـ كما سيجيء في تاريخه ـ .

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه، وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب، ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعده مثلهم ـ كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بـ «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني ـ.

ولا مراء أن الرشيد يُعدّ من كبار الخلفاء ونوابغهم، ولولا كثرة وسواسه بالكائدين له، فإن ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقرّبون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلاهم كعباً، واستبقى الفضل بن الربيع؛ لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوماً.

- **وفاة الرشيد:**

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان سنة (١٩٢هـ)، قاصداً خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر سنة (١٩٣هـ)، وهناك اشتدّت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة

سنة (١٩٣هـ)، وصلّى عليه ابنه صالح؛ لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودُفن الرشيد بهذه المدينة.

وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بنات، فذكور أولاده: محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي، وعبد الله المأمون، والقاسم، والمؤتمن، ومحمد المعتصم، وصالح، ومحمد أبو عيسى، ومحمد أبو يعقوب، ومحمد أبو العباس، ومحمد أبو سليمان، ومحمد أبو علي، ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى.

وتزوّج الرشيد بست زوجات. مات عن أربع منهن، وهنّ: زبيدة، وأم محمد بنت صالح المسكين، والعباسة بنت سليمان بن المنصور، والجرشية بنت عبد الله العثمانية.

* * *

أثر جليل من عهد الرشيد

●●● الخراج:

بين أيدينا أثر من أجلّ الآثار التاريخية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني، وهو كتاب «الخراج» للفقيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ ـ ١٨٢هـ).

كان خليفة المسلمين في هذا التاريخ، خامس بني العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وكان قاضي قضاته: أبا يوسف. وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته، كما كان أبوه المهدي من قبله، ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين، وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذي سنّه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده؛ حتى لا يقع حيف على الرعية، فيثقل الجور كاهلهم ويخلف عمرانهم. وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها، فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها، فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام، وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب «الخراج»، وهي التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف في رسالته، ذلك الفقيه الجاف الذي هو في خيال الكثير منا يكتب

جوابه مبتوراً منقولاً من مسطر سبق به، أو ذلك المفتي الضعيف ينظر إلى غرض المستفتي، فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته، بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة، فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى الله به إلى رسوله ﷺ لإصلاح حال الأمة، فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التي يفتي فيها. فبينا نراه واعظاً لا يخاف في الله لومة لائم، يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة، إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يُتكلم فيه، وكيف وضعها السلف الصالح، وكيف كان غرضهم من ذلك. وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستناً بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة، فينبّه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم، ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق، ويبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجياً بين يدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل، الذي يعطي من قرأه صورة في غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا: التعرف بما انتظمه هذا في الكتاب؛ حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها في هذا العصر، وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شيء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها.

انتظمت هذه الرسالة، **ثلاثة أمور**:

الأول: بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة، ومصارف تلك الأموال.

الثاني: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به.

ونحن نتكلّم في ذلك متبعين هذا الترتيب، وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب؛ لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق.

* * *

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : خمس الغنائم . الثانى : الخراج . الثالث : الصدقات .

المورد الأول من موارد الخلافة: خُمْس الغنائم

أ ـ الغنائم:

الغنيمة: كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجعل منها أبو يوسف ما أُصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز، وهو: الذهب والفضة الذي خلقه الله في الأرض يوم خُلقت. والكنوز العادية التي تصاب في غير ملك أحد، وما أخرج من البحر من الحلي والعنبر. كل ذلك حكمه واحد، وهو: أن للإمام خُمُسُه. أما أربعة أخماسه الباقية: فتكون حقًّا للغانمين فيما أُصيب مع المحاربين وتكون حقًّا للواجد فيما عداها.

ويقسم الإمام أربعة الأخماس على القائمين، سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون. يُضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم؛ سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم. وقال للرشيد: فخذ بأي القولين رأيت، واعمل بما ترى أنه أفضل وأخْيَر للمسلمين، فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين.

ب ـ مصرف الخُمُس:

بيَّن الله في كتابه مصرف الخُمُس في الآية من سورة الأنفال، حيث يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

قال أبو يوسف: فكان ذلك الخُمُس يقسّم في عهد رسول الله ﷺ: لله وللرسول سهم ولذي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم، ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: عرض علينا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

(١) الأنفال : ٤١ .

أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضي عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأي عليّ بن أبي طالب - ﷺ - فإنه قسّم الخُمُس كما قسّمه.

وذكر أبو يوسف: أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين؛ سهم الرسول، وسهم ذوي القربى في الكراع والسلاح. ورُوي عن عمر بن عبد العزيز: أنه بعث بسهم الرسول ﷺ وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم. قال: وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسّمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر عثمان - رضي الله عنهم -.

وأقول: رأي الشافعي محمد بن إدريس المطلبي - رحمه الله - أن سهم الرسول يصرف في مصالح المسلمين، وسهم ذوي القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بني أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى في العطاء بين الأغنياء والفقراء؛ لأن سبب الاستحقاق القرابة، ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزني وأبو ثور من أصحاب الشافعي، وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما.

ويقول الشافعي: قال أحمد: إلا أنه قال: إن ردُّوه، صُرِفَ في السلاح والكراع كفعل أبي بكر وعمر وعثمان.

الخراج:

المورد الثاني من مواردالخلافة: الخراج

وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء:

١ - وظيفة الأرض الخراجية.
٢ - جزية أهل الذمَّة.
٣ - ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب.

●● أولاً: المورد الأول من موارد الخراج: وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة و الشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - ﷺ - ، طلب إليه بعض ذوي الرأي من الصحابة، أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسّم ما أصابوه من سلاح ومتاع، وأكثروا عليه في ذلك، فأبى عليهم مستنداً إلى كتاب الله تعالى الذي جعل هذا الفيء حقا للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم. ذكر ذلك في سورة الحشر، حيث قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا

غلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فجعل هـذا الفيء حقًّا للمهاجـرين والأنصار ولمن جاء بعـدهم. ومن أجل ذلك، لم يرض عمـر بقسمـة الأرض بين الغانمين؛ لأنه لو قـسّمها بينـهم، لم يبق لمن يأتي بـعدهم شيء، بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها؛ ليكون ذلك في أعطيات الجنود وغير ذلك، ومن هنا رأى أبو يوسف ـ رحمه الله ـ أن هذين الأرضين المفتوحة عنوة يخبر فيها الإمام فإن شاء قسّمها بين الغانمين الذي افتتحوها، وإن لم ير قسّمها ورأى الصلاح في إقرارها في يد أهلها كما فعل عـمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في السواد، فله ذلـك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بـعد ذلك منهم، وهي مـلك لهم يتوارثونـها ويتبايـعون ويضع عليـهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون.

وإذاً، يكون حدّ أرض الخراج ـ كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صَالَحَهم عليها وصيّرهم ذمة.

ويخـرج من ذلك: أنواع من الأراضـي لا يوضع عليـها الخـراج، وإنَّما تكـون أرضاً عشرية، وهي:

١ ـ كل أرض للعرب غير بني تغلب.
٢ ـ كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً.
٣ ـ كل أرض من أرض الأعاجـم ظهر عليهـا المسلمون عنـوة، فقسَّمهـا الإمام بين الغانمين.

وسنبيِّن حكم كل نوع، بعد الكلام على أرض الخراج.

● **ما فعله عمر في أرض الخراج:**

لما اتضح لـعمر رأيه فـي الأرض المغنومة، أرسـل من قِبَلِه من يسمـح أرض السواد، فبلغت (٢٦,٠٠٠,٠٠٠) جريب فوظف عليها الخراج مـقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبـما رأى المندوبان اللذان أرسلهـما لذلك، وهذه الوظيـفة تختلف من درهمـين لعشرة دراهم على الجريـب. فأقلها وظيفة جـريب الشعير عليـه درهمان، وأكثرها وظيـفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم، فى رواية، وثمـانية في أخرى، وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم، وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقـفيز، وجريب الرطبة والسمسم

---

(١) الحشر: ٨ ـ ١٠.

والقطن خمسة دراهم، وجريب القصب ستة دراهم. قال: إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم؛

أقول: وإذا كانت المساحة ـ كما قدّمنا ـ والجباية ما ذكرنا، يكون متوسط جباية الجريب (٢,٧٥ درهم)، وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجربة الحنطة؛ لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خرداذبه: إن عمر جبا العراق (١١٨,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فيكون متوسط جباية الجريب (٣,٥٥) درهم، وهو أقرب من المفهوم، ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك، وهي (٥٧,٧٧) وبالتكسير تكون مساحة الجريب (١٢٠٠م)، فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصري. ولا بد أنه ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بـ«الأحكام المرعية في الأراضي المصرية»، فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين، بذراع الملك. وظن أن ذراع الملك هي الذراع السوداء فوقع في الخطأ الحسابي الذي أنتج له أن كل أربعة أجربة و (٥/٤) جريب تعادل فداناً مصريا مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية»، حيث قال: إن ذراع الملك السواد بخمسة أصابع وثلثي إصبع فتكون ذراعاً وثمناً وعشراً؛ أي: ذراعاً و(٩/٤٠)، وحقق العلاَّمة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي (٤:٥)، فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع التجار و(٥٠٠) بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على (٤٠٠,٥٠٠) يخرج هذان الرقمان (٧٥,٧٧س) وهو طول ذراع الملك و(٤٦,٢س) وهو طول الذراع السواد.

وإذا كان كل (٣,٥) جريب فداناً، تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً (١٤) درهماً. هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر.

لم ير أبو يوسف ـ رحمه الله ـ ما قرَّره عمر - رضي الله عنه - في أمرالخراج، حيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة أن يعدلوا إليها. وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر، فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة، فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أمَّا وظيفة الطعام فإنْ كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذي وظف

عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنه ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور. وإن كان غلاءً فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك. والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد، وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم، فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف، ثم قال: ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفي لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل. وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للسيح منه، وأمًّا الدوالي فعلى خمس ونصف، وأمَّا النخل والرطاب والكُرم والبساتين فعلى الثلث، وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم ما يلزمه من ذلك، أيُّ ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم. ومن رأي أبي يوسف: إعفاء ما دون خمسة أوسق من الخراج وهي (٣٠٠) صاع، أو (١٦٠٠) رطل، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً؛ لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداساً أُخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج، وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر عليهم حزراً ثم يؤخذون بنقائص الحزر، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام ذرى قاسمهم.

ثم قال: ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولانائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه

رواجاً لدراهم يـؤدونها في الخراج فإنـه بلغني أن الرجل منـهم يأتي بالدراهم ليـؤديها في الخراج فيقتطع منها طائفة، ويُقال: هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله، فإنه بلغني أنهم يقيـمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيّدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله وشنيع في الإسلام.

من أجل ذلك، ترى أن أبـا يوسف ـ رحمه الله ـ دقق كثـيراً في أمر من يولى جـباية الخراج، فأشار على إمامه أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدَّى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت، تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حـكم إن حكم. ثم قال: إني قد أراهم لا يحتاطـون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المـسلمين وجباية خراجهم، ولعله لا يكون عرفاً بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باسـتقامة طريقة ولا بغير ذلك. ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتـقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستـقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة علـى الظالم والعفو عن الـناس. قال: وإني لأرجو إن أمرت بـذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك علـى غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مـخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نوبت إن شاء الله. ولتصيـر مع الوالي الذي وليته قوماً من الجند من أهل الديوان في أعنـاقهم بيعة على النصـح لك، فإن من نصحتك أن لا تظـلم رعيتك وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر ولا تجري عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلَّم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مـالهم، ونبّه عليه وطلب مـنه أن يحسم ذلك كله؛ سداً لـضرر أهل الخراج ونقص الفيء.

ورأى ـ مع هذا كلـه ـ : أن يبعث الإمام قـوماً من أهل الـصلاح والعفـاف ممن يوثق بدينه وأمانتـه يسألون عن سيرة العمال ومـا عملوا به الخراج وكيف جبـوه على ما أُمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقرَّ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح، أخذوا بما استفضلوا

من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أُمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به والي الخراج من الظلم والعسف، فإنَّما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم، تعدُّوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم. وإذا صح عندك من العامل والوالي تعدٍّ بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك واحتجاز شيء من الفيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته، فحرام عليك استعماله والاستعانة به، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه في شيء من أمرك.

● تقبل الأرض:

كان النظام المتَّبع في جباية الخراج: التقبل. وهو: جعل شخص من الأشخاص قبيلاً؛ أي: كفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه. و كان الناس يتزايدون فيما يتقبلونه به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله. وقد كره أبو يوسف هذا النظام، فقال للرشيد: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه. وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه إنَّما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم. وإنَّما أكره القبالة؛ لأنِّي لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقع مع الصلاح شيء إن الله قد نهى عن الفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[1]، وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2]. وإنَّما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم. والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظم الظاهر الذي لا يحل ولا يصح. واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل

---

(١) الأعراف: ٥٦.
(٢) البقرة: ٢٠٥.

القرية أو المصر، وقالوا: هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رتب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والأعذار إلى المتقبل والموالي يرفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم، فإن فعل فأفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهياً لغيره إن شاء الله.

• القطائع:

القطائع: جمع قطيعة، وهي ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية.

قال أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: إن عمر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن فتح العراق، اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض (٤,٠٠٠,٠٠٠ جريب) فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع. قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر، فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والإمام مخيّر في هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التي ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو في يده وارثاً أو مشترياً. فأمّا ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخرَ، فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخرَ، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذي وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندي بمنزلة المال، فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء في الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التي سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الإقطاع عندي على ما أخبرتك. ومن رأي أبي يوسف: أن أرض الإقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك، يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره.

● **موات الأرض:**

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات؛ فمن أحيانا فهي له. وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح، وقد خالف شيخه أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ في إحياء الموات، فإن الإمام يقول: لا يملك المحيي ما أحيا إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنَّما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر، أدى عنها العشر، وإن كانت في أرض الخراج، أدى عنها الخراج، وإن احتفر لها بئراً أو استنبط لها قناة، كانت أرض عشر. أما إن ساق إليها ماء الخراج، فهي أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج، فهي له وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها، فهي له، بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من الآجام. كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق، فإن المحافظة على حقوق ارتفاع الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعطبت به سفينة فهو ضامن.

قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أَمَرَ به فهدم ونحى، فإن في هذا ضرراً عظيماً. فالفرات ودجلة إنَّما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً، فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً في دجلة والفرات في موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه، فإنَّ في ذلك أجراً عظيماً. وتكلَّم طويلاً في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها.

●● ثانياً: المورد الثاني من موارد الخراج: جزية أهل الذمة:

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس. وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم؛ وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين في حروبهم. وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غيرالملة لا يدفع جزية. روى الطبري في حوادث سنة (٢٢) من الهجرة: أن عبد الرحمن بن ربيعة ـ أحد قواد عمر ـ لما توجه من أذربيجان لفتح الباب، أتاه ملكه شهريراز، فقال له: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من القبح في شيء ولا من الأرمن. وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي. فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم. فقال عبد الرحمن: فوقي رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك. فقال سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك وصار سنَّة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عند الجزاء، إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة، وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك، فأجازه وحسَّنه وكتب لهم سراقة بذلك كتاباً.

فهذا مما يُستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك في أمر الجزية. فقال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة، والذي يجب عليه الجزية منهم: الرجال دون النساء والصبيان، ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من مقعد لا مال له، ولا من راهب، ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له، وليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدّر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات (٥٨ درهما) على الموسرين، و(٢٤) على المتوسطين، و(١٢) على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيَّدك الله، أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

أمَّا نصارى بني تغلب، فتؤخذ منهم صدق المسلمين مضاعفة. هكذا فعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وقد تكلَّم أبـو يوسف على ما منـح لأهل الذمة من الامتـيازات في دينهم وكنـائسهم وبيعهم، فقـال: إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الـذمة في أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خـارجها، وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم، وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم، وعلى أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم، وعلى أن يذبوا عنهم. فأدوا الجزية علـى هذا الشرط، وجرى الصلح بينهم على ألا يحـدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافـتتحت الشام كلها والحيـرة إلا أقلها على هذا. فلهذا تركت البـيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمـة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه**». وكان فيما تكلَّم به عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

د● ثالثاً: المورد الثالث من موارد الخراج: العشور:

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم، ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ؛ وسبب ذلك: أن أبا موسى الأشعري كتب إليه: إن تجَّاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحـرب فيأخذون منهم العشـر، فكتب إليه عمر: خذ أنت مـنهم كما يأخذون من تجار المسلـمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومـن المسلمين من كل أربعين درهماً ولـيس فيمـا دون المائتين شيء، فإذا كـانت مائتـين، ففيهـا خمسـة دراهم وما زاد فبحسابه. وروي أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء الـبحر، كتبوا إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا، فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأشاروا عليه به، فكانوا أول من عشّر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العـراق والشام. فصار ذلك سنَّة في المرور بأمـوال التجارة خاصة ومـا يرد منها من أهل الحـرب وأهل الذمة سـبيله سـبيل الخراج، أمَّا مـا يرد من المسلـمين، فسبـيله سبـيل الصدقات، ولذلك إذا قال المسلم: قد أديت زكاة هذا المال الذي في يدي، صدق في يمينه.

قال أبو يوسـف: رأيت أن تولي العشور قـوماً من أهل الصلاح والديـن وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فـلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وأن يمتثلـوا ما رسمناه لهـم، ثم تتفقد بـعد أمرهم وما يعـاملون به من يمر علـيهم، وهل يجاوزون مـا قد أمروا به، فإن كـانوا قد فعلوا ذلك، عـزلت وعاقبت وأخذتـهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يـجب عليه، وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أُمروا به

وتجنَّبوا ظلم المسلم والمعاهد، أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم. فإنك متى أثبت على حُسن السيرة والأمانة، وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمره به في الرعية، يزيد المحسن في إحسانه ونصحه، وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدِّي، وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

●● مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذي يتكوَّن مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث، هو دعامة مالية الدولة، ومصرفه المصالح العامة؛ لأنه حقّ للجمهور كله، وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام. وقد ذكر أبو يوسف بعضها، لورودها في أسئلة الخليفة، وهي:

قال أبو يوسف: فيجري على والي كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل، وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا والي الصدقة، فإنه يجري عليه منها. فأمَّا الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم، فذلك إليك. ومن رأيت أن تزيده منهم في رزقه، زدت، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت. أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك، وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره، فإني أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجري على القاضي إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبني هاشم من الذي يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم؟ فأجاب سلباً، وقال: إنَّما يعطى القاضي رزقه من بيت المال ليكون قيماً للفقير والغني والصغير والكبير، ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقاً. و لم تزل الخلفاء تجري للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين، فأمَّا من يوكل بالقيام بتلك الموارث في حفظها والقيام بها، فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكاً، وما أظن كثيراً من القضاة - والله أعلم - يبالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم.

ثانياً: أعطيات الجنود، وهي مرتبات العسكر:

ولم يكن في حياة النبي ﷺ مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد

المسلمين. وإنّما كـانوا يأخذون مالهم في أربعة أخـماس ما يغنمون، وفيـما يرد من خراج الأراضي التي أبقيت في أيدي أهلها؛ كأرض خيبر. ولما ولي أبو بكر - رضي الله عنه -أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلاً: هذا معاش، فالأسـوة فيه خير من الأثرة. فلما ولي عمر - رضي الله عنه -رأى في ذلك غير رأي أبي بكر، وقسَّم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق، وهذا قوله بنصه: والله الـذي لا إلـه إلا هو، ما أحد إلا ولـه في هذه المال حق أعطيه أو منـعه، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ، فـالرجل وتلاده في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والـرجل وغناؤه فـي الإسلام، والرجـل وحاجـته في الإسـلام. بناء عـلى هذه القواعد فرض العطاء، فكانت المرتبات كما يأتي:

(١٢٠٠٠) درهم لأزواج النبي ﷺ ولعمه العباس.

(٥٠٠٠) درهم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، وألحق بهم الحسن والحسين.

(٤٠٠٠) درهم لمن كان إسـلامه كإسلام أهل بدر ولـم يشهد، وألحق بهم أسـامة بن زيد.

(٣٠٠٠) لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار؛ كعمر بن أبي سلمة.

(٢٠٠٠) لأبناء المهاجرين والأنصار.

(٨٠٠) لأهل مكة.

(٤٠٠)، و(٣٠٠) لسائر الناس.

(٦٠٠)، و(٤٠٠)، و(٣٠٠)، و(٢٠٠) لنساء المهاجرين والأنصار.

وكـان يفرض لأمـراء الجـيوش والقـرى في الـعطاء مـا بين (٩٠٠٠)، و(٨٠٠٠)، و(٧٠٠٠) على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور، وكان للمنفوس إذا طرحته أمه (١٠) دراهم، فإذا ترعرع بلغ (٢٠٠) فإذا بلغ زاده.

وكان للعـطاء ديوان تسجل فيـه أسماء المرتزقين ويقـبضون عطاءهم عـلى رأس السنة حسبما هو وارد فيه. والذي أوجد هذا الديوان، هو: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشـتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع، اقتصر الديوان على ما تقـوم به حاجة الأمة من الجيش، وكان بعض من ليس

مرتزقاً في الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع، ويسمون هذا متطوعاً. وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش.

ثانياً: كري الأنهار وإصلاح مجاريها:

وقال أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات، كريت لهم. وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمّل ذلك كله على أهل الخراج.

وأمَّا الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك، فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

وأمَّا البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإنَّ النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء؛ لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة، لأنه أمرٌ عام لجميع المسلمين. فالنفقة عليه من بيت المال؛ لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه، وإنَّما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به. وإليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره، ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذمّ وإنكار وتأديب.

رابعاً: حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة.

فإذا تبيَّن الإمام ذلك، أمر بحفر تلك الترع، وجعل النفقة من بيت المال، ولا يحمل النفقة على أهل البلد، فإنهم إن يعمروا خير من أن يخربوا، وإن يعزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا.

خامساً: الإجراء على المسجونين:

قال جواباً لسؤال الرشيد عنهم: لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه، أن يجري عليه من الصدقة أو من بيت المال من أي الوجهين فعلت، فذلك موسع عليك وأحب إليّ أن تجري من بيت المال على كل

واحد منهم ما يقوته، فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك. قال: والأسير من أسرى المشركين لابد أن يُطعم ويُحسن إليه حتى يحكم فيه، فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يُترك يموت جوعاً وإنَّما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل. ولم تزل الخلفاء تجري على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف. وأول من فعل ذلك: علي بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ بالعراق، ثم فعله معاوية بالشام، ثم فعله الخلفاء من بعده.

قال أبو يوسف: فَمُرْ بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز، ذهب به ولاة السجن والقوّام والجلاوذة وولي ذلك رجل من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من في السجن ممن تجري عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده، فمن كان منهم أطلق وخلي سبيله، ردّ ما يجري عليه، ويكون للأجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجري عليه، وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار. ويجري على النساء مثل ذلك، وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنتهم عن الخروج في السلاسل ويتصدق عليهم الناس، فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحُبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم، فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنَّما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع، فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا، وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فسرت لك، ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة، غسّل وكفّن من بيت المال، وصُلِّي عليه ودفن، فإنه بلغني وأخبرني به الثقات، أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالي في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غُسل ولا كفن ولا صلاة، فما أعظم هذا في الإسلام وأهله!

المورد الثالث من موارد الخلافة: الصدقات

وهي: ما يؤخذ من المسلمين:

أولاً: من أنعامهم، وهي الإبل والبقر والغنم،على حساب معين في الفقه الإسلامي.

ثانياً: من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

ثالثاً: من أموال تجاراتهم، ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

رابعاً: ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية، وهي أعشار الأرض يؤخذ مما سقي بدون مؤنة العُشر، ومما سقي بمؤنة نصف العُشر.

قال أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: ومُر يا أمير المؤمنين، باختيار رجلٌ أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك، فولّه جمع الصدقات في البلدان، ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان، فإذا جمعت إليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج، فإنَّ مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج. وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع، وإنّما ينبغي أن يتخيّر للصدقة أهل العفاف والصلاح، فإذا وليتها رجلاً ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته، أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة.

●● مصارف الزكاة:

الزكاة تُصرف بالنصّ إلى ثمانية أصناف من الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

قال أبو يوسف: فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا ـ وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة ـ، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير، وقسمة بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم، والغارمون ـ وهم الذي لا يقدرون على قضاء ديونهم ـ سهم، وفي السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعاونون. وفي الرقاب سهم، وسهم في إصلاح طرق المسلمين، ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى، وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التي سمى الله تعالى في كتابه، وإن صيرها في صنف واحد ممن سمى الله تعالى، أجزأ.

❊ ❊ ❊

(١) التوبة: ٦٠.

٦ ــ الأمين

هو: محمد الأمين بن هارون الرشيد، وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فهو هاشمي أباً وأماً. ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعليّ بن أبي طالب - ﷺ - ولابنه الحسين.

ولد سنة (١٧٠) من الهجرة، وولاه أبوه العهد سنة (١٧٥هـ)، وكان قائماً مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان، ولما مات الرشيد بطوس، بُويع له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قُتِلَ في (٢٥ محرم سنة ١٩٨ ـ ٥ سبتمبر سنة ٨١٣م)، فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

●● الحال الداخلية لذلك العهد:

كانت هذه المدة التي وليها الأمين، مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون، وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعاً. وسبب ذلك؛ ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة، أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدَّمنا، ونحن نبيّن كيف ابتدأت المشاكل، وكيف انتهت، ونبين آثارها في الأمة.

لما كان الرشيد بطوس، جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك، للمأمون. ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه، وأنه لمآبه أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتباً تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد، فلما توفي كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد والقاسم والمؤتمن بعده. ومنها: كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه، وهو الذي صلَّى عليه حين مات، وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين، ثم المأمون، ثم المؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد، وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح، وقال له في الكتاب: وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرك أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع. وفيه: وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق، فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين، فإنَّ الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا في اللحاق بمحمد، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره. وأَمَرَ الناس بالرحيل، ففعلوا ذلك؛ محبَّةً منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو، فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفي فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل ـ وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصهم به ـ فقال له: إن فعلت ما أشاروا به عليك، جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم في ذلك في الدين والدنيا. فَعَلَ ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل، فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره.

ولما جاء المأمون خبر ذلك، كان الفضل بن سهل حاضراً، فأزال عنه الانزعاج وأمّله في الخلافة، فجعل أمره إليه، وأَمَرَهُ أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه، فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريباً من نفوس الجمهور، ففعل.

ولم يبدأ المأمون أخاه بشيء يريبه، بل تواترت كتبه إليه بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح.

أمَّا الأمر في بغداد، فقد كان يدل على شر مستطير، فإن الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه للمأمون، رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه، فحثّ محمداً على خلفه، وأن يولي العهد من بعده ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود. فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه. فأول ما بدأ به، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاَّه من الأعمال وأقدمه بغداد، علِمَ أنه يدبّر في خلعه، فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز.

كرر الأمين تجربته. فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك ـ وهو عامل المأمون على الري ـ وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري مريداً بذلك امتحانه، فبعث إليه بما طلب. فبلغ ذلك المأمون، فعزل العباس عن ولايته.

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر؛ أحدهم: العباس بن موسى بن عيسى، والغرض من هذا الوفد، أن يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد، فلما اطلع المأمون على مُرادهم، ردَّ ذلك وأبَاه، وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عوناً لهم ومنَّوه الأماني، إن هو أجاب إلى ذلك فرضي. وكان بعد ذلك يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأي، عاد الوفد إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون.

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع، بل ما زال يلح على الأمين حتى رضي أن يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى بولاية العهد. ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم، والدعاء لهما على شيء من المنابر. ووجه إلى مكة كتاباً مع رسول من حَجَبَة البيت في أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة، فأحضرهما إلى بغداد فَمُزِّقَا.

وكان الأمين قبل أن يكاشف أخاه بذات نفسه، أرسل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سمَّاها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره، فكتب إليه جواب ذلك:

بلغني كتاب أمير المؤمنين، يسأل التجافي عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد في العقد وجعل أمره إليَّ وما أمره رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إلى الطرف الذي أنا به لا ظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أُسند إلى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الأفضال؛ لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد؟ وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت، لم يطلع ما كتب بمسألته إليَّ، ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد، فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء ولا يدعه يستعلم خبراً، ولا يؤثر أثراً، ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً. فحصر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منوال خلاف أو مفارقة ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه، ومنع الأشتاتات من جواز السبل، والقطع بالمتاجر، والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب. هكذا دبَّر الفضل

ابن سهل أمر صاحبه، فلم يدع للفضل بن الربيع مجالاً لرسله ورواده أن يبثوا شيئاً في عامة أهل خراسان، ولما أتت رسل الأمين بجواب كتب الأمين، وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعاً عنهم موصداً بابه دونهم. وكان كتاب الأمين للمأمون:

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد ـ وإن كان أفردك بالطرف وضم ما ضم إليك من كور الجبل تأييداً لأمرك وتحصيناً لطرفك ـ فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك. وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده، وقد ضم لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها، فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها؛ ليكون فضول ردّها مصروفاً إلى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر بحضرتك يؤدي إلينا علم ما نعني به من خبر طرفك، فكتبت تطلب دون ذلك بما تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك، فاثن عن همّك، أثْنِ عن مطالبتك إن شاء الله).

فلما قرأ المأمون كتابه، كتب إليه:

(أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك إجابته، وإنَّما يتجاوز المناظران أن منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجود الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما في تركها فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك، وارض بما حكم به الحق في أمرك، أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك، والسلام).

فلما وصل الكتاب إلى الأمين، اشتد غيظه، وعند ذلك أمر بالدعاء له على المنابر وكتب إليه:

(أما بعد، فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضاً لحراق نار لا قِبَل لك بها ولحظك عن الطاعة كان أودع وإن كان قد تقدم مني متقدم، فليس بخارج من مواضع نفعك؛ إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة، فأعلن رأيك أعمل عليه إن شاء الله).

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة؛ لأنه كان لكل منهما سائق يسوقه. فللأمين: الفضل بن الربيع، الذي لم يكن يحب المأمون ولا ولايته. وللمأمون: الفضل بن سهل، الذي كان يأمل الخلافة لصاحبه، وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها.

بلغ المأمون ما أقـدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهـد وترك الدعاء له، فكان أول ما فعله الـفضل بن سهل من التدبيـر، أن جمع الأجناد التي كان أعدها بـجنبات الري مع أجناد قد كان مكّنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم، وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء في عامة ولا مجتاز، ثم اختاره لقيـادة الجند طاهر بن عيسى الخزاعي مولاهم، فسار طاهر مغذاً لا يلوي عـلى شيء حتى ورد الري فنزلها ووكل بأطرافهـا ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه.

أما الفضل بن الربيع: فإنه اختار لجـند العراق علي بن عيسى بن ماهان، وولاه الأمين كور الجبـل كلها ـ نُهاونـد وهمذان وقم وأصبـهان ـ وأعطى جنده من الأرزاق شـيئاً كثـيراً وأمدهم بالسلاح والعـدة، فشخص من بغداد في منتصف جـمادى الآخرة سنة (١٩٥هـ)، وكان معـه زهاء أربعين ألفاً، وحمـل معه قيد فـضة ليقيـد به المأمون كما شـاءت زبيدة أم الأمين، وقد خـدم الأمين أخاه بهذا الـتعيين خدمـة عظيمة، فـإنَّ أهل خراسان لم يـنسوا ماعاملهم به علي بن عـيسى من الفضائع مدة ولايته في عهد الرشيد، فـكان تعيينه لحربهم مما أثار في قلوبهـم الحمية لرد هذا العدو بـعد أن أبدلهم الله خيراً منه عـدلاً ورفقاً وحُسن سياسة، وهو: عبد الله المأمون. ومما كان ينذر بالـشر جند الأمين، عدم احتفال قائده بلقاء عدوه، فإنه لما بـلغه أن طاهر بن الحسين مقـيم بالري، كان يضحك ثم يـقول: وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني أو شرارة من نـاري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب. ثم الـتفت إلى أصحابه، فقـال: والله ما بينكم وبين أن ينقـصف انقصاف الشجر مـن الريح العاصف إلا أن يبلغـه عبورنا عقبـة همذان، فإن السخـال لا تقوى على النطاح والثـعالب لا صبر لهـا على لقاء الأسد، فإن يـقم طاهر بموضعه يكـن أول معرض لظبات السيـوف وأسنَّة الرماح. ولما صار في أول بلاد الري، أتاه صاحب مقـدمته، وقال: لو كنت أبقى الله الأمير أذكيـت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعاً تعـسكر فيه وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به، كان ذلك أبلـغ في الرأي وآنس للجند. فقال: لا، ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين؛ إما أن يتحصن بالري فيبهتـه أهلها فيكفونا مؤنته، أو يخـيلها ويدبر راجعاً لو قربت خيولـنا وعسكرنا منه. وأتاه يحيى بن علي، فقال: اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم، فإنَّ العساكر لا تسـاس بالتواني والحروب لا تبدر بالاغترار، والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لي طاهر، فالشرارة الخفيَّة ربما صارت ضراماً، والثلمة من السيل ربما اعتر بـها فتهون فصـارت بحراً عظيماً، وقد قـربت عساكرنا من طاهـر، فلو كان رأيه الهربَ، لم يتـأخر إلى يومه هذا. فـقال: اسكت، فإن طاهراً ليـس في هذا الموضع الذي

ترى وإنَّما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها وتستعد إذا كان المناوئ لها أكفاءها ونظراءها.

وبينما كان هذا القائد يسير مدلاً بنفسه ومن معه مستخفياً بعدوه، كان طاهر يدبّر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عدداً وعدة. وقد استقر رأيه على أن يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقاتل بعيداً عنها، فعسكر على خمسة فراسخ منها، وأقبل إليه علي بن الحسين وقد عبّأ جنده وهم في أكمل عدة وأحسن زي. فكتب طاهر كتائبه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظهم ويثبتهم، ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً، فَعَلَت ميمنة عليّ على ميسرة طاهر، ففضتها فضاً منكراً وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها، فقال طاهر: اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب، فإنكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة، رجعت أوائلها على أواخرها، فصبر أصحابه صبراً صادقاً، ثم حملوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض، ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان في وجوههم فهزموهم. وانتهت الهزيمة إلى علي ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة، ونادى طاهر في أصحاب علي: من وضع سلاحه فهو آمن، فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر إلى الري وكتب إلى الفضل بن سهل: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنأك فداءك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجري وخاتمه في يدي والحمد لله رب العالمين. فلما وصل الكتاب إلى الفضل، نهض فسلَّم على المأمون بأمير المؤمنين، وأمدَّ طاهر بالرجال والقوّاد وسمَّاه ذا اليمنين وصاحب حبل الدين.

وصَلَ هذا الخبر بغداد على غير ما يُنتظر، فانتخب الأمين جيشاً ثانيا جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، وعدَّة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الأبناء، وحمل معه الأموال وقوّاه بالسلاح والخيل وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم، وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به علي بن عيسى من الاغترار والتضجع، فسار عبد الرحمن حتى نزل همذان، فضبط طرقها وحصّن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحشر إليها الأسواق والصنَّاع وجمع فيها الآلات والميرة واستعدَّ للقاء طاهر ومحاربته. ولما بلغ طاهراً خبره، توجّه إليه حتى أشرف على همذان، فخرج إليه عبدالرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان، فلبث فيها حتى قوي أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء،

فلقيه طاهـر وفعل به ما فعل في المرأة الأولى، فعـاد إلى همذان فحصره فيـها طاهر حتى جهد من قلة المادة، فطلب الأمان له ولمن معه، فأمنه طاهر.

ولما تم لطاهر هذا النصر، طرد عمال محمد من قزوين.

كان ذلك سبباً لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة، فدعا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قواد الدولة المعدودين، وقال له: أنت فارس العرب وابن فارسها، فزع إليك الأمين في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران:

أما أحدهما: فصـدق طاعتك وفضل نصيحتك. والثاني: يمن نقـيبتك وشدة بأسك. وقد أمرني بإزاحة عـلتك وبسط يدك فيما أحببـت غير أن الاقتصاد رأس النصيـحة ومفتاح اليُمْن والبركة، فانجز حوائجك، وعجّل المبادرة إلى عدوّك، فإنى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة. فلم يمتنع أسد، وإنَّما طلب لجنده مطالب، هي أن يؤمر لأصحـابه برزق سنة، ويخص من لا خاصة له منهم مـن أهل الغناء والبلاء، وأبدل من فيـهم من الزمنى و الضعاء، وأحـمل ألف رجل ممن معي علـى الخيل ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكـور. فقال له الفضل: قد اشتططت ولابد من مناظرة أمير المؤمنين، ثـم ركبا إليه، فدخل عليـه الفضل أولاً، ثم دخل أسد. فما كـان بينهما إلا كلمتـان حتى غضب الأمـين وأمر بحبس أسد، ثـم قال: هل في أهل بيت هـذا من يقوم مقامه، فإنِّي أكـره أن أستفسدهم مع سابقتهـم وما تقدم من طاعتهم ونصيحـتهم، فقالوا: نعم، فيهم أحمد بن مزيد، وهو أحسنهم طريقة وأصحلهم نية في الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسـياسة الجنود ولقاء الحروب. فاسـتدعاه محمد، وقال له: إنه قـد كثر عليّ تخليط ابن أخيك ونكّره وطال خلافه علي حتى أوحشني ذلك منه وولد في قلبي التهمة له وصيّرني بـسوء المذهب وحنث الـطاعة إلى أن تنـاولته من الأدب والحبـس بما لم أحب أن أكون أتناوله به، وقد وُصِفْتَ لي بخير ونسبت إلـيَّ جميل، فأحببت أن أرفع قدرك وأُعلي منزلتك وأقدمك عـلى أهل بيتك، وأن أوليك جهاد هذه الـفئة الباغية الناكـثة، وأعرضك للأجر والثواب في قتـالهم ولقائهم، فانظر كيف تكون؟ وصحح نيـتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره في عدوه ينعم سرورك وتشـريفك. ثم أمر الفضل أن يدفع إليه دفاتر أسد وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجـال الجزيرة والأعراب. فخرج أحمد، فانتخب الرجال واعترض الدفـاتر، فبلغت عدة من معه عشريـن ألف رجل. ووجه الأمين عبد الله ابن حميد بن قحطبة في عشرين ألفـاً أخرى، وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهراً عنها، وتقدَّم إليهما في اجتماع الكلمة والتواد والتـحابّ على الطاعة. فتوجها حتى نزلا قريباً من

حلوان بخانقين.

أمَّا طاهر، فإنه أقام بموقعه وخندَق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس إلى عسكري عدوه، فكانوا يأتونهم بالأراجيف. ولم يزل يحتال في وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضاً، فأخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً، فتقدَّم طاهر حتى نزل حلوان. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل، يأمره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن إليه ويتوجه إلى الأهواز، فسلَّم ذلك إليه، وأقام هرثمة بحلوان، فحصّنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها، وتوجه طاهر إلى الأهواز؛ ليكون الهجوم على بغداد من جهتين.

كان من سوء حظ الأمين، أن عبد الله بن صالح بن علي الذي كان الرشيد قد حبسه، خلصه الأمين من سجنه، فعد ذلك فضلاً منه وأراد مساعدته، فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جنداً من العرق قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد، فولاَّه ذلك. فلما وصل إلى الرقة، أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة، فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في آماله وأمنيته، فقدموه عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده.

حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي من الزواقيل، فتعصَّب لكل جماعته تعصباً أدى إلى التلاحم، واستعد الأبناء وأتوا الزواقيل وهم غارون، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين، وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريضاً، فوجه إليهم رسولاً يأمرهم بترك الحرب، فرموا رسوله بالحجارة. ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب، قال: واذلاَّه، تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها. فكان ذلك بمثابة محضاً حرَّك إلى الشر من لم يركب من الأبناء. وقام بأمرهم الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان. فلما رأى ذلك أهل الشام، أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين: الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري، وأقام الحسين بمن معه من الأبناء.

انتهت هذه الفكرة بالفشل، ولم يقف شرها عند هذا الحد، فإنَّ الحسين بن علي نادى في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد. فلما وصلها، حضَّ الأبناء الذين معه على خلع الأمين، فأجابوه. فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه في (١١) رجب سنة (١٩٦هـ)، وأخذوا البيعة للمأمون في ثاني عشرة. وغدا في الثالث عشر إلى الأمين في قصره وأخرجه

منه محبوساً.

خاف كبارالأبناء تقدّم علي بن عيسى، فـقام محمد بن أبي خالد، وقال: أيها الناس، ما أدري بأي سبب يتـآمر علي بن الحسين علينا، مـا هو بأكبرنا سناً ولا بأكرمـنا حسباً ولا أعظمنا مـنزلة، وإني أولكم نقض عهـده، فمن كان على رأيي فـليعتزل معـي، وقام أسد الحربي ودعا من معه من الحربية إلى القيام بـأمر محمد وفكه، فتأثر الأبناء من هذه الأقوال وساروا إلى الحسين بن علي فأسروه، ودخل أسد الحـربي إلى الأمين ففك قيوده وأقعده في مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن علي فلامـه على ما كان منه، مع إحسانه إليه وإلى أبيه. وأخيراً عفا عنه، ولكن ذلك لم يفد، فإنه بعد العفو، حاول الهرب من بغداد، فأُدْرِك وقُتل.

هذه حال الاضطراب في جند الأمين. أما جند المأمون، فكان على العكس من ذلك، كان هادئاً منتظمـاً لا تزيده الأيام إلاَّ قوة. انقسم إلى قوتين: قوة مـع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق، وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الأهواز والبصرة.

ذهب طاهر إلى فارس، فـاستولى عليها بعـد أن أوقع بعاملها محمـد بن يزيد المهلبي وقعـة شديدة بسوق الأهواز، وقُتـل محمد بـن يزيد، وكان ترتيـب جند طاهر في مسـيره وحربه حائزاً الغاية من النظام والاحتراس ـ فضلاً عما حازه من الاسم الكبير الذي يفت في الأعضاد ـ.

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلـى الكور، وولى على اليمامة والبحرين وعُمان مما يلي الأهواز ومما يلي عمل البـصرة، ثم سار متوجهاً إلى واسط، فجعـلت المسالح والعمال تتقوض مـسلحة مسلحة وعـاملاً عاملاً كلما قرب منهم طاهـر تركوا أعمالهم وهربوا عـنها حتى قرب من واسط فـهرب عنها عاملهـا قائلاً: إنه طاهر ولا عار في الهـرب منه. دخل طاهر واسطاً، ومنها وجـه قائداً إلى الكوفة، وعليهـا العباس بن موسى الهادي، فـبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المـأمون، وأرسل بذلك إلى طاهر، فتم له ما بين واسـط إلى الكوفة، وأنفذ كتب التولية إلى الـعمال، وكذلك بايع المأمون أمير البصرة وهـو المنصور بن المهدي، وكان ذلك كله في رجب سنة (١٩٦هـ).

ثم سار طاهر إلى المدائن، فاستولى عليها من غير قتال.

في تلك الأثناء، حصل في الحجـاز ما زاد المأمون قوة والأمين خذلاناً؛ ذلك أن داود ابن عيسى كان عامـلاً للأمين على مكة والمدينة، فلما بلغه ما فـعل الأمين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما، جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء

ومن كان شهد على ما في الكتابين من الشهود، وكان داود أحدهم، فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم، وأخبرهم أن محمداً كان الذي قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير، لذلك رأيت خلعه وأن أبايع للمأمون. فأجابه إلى ذلك أهل مكة.وفي (٢٧) رجب سنة (١٩٦هـ): نادى داود في البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون، ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره أن يفعل بها فعل أهل مكة، ففعل. ولما تم ذلك، سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم في الحجاز، فسُرَّ المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم. وأقرّ داود على ولاية الحجاز، فعاد مغذاً ليدرك الحج، ومرَّ وهو عائدٌ على طاهر بن الحسين، فوجه معه يزيد بن جرير القسري والياً على اليمن، وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون، فأجابوه.

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحُوصرت من ثلاث جهاد، فنزل هرثمة نهربين وأعد المجانيق والعرادات، وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية، ونزل طاهر البستان بباب الأنبار،ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى. وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات ،واحتفر الخنادق، وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويعشر أموال التجارة، ويجبي السفر، وبلغ من الناس كل مبلغ.

أحسَّ محمد بالضيق، ومنعت عنه الأموال، فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم، وحملها لأصحابه في نفقاته.

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية، من هذا الحصار ما لم يكن يخطر لأحد على بال؛ من الهدم، والتحريق، وسفك الدماء، والجوع الشديد، حتى درست محاسنها وكادت تُمحَى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الأحزان والمحن التي لا تحتمل وأحسنهم في ذلك عمرو بن عبد الملك العتري الوراق. فمما قاله:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	كان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوماً ما ذكرتهم	إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصباحاً ... وباكية لفقدان الشفيق
حوراء المدافع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى التهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ... عليهن القلائد في الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فقد الشفيق من الشفيق
قوم أخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فإن ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان في حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد، فكان الشر الذي أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم. وللخزيمي قصيدة طويلة تبلغ (١٣٥) بيتاً يصف فيها ما أصاب بغداد، ويذكر أسباب تلك النكبات التي حلَّت استوفاها الطبري في الجزء العاشر من تاريخه صحيفة (١٧٦) وما بعدها من طبع مصر، يقول فيها:

يا بؤس بغداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها ... لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ ... ـحرب التي أصبحت تساورها

ثم قال:

رق بها الدين واستخف بذي ... الفضل وعز الناسك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده ... بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العتري:

الناس في الهدم وفي الانتقال	قد عرض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم	عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم	فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك إلى جمعهم	وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق في بغداد إلا امرؤ	حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمي عن حماها ولا	خال له يحمي ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد	مطرده في كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على	كفيه للشقوة قتل الرجال
إن صار ذا الأمر إلى واحد	صار إلى القتل على كل حال
ما بالنا نقتل من أجلهم	سبحانك اللهم يا ذا الجلال

استمرت هـذه الشدائد على بغداد وما فيها، حتى استنفد الأمين كل وسائل الدفاع، أيقن العطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقي من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الأمان من هرثمة بن أعين ويسلم له، فرضي وكتب إلى هرثمة بذلك، فأجابه إليه. ولما علم طاهر، أبى إلا أن يكون خروجه إليه إذا شاء. ولما لم يكن الأمين ميَّالاً إلى الخروج إلى طاهر، اتفق القواد أن يخرج ببدنه إلى هرثمة وأن يدفع إلى طاهر الخاتم والقضيب والبُردة، ثم علم طاهر أنهم يمكرون به، فاستعدَّ للأمر، وكمن حول القصر كمناء بالسلاح، فلما خرج الأمين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبها ولم تسر بهم إلا قليلاً حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة، فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الأمين. فأما هرثمة، فأدركه أصحابه. وأما محمد، فسبح في الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأسروه، فأمرهم طاهر بقتله فقُتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة (١٩٨هـ). وفي الصباح، كتب طاهر إلى المأمون يخبره بما تم وبالأسباب التي جعلته يأمر بقتل الأمين، ثم دخل طاهر المدينة، فأمن أهلها، وهدأ الناس. وكان دخوله إليها يوم الجمعة، فصلَّى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة، ورغَّبهم في التمسك بحبل الطاعة، وانصرف إلى معسكره.

بذلك انتهى الفصل الأول من هذه الحادثة الشنيعة التي فرَّقت الأمة، وأحدثت هذه الثورة الهائلة.

أمَّا سببها وتبعتها، فعائدان إلى هارون الرشيد أولاً، ثم إلى الفضل بن الربيع ثانياً.

أمَّا الرشيد: فإنه غلط في فعله غلطات.

الأولى: أنه ولي عهده أولاً محمد الأمين والمأمون أسن منه ولم يكن مايزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة ولـيس هذا من الأسباب المرجحـة في نظر العقلاء، وإنَّما هو مـرجح في نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى.

الثـانيـة: أنَّه لما أحس بهذه الغلطة، أراد مداواتها ففـعل ما يزيدها شرًا، بتولية المأمون للعهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد تولـيه العهد، بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقـلاً تمام الاستقلال بأمر خراسـان والري عن أخيه الأمين. ومن المعلوم أنه كلـما كثرت الامتيازات، كثرت المشاكل وأسباب الفـساد. والأمين والمأمون ـ وإن كانا أخوين يتنافسان ـ فالأول يميل أن يتمـتع بسلطان الخلافة التام، والثـاني يميل أن يتمتع بامتيـازاته تماماً، ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب. فلـم يكن يظن أن يبقى لهذين صفاء متى حانت وفاة الرشيد. وقد أدرك المفكرون ذلك في حياته .

الثـالـثـة: أنه لم يقتصر عليـهما في ولاية العهد، فأضاف إليهمـا أخاً ثالثاً وأعطاه من الامتيـازات الجزيرة وأرمينيـة ما أعطى المأمون في خـراسان؛ فجرأ ذلك الأمـين على نقض العهد؛ لأنه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعاً منه السلطان في أعظم بقاع الإسلام وأكثرها أعواناً وجنداً.

الرابعة: أنه اغترَّ بالفضل بن الربيع الذي جرَّأه على إفساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى في عهـد الأمين، فإنه هو الذي اجـتهد في إغـرائه بأخيه؛ لأنه ظـن أن المأمون إذا تولَّى، أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيـد وسيره بالجنود التي كانت مع الرشيد إلى بغداد، مع أن الـرشيـد عـهدَ بهـا إلى المأمـون، فمـا زال يحـتـال في الإفـساد حـتى أوقـع هذه الاضطرابات. ولما اشتدَّ الأمر على الأمين لم يفده فائدة، بل اختفى وكان كـ﴿ ... **الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[1].

يضاف إلى ذلك كله، ما في طابع الخلفاء من مـيلهم إلى أن يكون بعدهم في الخلافة أبناءهم، فهم يحتالون بكل ما وفي وسعهم إلـى إخراج إخوتهم أو بني أعمامهم من العهد إن كان، ولم نر خليـفة له ابن فلم يسع له ذلك الـسعي، ولم نجد عهداً أو عـقداً منع من ذلك حتى كان هذا مجرناً لـلخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبـة وصاروا يفتحون لها

---

(١) الحشر : ١٦.

من أبواب الحيل ما يبيح لهم عدم التمسك بها. والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادي وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت، مع أن الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه إياه المهدي أبوه. نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ، فهما المهلكة العامة.

●● صفات الأمين:

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله، إلى القدح إليه وتعديد مثالبه التي أودت به، وهذه سنة قديمة، أنَّ الناس مع من يساعده القدر، فهم أبداً مع القاهر على المقهور؛ لأنَّ للقوة سلطاناً على النفوس لا يغالب، وهذا نموذج مما قيل في هجاء الأمين:

لم نبكيك لماذا للطرب ... يا أبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس في أوقاتها ... حرصاً منك على ماء العنب
وشنيف أنا لا أبكي له ... وعلى كوثر لا أخشى العطب
لم تكن تعرف ما حد الرضا ... لا ولا تعرف ما حد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم ... تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بكت ... عين من أبكاك إلا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا ... للمجانيق وطوراً للسلب
ولقوم صيرونا أعبدا ... لهم يبدو على الرأس الذنب
في عذاب وحصار مجهد ... سدد الطرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حي حاشر ... كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة ... من جميع ذاهب حيث ذهب
أوجب الله علينا قتله ... فإذا ما أوجب الأمر وجب
كان والله علينا فتنة ... غضب الله عليه وكتب

ومع هذا، فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه. وسنترك هذا وهذا، ونفحص صفاته من أعماله.

أول ما عُرِف من عمل الأمين: إرادته الغدر بأخيه والرمي بعهد الرشيد وراء ظهره. فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقاً، غير ناظر إلى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة في نظر الجمهور؛ إذ ليس أعظم في نظر المسلم من انتهاك حرمة البيت المقدس ولا انتهاك أعظم من إفساد أمر دبّر فيه وجعل البيت الحرام حارساً عليه، على أن الغدر في ذاته بقطع النظر عن ذلك كله، قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية، فلا غربة أن رأينا جمهور الأمة

في صف أخيه.

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك، لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بُعد النظر، بل كان أول قائد ولاه حرب أهل خراسان أعدى عدو لهم من جربوه فوجدوه ظالماً عاتياً يستحلّ أموالهم ويضرب أبشارهم، وهو: علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان في عهد الرشيد، فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جداً في محاربته. والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد في حماسة الغالب و تفاؤله بالمستقبل.

ومع هذا الغلط، كان الأمين مشتغلاً عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث. شتان بين تدبيره وتدبير أخيه، فبينا كان هو على هذا الطريق، كان أخوه المأمون بمرو يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء، ويجلس معهم كما يجلسون، ويتكلم معهم في الفقه والأدب والحديث، حتى أشربت قلوبهم محبته. ولا يخفى ما لهذا من التأثير في قلوب الجمهور.

يُقال: إن محمداً، لما تولى، وجَّهَ إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك. واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسّم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إلي ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونباري والهوب، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحيَّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً، فقال أبو نواس يمدحه:

سَخَّرَ الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن براً ... سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يهوى ... أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ... ط ولا غمر رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجنا ... حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ... وأبقى له رداءة الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمي موفق للصواب

جميع ما وقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره، أنه كان يميل جدًّا إلى اللهو والغناء والشرب، حتى أقعده ذلك عن التدبير لأمور. هذا، مع أنه ممتاز على بني العباس قاطبة بأنه هاشمي الأبوين، ولكن ليس بحسن الأنساب تعلو الرجال، وإنَّما علوّها بحُسن الفِعال.

❊ ❊ ❊

٧ ــ المأمون

هو: عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي. وأمه أم ولد اسمها مراجل. وُلد سنة (١٧٠هـ) في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة. وولاه أبوه العهد وسنّه(١٣سنة) بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان، ومنحه بمقتضى الشروط التي عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً؛ ولما توفي أبوه لم يف له أخوه بعده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى فأبي ذلك المأمون، وكان من وراء ذلك الحرب الفظيعة التي قصصنا خبرها، وهي التي انتهت بقتل الأمين في (٢٥) محرم سنة (١٩٨هـ) ـ (٥) سبتمبر سنة (٨١٣م).

بُويع المأمون بالخلافة العامة في ذلك التاريخ، واستمر خليفة إلى أن توفي غازياً بطرسوس في (١٩) رجب سنة (٢١٨هـ) ـ (١٠) أغسطس سنة (٨٣٢م)، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر سنة (٢٠٤هـ)، وهو تاريخ قدومه بغداد، وأقام الباقي ببغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس: الْحكَم بن هشام، ثالث أُمراء بني أمية (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ)، ثم ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ).

ويعاصره في بلاد المغرب الأقصى: إدريس بن إدريس بن عبد الله سنة (١٨٨ ـ ٢١٣هـ)، ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٣١هـ).

ويعاصره في إفريقية من بني تغلب: عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ ـ ٢٠١هـ)، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ ـ ٢٢٣هـ).

ويعاصره في فرنسا: شارلمان صديق أبيه، وقد توفي سنة (٨١٤م)، ثم لويز الأول الملقَّب باللين.

ويعاصره في القسطنطينية: ليون الأرمني (٨١٣ ـ ٨٢٠م)، ثم ميخائيل الثاني الملقَّب

بالتام ثاني مرة (٨٢٠ ـ ٨٢٩م)، ثم ابنه توفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م).

■■ الأحوال في المدة الأولى:

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين ظاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، كان الذي يدير الأمر بمرو: الفضل بن سهل، الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون. فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة، فأصدر أمرين على لسان المأمون:

أولهما: بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن. وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال، وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث، وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع، فسلّم ذلك كله.

والأمر الثاني: إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان. فشخص. وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان، فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا.

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان. هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الإسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية، أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تمل الواشايات، فخشي من ذلك على مركزه سواء كان السبب في تخلفه هذا أو ذاك، فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عين؟

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل، أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه، فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار. وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين، وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأرسل إليه الحسن ابن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب. وفي غد ذلك اليوم، مات محمد بن إبراهيم فجأة،

وذلك يوم الخميس أول رجب سنة (١٩٩هـ)، فولى أبو السرايا بدله غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي، وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولي من رأى ويعزل من شاء، وإليه الأمور كلها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذي، فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في (١٧) رجب سنة (١٩٩هـ)، فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عشكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل، فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1]:

أفاق الحسن بن سهل من غفلته، لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً، وكلما وجه أحدهم لحرب أبي السرايا، عاد مهزوماً، فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين، وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل، وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا فأبى، فأعاد عليه الرسالة متلطفاً، فأجاب وانصرف إلى بغداد، فقدمها في شعبان سنة (١٩٩هـ)، وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة، فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألحّ عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التي هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية في محرم سنة (٢٠٠هـ)، ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم، ثم بارحها مساء ذلك اليوم.

وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس، فلقيه هناك الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأمون، فقتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحاً شديدة فهرب مريداً منزله برأس العين من الجزيرة، فعثر به في الطريق هو ومن معه وجيء بهم إلى الحسن بن سهل، وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد. وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبي السرايا، وهو زيد بن موسى بن جعفر، وكان يُقال له: زيد النار؛ لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتي برجل من المسودة، كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار، فأخذ أسيراً وأمن.

---

(١) الصف : ٤.

وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ أثر بمكـة والمدينة، فإن أبا السرايا كان قد ولى مكة حسـين بن حسن بن عـلي بن الحسـين بن علي، وكـان بها داوود بن عـيسى بن مـوسى العباسي والياً، فلـم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة. ولما تفرّق الحاج من مكة، جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التي عليها، فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً، ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما مـعه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمـد لكسوة بيت الله الحرام، وأن يطـرح عنه كسوة الظلمـة من ولد العباس ليـطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩هـ) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما في خزانة الكـعبة من مال فأخذه ولم يسمـع بوديعة عند أحد لبني العبـاس وأتباعهم إلا هجم عليـه في داره، فإن وجد من ذلك شيـئاً، أخذه وعاقب الرجل، وإن لـم يجد عنده شيئاً، حبسه وعـذّبه حتى يفتدي نفسه بقدر طوله ويقر عنده الـشهود أن ذلك للمسودة من بني العباس وأتـباعهم حتى عمّ ذلك خلقـاً كثيراً وكان لهم دار اسمـها دار العذاب، يُعذَّبُ فيهـا الناس حتى هرب منهم خلق كـثير من أهل النعم، فـيتبعوهم بهـدم دورهم. وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الـذي في رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطـوانة بعد التعب الشديـد، قدر مثقـال ذهب أو نحوه حتى عـمّ ذلك أكثر أساطـين المسجد الحرام، وقـلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم وخشب الساج، فبيع بالثمن الخسيس.

وما زالوا على تلك الحال، حتى بلغهم قتل أبي السرايا، وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين، قد طردوا فـاجتمعوا إلى محمد بن جـعفر الصادق وكان شيخاً وادعـاً محبباً في الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة، وكان يروي العلم عن أبيه، وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجـاب بعد تردد، وحُشر إليه الناس فبايعوه طوعاً وكرهاً وسمّوه أميـر المؤمنين، فأقـام على ذلك أشهراً، وليـس له من الأمر إلا اسمـه. وابنه علي وحسـين بن حسن أسـوأ ما كـانوا سيـرة وأقبح مـا كانوا فـعلاً حـتى تعدُّوا الأمـوال إلى الأعـراض.

أراد الله أن يفرج عن أهل مكـة ما هم فيه، فقدم علـيهم موسى بن عيسى مـقبلاً من اليمن، فقاتل العلويين أياماً، ثم بارح مكة، فلقيه البعث الذي أرسله هرثمة لتخليص مكة، فعاد معهم. وكان رئـيس البعث ورقاء بن جميع، فقاتلوا العلـويين حتى هزموهم. وطلب محمد بن جعفـر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حـيث شاؤوا، فأُجيبوا وأُمهلوا ثلاثة أيام. فلما انتهت، دخلت الجنود العـباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية.

أما في اليمن: فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر، وكان واليها إسحاق ابن موسى بن عيسى، فلما سمع بإقبال إبراهيم، ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داوود ابن عيسى في مكة، فاستولى إبراهيم على اليمن، وكان يُقال له: الجزار؛ لكثرة من قتل باليمن من الناس. وفي موسم سنة (٢٠٠هـ): وجه بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف ليحج بالناس وكان الذي ولي إمرة الحج من العباسيين: أبا إسحاق ابن الرشيد ومعه كثير من القواد، فلما وصل العقيلي إلى بستان ابن عامر، بلغه أمر من بمكة، فتوقف بالبستان، فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها، فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين. بلغ أبا إسحاق أمر العقيلي فأرسل إليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم، وعاد بكسوة الكعبة، ثم عاقب كلاً من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم، فذهبوا يستطعمون الناس في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً.

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد، والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة، أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو، ليطلعه على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره، ولم يكن مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد، وأنه هو الذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل؛ لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز، فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال، فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هرثمة مرو، خشي أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون، فلما سمعها سأل، فقالوا: هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول، فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أُشرب، فلم يسمع منه كلمة، وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه. وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد، فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا: إنه مات. هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية؛ ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة، هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل، فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون، ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل؛ لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن

يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون، فأبى ذلك عـليهم، فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو لـلمأمون، وقـالوا: لا نرضى بالمجـوسي الحسن بن سـهل ونطرده حتـى يرجع إلى خراسان، فقبل وتولـى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خاليـة من جيش قوي يأخذ على أيدي المسلمين من أهلـها، فنتج عن ذلك الفساد الشديد، فإن فـسّاق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنســاء علانية من الطـريق وكانوا يسألـون الرجل أن يقرضهـم أو يصلهم فلا يقـدر على الامتناع، وكانوا يجتمـعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون مـا قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتـكبونه، وكانوا يجبون المارة في الطريق والسفن وعـلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحـد يعدو عليهم! رأى الناس شدة هذه البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم، قام صلحاء كـل ربض وكل درب فمشي بعضهم إلى بعض وقالوا: إنَّما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمـركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفُسَّاق. فـقام رجل من ناحية طريق الأنـبار اسمه خالد الدريوش فـدعا جيرانه وأهل محلتـه إلى أن يعاونوه على الأمر بالمـعروف والنهي عن المنكر، فـأجابوه إلى ذلك. وشـدّ على من يليـه من الفسّاق والشطـار، فمنعهم ممـا كانوا يصنعـون فامتنعوا عـليه فقاتلـهم وهزمهم وأخذ بعـضهم فضربهـم وحبسهم ورفـعهم إلى السلطان ـ وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان ـ. ثم قام من بعده آخر اسمه سهل ابن سلامة الأنصاري، فـدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعـلق مصحفاً في عنقه ثم بدأ بأهل جيـرانه ومحلته، فأمرهم ونهاهم، فقبلوا منه. ثـم دعا الناس جميعاً إلى ذلك ــ الشريف منهم والوضيع ـ بني هاشم ومن دونهم، وجعل له ديواناً يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير، ثم طـاف بغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة، وقـال: لا خفارة في الإسلام ـ والخفارة: أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول: بسـتانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى ـ.

لم يكن سهـل والدريوش على وفاق؛ لأن مقصـد الدريوش كان معاونـة السلطان في القبض على أيدي المفســدين ولا يعيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يـأمره بشيء ولا ينهاه. أما سهل فيظـهر أنه كان ذا أطماع، قال: إني أقـاتل من خالف الكتاب والسنـة سلطاناً كان أو سوقة، فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع، وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة، وخافه منصور المهدي الذي أقامه العراقيون أميراً.

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية، من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم؛ لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التي تقارن هذه المفاسد عادة.

كل ذلك كان، والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل إليه ما يشتهي.

ومما كان في تلك الآونة، أن المأمون اختار لولاية عهده عليًّا الرضا بن موسى بن جعفر الصادق، وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق، ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل؛ لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علويًّا، وطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني علي. وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال، وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علي على غيره من الخلفاء الراشدين، وأنه كان أحق بالخلافة منهم، ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيئة التي تربَّى فيها، فإنه كان في أول أمره في حجر جعفرالبرمكي، ثم انتقل إلى الفضل بن سهل، وكلهم ممن يتشيع، فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا، فقالوا بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة، وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنَّما هذا دسيس من الفضل بن سهل، فمكثوا على ذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك، واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلَّموا فيه، وقالوا: نولِّي بعضنا ونخلع المأمون. واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة، وخلعوا المأمون. وكان ذلك في أول المحرم سنة (٢٠٢هـ)، فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله، وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن الهادي والجانب الغربي إسحاق بن الهادي، وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه.

بلغت هذه الأحوال المأمون، ويُقال: إن الذي أبلغه إياها علي الرضا ولي عهده، فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه،وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء، فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة. فقال له المأمون: إنَّما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل. فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل، وأن

الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك، وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال، فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل، وأخبروه بما موّه عليه الفضل في أمر هرثمة، وأن هرثمة إنّما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل، وأنه إن لم يتدارك الأمر، خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله، وأن طاهر بن الحسين قد أبلي في طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر، أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره، فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد، لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترئ به على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد، فإن بني هاشم والموالي والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

لما تحقق ذلك المأمون، أمر بالرحيل إلى بغداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل، بل عاقبهم بالحبس والطرد، فراح علي الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم، فأعلمه أنه يداري ما هو فيه.

ارتحل المأمون من مرو حتى سرخس، وهناك شدَّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات، وذلك في (٢شعبان سنة ٢٠٢هـ)، فأخذ ضاربوه، وهم أربعة من خدم المأمون، فلما جيء بهم إليه قالوا: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضربت أعناقهم. وسوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون؛ لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة، فاحتال بهؤلاء الخدم، ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه.

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر، وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدي؛ لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال، فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد.

لما سار المأمون بطوس، حدث حادثة أخرى، وهي وفاة علي الرضا، ويتهمون المأمون بأنه سمه. وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة؛ لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروساً في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر عليًا وأن عليًا هو الذي أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن. ولا يبعد عندي أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شراً وهو خروج الخلافة من آل العباس. وهناك كتب

المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى.

رحل المأمون من طوس إلى الري، وهناك تحبب إلى أهلها بإسقاط ألفي ألف درهم من خراجها. وكان كلما قرب من بغداد، زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدي، وقام القواد في وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد، فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون، فاختفى إبراهيم ليلة الأربعاء (١٧ ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ)، فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

ما زال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان، وهناك خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس، فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة؛ لأنه أمره بذلك. وفي يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر سنة (٢٠٤هـ)، دخل مدينة بغداد في لباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون. ومكثوا على ذلك ثمانية أيام، فتكلم في ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة. وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان، وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد، فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر، فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهراً، ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سوداً، فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد، طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد وابتدأ من ذلك الوقت مُلْك المأمون الحقيقي.

■ **المأمون ببغداد:**

أشرقت شمس أبي العباس عبد الله المأمون بغداد حاضرة آبائه، ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلَّت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته، وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف، وقوة لا يشوبها عنف، وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية؛ لمَا كان من ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة، وسنبين ذلك في فصل خاص - إن شاء الله - بعد أن ننتهي من بيان الحالة الدينية.

■ **الوزارة في عهد المأمون:**

أول وزراء المأمون: الفضل بن سهل، وهو فارسي الأصل. أسلم على يد المأمون سنة

(١٩٠هـ)، ويقال: إن أباه سهلاً أسلم على يد المهدي. والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى، فكان مدبر أمره وهو ولي عهده، ولما فعل الأمين ما فعل، دبّر الفضل أمر إرسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان. ولما انتصر طاهر، لُقّبَ الفضل ذا الرياستين وجعل له علماً على سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير، وولاه المأمون في هذه السنة وهي سنة (١٩٦هـ) على المشرق كله، وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه).

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره، استولى عليه حتى ضايقه، ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان، دبّر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى علي الرضا من بعده. وكان الفضل بن سهل مولعاً بالنظر في النجوم. ويُقال: إن له إصابات كثيرة في أمور أنبأ عنها قبل موقعها وجميع ما دبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأي محكم. وكان مع ذلك جيد الكتابة، حسن القول، سخي اليد، وقد مدحه كثير من شعراء عصره.

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل، أحمد بن خالد، وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤي، وكان أبوه كاتباً لعبيد الله كاتب المهدي، أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له: إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك. فقال: يا أمير المؤمنين، اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوي قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط. فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحمد هذا، من خيار الوزراء، يحب أن تخلص قلوب الرعية لإمامه، فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم. ومن طريق ما حصل منه مع المأمون: أن المأمون ذكر يوماً عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال: يظن أني لا أعرف أخباره وما يحبب إليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره الخبر. فراح عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطك ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لي ضغناً يبعثه بعض الكلام على ظاهره ما يظهر منه. فقال له: وما ذاك؟ فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر. فقال له المأمون: لم يكن الأمر كما بلغك، وإنّما كانت جملة من تفصيل كنت عليّ أخبرك به، وإنّما أخرج مني هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندي إلا ما تحب، فليفرج روعك وليحسن ظنك وظهر في

وجهه الحياء والخجل، فلما غدا أحمد على المأمون قال له: أما لمجلسي حرمة؟ فقال: ياأمير المؤمنين، وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك؟ فـأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون، فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمراً لا أحداً مـن بني هاشم والذي حـملني علـى ذلك الشكر لك والـنصح والمحبـة، لأن تتم نعمتك على أوليـائك وخدمك، أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصـلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سـيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقـعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين ـ أطال الله بقـاءه ـ فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيـئاً فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الغناء فيه وإنَّما كان يكون ما فعلت فيها لو أشعت سراً فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير قد استتب. فأما مثل هذا، فما حسبـته أن يكون ذنباً عليّ، فنظر المأمون ملياً، وقال: كيف قلت فأعاد عليه ما قال، ثم قال: أعد. فأعاد الثالثة، فقال له المأمون: أحسنت لما أخبرتني به أحب إليَّ من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقـد خنصره وبنصره والوسطى وقال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه. وأما ألف ألف، فلصدقك إياي عن نفسك وأطلق البنصر، وأما ألف ألف، فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر.

ومن عيوب أحمد بـن أبي خالد، أنه كان شرهاً يتقرّب إليه النـاس بالمآكل؛ لينالوا ما عنده من المصالح. وكـان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليـه كل يوم لمائدته ألف درهم؛ لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان من هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسي اللقاء عباس الوجه يـهر في وجوه الخاص والعام، غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة إلى طعـام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله. وقد روى عنـه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفـور في أخبار بغداد: أنه كان يقول: يهـدى إليَّ الطعام، فوالله ما أدري مـا أصنع به يهديه إليَّ صديق أسـتحي من ردّه عليه.

توفي أحمد بن أبي خالد في ذي القعدة سنة (٢١١هـ)، وصلَّى عليه المأمون، ولما دلي في حفرته ترحَّم عليه، وقال: أنت والله كما قال القائل:

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا ... وذو باطل إن كان في القوم باطل

استوزر المـأمون بعده أحمد بـن يوسف، كان كاتبـاً من خيرة الكتاب وأجـودهم خطاً حتى قال له المأمـون يوماً: يا أحمد، لوددت أني أخط مثل خطـك وعلي صدقة ألف ألف

درهم، وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذا كـان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكـتب التي يريد أن تشهر وتذكر. وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة. ولما مـات أحمد بن أبي خالد، استوزره مكانه وكان من بطانة المأمـون من يحسد أحمد بن يـوسف على الدرجة التي وصل إليـها من المأمون، فكادوا له المكايد حتى أقـصوه عن قلبه. وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقـة الدنيئة التي اتبعوها مع الوزير الذي لم يجدوا فيه عيباً من جهة عمله.

كان المأمون يسـتدعي أحمد بن يوسف سَحَراً لقـضاء الأمور معه، فقـال أحد البطانة لخادم ممن يقـوم على رأس المأمون: إذا خص المأمـون أحمد بن يوسف بكـرامة أو لون من الألوان فأعـلمني وضمن له مـن أجل ذلك مالاً. دخل أحـمد عن المأمون ذات يوم سـحر وليس عنده أحد وكـان تحت المأمون مجمرة عليهـا بيضة عنبر كان أمر بوضـعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلاً، فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته. فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهـو محمد بن الخليل بن هشام، فلما دخل المأمون سأله عما تـقول العامة وما تتحدث بـه، فكان مما أخبره به أن قال: انصرفـت يوماً فمررت بمشرعة وأنا في الزلال ـ قارب ـ فسمعت سقَّاء يقـول لآخر معه: ما رأيت كما يخبر ندماء الرجل عنه، فـقال: ومن تعني؟ قال له: أمـير المؤمنين. قال: وما ذاك؟ قـال: انصرف من عنده أحـمد بن يوسف فسـمعته يـقول لغلامه: مـا رأيت أحداً قط أبخل ولا أعـجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتـسع نفسه أن يدعو لي بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذي كـان تحته فبخّرني به، فعـرف المأمون الحديث، وقال في نفسـه: والله ما حضر هذا اليوم أحد، فأتوهم فيه ضرباً من الضروب، وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته.

استوزر المأمـون بعده القاضي يحيـى بن أكثم التميمـي، كان من جلة العلماء الفـقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والأصـول، تولى قضاء البصرة وسنّه عشرون سنة، ثم اتصل بالمأمون وصله به ثـمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي كان المأمـون يثق به كثيراً، فلما احتاج المأمون إلـى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتـنع منها ووصف له يحيى فاسـتوزره وولاه ـ مع ذلك ـ قـاضي القضـاة، فكان إليه تدبـير المملكـة والقضاء، وقـلما اجتمعـا في شخص. وكان يحيى على مـذهب العامة، فكان إذا أراد المأمون شيـئاً يخالف ماهم عليه، احتال فيما يرجعه عنه. أراد المأمون أن يعلن يوما حل المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب، فدخل عليه يحيى وهو متغيّر، فسأله المأمون عن سبب تغيره، فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا. قال: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ

هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[1]. يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين. قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها، قال: لا. قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين. وهذا الزهري يا أمير المؤمنين، روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب، قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها. فسأل المأمون عن حديث الزهري، أهو محفوظ؟ فعلم أنه رواه مالك، فقال المأمون: أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعة. وكان يحيى ـ مع فقهه ـ من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحاً جوابه على قدر سؤال سائله. لقيه مرة رجل فقال: أصلح الله القاضي كم آكل؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع. قال: فكم أضحك؟ قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك. قال: فكم أبكي؟ قال: لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى. قال: فكم أخفي عملي؟ قال: ما استطعت. قال: فكم أظهر منه؟ قال: مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس.

وكان يحيى من المحدثين الذي يروى عنهم الحديث. وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره. قال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه: يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعُرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس، فضله وعمله ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك، واسع العلم بالفقه، كثير الأدب، حسن المعارضة، قائم بكل معضلة، وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده. وكان المأمون ممن برع في العلوم، فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذه بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته، فكانت الوزارة لا تعمل في تدبيره الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب في تاريخه: أنه ذكر لأحمد بن حنبل ـ ﷺ ـ ما يرميه الناس به، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟ وأنكر هذا إنكاراً شديداً. ذكر ذلك ابن خلّكان في تاريخه، وقال الطيفوري في تاريخ بغداد: قال أحمد بن أبي طاهر: كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول: لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون: فيها مطبوخ (نبيد) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون: فيها مطبوخ إني لا أترك قاضي يشرب النبيذ.

---

(١) المؤمنون: ٥ ـ ٧.

ولم يذكـر ابن طباطبـا في كتابه الفـخري، يحيـى بن أكثم في عـداد وزراء المأمون. والظاهر من عـبارة طلحة بن محـمد التي أوردناها: أنه كـان بمنزلة مستشـار للخليفة فـيما يجري على أيدي الوزراء من الأعمال.

ولم يكـن ختام أمـره مع المأمون خـيراً، فقـد كان من ضـمن وصيـة المأمون لأخـيه المعتصم: ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً مما علمت، ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صـحة مني فصرت إلى مفارقته قالياً له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته لا جزاه الله عن الإسلام خيراً.

ولولا هذه العبارة في وصية المأمون، لم يكن وصل إلى علمنا شيء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكثم في خاتمة الاتصال بينهما، ثم رأيت في «مروج الذهب»: أنَّ المأمون سخط عليه سنة (٢١٥هـ) وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه.

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل.

ومن وزراء المأمون: أبو عـباد ثابت بن يحيـى بن يسار الرازي، وهو الذي يقـول فيه دعبل:

أولى الأمـــــور بضيعـة وفســـاد   أمـــر يدبـره أبــــو عبـــــــــاد

فقد كان ـ مع كتابـته وحذقه بالحساب ـ أهوج محمقاً. وقد قـيل للمأمون: إن دعبلاً هجاك! فقـال: من أقدم على هجاء أبي عبـاد كيف لا يهجوني. وكان شـديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش.

ومن وزرائه: أبو عـبد الله محمد بن داد بـن سويد وهو آخر وزرائه، وأصل بيـته من خراسان، كانوا مجوساً ثم أسلموا واتـصلوا بالخلفاء. وسويد أول من أسلم منهم، وخرج بنوه كتاباً ولا سيـما محمداً، فإنه تأدَّب وبرع في كل شيء فاسـتوزره المأمون، ومات وهو وزيره.

ولم يكن للوزراء في عهـد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استـبداد بمصالح الدولة، بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه. ويظهر أن الحوادث السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي أول عهـد المأمون، جعلت الخليفة يسـيِّر أمور دولته بنفسه؛ لئلا يسـتفحل أمر وزرائه فيكون مـن ذلك ما يخشاه من مـثل ما حصل للفـضل بن سهل ولجعفـر بن يحيى البرمكي وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم.

الأحوال الداخلية:

العلويون وآثارهم في الدولة:

قدَّمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده علي الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمطار الكبرى ثم ما كان من وفاة علي الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن. ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون قد صاهر عليًا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد ـ وهو الإمام التاسع من أئمة الشيعة ـ ابنته الأخرى، ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون. وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في سنة (٢٠٧هـ) باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف وكتب معه بأمانه، فحضر دينار ابن عبد الله الموسم وحجَّ. ولما فرغ من حجّه، سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون، فقبل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

ومع ذلك، فقد جاء في وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى).

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها، أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدى المفسدين فيها، فأشار عليه الحسن بن سهل برَجُلٍ من ولد زياد بن أبي سفيان، وهو محمد بن إبراهيم الزيادي، فولاه إياها سنة (٢٠٣هـ)، فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن، ففتح تهامة، واختط مدينة زبيد سنة (٢٠٤هـ)، وهي التي صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادي بعد ذلك باليمن، وصار كملك مستقل، إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة (٢٤٥هـ)، ثم صار الملك في أبنائه، ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى سنة (٥٥٣هـ)، وتعرف هذه الدولة بـ «الدولة الزيادية»، وهي أول الدول استقلالاً باليمن.

وحال هذه الدولة يشبه حال دول الأغالبة في إفريقية. فإنّ الرشيد ولاها إبراهيم ابن الأغلب التميمي؛ ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى، وكانت توليته إياها سنة (١٨٤هـ)، فعظم أمره وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك في أعقابه إلى سنة (٢٩٦هـ)، وكان الأمير في عهد المأمون عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٦ ـ ٣٠١هـ)، ثم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذي استمر ملكه إلى سنة (٣٢٣هـ)، وهو الذي فتح جزيرة صقلية من أيدي الروم.

فهاتان الدولتان أول الدولة المتغلبة على أطراف بني العباس، وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم، وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدراسة والأندلس لبني أمية.

■ **إبراهيم بن المهدي:**

قدَّمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي؛ إذ كان المأمون بمرو، فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذين كانوا مع إبراهيم، تركوه. فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفياً ببغداد يتنقل من دار إلى دار إلى سنة (٢١٠هـ)، وفي تلك السنة أُخذَ، أخذه حارس أسود، وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة، فأعلم المأمون بخبره، فأَمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له: هيه يا إبراهيم. فقال: يا أمير المؤمنين، ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاعتزاز بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإنك تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال: بل أعفو يا إبراهيم. فقال إبراهيم يمدحه:

يا خير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبو من عبد الإله على التقى ... عيناً وأقوله بحق صادع
على الفوارع ما أطعت فإن تهج ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظاً حذراً وما يخشى العدا ... نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهما ... من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذي بوأتني ... وطناً وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخاً جعلت وللتقى ... وأبا رؤوفاً للفقير القانع
نفسي فداؤك إذ تضل معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع

أملاً لفضلك والفواضل شيمة ... رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله ... وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما ... ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وعويل عانسة كقول النازع
وعطفت آصرة علي كما وعى ... بعد انهياض الوثي عظم الظالع
الله يعلم ما أقول فإنها ... جهد الألية من حنيف راجع
ما إن عصيتك والغواة تقودني ... أسبابها إلا بنية طائع
حي إذا قطعت حبائل شقوتي ... بردي إلى حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل جرمي غافراً ... فوقفت أنظر أي حتف صارعي
رد الحياة علي بعد ذهابها ... ورع الإمام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة ... ورمى عدوك بالوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثني بها ... نفسي إذا آلت إليّ مطامعي
أسديتها عفواً إليّ هنيئة ... فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلا يسيراً عند ما أوليتني ... وهو الكثير لدى غير الضائع
إن أنت جدت بها عليّ تكن لها ... أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
إن الذي قسم الخلافة حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة، قال: أقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1]:

ومن الغريب، أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون وإعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة، ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة!

وكان اطلاع المأمون على ذلك يوم السبت (٥ صفر سنة ٢١٠هـ)، والظفر بإبراهيم بن المهدي ليلة الأحد (١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠هـ)، وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاماً شديداً، فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام في الشمس على باب دارالمأمون ثم ضربه بالسياط، ثم

(١) يوسف: ٩٢.

أمر بحبسه في المطبق، وفعل قريباً من ذلك بمن كانوا معه، وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس، فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً برآء، ثم أمرالمأمون بعد ذلك بابن عائشة فقُتِل وصُلِب وهوأول مصلوب في الإسلام من بني العباس وقُتِل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين، وكان قتلهم في (١٤ جمادى الآخرة) من تلك السنة.

■ **نصر بن شيث:**

كان نصر بن شيث من بني عقيل، يسكن يكسوم شمالي حلب، وكان عربيّاً شريفاً شهماً، له في محمد الأمين هوى، فلما قُتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد الأمراء من غيرهم، فأظهر الخروج على السلطان، وكان ذلك أواخر سنة (١٩٨هـ)، وتغلَّب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، وحدثته نفسه بالتغلب عليه، فلما رأى الناس ذلك منه، كثرت جموعه وزادت على ما كانت.

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق، ولي الحسن بن سهل على كل ما افتتحه، وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة، لمحاربة نصر. وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف، فلم يجب. فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي يكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاءً حسناً، فكان النصر له. وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي. والظاهر: أنه لم يكن جادّاً في حرب نصر؛ لأنه رأى نفسه جرِّد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جناه.

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له: قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال: من أي الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب. فقال: أبايع بعض أولاد السوداوات. فيقول: إنه خلقني ورزقني، قالوا: فنبايع لبعض بني أمية. قال: أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم على مدبر لأعداني إدباره، وإنَّما هو - أي في بني العباس - وإنَّما حاربتهم محاماة عن العرب، لأنهم يقدمون عليهم العجم. ولما شخص المأمون إلى بغداد، أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره أن يقاتل نصراً، فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله

من الرقة إلى مصر وأمره بالجد في محاربة نصر. وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبد الله ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره، فدعا به فقرأ عليه فقال: ما أبقى أبو الطيب ـ يعني طاهراً ـ شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة، إلا وقد أحكم وأوصى به. وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي. ذهب عبد الله إلى وجهه في محاربة نصر، فجدّ في أمره وحصره وضيّق عليه حتى مال إلى الأمان. وفي ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامري ليؤدي إلى نصر رسالة، فذهب إليه وهو بكفر عزون بسروج، فأبلغه رسالة المأمون التي يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم، فأذعن وشرط شروطاً؛ منها: ألا يطأ بساطه، فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر، فقال: لا أجيبه والله إلى هذا أبداً، ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره، فصاح بالخيل صيحة فجالت، ثم قال: ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعني الزط ـ يقوى على حلبة العرب. لكنه مع جد عبد الله بن طاهر في حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان، فكتب له المأمون كتاب أمان، فخرج إلى عبد الله بن طاهر. وحينذاك، هدم يكسوم وخرّبها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد في صفر سنة (٢١٠هـ)، وأنزل مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه.

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين.

■ **الزط:**

الزط معرب (جت)، قال عنهم ابن خلدون: «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد» ا.هـ. وهم المعرفون بالنور، صلهم من هنود آسيا، كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون. ولما استقر المأمون ببغداد، بعث عيسى بن يزيد الجلوي لحربهم سنة (٢٠٥هـ)، ويظهر أنهم كانوا إذا أحرجتهم الجنود تفرّقوا في تلك الفيافي. فقد ذكر الطبري في حوادث سنة (٢٠٦هـ): أن المأمون ولى داوود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله. والظاهر: أنهما لم يؤثرا أثراً فاصلاً؛ بدليل ما ورد في عبارة نصر بن شبث (إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه)، وقد استمر أمرهم كذلك إلى سنة (٢١٩هـ) في عهد المعتصم؛ حيث وجه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا

قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل، فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية، فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه، ولما أخذ عليهم طرقهم، حاربهم وأسر (٥٠٠) رجل وقتل منهم في المعركة (٣٠٠) رجل، فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى المعتصم. ثم أقام بإزائهم (١٥) يوماً، ظفر منهم فيها بخلق كثير، وكان رئيس الزط رجلاً يُقال له: محمد بن عثمان، وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم - فيما قيل - تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم، فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة (٢١٩هـ)، على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم. وكانت عدتهم ذكر (٢٧) ألفاً المقاتلة منهم (١٢) ألفاً، وأحصاهم عجيف (٢٧) ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي، ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبَّأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة (٢٢٠هـ)، فمرّوا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي، فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة. وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة (٢٤١هـ) في عهد المتوكل: أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم.

■ **بابك الحرمي:**

بين أذربيجان وأران في شمال بلاد الفرس كورة تُدْعَى «البذ» يمرّ بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة، خرج بابك التي امتدت فتنته زمناً طويلاً في عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة (٢٢١هـ) في عهد المأمون ومنتهاه سنة (٢٣١هـ) في عهد المعتصم.

ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنته، وما كانوا عليه من الاعتقاد، وما أثروه في دولة المأمون والمعتصم.

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية، سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها. ومن تلك الطوائف: فرقة تُسمى الحرمية - بالحاء والراء المهملتين - كما جرى عليه ابن النديم في فهرسه -. وهم صنفان:

الحرمية الأولون: ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم، أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر

ولا يمنعه. ومع هـذه الحال، فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام عـلى النفوس. ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم، إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر أيام قـباذ بن فيروز وقتله أنو شروان وقتل أصحابه.

الصنف الثاني: الحرمية البابكية: يُنسبون إلى صـاحبهم بابك الحرمي وكـان يقول لمن استغواه: إنه إلـه وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغـصب والحروب والمثلة، ولم تكن الحرمية تفـعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم، ومنه يظهر وجـه تسميتهم بالحرمـية. أما سائر المؤرخين فيقولون: هم الخرمية ـ بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة ـ. قال أبو سعيد عبد الكـريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب «الأنـساب»: الخرمي: نسبة إلى طائفة من الباطنية يُقال لهم: الخرمديـنية، يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنَّما لُقِّبوا بذلك؛ لإباحتهـم المحرمات من الخمر وسـائر الملذات ونكاح ذوات المحارم وفعل مـا يتلذذون به. فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا في أيام قباذ، وأباحوا النساء كلهن، وأباحوا سائر المحـرمات إلى أن قتلهم أنو شروان بن قباذ، قيل لـهم بهذه المشابهة: خرمدينية ـ كما قيل للمزدكية ـ. وقـال صاحب القاموس: خرمة: قرية بفارس، منها بابك الخرمي. ثم قال: وتخرم دان بدين الخرمية لأصحاب التناسخ والإباحة.

ومن ذلك يظهر: أن ما جاء في فهرس ابن النديم تحريف.

نشأ بابك بن بهرام بقرية تُدعى بلال أباد رستاق مـيمتد ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية. وكان جـاويدان يرى منه فهماً وشهامة وخبثاً، ففرَّ به إليه. ولما أدركته منيته، اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك، فجمعت الخرميـة وقال لهم: إن جاويدان قال لـي: إني أموت في ليلتي هذه وإن روحـي تخرج من جسـدي وتدخل بدن هذا الغلام خـادمي وقد رأيت أن أملـكه على أصحابـي، فإذا مت، فأعلميهم ذلك، وأن لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري، فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

أخذ بابك ومن معـه في العيث والفساد وإخافة السبـل. وأول ما عرف ذلك من أمره كان سنة (٢٠١هـ) والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد، فلما شخص المأمون إلى بغداد عيّن أحد قواده يحيى بـن معاذ لحرب بابك، فكانت بينهـما وقعة لم ينتصف فيـها أحدهما من الآخر. فـاختار المأمـون قائداً آخـر هو: عيسـى بن محمـد بن أبي خالـد، فولاه أرمينـية

وأذربيجان ومحاربة بابك، فنكب ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي، فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سنة (٢١٤هـ) بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه. هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً؛ لمكان بابك الحصين، وقوته الكبيرة، وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذي كانوا معه. وقد ذكر في حوادث سنة (٢٢٨هـ) دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبيذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان. ذلك أول ولاية المعتصم، فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم، فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية: (والخرمية فاغزهم ذا جزامة وصرامة و جلد واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم فتجرَّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه).

لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك؛ لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية، فاختار لحربه قائداً تركيّا من كبار قواده، وهو حيدر بن كلوس الأشروسني المعروف بالأفشين ـ الأفشين: لقب لملوك أشروسنة ـ؛ وذلك سنة (٢٣٠هـ)، وقبل أن يخرج لوجهه، وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التي خرّبها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل، ففعل أبو سعيد ما أمره، وأوقع بسرية أرسلها بابك للإغارة عليه. وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نظم البريد بينه وبين الجيش، فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب، فكان يركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب في دواب المرج فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدَّل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ، وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينفروا، وإذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النفير، تهيَّأ فلا يبلغ إلى

صاحبه الذي نـفر حتى يقف له على الطريق فـيأخذ الخريطة منه فكانـت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند، فعسكر بها ورمَّ الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قواداً مـن قواده ببعـض الحصون هـناك لحراسة الـقوافل والسـابلة وأطلـق الأفشين عيـونه وجواسيسه لتعرّف الأخبار عن بابك. وأول وقـعة كانت بينه وبين عسكر بابك بأرشق أحد حصون الأفشين حـيث خرج بابك ليقتنص مالاً أرسـله المعتصم مع أحد قواده، فـبلغ خبره الأفشين فخـرج إليه سراً والتقـيا على مقربة من الحـصن، فأتى جند الأفشين علـى جميع رجالة بابك وأفلت هو في نـفر يسير ودخل موفان ومنها توجه إلـى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمـرت الحروب بين الأفشين وبابك مـدة طويلة، وكانوا لا يتحـاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلـوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال وتمنع المـشاة من التقدّم إلى أن كان الربيع سنة (٢٢١هـ)، فسـار الأفشين من مكانه يريد مهاجمة البـذ وأخذه عنوة، فسار محترساً، وقد رتَّب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه، فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسـلا كلاهما وانتهى الأمر بـاقتحام المسلمين البـذ واستيلائهم عليـها. وقد أراد بابك الهرب وشرع فيـه، فأفسد عليه الأفشين تدبـيره وسد عليه المسالك وأوقف علـيها جنداً من جيشـه. وأخيراً قُبض عليـه وعلى أخيه عبـد الله وعاد بهما الأفـشين إلى سامرا كـما أمره المعتـصم ومعهمـا (١٧) رجلاً من أهل بيتـه ومن البنات والكتّاب (٢٣) امـرأة، وكان يوم دخولهم سامرا يوماً مـشهوداً، ثم قتل بابك وصُلب بساخرا وفعل مـثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جميع من قتل بابك في عشريـن سنة (٢٥٥٠٠) إنسان، وغلب كثيراً من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الأفشين (٧٦٠٠).

■■ الخراج في عهد المأمون:

يمتاز عـهد المأمون، بوجـود أثر تاريخي يدل على مـقدار الجبايـة الخراجية من جـميع الأقاليم التي دخلت تحت حكم الدولة العباسـية، وهو الثبت الذي نقله العلاَّمة ابن خلدون في مقدمة تاريخه، نقله عن كتاب جراب الدولة. ولمَّا في ذلك الثبت من الفائدة أحببنا أن ننقله عنه وها هو ذا:

الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم	الجباية من العروض	
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	٢٠٠	حلة بخرانية
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠	٢٤٠	رطلاً من تين الختم
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠		
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠		
الأهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	رطل سكر
		٣٠,٠٠٠	قارورة ماء ورد
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٢٠٠	رطل زيت أسود
		٥٠٠	ثوب متاع يماني
		٢٠,٠٠٠	رطل تمر
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠		
مكران	٤٠٠,٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندي
السند وما يليه	١٢,٥٠٠,٠٠٠	٢٠٠	ثوب معين
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠	رطل من الفانيذ
		٢,٠٠٠	نقرة فضة
		٤٠,٠٠٠	برذون
		١,٠٠٠	رأس رقيق
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	ثوب متاع
جرجان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	رطل أهليلج
قومس	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	شقة أبريسم
طبرستان والرويان		١,٠٠٠	نقرة فضة
ودنباوند	٦,٣٠٠,٠٠٠	٦٠٠	قطعة فرش طبري
		٢٥٠	كساء
		٥٠٠	ثوب

الإقليم	الجباية من الدراهم	الجباية من العروض	
		٣٠٠	منديل
		٣,٠٠٠	جام
الري	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	رطل عسل
همذان	١١,٣٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	رطل رب الرمانين
		١٢,٠٠٠	رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠		
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠		
شهر زور	٦,٧٠٠,٠٠٠		
الموصل وما إليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠		
الجزيرة وما إليها من	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	رأس رقيق
عمل الفرات		١٢,٠٠٠	زق عسل
		١٠	بزاة
		٢٠	كساء
		٢٠	قسط محفور
		٥٣٠	رطل رقم
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	رطل من المسايح السور
ما هي			
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	رطل سونج
		٢٠٠	بغل
		٣٠	مهراً
		١٢٠	بساط
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠		
المجموع بالدراهم	٣١٩,١٠٠,٠٠٠		

الإقليم	الجباية من الدنانير	الجباية من العروض
قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	
الأردن	٩٧,٠٠٠	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	١,٩٢٠,٠٠٠	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	
المجموع بالدينار	٣,٨١٧,٠٠٠	

فمجموع الخراج من الدراهم (٣١٩٦٠٠٠٠٠) درهم، و(٣٨١٧٠٠٠) دينار، ومن العروض مـا ذُكر أمام كل إقليـم، وإذا قوّم بلغ شيـئاً كثـيراً. كان هذا كله يَرِد إلـى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فـيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والـباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء، وذلك مقدار وافر يـدور معظمه في الحاضرة الكبرى فيزيـدها سعة ورخاء وترفاً. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدي الخلفاء، مـا رواه الطيفوري في أخبار بغداد: أنه ورد على المأمون وهو بالشام (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه، فخـرج المأمون وأصحـابه ينظرون إلى ذلـك المال، فقال ليـحيى بن أكـثم: يا أبا محـمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكنـاها دونهم! إنّا إذاً للئام، ثم دعا مـحمد بن يزداد ـ وزيره ـ فـقال: وقع لآل فلان بـألف ألف ولآل فلان بمثـلها، فمـا زال كذلك حـتى فرق (٢٤,٠٠٠,٠٠٠) ورجله في الركاب، ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلى يعطي جندنا. قال راوي الخبر: فجئت حتى قمت نصب عينيـه فلم أرد طرفي عنها لا يلحظنـي إلا يراني بتلك الحال، فقال: يا أبـا محمد، وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف، الألف لا يختلس ناظري، قال: فلم تأت ليلتان حتى أخذت المال. وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر.

■■ الجيش:

ظهور الدولة العباسـية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شـأناً عظيماً في

الدولة ومقاماً لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب. وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم في تلك الدولة، وبقدر ما زادهم، نقص من شأن العرب، حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد، وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً، فقال يا أمير المؤمنين: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان، قال: أكثرت علي يا أخا الشام، والله ما نزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأمَّا اليمن، فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط. وأما قضاعة، فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة، فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر. ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً. اعزب فعل الله بك. وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها، قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس. ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها، كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة. أمَّا العصبية العربية للعنصر العربي، فقد أشرفت على الامحاء.

■■ القواد العظام في عهد المأمون:

أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة: طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان. كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه إلى خراسان، ولا ندري أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة. ويغلب على الظن، أنه مولى إسلام، أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته، ولذلك كان يُقال له: الخزاعي. وكانوا بقرية تُدعى بوشنج من أعمال مرو، وبها ولد طاهر بن الحسين سنة (١٥٩هـ)، وكان جده مصعب بن رزيق والياً عليها وعلى هراة، وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعي داعية بني العباس.

نشأ طاهر ببوشنج شهماً شجاعاً أديباً، وأول ما أحيا ذكره الخالد، أعماله العظيمة التي قام بها في قواد الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية، فظفر ظفراً عظيماً كما قدَّمنا. وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته، إلا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة، فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة

لحرب نصر بن شيث، ولما شخص المأمون إلى بغداد ومات الفضل في الطريق، أمّر المأمون طاهراً أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التي تليق به، وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد.

كان الذي يتولى خراسان في ذلك الوقت، غسان بن عباد، فبلغ المأمون أن عبدالرحمن المطوعي جمع جمعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والي خراسان، فتخوّفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوي الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهر، فاختاره المأمون لذلك، وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة. وأعظم شهادة له، ما ذكره الطيفوري عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول: ما حابى طاهر في جميع ما كان فيه أحداً ولا مالاً أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصّر في شيء وفعل في جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقي في أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه وإجزائه، قال: كان يحلف على صدق ما يقول في ذلك مجتهداً مؤكداً لليمين على نفسه.

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدي الخراج عن عمله، وعليه والي بريد يكتب إلى المأمون بأخباره، قالوا: كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو، فوليها سنة (٢٠٥هـ)، وخطب بهم في سنة سبع ولم يصل بهم إلا ذلك اليوم، فإنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ولم يدع للمأمون، فكتب والي البريد إلى المأمون بذلك. وفي تلك الليلة أصابته حمى وحرارة، فوُجِد ميّتاً على فراشه، فكتب صاحب البريد بوفاته. ولا نحسب ماظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقّاً، فإنه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقاً.

وقد استمر ملك البيت الطاهري بخراسان من سنة (٢٠٥) إلى سنة (٢٥٩هـ)، حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار، وهي أول الدول استقلالاً بالمشرق، وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد؛ والسبب في دوام هذا التحسن: أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد، ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد.

■ عبد الله بن طاهر:

ولد عبد الله بن طاهر سنة (١٨٢هـ) في خلافة الرشيد، ونشأ نشأة مجيدة، وكان

عمره حين سطع نجـم والده في حوادث المأمون نحو (١٧) سنة. فتـربى في كنف المأمون، فخرج شـهماً نبيـلاً أديباً. وكان المأمـون يحبه حبّا جـمّا، ولاه حرب نصر بن شـبث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه، فقام بما أمر به خير قيام، ورد نصراً إلى طاعته بعد أن حصره وضيَّق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيـه طاهر في الشرطة وأعمال بغداد، فاستخلف على ذلك عمه إسحاق ابن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر، أمـره المأمون أن يسير إلى مصر؛ لاضطراب كان فـيها من فتنة عبيد الله بن السري أميـر مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالإسكندريـة، فذهب إليها واستنزل عبيد الله بن السري مـن معاقله بعد أن أذلَّه وأجلى الأندلسيين عما غلـبوا عليه. قال يونس ابن عبـد الأعلى ـ أحد علمـاء الحديث من أهل مـصر ـ: قدم علينـا من قبل المشـرق فتى حدث ـ يعني عبد الله بن طـاهر ـ والدنيا عندنا مفتونة قد غلب عـلى كل ناحية من بلادنا غالب والناس مـنهم في بلاء، فأصلح الدنـيا البريء وأخاف السـقيم واستوثقت لـه الرعية بالطاعة. وكتب إليـه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك، يهنئه بذلك الـفتح: بلغني أعز الله الأمين، ما فـتح الله عليك وخروج ابن الـسري إليك، فالحـمد لله الناصر لديـنه المعز لدولة خليفتـه على عباده، المذلّ لمن عند عنه وعن حقه ورغـب عن طاعته، ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك، والحمـد لله على ما وليك به مذ ظعنت لوجهه فإنا ومن قبلنا نتذاكر سـيرتك في حربك وسلمك ونكثر العجب لما وفـقت له من الشدة والليان في مواضعهما ولا نـعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك، ولا عـفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضفنـه عفوك، ولقلما رأينا ابن شـرف لم يلق بيده متكلاً على مـا قدمت له أبوته، ومن أوتي حظاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسـاً استحق النجح لحسن السيـرة وكف معرة الأتباع استحقـاقك، وما يجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحداً يهوى عند إلحـاقه والنازلة المتصلة فليهنك منَّة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمـة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من الـتمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ومولاك وإيـانا بالعيش ببقائه، وأن نعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قـبلنا مكرماً مقدماً مـعظماً، وقد زادك الله في أعين الخاصة والـعامة جلالة وبجالة فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم، وأي جور أن يوفقك الله لمحابه كما وفـق لك صنعه وتوفيقه، فـقد أحسنت جوار النعمـة، فلم تطغك ولـم تزدد إلا تذللاً وتواضعاً، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام.

وكتب له المأمون كتاباً وكتب في أسفله:

أخـــي أنـــت ومـــــولاي ومـــن أشـكـــر نـــعـــمــــاه
فـــمـــا أحـــببـــت مـن أمــــر فـــــأنـــي الـــدهـــر أهـــواه
ومـــــا تـــكــــره مــــن شـــيء فــــإنـــي لـــســـت أرضــــاه
لـــــك الله عـــــلـــــى ذاك لــــــك الله لــــــك الله

ولما عاد إلى مصر سنة (٢١٢هـ)، ولأه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان، لمحاربة بابك. وصادف أنه مات بعد خروجه، طلحة بن طاهر بن الحسين، فولاه المأمون مكانه واستمر والياً حتى مات سنة (٢٣٠هـ)، في عهد الواثق.

■■ العلم في عهد المأمون:

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي؛ وذلك لأمرين:

الأول: أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو، فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية؛ الحديث والتفسير والفقه واللغة العربية، فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشره.

الثاني: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك، حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين ـ كما سنبينه ـ فتوافق رأي الإمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

■ العلوم التي نريد بيان حالها، نوعان:

علوم دينية، وعلوم عقلية.

أمَّا العلوم الدينية: فمنها ما يرجع لأصل الدين، وهو: علم الكلام أو التوحيد.

ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال، وهي: الفقه وأصوله، وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث.

ظهر في ذلك الوقت، جمهور من فطاحل ورؤساء المتكلمين، توغَّلُوا في البحث في أصول الدين والعقائد، وحكموا في البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث، وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف، وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة، وامتد منها إلى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال، ثم عمرو ابن عبيد الذي كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء، حتى قال فيه:

كلكم يمشي رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات، رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف، وإبراهيم بن سيار النظام، وبشر بن غياث المريسي، وعمر بن بحر الجاحظ، وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤوس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال. وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين، وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور وأهل الحديث:

١ ـ **مسألة القدر وأفعال العباد**: فكانوا يقولون: إنَّ أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله، ومن أجل ذلك، يستحقون عليها الثواب والعقاب، وأن المقصود بالقضاء والقدر: ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان. ويقابل ذلك رأى العامة: أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم. وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد.

٢ ـ **صفات الله تعالى**: فقد نزَّه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته، من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام، وقالوا: إن الله قادر بذاته، والذي أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء. ويقابل ذلك قول العامة: إن الله قدير بقدرة، وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن: أهو قديم لأنه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة، أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات في جسم محدث يسمعه النبي ﷺ منه وهذا عندهم هو الوحي.

وهاتان المسألتان، أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة.

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التي تشابه ما ذكرنا، كان قد ظهر في الفقه الذي هو أحكام أفعال العباد، فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأي ـ كما بيناه في تاريخ التشريع ـ ووجد من كل الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم، ونَحَوا نحوهم في التشريع واقتدوا بهم. منهم من سبق عصر المأمون؛ كأبي حنيفة وأصحابه، ومالك وأصحابه. ومنهم من كان أول عصره، كالشافعي محمد بن إدريس الذي توفي في السنة التي دخل فيها المأمون بغداد. والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك: أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم، بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره، فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد. أما المختلفون في أصول الدين، فكانوا على غير ذلك. كل فرقة

ترى النقص في الأخرى، وربما تلعنها. فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار. وأولئك يقولون عن أهل الحديث: إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة، وربما نالوا منهم أكثر من ذلك.

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها، وهي مسألة الخلافة، ومن يستحقها بعد رسول الله ﷺ. فكان الجمهور يرى: أن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولي الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن عليًا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده، وهم مختلفون في الحكم على من سبق عليًا من الخلفاء. فمنهم الغالي ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم. ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان: الإمامية والزيدية، ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين، فوجد من كل منهما مذاهب وآراء.

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء، بل كانوا يخشون العامة، ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها؛ لأنَّ الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة، لأن القوة فيها. فلما جاء المأمون، رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث، ويجعل لهم مجالس المناظرة. ويظهر أنه كان يرمي إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الأمة، ـ ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة ـ.

قال الطيفوري في تاريخ بغداد: قال التغلبي: سمعت يحيى بن أكثم يقول: أمرني المأمون عند دخوله بغداد، أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً، وأحضرتهم وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين، قال المأمون: يا أبا محمد، كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم. فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وظنُّوا أنه لا يجوز تفضيل عليّ إلا بانتقاص غيره من السلف، والله ما أستحل ـ أو قال: ما أستجيز ـ أن أنتقص الحجاج، فكيف السلف الطيب. وإن الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه فيقول: إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أنّي بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه

على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فـأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به كصيانتي نفسي، وإنّما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله ﷺ له، فكيف لا أرعى حق أصحـابه وحرمة من قد صحبه وبذل مـاله ودمه دونه وصـبر معـه أيام الشدة وأوقـات العسـرة وعادى العشـائر والعمـائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب من داره ليعزّ الله ديـنه ويظهر دعوته؟! يا سبحان الله، والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً، لكـان في الأخلاق جميلاً، وإن من المشركين لمن يرعى في دينـه من الحرمة ما هو أقل مـن هذا، معاذ الله مما فطن به الجـاهلون. ثم لم ترض هذه الطائفة بالـعيب لمن خالفها حتى نسـبته إلى البداية في تفضيلـه رجلاً على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفـضل، وقد قال الله جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1]. ثم وسع لنا في جـهل الفاضل من المفضـول، فما فرض علينـا ذلك ولا ندبنا إليه؛ إذ شـهدنا لجماعـتهم بالنبوة، فـمن دون النبيين من ذلك بـعد إذ شهد لهم بـالعدالة والتفضيـل أمر لو جهله جهل رجونا أن لا يكـون اجترح إثماً. وهم لم يقولوا بـدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخـر واحتج في كسره وإبطاله في الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من الـنظر في التفضيل، فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئاً أو له روية أو حسن نظر أو يـدفعه من له عقل بل معاند يريد الإلطاط أو متبع لـهواه ذاب عن رياسة اعتقـدها وطائفة قد اتخذ كـل رجل منهم مجلساً اعـتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعـة ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي قد عقـد به رياسة بدعة ويشيط بدمـه وهو قد خالفه من أمر الـدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عـند ذكر مخالفته إياه فيه فإذا خُولف في نحلته ولعلهـا مما وسّع الله في جهله أو قد اختلف السلف في مثله، فـلم يعاد بعضهم بعضاً ولم يروا في ذلك إثماء فلعله يكفر مخالفه أو يبدّعه أو يرميه بالأمور التي حرَّمها الله عليه من المشركـين دون المسلمين بغياً عليهم وهم المتـرقبون الفتن الراسخون فيها، لـينتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون. يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها. وإني لأرجو أن يكون مجـلسنا هذا ـ بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه ـ سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين. إما شاكٌّ فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً، وإما معاند فيردّ بالعدل كرهاً.

وروى أيضاً عن بشر المريسـي، قال: حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامـة ومحمد بن أبي العباس وعلي بـن الهيثم، فتناظروا في التشـيع. فنصر محمد بن أبي العـباس الإمامية

(١) الإسراء: ٥٥.

ونصر علي بن الهيثم الزيدية، وجرى الكلام بينهـما إلى أن قال محمد لعلي: يا نبطي، ما أنت والكلام؟ فقال المأمـون ـ وكان متكئاً فجلس ـ: الشتم عي والـبذاءة لؤم، إنا قد أبحنا الكلام وأظهـرنا المقالات، فمن قـال بالحق حمدناه، ومـن جهل ذلك وقفنـاه، ومن جهل الأمر حكمنا فـيه بما يجب، فاجعـلا بينكما أصلاً، فإن الكـلام فروع، فإذا افترعتم شـيئاً رجعتم إلى الأصول.

فيُستفَاد من هذين الخبرين أمورٌ جديرة بإمعان النظر:

١ ـ أن المأمون أباح الكلام وأظهر المـقالات، لدرجة قلما تجدها في أمة. وما ظـنك بخليفة عباسي تناظر فـي مجلسه اثنان في الإمامية فـينصر أحدهما الإماميـة والثاني الزيدية، وهذان المذهبان كلاهما ـ إن صحا ـ يذهبـان بما في أيدي آل العباس من الإمامة، ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم.

٢ ـ أن طوائف من الناس عابـت ذلك على المأمون؛ لأنه علم منه الموافـقة على بعض آراء تخالف رأي العامة كما كان مذهبه في تفضيل علي بن أبي طالب - ﷺ - على سائر الخلفاء واتهموه ـ بسبب ذلك ـ بما هو منه بريء وهو: انتقاص غيره من الصحابة. وقد دافع المأمون عن نفسه في ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه.

٣ ـ أن المأمون كان يرى في علـماء وقته أنهم إنَّما كانوا ينكـرون ما ينكرون في الآراء التي كانت لهم سـبب رياسة ولو كانت تـافهة لا يترتب علـيها في الدين أثر ويغـفرون لمن خالفهم في الأمور الجسيمة التي تترتـب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشيء مما يعتقدون به رياسة عند العامة.

٤ ـ أن المأمون كان يظن أنه بمجلس المناظرة هذا يتـوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه، فإن الشاكّ يتبين أو يتثبت، والمعاند يُكرَه.

وهذا الذي فعله المأمون، أول تجربة وآخرها؛ لأنه لم يفكر أحد ممن قبله في مثل هذا. ولما انتهت تجربته بالفشل، لم يعد أحد الخلفاء إلى مثله.

كانت قوة فقهاء العامة محكمة الـعرى؛ لأن العامة كانت تجلهم و تحترم آراءهم، كما أن الفقـهاء كانوا يـحوطون معـتقدات الجمـهور ويقفـون ضد من يعلن مـخالفتـها. أدَّت المناقشات الكثـيرة التي بين يدي المأمون، إلى أنه كان يرى بعض آراء المعتـزلة لا كلها، فإنه لم يكن قدريًا. روى الطيفوري عن محمد بن إسـحاق بن إبراهيم اليزيدي: أنه سمع ثمامة يقول: إن المأمون عامي؛ لتركه القول بالقدر، وإنَّما الذي صار إليه من آرائهم: القول بخلق

القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة (٢١٢هـ)، وكان يظن ـ كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيبون إلى إعلان رضاهم به، فكانت النتيجة عكس ما ظنّ، فإنّهم تكلّموا فيه، وقالوا: إنه مبتدع. وغلا بعضهم في ذلك، فقال بكفر من رأى خلق القرآن، وبذلك تجسمت هذه المسألة التي لم تكن تستحق تجسيماً إذا نظر إليها بشيء من التدقيق. ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلاف بين المأمون ومن شايعه، وبين فقهاء الجمهور.

مرت سنوات أربع والخلاف يتسع والكلام من الفريقين في الآخر يزيد حتى كانت سنة (٢١٨هـ)، فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفاً بفشله فيما شرع فيه، فكتب كتاباً وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد ـ محافظها ـ بيّن فيه أن واجبه بصفته إماماً للمسلمين أن يجتهد في إقامة الدين، ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالّة على خلاف ذلك، ثم قال:

(ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم أظهروا ـ مع ذلك ـ أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهّال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيئ آرائهم؛ تزيناً بذلك عندهم وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم. فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم و فساد نياتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم).

وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع، قال لإسحاق: فاجمع بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا، إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن علمهم فى القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إليك أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله وكتب

في شهر ربيع الأول سنة (٢١٨هـ).

وكتب إلى إسحاق: أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور، منهم: محمد بن سعد - كاتب الواقدي -، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وأحمد ابن إبراهيم الدورقي، فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوه جميعاً: أن القران مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقرُّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم.

وكتب المأمون إلى إسحاق كتاباً ثانياً زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه في صفة من خالفوه: وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظًّا في الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة في أمان ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء في أمر الرعية.

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من هؤلاء العلماء، وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق:

قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة. قال: فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى. قال: أقول: القرآن كلام الله. قال: لَمْ أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء. قال: أما القرآن شيء؟ قال: هو شيء. قال: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق. قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوقٌ هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت.

وقال لعليّ بن أبي مقاتل: ما تقول يا علي؟ قال: قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة، وما عندي غير ما سمع. فقال له: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله. قال: لم أسألك عن هذا. قال: هو كلام الله، وإن أَمَرَنَا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا.

وقال لأبي حسان الزيادي: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله. والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم، وقد قلَّده الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا. قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد إليه حسان مقالته. قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين. قال: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير

المؤمنين أمرك أن أقول، قلت ما أمرتني، فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه. قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها.

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل، فلما أتم امتحانهم جميعاً، أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان. ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم، غاظه ذلك، وكتب في شأنهم كتاباً ثالثاً قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير، فمن ذلك قوله:

وأمَّا الذيال بن الهيثم: فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأمَّا الفضل بن غانم: فأعلمه أنه لم يقف أمير المؤمنين على ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدنيا والدرهم رغبته، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأمَّا الفضل بن الفرخان، : فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن، أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، تربصاً بمن استودعه وطمعاً في الاستنكار لما صار في يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه، وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد.

وأمَّا محمد بن حاتم وابن نوح المعروف بأبي معمر: فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم وما نزل به كتاب الله في أمثالهم لاستحلَّ ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً وصاروا للنصارى مثلاً؟

وأما سعدويه الواسطي: فقل له: قبَّح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتَّزين به والحرص على طلب الرياسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها متى يمتحن فيجلس للحديث.

وأمّا المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق: فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكمه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد والهاء، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه، إن كان شاهدهما وجالسهما.

وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء.

وخلاصة ما يطلب في هذا الكتاب: أنه ذكر رجلين، هما: بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، أمره أن يستتيبهما، فإن تابا، أشهر أمرهما، وإلا ضرب أعناقهما. أمّا من عداهما، فإن لم يقولوا بخلق القرآن، حملهم جميعاً موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. وقال في ختام هذا الكتاب: وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به تقرّباً إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة (٢١٨هـ). فأحضرهم إسحاق مرة ثانية، وسألهم، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، ما عدا أربعة منهم، فأمر بهم فشدوا في الحديد. وفي اليوم الثاني: أعاد عليهم المحنة، فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه. وفي اليوم الثالث: فعل كذلك فأجابه ثان، وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة، وهما: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس. وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه: إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر، كتب إليه أن بشر بن الوليد تأوّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[1]، وقد أخطأ التأويل. إنّما عنى الله ـ عزّ وجلّ ـ بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك. فأمّا من كان يعتقد الشرك مظهر الإيمان، فليست هذه له. فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم، فأشخصهم جميعاً. ولما وافوا الرقة، بلغهم وفاة المأمون فأقامهم والي الرقة بها، ثم أُعيدُوا إلى مدينة السلام.

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون، وهي نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأي واحد فيما اختُلفَ فيه من المسائل. وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا. ولكن المأمون قال: إن أصغر المسائل متى كان أساساً لنحلة أو سبباً

(١) النحل: ١٠٦.

لرياسة، فإن الخلاف يعظم بسببه. أما أعضل الأمور، فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أو سبباً لرياسة، وهذا يكاد يكون صحيحاً. ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له في هذه المسألة، لا نرى للمأمون حقّا ـ وهو سلطان الأمة ـ أن يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذي سنّه مما بيّنّاه.

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة القرآن، أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدّوا ذلك عيباً من عيوبهم. وقد كاد إمام المحدِّثين البخاري يصيبه أثر من آثار هذه النكبة، فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه، فكان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. وكان البخاري ممن يقول بذلك، فاضطهده محمد بن يحيى الذهلي إمام المحدِّثين بنيسابور حتى خرج البخاري عنها خوفاً من العامة أن تبطش به، وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك، فإنه لما سمع محمداً يقول من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فلا يقربنّ مجلسنا. أخذ كساءه وخرج. أما الذين وقفوا في المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا، فإنهم استحقوا من العناية والتكريم ما لا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الإمام أحمد بن حنبل، فإن هذه الحادثة شرّفته بين القوم شرفاً عظيماً.

ولم يكتف المأمون بما كان في حياته، بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذي استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته في القرآن، فلم يجد المعتصم بدّا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن في ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤوس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد في الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء، فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقاً ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه. وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الحبوس وهو صابر محتسبٌ.

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه في هذه المحنة، وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعي. ومالك بن الهيثم، كان أحد نقباء الدعوة العباسية، كان أحمد يغشاه أصحاب الحديث، وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق، مع منزلة أبيه من السلطان في دولة بني العباس ويبسط لسانه فيما يقول ذلك مع غلظة من الواثق كانت على من يقول ذلك، وكان أحمد إذا تكلّم عن الواثق يقول: ألا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلق القرآن، وقصدوه دون غيره لمَا كان لأبيه وجده في دولة بني العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه، فيقال: إنه أجاب إلى ذلك وسعي له في دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا

وألفا فرقتين، إحداهما: بالجانب الشـرقي، والأخرى: بالجانب الغربي من بغداد، واتعدوا ليلة ليضربوا فيها طبولهم للاجتماع صـبيحتها للوثوب بالسلطان، فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبـيذاً، فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضـروب بليلة، فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة، فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة، فتتبع القـوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض على أحمد بن نصر أيضاً وحمل رؤوس القوم إلى الـواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلساً عاماً لامتحانهم، ولما حضروا إليه لم يناظـر الواثق أحمد بن نصر في الشغب ولا فيما رفع إليه من إدارة الخـروج عليه، لكنه سأله مـا تقول في القرآن؟ قـال: هو كلام الله. ولم يزد على ذلك. وبعـد أخذ ورد أفتى الحاضرون بـقتله، فقام الواثـق إليه بنفسه وقـتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه إلى بغداد فنـصب بها في الجانب الشرقي، وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافـر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مـالك، ممن قتله الله على يدي عبدالله بن هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنـين بعد أن أقام عليه الحجَّة في خلق القرآن، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمـد لله الذي عجَّل به إلى نـاره وأليم عقابـه، وأن أمير المؤمنـين سأله عن ذلك فـأقرّه بالتشبيه وتكلَّم بالكفر، فاستحلَّ أمير المؤمنين دمه ولَعَنَه.

وممن حمل إلى الواثق في هـذه المحنة من علماء مصر: أبو يعقـوب يوسف بن يحيى البويطي، أكثر أصحاب الشافعي الإمام - ﷺ - نمى إلى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن، فأرسل إلى والي مصر في امـتحانه، فامتحنه، فلم يجب. وكـان الوالي حسن الرأي فيه، فقـال له: قل فيمـا بيني وبينك. قـال: إنه يقتدي بي مـائة ألف ولا يدرون المعنى، فـلما امتنع، أمر الواثق بحمله وسجن ببغداد حتى مات في سجنه سنة (٢٣١هـ).

واستمرت هذه المشكلة حتى ملّها الواثق نفسه، وتمنى لو يجد مخرجاً، وانتقلت المسألة من الجد إلى الهزل، ودخل عبادة المضحك علـى الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين، أعظم الله أجرك في القرآن. قال: ويلك القرآن يموت؟ قـال: يا أمير المؤمنين، كل مخلوق يموت بالله يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن؟ فضحك الواثق وقال: قاتلك الله أمسك.

وجيء الواثق بشيخ مقيّد فسأله ابن أبي دؤاد عـن قوله في القرآن، فقال له الشيخ: لم تنصفني المسألة أنا أسألك قبل الجواب هذا الذي تقوله يا ابن أبي دؤاد من خلق القرآن شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثـمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ أو جهلوه؟ فقال:

بل علموه. قال: فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا؟ قال: بل سكتوا. قال: فهلا وسعك مـا وسعهم من السكوت. فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق بكلامه وأمر بإطلاقه، وقام وهو يقول: هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة.

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة، ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق، أمر برفع المحنة وأن يترك الـناس وشأنهم فيمـا يعتقدون ـ وحسنـاً فعل ـ. وقد استحق المـتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك، وتجاوزا له عما كان من هفواته.

يمكن القول بأن هذه المجالس التي تعقد للـمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق، إنَّما تقرّ الخلاف وتـؤكده لا تزيلـه متى اتصـل بهذا الخلاف شـيء من الرياسـة في الدنيـا. وتاريخ المجامع والمجالس التي كان من شأنها البحث في الأمور الدينية شاهد بذلك.

■ **علوم الصناعات:**

كما كانت للمأمون جولة في العلوم الدينية، كانت له جولة في العلوم الصناعية. وقد كان أثره في هذه أظهر من أثره في تلك، كما يتبيَّن مما يأتي:

كانت الأمة العربيـة أمة أُميَّة لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العـلوم إلا قليلاً ـ كما بيناه في خلاصـة تاريخها في الجزء الأول ـ. فلـما جاءها الإسلام، لم يكن لهـا مجال في العلوم؛ لأنـها كانت في دور التـكوين، وذلك محتـاج إلى استعـمال ما عندها مـن القوة والفكر فـي سبيل ذلك، فـانقضت مـدة الخلفاء الراشـدين ـ رضي الله عنهم ـ في الـفتح وتأسيس المـملكة وتمهيـد طريق الدعوة إلى الدين. وكـانت الحال كذلك فـي صدر الدولة الأموية، إلاَّ أنه وجد من رجالهم في أوسط أدوارها، مَنْ عنوا ببعض الصناعات التي كانت فيمن سبقـهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منهـا، وأول من عُرف اسمه في ذلك: خالد ابن يزيد بن معاويـة، الذي كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضـلاً في نفسه، وله همَّة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة «الكيمياء» فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينـزل مدينة مصـر وقد تفصح بـالعربية وأمـرهم بنقل الكتـب في الصنعة من الـلسان اليوناني والـقبطي إلى العربي، وهذا أول نقـل كان في الإسلام من لغة إلى لـغة. ثم نقل الديوان، ـ وكان باللغة الفـارسية ـ إلى العـربية فـي أيـام الحجـاج، نـقلـه صالـح بـن عبد الرحمن مولى بني تميم ـ كما قـدمنا ـ ذلك في تاريخ بني أمية، ثم نقل ديوان الشامي إلى العربية في زمن هشام بن عبد الملك. نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية، أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعية، فلم يكن لترجمة

الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر. فلما جاءت الدولة العباسية، كان اختلاطها بالفرس أكثر؛ لأن دولتهم بالخراسانيين والموالي قامت. وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة، وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب: أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين وكان الذي قام بترجمة الكتب له: طبيبة جورجس بن جبرائيل الذي كان طبيباً لبيمارستان جند يسابور، ثم طلبه المنصور إليه سنة (١٤٨هـ)؛ ليعالجه. فحظي عنده حظوة عظيمة وترجم له كتباً كثيرة من اليوناني إلى العربي، والبطريق قال في طبقات الأطباء: إن المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة، وله نقل كثير جيد، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق. وقد وجدت بنقله كتب كثيرة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنة » من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب أقليدس في الهندسة وغير ذلك، إلا أن العناية لم تبذل كثيراً في الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة.

فلما كان في زمن هارون الرشيد، وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى ـ كأنقرة وعمورية ـ، عُثر على كنز ثمين من كتب اليونان، فأمر أن تترجم له، فترجمت. وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور، وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق.

لما ولي المأمون، كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحسّ بنفعها، فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل. حكى ابن النديم في الفهرست: أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة. فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس فسررت به وقلت: أيها الحكيم، أسألك؟ قال: سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا. ثم لا. وفي رواية أخرى: قلت: زدني. قال: من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد. قالوا: فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب. وإذا صحت هذه الحكاية، فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بأرسطاطاليس وتعاليمه.

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك

الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه، أمرهم بنقله، وقيل: إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده، بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي، ومن هؤلاء: محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم. بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم، فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرتماطيقا والطب. قال أبو سليمان المنطقي السجستاني: إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة. وقال ابن النديم في موضع آخر: هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم: الهندسة، والحيل، والحركات، والموسيقى، والنجوم ـ وهو الأقل ـ. وتوفي محمد بن موسى سنة (٢٥٩هـ) في شهر ربيع الأول. ثم ذكر الكتب التي ألّفوها. وقال ابن خلّكان: ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القول إلى الفعل، وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه، لكنه لم ينقل أن أحداً من أهل الملة تصدّى له وفعله إلا هم، وهو أن المأمون كان مغرماً بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دور كرة الأرض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أي نقطة، كانت من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض التقى طرفا الحبل، فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل، فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك، فسأل بني موسى المذكورين عنه، فقالوا: نعم، هذا قطعي. فقال: أريد أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أو لا. فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي؟ فقيل لهم: صحراء سنجار في غاية الاستواء، وكذلك وطآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان، فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً

آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة، فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال فبلغ واحد وستون ميلاً وثلث، فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلث. عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك. وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة، ظهر له حقيقة ذلك. ومن المعلوم أن عدد درج الفك ٣٦٠°؛ لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستون وثلث ميلاً التي هي حصة كل درجة، فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهي ٨٠٠٠ فرسخ (الميل = ١٦٦٦,٥، والفرسخ = ٥٠٠٠م). وهذا محقق لا شك فيه. فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا، وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر، فسيَّرَهُم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما في سنجار فتوافق الحسابان، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك. وممن كان ينقل لهم: حنين بن إسحاق العبادي، وكان فاضلاً في صناعة الطب، فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية، دَارَ البلاد في جميع الكتب القديمة، ودخل بلد الروم، وأكثر نقوله لبني موسى، ونقله في غاية الجودة، وكانت وفاته سنة (٢٦٠هـ).

وكان هناك كثير غير بني شاكر يحذون حذوهم ذلك، فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية. ولما نقلت إلى العربية، اشتغل بها الناس كثيراً علماً وعملاً ففسّروا مغلقها وأصلحوا خللها، ووجدوا منهم فلاسفة عظام ألَّفوا كتباً عظيمة في هذه العلوم، منهم من صميم العرب: يعقوب بن إسحاق الكندي، ينتهي نسبه إلى الأشعث بن قيس بن معد يكرب، ثم إلى كندة. وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم، وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدّاً في جميع العلوم، ونقل في طبقات الأطباء عن سليمان بن حسان أنَّه كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم. ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تآليفه حذو أرسطوطاليس وله تآليف كثيرة في فنون العلم، وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المُشْكِل، ولخص المستصعب وبسط العويص.

وقال أبو معشر في كتاب «المذكرات» لشاذان: حذاق التراجمة في الإسلام أربعة: حنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفرخان الطبري. وقد ذكر فهرس كتبه في نحو خمس صفحات في علوم شتى.

وإنَّما ذكرنا هذا؛ لندل على أن الأمة كانت في استعداد تام لتلقي هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها، فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون في بغداد حاضرة الخلافة وفي وغيرها من الحواضر، ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التي كانت توجه إليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر في نفاق هذه العلوم.

فالمأمون يُعد ـ في الحقيقة ـ حامل لواء هذه العلوم؛ وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه في ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور، فإنَّهما وضعا الأساس، وهو حذا حذوهم إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم.

■■ الأحوال الخارجية:

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون إلى سنة (٢١٥هـ)، وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠م)، واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة، ومنها خرج إلى طرسوس وهي الثغر الإسلامي. ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يولية سنة ٨٣٠م)، ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه. ولما تم فتحه، اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً. وكان قبل ذلك الفتح، حصناً اسمه ماجدة، فمنَّ على أهله، ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه. ووجه عجيفاً وجعفرَ الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع.

وبعد ذلك، شخص إلى الشام. وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يُقال (١٦٠٠)، فأعاد الكرَّة على بلاد الروم، فنزل على أنطيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق، ومنها خرج إلى مصر في (١٦ ذو الحجة سنة ٢١٦هـ)، ثم عاد منها إلى دمشق سنة (٢١٧هـ)، فدخل أرض الروم ثالث مرة

فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكاتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه، وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما:

كتب ملك الروم إلى المأمون: (أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حربًا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظًا تحوزه إلى نفسك وفي علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد وليًا وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا زخرف لك في القول، فإن لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بيني وبينك الحجّة والسّلام).

رد المأمون: (أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة، مما استعطفت به من فسخ المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في إصلاح ما أوثره في معتقبه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل عن أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم إحدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب، غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجّة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيت، ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة. وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لقوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى).

شخص المأمون إلى الرقة سنة (٢١٧هـ)، وفي هذه السنة في جمادى (يونية سنة ٨٣٣م) سيّر ابنه العباس إلى أرض الروم، وأمره بنزول الطوابة وبنائها، فابتدأ البناء. بناها ميلاً في ميل، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كل باب حصناً. ثم سار المأمون بعده إلى بلاد الروم، فدخلها من ناحية طرسوس، وهناك

كانت وفاته ـ كما سيأتي ـ.

■■ أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من حلى المأمون: ميله للعفو وكراهته للانتقام، فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه، ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له، فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجرداً عن كل ذلك، ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء، ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه. ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا، فقال المأمون: أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه. وقال: الحمد لله، قديماً كنت أسلم عليه فأفرح برده، فسبحان الذي ألهمني الصفح عنه. فلذلك سجدت. قال طاهر بن الحسين: فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علي بن الحسين: جلس المأمون يوماً للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه؛ إذ انهملت عين المأمون، فلما سُئِلَ عن سبب بكائه قال: ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التي أتمها عليَّ كما أتمها على أبوتي من قبلي. أما ترون ذاك الذي في صحن الدار ـ يعني الفضل بن الربيع ـ كان في أيام الرشيد وحاله حاله يراني بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندي كالذي لي عنده ولكني أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه، فكنت إذا سلمت عليه فردّ عليّ أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً وكان صفوه إلى المخلوع حمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة ، فقال: أما القتل فلا أقتله، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب، فكان أحسن حالاتي عنده أن وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ...﴾[1] . فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها ـ وكان يجلس مع أصحاب الحرس ـ وهذا الخطيب على رأسي وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذي بإزائي مرة وعلى المنبر الغربي مرة، فيزعم أني المأفون ولست بالمأمون، ثم هو الساعة يقرظني تقريظة المسيح ومحمداً ـ عليهما السلام ـ.

وكان له في العفو لذَّة لا يعادلها لذَّة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم، عفا عنه ـ مع عظيم جرمه ـ ، وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذي أحسّ من نفسه

---

(١) الحج : ٦٠.

بقدرة السلطان فأذهب ذلك عـنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا مـا كان منه بمصر حيث أمر بقتل مـحاربين نزلوا على حكمه مع ضيـاع قوتهم واقتناعه بعذرهـم وهم أهل البشرود بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم، فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين. ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم، وذلك في صـفر سنة (٢١٧هـ)، وهي حادثة في غاية الغـرابة بالنسبة لمَا عُرِفَ من خلق المأمون الذي اشـترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كـل واحد ديناراً وَمنَّ على غيرهم من السبي.

ومن مزايـا المأمون: أنه كان في جدله ميَّالاً إلى الإقناع. فكـان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة، وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة. وله في الجدل حجج قويَّة ناصعة مع سعة الصدر والاحتـمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة وكـان أصحابه ووزراؤه يدلّونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص مـعاوية بن أبي سفيان ويلعنه، فقال له يحيى بن أكثم: إن العامة لا تحتمل مـثل هذا ـ لا سيما أهل خراسان ـ ولا تأمن أن يكون لهم نفرة، وإن كانت لم تدر ما عاقبتـها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وأحرى في التدبير. فاتبع المأمون نصـيحته وطوى الكتـاب الذي كان قد أنشئ في هـذا المعنى، فلم يقرأ علـى العامة ولكنه بقي في دفاترهم مسجلاً.

كان المأمون ـ مع حلمـه ـ يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولتـه، فلم يكن بالمغفل الذي ينخدع برياء الـناس ونفاقهم وظهورهم بما ليـس من شيمهم. قال يوماً وفـي مجلسه جماعة: ما في عسكرنا من يطلب ما عـندنا بالرياء، فقال كل واحد بما عنده، إما أن يقول في عدو يقدح فـيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خـليفته، فلما قالـوا ذلك، قال: ما أرى عند أحد منكم ما يبـلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الريـاء، حتى لو كان قد أقام في زحل كل و احد منهم حولاً ما زاد على معرفته فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الريـاء وما يعـاملون بـه الناس ـ تسـبيح حـميـد الطوسـي وصلاة قـحطبـة، وصوم النوشجاني، ووضوء بشر المريسي، وبناء مالـك بن شاهي المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحـسن بن قريش الـيتامى، وقـصص منجا وصـدقة عليّ بن الجـنيد، وحملان إسـحاق بن إبراهيم في السبـيل، وصلاة ابن رجاء في الضحى، وجـمع علي بن هشام القصـاص ـ حتى جمع جماعة كثـيرة، فقال رجل من عظماء العـسكر لآخر بعد أن خرجا مـن الدار ـ: هل رأيت أو سمعت بمـلك قط أعلم برعيـته ولا أشد تنقـيراً من هذا الحديث؟ فحدث إبراهيم بن المهدي بهذا الحديـث رجلاً من أصحاب الأخبار والعلم، فقال

له: وما تصنع بهذا، قد شـهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهـاء يخبر بمعايبهم رجلاً رجلاً حتى لَهُوَ بها أعلم منهم بما في منازلهم؟!

قعد مرة للـمظالم، فقدم إليه أصحاب الحـاجات، فقضى ما شاء من حـاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمـون غير مرة وقعد له في طريقه، فلما بصر به المأمون، أثبتـه معرفة فأمر سلمـاً صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربـه عشرين درة، وقال لسلم: قل له لا يـعود يصيح بي، فقال لـه سلم ذلك، وهو مبطوح. فقـال الرجل: أعود وأعود وأعود حتـى تنظر في حاجتي. فأبلغـه سلم ذلك، فقال: هذا مظلوم مـوطن نفسه على القتل أو قضاء حـاجته، ثم قال لأبي عباد: اقض حاجة هذا كائنـة ما كانت الساعة، فلا أدرى مم يعجب الإنسان؟ أمن ملاحظة المـأمون وعرفان الرجل؛ لأنه هو الذي صاح به مرة أو مرتين؟ أم من تأميـل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه؟ أم من رجـوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت.

وكان مع هذه الأخلاق أديباً يعـرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على مـا أعجبه منه ثواباً فوق كل أمل. حدث عمارة بن عقيل، قال: أنشدت المأمون قـصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت أو أكـثر، فما ابـتدأت بصدر بيـت إلا بادرني إلى قافـيته فقـال عمارة: والله يا أمـير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قط. فقـال المأمون: هكذا ينبغي أن يكون، وقال عمارة: قال لي عبـد الله بن السمط: علمت أن المـأمون لا يبصر الـشعر، فقلت: ومـن ذا يكون أعلم منه، فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه، فلم أره تحرَّك له. قلت: وما الذي أنشدته؟ فقال:

أضحى إمـام الهدى المأمـون مشتـغلاً ... بالـدين والنـاس بالدنـيـا مشـاغـيل

فقلـت: ما صنعت شيـئاً، وهل زدت على أن جـعلته عجـوزاً في محرابهـا في يدها سبحتها فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغـل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فـلا هو فـي الدنيـا مـضـيـع نصبـه ... ولا عرض الـدنيا عـن الدين شـاغله

ولعلمه بالشعر ومـحبته له، راجت في زمنه سوقه، وكثر الشـعراء والأدباء، كما كثر المغنون ونبغوا. وكان المـأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه، وكان يـشرب النبيذ على رأي أهل العراق.

أمَّا كرمه: فمما سارت به الأمثال، فقد أربى على جميع خلفاء بني العباس حتى على أبيه الذي كـان يعطي عطاء من لا يـخاف فقرا ولا يخـشى إقلالاً. وحكايات المـأمون في

العطاء كثيرة، فلا نطيل بذكرها، إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم وسعة اليد وكثرة البذل.

بنى المأمون سنة (١٢٠هـ) ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار، وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب، وغير ذلك. فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضي إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليها ويتسلم ما فيها، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم (نحو مليون جنيه)، وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم، سهل أمره الموارد الكثيرة.

■■ وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرسوس، أصابته حمى لم تمهله كثيراً، وفي (١٨) رجب سنة (٢١٨هـ)، أدركته منيته فحمل إلى طرسوس ودفُن بها، وكانت سنّه إذ تُوفي (٤٨) سَنَةً.

■■ ولاية العهد:

عهد المأمون وهو مريض، إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد، ولم يخطئ خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدّم منها أشياء. ومما جاء فيها: (واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية. الرعية الرعية، العوام العوام، فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرسلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم، فلا تغفل عنهم في كل وقت).

* * *

٨ ـ المعتصم

هو: أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد اسمها ماردة. ولد سنة (١٧٩هـ)، فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات، وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر، وكان المأمون يميل إليه؛ لشجاعته، فولاّه عهده وترك ابنه. وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم، بُويع له بالخلافة ولُقِّب بـ «المعتصم بالله» في (١٩) رجب سنة (٢١٨هـ)/ (١٠) أغسطس سنة (٨٣٣م)، ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في (١٨) ربيع الأول سنة (٢٢٧هـ) (٤) فبراير سنة (٨٤٢م)، فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يعاصره في الأندلس: عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام رابع أمراء بني أمية بالأندلس (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ).

ويعاصره في المغرب الأقصى من الأدارسة: محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٢١هـ)، ثم علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ).

ويعاصره في إفريقية: من الأغالبة زيادة بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣هـ)، ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٣ ـ ٢٢٦هـ)، ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ).

ويعاصره في اليمن: محمد بن إبراهيم الزيادي، الذي ولاه المأمون (٢٠٣ ـ ٢٤٥هـ).

ويعاصره في خراسان: الأمير عبد الله بن طاهر، الذي ولاه المأمون (٢١٣ ـ ٢٣٠هـ).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية: توفيل بن ميخائيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م).

ويعاصره في فرنسا: لويز الأول، الملقب بـ «اللين» (٨١٤ ـ ٨٤٠م)، ثم شارل الملقب بـ «الأصلع» (٨٤٠ ـ ٨٧٧م).

•• الأحوال في عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم، عاد بالعسكر قاصداً بغداد، بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة، وحمل ما كان بها من السلاح والآلة، وغير ذلك مما قدر على حمله ،وأحرق ما لم يقدر على حمله، وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من

الناس إلى بلادهم. و كان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة (٢١٨هـ).

- **وزراء المعتصم:**

*** الفضل بن مروان بن ماسرخس.**

كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط، ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف. وهذا الكاتب هو يحيى بن الجرمقاني، فلما مات يحيى، صير الفضل في موضعه، ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه. لما خرج المعتصم مع المأمون في غزوته الأخيرة، وكان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب، فلما بلغه موت المأمون، قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين، فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه. كان يدخل على المعتصم فيقول له: احمل إلى كذا وكذا من المال. فيقول: ما عندي. فيقول: فاحتلها من وجه من الوجوه. فيقول: ومن أي أحتالها؟ ومن يعطيني هذا القدر من المال؟ وعند من أجده؟ فكان ذلك يسوء المعتصم ويُعْرَفُ في وجهه. وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتي، كان يصحبه قبل الخلافة، فيقول له فيما يداعبه: والله لا أفلحت أبداً، فلما ولي المعتصم، أمَرَ للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه، فلم يفعل. فبينا الهفتي يوماً عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التي ببغداد، واتخذ له فيها بُستان، قام المعتصم يمشي في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتي وكان رجلاً مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلاً معرقاً خفيف اللحم، فجعل المعتصم يسبق الهفتي في المشي فإذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال: مالك لا تمشي؟ - يستعجله في المشي -. فلما كثر ذلك من أمر المعتصم، قال له الهفتي مداعباً: كنت أراني أماشي خليفة ولم أكن أراني أماشي فيجا والله لا أفلحت. فضحك المعتصم وقال: ويلك، وهل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة؟ فقال الهفتي: أتحسب أنك أفلحت الآن، إنَّما لك من الخلافة الاسم، والله ما يجاوز أمرك أذنك وإنَّما الخليفة الفضل بن مروان، الذي ينفذ أمره من ساعته. فقال المعتصم: أي أمر لي لا ينفذ؟ فقال الهفتي: أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين، فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه، فأول ما فعله أن جعل زماماً في نفقات الخاصة، وهو أحمد بن عمار الخراساني وزماماً في الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور. ثم زاد الأمر

واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم؛ أي: تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعما صرفوه. ولما فرغ من الحساب، أمر بحبس الفضل، وأن يحمل إلى منزله ببغداد، ثم نفي إلى قرية في طريق الموصل يُقال لها: السن، وبقي كذلك حياة المعتصم. قال الصولي في أخبار الوزراء: إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخذ أثاثاً وآنية بألف ألف دينار.

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم، جيد الكتاب. ومن المأثور عنه: لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فإن إقباله يعينه عليك، ولا تتعرض له وهو مدبر فإن إدباره يكفيك أمره، واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى سنة (٢٥٠هـ).

واستوزر المعتصم بعد الفضل: أحمد بن عمار الخراساني الذي تقدَّم ذكره. فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال المعتصم: ما الكلأ؟ فقال: لا أدري. فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي. ـ وكان المعتصم ضعيف الكتابة ـ. ثم قال: أبصروا من بالباب من الكتاب؟ فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات، فأدخلوه إليه فقال له: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان رطباً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش. وشرع في تقسيم أنواع النبات. فعرف المعتصم فضله واستوزره.

- **محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات:**

كان جده أبان رجلاً قرويًا من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد، فعرف محمد به. نشأ محمد ببغداد، فتعلَّم وتأدب ونال من ذلك حظاً وافراً حتى قيل: إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك، يقول لهم أبو عثمان: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ـ يعني ابن الزيات ـ فاسألوه فاعرفوا جوابه، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان، ويوقعهم عليه. وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان، فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم، فقام بأمر الوزارة خير قيام، واستمر وزيراً إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتي.

وكان محمد بن عبد الملك ـ مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك ـ شاعراً ظريفاً عدَّه دعبل بن علي في طبقات الشعراء، وذكره أبو عبد الله هارون بن المنجم في كتابه «البارع».

ومن رقيق شعره: قوله في موت أم ابنه، ولابنه ثماني سنوات:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فهبني أطلت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـ ... ـمه ولا يأتسي بالناس في الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة، الشاعر المعروف بـ «البحتري» بقصيدة مطلعها:

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفاً ما منحه من البلاغة:

لتفننت في الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ ... ـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القرا ... طيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى ... عن أغاني مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافي ... هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدر ... كن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ... ـض إذا رحن في الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد ... يا أبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك وما مجـ ... ـدك مما يرجوه ظن الحسود
وإذا استطرفت سيادة قوم ... بنت بالسؤدد الطريف التليد
وذوو الفضل مجمعون على فضـ ... ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلـ ... ـلم وقال الجهال بالتقليد

والذي كان يُعاب عليه: شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم في الأعمال. وكان إذا قال له أحد منهم: أيها الوزير ارحمني، قال: الرحمة خور في الطبيعة.

- **أحمد بن أبي دؤاد الإيادي:**

كان من المعتصم، كيحيى بن أكثم من المأمون. ولذلك سقنا خبره في عداد الوزراء.

أصل بيته - فيما يُقال - من إحدى قرى قنسرين، كان أبوه يتجر إلى الشام. أما هو: فوُلِد بالبصرة سنة (١٦٠هـ)، ونشأ بها في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، وصحب هياج بن العلاء السلمي، وكان من أصحاب واصل بن عطاء والغزالي كبير المعتزلة ومقدمهم.

فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال، وكان يحضر ببغداد مجلس القاضي يحيى بن أكثم. فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه، كان أحمد في هؤلاء المختارين. فكان المأمون إذا شرع أحمد في الكلام ينظر إليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه. فأمره أن يحضر مجلسه دائماً ولا يتأخر عنه، وأحبه المأمون جداً وخف على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم في وصيته: (وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك). فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه. فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد، حتى قال أزون بن إسماعيل: ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد. وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد. ولقد كلمه يوماً في مقدار ألف ألف ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال المعتصم: وما علي من هذا النهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين: ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة، و عندكم لا يحسن الكلام، وعند الفقهاء لا يحسن الفقه، وعند المعتصم يحسن هذا كله.

كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس، وله شرف نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة، وكان يحمل في سبيلها ما لا يحمله أحد. قال ابن عبد الرحمن الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه. ومن طريق نوادره في المروءة: أن الأفشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل فأخذه وأحضر السيَّاف لقتله وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكلمه في شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت، فركب فوراً مع من حضره من العدول ودخل على الأفشين وقد جيء بأبي دلف ليُقْتَل، فوقف وقال: إني رسول أمير

المؤمنين إليك، و قد أمرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إليّ ثم التفت إلى العدول، وقال: اشهدوا أنّي أديت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافى، فقالوا: شهدنا. وخرج فلم يقدر الأفشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيراً منها، وإنّي لأرجو لك الجنة بها، ثم أخبره الخبر، فصوَّب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الأفشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم، مما عدل مزاجه؛ لأنه شجاع شديد عجول، فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبي دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه. غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وأشخصه من ولايته لعجز لَحقَه في مال طُلب منه، فجلس المعتصم لعقوبته، وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبي دَواد فتكلَّم فيه فلم يجبه المعتصم، فلما جلس المعتصم، حضر أحمد وهو قاضي القضاة، فجلس دون مجلسه المعتاد، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله جلست في غير مجلسك؟ فقال: ما ينبغي لي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا، فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع. فقال المعتصم: ارجع إلى مجلسك. قال: مشفعاً أو غير؟ قال: بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لابد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة. فقال: قد أمرت له بها. فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال، وإن الناس ينتظرون الإيقاع به، فصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب. فقال له: اسكت، سيد العرب ـ والله ـ أحمد بن أبي دؤاد. وكان في ابن أبي دؤاد عصبية عربية، ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبي دؤاد ـ مع ذلك ـ شاعراً أديباً مجيداً فصيحاً بليغاً، ذكره دعبل في طبقات الشعراء. ومن مأثور قوله: ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتُعرف أقدارهم: العلماء، وولاة العدل، والإخوان. فمن استخف بالعلماء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته. ولأبي تمام فيه مدائح جليلة، منها: قصيدته التي مطلعها:

سقى عـهـد الحـمى سيـل العـهـاد | وروض حـاضـر مـنـه وبـاد
يقول فيها :
لـقـد أفـنـت مـسـاوي كـل دهـر | مـحـاسـن أحـمـد بـن أبـي دؤاد
مـنـى تحـلـل بـه تحـلـل جـنـابـاً | رضـيـعـاً لـلـسـواري والـغـوادي
تـرشـح نـعـمـة الأيـام فـيـه | وتـقـسـم مـنـه أرزاق الـعـبـاد
ومـا اشـتـبـهـت طريـق المجـد إلا | هـداك لـقـبـلـة المـعـروف هـاد
ومـا سـافـرت فـي الآفـاق إلا | ومـن جـدواك راحـلـتـي وزادي
مـقـيـم الـظـن عـنـدك والأمـانـي | وإن قـلـقـت ركـابـي فـي الـبـلاد
مـعـاد الـبـعـث مـعـروف ولكـن | نـدى كـفـيك فـي الدنـيـا مـعـادي

•• العلويون في عهد المعتصم:

لأول عهده، توفي محمد الجواد بن علي الرضا، تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكانت وفاته سنة (٢٢٠)، وسنُّه (٢٥) سنةً، وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون، فحملت إلى قصر عمها المعتصم، فتولى الإمامة بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي، وكانت سنّه حين مات أبوه سبع سنين.

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين ابن علي. كان مقيماً بالكوفة، ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، فاجتمع إليه بها ناس كثير، فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان، وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان. كان أهله كاتبوه، فلما وصل إلى نسا، دلَّ عليه فأخذه عاملها واستوثق منه، وبعث به إلى عبد الله بن طاهر، فأرسل به إلى المعتصم، فحُبس بسامرا سنة (٢١٩هـ)، فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر، واشتغل الناس بالعيد والتهنئة. احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته، فهرب ولم يُعرف له خبر. وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية، ومنهم كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حي يُرزق، وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه مهدي هذه الأمة، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم، وكثير من كور خراسان. وبقي ذلك الاعتقاد حتى سنة (٢٣٢هـ)، كما قال المسعودي في «مروج الذهب».

•• الجيش:

قدَّمنا ما كان في عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الأمة العربية في جيش

الدولة العباسية، وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد ـ كما شرحنا ذلك ـ فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه في ذلك. فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال، الشجاعة، والميل إلى الشجعان. رأى أن مَنْ ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم؛ لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء، ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة، فأراد أن يكوّن منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء، ويرغم أنوفهم. فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم في عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا مَنْ كان من الأتراك أو الأبناء، إلا أنه اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والأشروسنية أهل أشروسنة، فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم، فربما هلك من الجراح بعضهم، فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذّت به العامة، فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك في وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء، خطر عليهم، فكان ذلك سبباً لتفكيره في اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذي أعجب به، فاختطت سامرا.

وكان المعتصم يلبس هؤلاء الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده. واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الإسلامية، وسنذكر بعضهم:

١ ـ **الأفشين حيدر بن كاوس**: وهو تركي من أشروسنة كورة من بلاد ما وراء النهر. شرقيها فرغانة، وغربيها سمرقند، وشماليها الشاش وبعض فرغانة، وجنوبيها بعض حدود كش والضفاينان وغيرهما، ومدينتها التي يسكنها الولاة بنجكث.

كان حيدر في حاشية المعتصم في حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالأفشين، ولما رأى شجاعته وشهامته، استعان به فيما ولي من الأعمال. وكان المعتصم والياً على مصر والشام، فأرسله نيابة عنه لإزالة الاضطراب في برقة ومصر، فنجح فيهما. ولما استخلف المعتصم، كان الأفشين في مقدمة قواده، فعيّن سنة (٢٢٠هـ) لحرب بابك ـ كما تقدَّم ذكره ـ ، فظهرت على يديه عظائم الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه. ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا. كان

يوجه إليه كل يوم مـن حين فص من برزند إلى أن وافى سامرا فرساً وخـلعة. ولما حضر، توجه وألبسه وشاحين بالجـوهر ووصله بعشـرين ألف ألف درهم؛ منها عـشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألـف يفرّقها في أهل عسكـره، وعقد له على السند. ولما غـزا المعتصم عمورية، كان قـائداً لإحدى الفرق الثلاث التي دخلت بـلاد الروم، وهو الذي تولى حرب توفيل مـلك الروم، وهزم جنده. كل ذلك الإعظام والإجـلال، جعل الأفشين يمني نـفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوماً ما، وأول ما عرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مـال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعـبد الله بن طاهر أمير خراسان، فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المـعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الأفشين من الهدايـا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله. كان الأفـشين كلما تهيَّأ عنده مال، حمـله أوساط أصحابـه بقدر طاقتـهم فكان الرجل يحـمل من الألف فما فـوقه من الدنانيـر في وسطه فـأخبر عـبد الله بذلك. فـبينا هو فـي يوم من الأيام وقد نـزلت رسل الأفشين نيسابور ومعهم الهدايا، وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد في أواسطهم هميـانين فأخذهمـا منهم وقال لـهم: من أين لكم هذا المـال؟ فقالوا: هذه هدايـا الأفشين وأمواله. فقال: كذبتم، لو أراد الأفشين أخـي أن يرسل بهذه الأموال لكتب إليَّ يُعْلمني به لأبذرقه ـ أحرسه ـ ؛ لأن هذا مال عظيم، وأنتم لصوص، فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب إلى الأفشين يذكـر له ما قال القوم، وقال: أنا أنكر أن تكـون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكـتب إليَّ تُعلمني لأبذرقه فإن كـان هذا المال ليس لك، فقد أعطـيته الجند مكان المال الذي يوجه إلى أمير المؤمنين فـي كل سنة، وإن كان المال لك ـ كما زعم القوم ـ فإذا جاء المال من قبل أمـير المؤمنين، رددته إليك، وإن يكن غير ذلك، فـأمير المؤمنين أحق بهذا المال، وإنَّما دفعـته إلى الجند لأني أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك. فكـتب إليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد، ويسأله إطلاق القوم، ففعل ذلك ابن طاهر.

رأى الأفشين أنه لـم يتم له أمر ما دام ابـن طاهر بخراسان، فـانتظر الفرص ليـحمل المعتصم على عزله وتولـيته مكانه، وحينئذ يتسع له المجال. كان ببـلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكـها اسمه: مزيـار بن قاون بن وَنداهرمز وكـان منافراً لآل طاهر لا يحمـل إليهم الخراج ويحـمله إلى المعتـصم، فكان إذا وصل المال همذان، يـأمر المعتصـم رجلاً من قِبَله فيستوفيـه، ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليـرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الأقـصى، فأراد الأفشين انتهاز هذه الفرصة، فكتب إلى مازيـار يقويه علـى خلاف ابن طاهر ويخـبره أن المعـتصم ولاه إمارة خـراسان. وأراد الأفشين بذلك أن يخالف مازيار، فيولي المـعتصم الأفشين حربه، ويكون له مع ذلك ولاية

خراسان ودعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج، وتحصن بجبال طبرستان. بلغ ذلك عبد الله بن طاهر، فوجّه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جرجان. ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب في جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قارن الطبري القائد ومن كان بالباب من الطبرية. ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الري ليدخل طبرستان من ناحية الرى، ولم ينتدب الأفشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب. وهُزمت جنود مازيار. فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين، فاستأمن إليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم، فحملهم إلى المعتصم بسامرا.

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الأفشين واطلع على الكتب التي كان أرسلها أخو الأفشين إلى مازيار وعلم الأفشين ذلك، فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين. وقد وصل شيء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به المعتصم، فأمر بحضور الأفشين. ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره في مجلس عام لتبكيته ومناظرته. وكان الذي تولى ذلك، الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول إلى ملك بلاده، وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة، ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار. وشهد المازيار أن أخا خاش كتب إلى قوهيار أخي مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: المغاربة، والعرب، والأتراك. والعربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس. وهؤلاء الذباب ـ يعني المغاربة ـ، إنَّما هم أكلة رأس. وأولاد الشياطين ـ يعني الأتراك ـ فإنَّما هي ساعة حتى تنفد سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين إلى مالم يزل عليه ـ أيام العجم ـ. ولما تبيَّن أمره، قال القاضي أحمد بن أبى دؤاد: قد وضح لكم أمره، فعليك به يا بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات، وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس، ثم أُحرق مع خشبته.

٢ ـ **إيتاخ**: كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباخاً، فاشتراه المعتصم سنة (١٩٩هـ)، وكان لإيتاخ رجولة وبأس، فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة مونة سامرا مع إسحاق بن

إبراهيم، وكان من قبلـه رجل ومن قبل إسحاق رجل. وكان من أراد المعتـصم قتله، فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس. وولاه المعتصـم قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية. وقد استـمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثـق، وقتل لأول عهد المتوكل سنة (٢٣٥هـ). ففـي سنة (١٩٩هـ)، اشتري بالمال. وفـي عهد الواثق، كانت المـملكة في يده فكان إليه الجيـش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافـة. وما الذي بقي بعد هذا؟!

٣ ـ أشنـاس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه، لما ظهر من شجاعته، وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش، واستخلفه مرة على سامرا، حينما خرج منها. وزاده رفعة سنة (٢٢٥هـ)، بأن أجلسه عـلى كرسي وتوجه ووشحه كـما فعل بالأفشين وزوج ابنـته أترنجة للحسن بن الأفشين، وأحضر عرسه عامة أهل سامـرا، وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلتـه عند الواثق حتى أنه في سنة (٢٢٨هـ) توّجه وألبـسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتى توفي سنة (٢٣٠هـ).

وغير هؤلاء من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم.

كل هؤلاء قواد من الأتراك، اخـتارهم المعتصم لشـجاعتهم وسلمهـم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيـوش وأسقط أسماءهم من الدواوين، واعتز بهؤلاء المجلوبـين، فجعل بـذلك بنيه تحـت سلطان هؤلاء الغـلف القلوب يتـصرفون فـيهم كـما يشاءون. ومع اغترار المعـتصم بهؤلاء القواد، كان يحسّ بما وقع فيه مـن الخطأ باختيارهم، ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف، فقد حدث إسحاق بن إبراهيم: أن المعتصم قال له: يا إسحـاق في قلبي أمر أنا مـفكر فيه منذ مـدة طويلة، وإنّما بسطتـك في هذا الوقت لأفشيه لك: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم. اصطنع المأمون: طاهر بن الحسين، فـقد رأيت وسمعت، وعبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي لم ير مثله، وأنت فأنت والله الذي لا يعتاض منك السلطان أبداً، وأخوك محمد بن إبراهيم وأيـن مثل محمد، وأما أنا فاصطنعت الأفشـين، فقد رأيت إلى ما صار إليه أمره، وأشناس ففشل رأيه، وإيتاخ فلا شيء، ووصـيف فلا مغنى فيه. فقال إسحاق: جعلني الله فداك، أجيب وعليّ أمان من غضبك. قال: قل. قلت: يا أمير المؤمنين، أعزك الله، نظر أخوك إلى الأصول، فاستعملها فأنجبت فـروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها. فقال: يا إسحاق، لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل عليّ

من هذا الجواب.

المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حلّ بالعباسيين من بعده، من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب، وإنَّما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب، وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا؟ وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها.

ومن النتائج التي سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء، وعدم احترامهم لحقوق الأمة، ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين. وذلك أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وذلك أمرٌ لم يكن معروفاً في الدولة العربية قبل ذلك، وكان في الدار؛ إما زوجة أبي حرب، وإما أخته. فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه، فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها، فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر، فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندي وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً؛ كيلا يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن، فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي آوى إليه متبرقعاً فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه. فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب لهم منهم جماعة من رؤساء اليمانية، منهم: رجل يُقال له ابن بيهس، كان مطاعاً في أهل اليمن، فاتصل خبره بالمعتصم فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند، فلما صار إليه، وجده في عالم من الناس زهاء مائة ألف، فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم، وبقي أبو حرب في زهاء ألف أو ألفين فناجزه رجاء وأسره رجل ممن معه، ثم سار به إلى المعتصم أسيراً.

•• الخراج:

كما يمتاز عصر المأمون، بالثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب «جراب الدولة»: يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذي أورده قدامة بن جعفر في كتاب «الخراج» له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم، ونحن نورد خلاصته:

الخراج في عهد المعتصم

الجهة	مقدار الجباية من الدراهم أو الدنانير	
سواد العراق	١١٤,٥٦٧,٦٥٠	درهم
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	درهم
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	درهم
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	درهم
حلوان	٩,٠٠٠,٠٠٠	درهم
الماهين	٩,٨٠٠,٠٠٠	درهم
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	درهم
ماسبذان	١٢٠,٠٠٠	درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	درهم
الإيغارين	٣,١٠٠,٠٠٠	درهم
قم وقاشان	٣,٥٠٠,٠٠٠	درهم
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
الري ودنباوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠	درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠	درهم
قومس	١,١٥٠,٠٠٠	درهم
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠	درهم
تكريت والطبرهان	٩٠٠,٠٠٠	درهم
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠	درهم

تابع: الخراج في عهد المعتصم

الجهة	مقدار الجباية من الدراهم أو الدنانير	
الموصل وما إليها	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
قردى وبازبدى	٣,٢٠٠,٠٠٠	درهم
ديار ربيعة	٩,٦٢٥,٠٠٠	درهم
أرذن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠	درهم
آمد	١٠٠,٠٠٠	درهم
ديار مصر	٢,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أعمال طريق الفرات	٦٠٠,٠٠٠	درهم
	٢,٩٠٠,٠٠٠	درهم
المجموع بالدرهم	٣١٤,٢٧١,٣٥٠	درهم
قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	دينار
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	دينار
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	دينار
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠	دينار
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	دينار
الحرمين	١٠٠,٠٠٠	دينار
اليمن	٦٠٠,٠٠٠	دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠	دينار
عمان	٣٠٠,٠٠٠	دينار
المجموع بالدينار	٥,١٠٢,٠٠٠	دينار

وذلك غريب مما كان في حياة المأمون؛ لأن الأحوال لم تتغير تغيراً يُذكر.

•• العلاقات الخارجية:

قدَّمنا أن الذي كان يعاصـر المعتصم من ملوك الروم، توفيل بن ميخـائيل، وكان ينتهز الفرص لينتقم مـن المسلمين الذي دوَّخُوه وألزموه أن يدفع الفدية قهـراً، فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كـتب بابك إلى ملك الروم يقول: إن ملك العرب قد وجه مـعظم عساكـره إليَّ ولم يبق على بابـه أحد، فإن أردت الخروج إليـه، فليس في وجهك أحد يمنعك. وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحـرَّك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيـل أن خرج في مائة ألف مقاتل حـتى أتى زبطرة ومعه جمع مـن المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهـيم عن الجبال ـ كما ذكرنا ذلك في حروب البـابكية ـ. فلما دخل زبطرة قتل من فـيها من الرجال وسبـى النساء والذرية وأحرق المدينة ومـضى من فوره إلى ملطية، فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمات ـ فيما قيل ـ أكثر من ألف امرأة، ومثَّل بمن صار في يـده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا، فـاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسـكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعـد التعبئة ولكنه أرسل مقدمـته لتكون مدداً لأهل زبطرة، فلمـا شارفتها وجدت ملك الروم قـد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما انتهى أمـر بابك، سأل المعتصم: أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فـقيل: عمورية. وهي مسقط رأس توفيل، كما أن زبطرة مسـقط رأس المعتصم، ولم تكن غزيت قبل ذلك، فتجـهز المعتـصم جهازاً لم يتـجهزه خليـفة قبله مـن السلاح والعدد والآلة وحـياض الأدم والبغـال والروايا والقِرَب وآلة الحديد والنفـط وكانت التعبـئة هكذا: على المقـدمة أشناس، ويتلوه محمـد بن إبراهيم المصعبي، وعلى الميـمنة إيتاخ، وعلى الميسرة جعـفر بن دينار بن عبدالله الخياط، وأمر الأفشين أن يمضي فـيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصـوله فيه إلى أنـقرة وقدر هذا اليوم بـنفسه لأشناس الـذي أمره أن يكون دخولـه من درب طرسـوس. ولما وصل أشنـاس إلى مرج الأسـقف ورد عليـه كتـاب من المعتصم يأمره بالتوقف؛ لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده. فأقام بالمرج ثلاثة أيام، ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مـقابلة الأفشين، فأرسل بخـبر ذلك إلى المعتصم فبـعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلـك، وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواقعة ملـك الروم قبل أن تجتمع الجيـوش، فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفـشين فتم علـى مسيـره حتى التقـى بملك الروم،

فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار، ثم أعاد الكرَّة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة، وتفرَّقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم، فإنهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً؛ لتفرّق الجنود التي كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسّم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام: قسم فيه أشناس في الميسرة، وقسم فيه المعتصم وهو القلب، وقسم فيه الأفشين وهو الميمنة، وبين كل قسم فرسخان، فسارت هذه الأقسام على تعبئة. وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل، كان أول من وردها أشناس، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها، وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة، ثم جاء الأفشين. فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرَّزُوا فحصرها الجيش المعتصمي وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة،ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام، ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق. ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة. وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية. وبعد انتهاء الواقعة، عاد المعتصم إلى طرسوس، وكانت إناخته على عمورية في (٦) رمضان سنة (٢٢٣هـ)، وقفل عنها بعد (٥٥) يوماً.

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم: أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تآمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم، فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم، فأخذ جميع أولئك القواد، وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى، وكان الذي تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة.

ولما ورد المعتصم سامرا، كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتدحه أبو تمام حبيب بن أوس بقصيدته المشهورة، التي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد و اللعب

يقول فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صعد — والمشركين ودار الشرك في صبب
أم لهم لو رجوا أن تفتدي جعلوا — فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها — كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد — شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة — ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض الله السنين لها — مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة — منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرة — إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
ولما رأت أختها بالأمس قد خربت — كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل — قانئ الذوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه — لا سنة الدين والإسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها — للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى — يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت — عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة — وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت — والشمس واجبة في ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها — عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول في ختامها:

خليفة الله جازى الله سعيك عن — جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها — تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم — موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها — وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم — صفر الوجوه وجلبت أوجه العرب

●● صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم: الشجاعة، والإقدام، وشدة اليأس، وكان يحب العمارة، ويقول: إن فيها أموراً محمودة، فأولها: عمران الأرض التي يحياها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، ويعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع

المعاش. وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة عشر درهم، فلا تؤامرني فيه. ولم يكن للمعتصم نفوذ في العلم، كأخيه المأمون، ولا كأبيه الرشيد. وإنَّما كان همه الجيش وتحسينه.

ومن آثاره: اختطاط مدينة سامرا، وها نحن أولاء نقصّ شيئاً من أمرها.

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك، قال لأحد كتابه: إني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلماني، فإذا ابتعت لي موضع سامرا كنت فوقهم، فإن رابني رائب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم، فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠ كيلو متراً)، فابتاع ديراً كان هناك بخمسة آلاف درهم، وابتاع بستانا كان في جانبه بمثل ذلك، ولم تم أمر البيع، خرج المعتصم في آخر سنة (٢٢٠هـ)، حتى نزل القاطول وهو نهر سامرا، كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصراً، فنزل المعتصم هناك، وبدأ بالبناء سنة (٢٢١هـ)، فبنى داراً له وأمر عسكره بمثل ذلك، فعمر الناس حول قصره وبني مسجداً جامعاً في طرف الأسواق، وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية، وكادت تضارع بغداد. وأعظم اتساع وحضارة لها كان في عهد المتوكل ابن المعتصم وسيُذكر ذلك بعد.

•• وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة (٢٢٧هـ)، فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس لثماني ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة، ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت ... عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على ... الدنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقدت ... مثلك إلا بمثل هارون

•• ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده، ابنه هارون، ولم يجعل معه في الولاية غيره.

❊ ❊ ❊

٩ ـ الواثـق

هو: أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد، وأمه أم ولد رومية اسمها: قراطيس. ولد سنة (١٨٦هـ) بطريق مكة، وبُويع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس (٨) ربيع الأول سنة (٢٢٧هـ)ـ (٥) يناير سنة (٨٤٢م)، ولم يزل خليفة إلى أن توفي لست بقين من ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ) ـ أغسطس سنة (٨٤٧م)، فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و(١٥) يوماً، وسنّه (٣٦) سنة.

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين، من كان يعاصر أباه إلا في مملكة الروم بالقسطنطينية، فإن توفيل مات في السنة التي توفي فيها المعتصم، وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بـ «السكير»، وكان إذ ذاك صبيًا، فكانت أمه بدوره تقوم مقامه. وفي خراسان: حيث توفي عبد الله بن طاهر سنة (٢٣٠هـ)، ولي بعده ابنه طاهر بن عبد الله.

■■ وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكان الواثق متغيّراً عليه في حياة أبيه، حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة، لكنه لما استخلف، غلب على عقله هواه؛ لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك، فكفّر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه.

■■ الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق، كما كانت في حياة أبيه. إلا أن قدم المماليك التي اصطنعهم المعتصم، قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم، ولا سيما أشناس الذي توجّه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان سنة (٢٨٨هـ). وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حمى ما يستطاع أن تتعدى حدوده.

وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذي كان هناك، وكيف أزيل. كان بنو سليم من قيس عيلان، من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدداً، وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهي حرة بني سليم، فاجترؤوا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر، وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن

أوقعـوا بالجارينـاس من كنانة وباهلة فـأصابوهم وقـتلوا بعضـهم في جمادى الآخـرة سنة (٢٣٠هـ)، وكان رئيسـهم عزيزة بن قطـاب السلمي، فوجَّه إليهـم أمير المدينة محـمد بن صالح بن العباس حماد بـن جرير الطبري، وكـان الواثق أرسله للمـدينة في (٢٠٠) من الشاكرية؛ لئلا يتطرقها الأعراب، فتوجَّه إليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة، وكـانت الهزيمـة على جند حمـاد بعد أن قُتل وحازت بـنو سليم الكـراع والسلاح والثياب. وغـلظ أمرهم، فاستبـاحوا القرى والمناهل فيـما بينها وبين مكة والمديـنة حتى لم يمكن أحد أن يسلك تلك الطـريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العـرب، فوجه إليهم الواثق بغا الكـبير في الشاكـرية والأتراك والمغاربة، فـشخص إلى حرة بنـي سليم وعلى مقـدمته طردوش التركي، فلـقي بني سليم بقراهم وقتل مـنهم نحو الخمسين وأسر مـثلهم، وانهزم سائرهم، فدعاهم بغـا إلى الأمان على حكم الواثق، فأتوه واجتمعوا إليـه، فاحتبس منهم مَنْ وُصفَ بالشرّ والفساد ـ وهم زهاء ألف رجل ـ وخلى سبيل سائرهم، ثم رحل بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة (٢٣٠هـ)، فحبسهم بها وشخص إلى مكة حاجاً.

ولما انقضى الموسم، انصرف إلى ذات عرق ووجه إلى بني هلال من عرض عليهم مثل ما عرض على سليم، فأقبلوا، فأخـذ من مردتهم وعتاتهم نحواً من (٣٠٠) رجل، وخلى سائرهم، ثم انـصرف إلى المدينة وجعل المحـبوسين من بني هلال مع إخوتـهم من سليم، وجمـعهم جميـعاً في دار يزيد بن مـعاوية في الأغـلال والأقياد، وعدتهـم نحو (١٣٠٠) رجل، وسار هو إلى بني مرة المحبوسين، فنقبوا الـسجن ليخرجوا، فعلم بهم أهل المدينة، فجاؤوهم واجتمعـوا عليهم ومنعوهم الخروج، فباتوا محصـورين. وفي الغد حاربهم أهل المدينة وكـاثروهم، فقتلوهـم أجمعين، وقُتل سـودان المدينة من لقوا من الأعـراب في أزقة المدينة ممن دخل يمـتار أو يزور. كل ذلك تم وبغا غـائب، فلما قدم ووجدهـم قتلوا، شق ذلك عليه ووجد وجداً شديداً.

أما ما فعله ببني مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك، فإنه لما قاربهم، أرسل إليهم رجلاً فزارياً يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم، فلما قدم عليهم الفزاري حذرهم سطوته وزين لهم الهرب، فهـربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكـاً ولم يستأمن إليه إلا القليـل وهرب الباقون إلى موضـع من البلقاء من عـمل دمشق. ثم صـار إليه جمـاعة من بطون غطفـان وفزارة وأشجع، فلما صاروا إليه، استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم، فحلفوا، ثم شخـصوا إلى ضريـة لطلب بنى كـلاب ووجه إليهم رسـله، فاجتـمع إليه منهـم نحو (٣٠٠٠) رجل، فاحتبس من أهل الفساد نحواً من (١٣٠٠) رجل، ثم قدم بهم المدينة في رمضان سنة (٢٣١هـ)، فحـبسهم بها، ثم شخص إلى مكة حاجـاً، ورجع إلى المدينة بعد حجه، فأرسـل إلى من كان استحلف من ثعلـبة وأشجع وفزارة، فلم يجيـبوه وتفرَّقُوا في

البلاد، فوجَّه في طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد.

وفي سنة (٢٣٢هـ): أمره الواثق أن يذهب إلى غزو بني نمير، لما كان من عبثهم وفسادهم في الأرض، فمضى نحو اليمامة يريدهم، فلقي منهم جماعة بموضع يُقال له: الشريف، فحاربوه، فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر نحواً من (٤٠٠)، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة، فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة، وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربه، فسار بغا إليهم من مرأة في أول صفر سنة (٢٣٢هـ)، حتى دخل بخيله وأرسل إليهم أن ائتوني، فاحتملت بنو ضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود، وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله بأهله، فأرسل إليهم سرية لم تدركهم، ثم إنه سار حتى التقى بهم بموضع يُقال له: روضة الأبان وبطن السر. فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفري، فجعلوا يقولون له: يا محمد بن يوسف، قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم، ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم! والله لنرينك العبر. ولما أصبح الصبح عليهم، حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكان يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً، وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو (٢٠٠) نفس؛ ليغير على خيل لهم وجدوها بمكان من بلادهم، فبينا جيش بغا على شرف الانكسار، إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذي وجهت إليه في ظهور بني نمير، فنفخوا في صفاراتهم. ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنُّوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم ورجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم. أما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل. وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤوس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه، وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون، فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة في ذي القعدة سنة (٢٣٢هـ)، وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله من المدينة من بني كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم، فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعاً إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعاً نحو (٢٣٠٠) رجل.

■■ نكبة الكتّاب في عهد الواثق:

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة، فقال له

أحدهم: إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا في إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع لهم بها، ومنهم رجل يُقال له: أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم، فمطلوه بها. فدخل على الرشيد ليلة، فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة إنَّما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد: أجل، والله إنَّما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس، وبعد ذلك جدّ الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم، فقال الواثق: صدق والله جدي إنَّما العاجز من لا يستبد، وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها. ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذي ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم في حفظه. وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم:

أحمد بن إسرائيل	٨,٠٠٠ دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠,٠٠٠ دينار
الحسن بن وهب	١٤,٠٠٠ دينار
أحمد بن الخصيب وكاتبه	١,٠٠٠,٠٠٠ دينار
إبراهيم بن رباح وكاتبه	١٠٠,٠٠٠ دينار
نجاح	٦٠,٠٠٠ دينار
أبو الوزير	١٤٠,٠٠٠ دينار
المجموع	**١,٧٢٢,٠٠٠ دينار**

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم.

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة؛ إذ لم يكن هناك دقة في المحاسبات، فإذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة في وقت قريب، وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقه التي يتقاضاها، حكم الخليفة قطعاً أنه خائن، ولا يجد أمامه إلا المصادرة التي نظام لها.

■■ العلاقات الخارجية. الفداء بين المسلمين والروم:

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم، ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى. وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى، ولما كان

يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق، كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله. وأول فداء حصل كـان في عهد الرشيد على نهر اللامس قـريباً من طرسوس، فودي فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلـمين على يد القاسم بن الرشيد، وحصل فداء مثله في عهده أيضاً، فودي بألفين وخمسين.

وقد كان الفداء الـثالث في عهد الواثق سنة (٢٣١هـ)، أرسـل ملك الروم إلى الواثق رسلاً يسألـونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسـلمين، فأجاب، وانتدب للفـداء خاقان الخادم بعـد أن أعد من أسـرى الروم عدداً كبـيراً. وقد تقـابل الفريـقان في عاشـوراء سنة (٢٣١هـ) على نهر اللامس، وكان عدد من فودي به من المسلمين (٤٦٠٠)، منهم (٦٠٠) نساء وصبيان، ومنهم من أهل الذمة نحـو (٥٠٠)، فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً. وقد عقد المسلمون جسراً على النهر، وعقد الروم جسراً، فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم، ويرسل الروم المسلم على جسرهم. وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يده (١٠٠) نفس ليكـون له عليهم الفضل استظهاراً. ومن غـريب ما حصل في هذا الفداء: أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي، أرسـل مندوباً من قبَله يمتحن الأسرى حتى لا يفدي منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق، وهذا غلو قد وصل إلى نهايته.

■■ صفات الواثق:

كان الواثق كـثير الأكل والشـرب، واسع المعروف، متـعطفاً على أهل بـيته، متـفقداً لرعيته، وكان مـحباً للنظر مكرماً لأهله مبـغضاً للتقليد وأهله، محـباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخـر من الفلاسفة والمتطببين. وكان له مجلـس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقلـيات والسمعيات في جميع الفروع، فكانت سيرته في ذلـك سيرة عمه المأمون. ومن أجـل ذلك، أخذت مسألة خلق القـرآن في عهده شكلاً حاداً أكـثر مما كانت في عهـد أبيه المعتصـم؛ لأن المعتصم كان يتـكلف ذلك؛ لمكان وصية أخيه.



■■ وفاة الواثق:

أُصيب الواثق بعلة الاستسقاء، وكانت سبب وفاته في (٦) ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ)، وسنه (٣٦) سنة. وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل. ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافـة، فخلافته من بعده بدء شكل جـديد لم تكن له سابقة في الدولة العـباسية. وقد خـتم هذا القـرن بانتهـاء الخلفـاء العسكريـين الذي كانوا يـقودون الجيـوش بأنفسـهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضني.

* * *

١٠ ـ المتوكــــل

هو: جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بـن الرشيد، وأمه أم ولد خوارزمية يُقال لها: شجاع. ولد فـي شوال سنة (٢٠٦هـ) بفم الصلح، ولـم يكن بالمرضي عنه في حيـاة أخيه حتى كان الواثق قد وكـل به رجلين هما عمر بن فرج الرخجي ومحـمد بن العلاء الخادم، فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقـت. وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبدالملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناً و كانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منـه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذي كان عـمر يجلس فيه، وكان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد.

ولما توفي الواثق، ولم يكن عهد إلى أحد، اجتمع كبراء الدولة: ابن أبي دؤاد القاضي ومحمد بن عبـد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكـاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك، وتناظروا فيمن يولونه الخلافة، فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق، وكاد الأمر يتم لـه إلا أنهم لما جاؤوا به وألبسوه دراعـة سوداء وقلنسوه رصافـية، قال لهم وصيف: أما تتقون الله تولون مثل هذا الخـلافة وهو لا تجوز معه الصلاة؟ ثم أشار ابن أبي دؤاد بجعفر بن المعتـصم، فاتفق رأيهم عليه، وأحضروه فألبسـه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممـه وقبله بين عـينيه وقال: السـلام عليك يا أميـر المؤمنين، وبايعـه الحاضرون ولُقِّب بالمتوكل على الله، ثم بايـعته العامة. وتم ذلك كله في اليوم الذي تـوفي فيه الواثق، وهو (٢٤) ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ) ـ (١١) أغسطس سنة (٨٤٧م)، واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة (٢٤٧هـ)، (١١) ديسـمبر سنة (٨٦١هـ)، فكانت مدته (١٤) سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكانت سنه إذ قتل (٤١) سنة.

وكان يعـاصره في بلاد الأنـدلس: عبد الرحـمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـــ) ثم ابنه محمد (٢٣٨ـ ٢٨٣هـ).

ويعاصـره في بلاد المغرب مـن الأدارسة: محمـد بن علي بن إدريس الـثاني (٢٢١ ـ ٢٤٢هـ)، ثم يحيى بن محمد (٢٣٤هـ).

ويعاصره في إفريقية من الأغالبة: محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٣٦ ـ ٢٤٢هـ)، ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ ـ ٢٤٩هـ).

ويعاصـره في بلاد اليـمن من الدولة الزيـادية: محمـد بن عبـد الله بن زياد (٢٠٤ ـ ٢٤٥هـ)، ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥ ـ ٢٨٩هـ).

ويعاصره فـي خراسان من آل طاهر: محـمد بن طاهر بن عبـد الله بن طاهر (٢٣٠ ـ ٢٤٨هـ).

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية: ميخائيل الثالث الملقب بـ «السكير».

ويعاصره في فرنسا: شارل الأصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧م).

●● وزراء الدولة:

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو: **محمد بن عبد الملك الزيات**، الذي كان وزيراً لأخيه وأبيه، إلا أن المـتوكل كان منحرفاً عنه؛ لما كـان يفعله معه في حياة أخـيه من قبح المقابـلة وعدم الرعاية، وزاد عـلى ذلك أنه أشار بتـولية محمـد بن الواثق، فكانت شـهوة الانتقام متمكنة منه. ففي سابع صفر سنة (٢٢٣هـ) أمر فقُبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول، وكذلك ضياع أهل بيته حيـث كانت. أما ما ناله من المكروه في نفسه، فهو أعظم من أن يسطر. ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب. إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الديني عند هؤلاء القوم . الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فأشد ما يكـون عقوبته ألا يُستعان به في عـمل. الرجل خان فيما عهـد إليه من الأمانات، فأقصى عقوبته أن يصادر في أمواله. الرجل قتل نفساً بدون حق، فأقصى عقوبته أن يقتل. فلم هذا التعذيب الذي سطره المؤرخون؟ أليس ذلك دليلاً على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذي نهى أشد النهي عن التعذيب والمثلة؟ أليس ذلك دليلاً على أن صوت العلماء لا يظهر إلا في الأمورالنظرية المحضة الـتي لا يترتب عليها عمل ولا أثر في الحياة. أما ما تكون آثـاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وإزهـاق نفوسهم، فلا نكاد نسـمع لهم ركزاً. أين هذا مما كان في عهـد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي كانت أمه تحاسـبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير؟!

وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته (٩٠٠٠٠) دينار، وبين القبض عليه ووفاته أحد وأربعون يوماً.

ولم يمض على ذلك خـمسة أشهر، حتى أمـر المتوكل بالقبض علـى عمر بن فـــرج الرخجي وهو الكاتب الذي رمى بصك المتوكل في صحن المسجد أيام خلافة الواثق، فقبض عليه وصودرت أمـلاكه، وكان مقدار ما أخـذ منه ومن أخيه محـمد بن فرج (٢٧٤٠٠٠) ديناراً، (١٥٠٠٠) درهم، سوى القصـر والأمتعة والضياع. وقد حمل متـاعه وفرشه على خمسين جـملاً كرت مراراً، ثم صالحوه بعـد ذلك على أن يدع (١٠٠٠٠٠٠٠) درهم،

على أن ترد عليه ضياعه بالأهواز فقط، فردّت عليه وأطلق من عقاله.

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير **أحمد بن خالد** الذي كان في حياة الواثق زماماً على عمر بن فـرج الرخجي في ديوان النفقات، ولما استكتبـه لم يسمه باسم الوزير. واستـمر كاتباً لـه زمناً قليلا ، فـإنه في ذي الحجة من سـنة (٢٣٣هـ)، غضب عليـه وأمر بمحاسبته فحمل نحواً من (٦٠٠٠٠) ديـنار، وحمل بدور دراهم وحلياً وأخذ له من متاع مصر (٦٢) سقطاً، و(٣٤) غلاماً، وفرشاً كثيراً، وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدراً كثيراً.

وبعد أبي الوزير، استوزر **محمد الفضل الجرجرائي** ـ منسوب إلى جرجرايا، وهي: بلد من أعمال الـنهروان الأسفل بين واسط وبغـداد من الجانب الشرقي ـ وكان الجـرجرائي من أهل الفضل والأدب والشعر، وقال صاحب الآداب السلطانيـة: إنه كان عالماً بالغناء مشتهراً به، واسـتمر علـى وزارته إلى سنة (٢٣٦هـ)، وفـيهـا صرفه عن الـعمل؛ لأنه قـال: قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثاً أستوزره فمن أجل صرفه.

اختار بـعده لوزارته **عبيد الله بن يحـيى بن خاقان**، وبقي وزيراً للمـتوكل إلى أن مات. وكان حسن الحظ ، له معرفة بالحساب والاستيفاء. و كانت فيه عيوب يسترها كرمه وحُسْن خلقه وعفته. ومن أجل ذلك، كان الجند يحـبونه، وقد حصل في وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الأموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض. وكل ذلك سببـه عدم الضبط في الإدارة المالـية. كان نجاح بن سلمـة على ديوان التوقيع والـتتبع على العمال، فكان لذلـك مخشي الجانب نافذ الكلمة. وكان الحـسن بن مخلد على ديوان الضياع. وموسى بن عبد الملك علـى ديوان الخراج. وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة، وكـان ميل الحسن وموسى إلى الوزير. احتـاج المتوكل في سنة (٢٤٥هـ) إلى المال لبناء القـصور التي أراد تأسيسها بسـامرا. فقال له نجاح: أسمي لك قومـاً تدفعهم إليّ حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحواً من عشرين رجلاً: موسى بن عـبد الملك وخليفته، والحسن بـن مخلد وخليفته، وعبـيد الله بن يحيى الوزير وأخواه وغيرهم من العمال. فأعـجب ذلك المتوكل، وقال له: بكّر إليَّ غداً. وناظر الوزير المتوكل في ذلك، فـقال له: يا أمير المؤمنين، أراد ألا يدع كاتبـاً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع بهم، فـمن يقوم بالأعـمال يا أميـر المؤمنين؟ وخرج مـن عنده، فدعا مـوسى بن عبدالمـلك والحسن بن مخـلد، فقال لهمـا: إن دخل نجاح إلى أميـر المؤمنين دفعكمـا إليه فقتلكما وأخـذ ما تملكان من المال ولكن اكتبا إلى أمـير المؤمنين رقعة تتقبلان بـه فيها بألفي

ألف دينار، ففعلا. وأوصل الوزير رقعتهما إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحاً، فضمنا ذلك ودفع إليهما نجاحاً فأخذاه وانتقما منه شر انتقام. أما في المال: فأخذا من نجاح وابنه نحو (١٤٠٠٠٠) دينار، سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد، وسوى ضياع لهما كثيرة. قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به. أما كاتبه إسحاق بن سعد الذي كان يتولى خاص أموره، فقد أمر المتوكل أن يغرم (٥١٠٠٠) دينار وقيل: ولِمَ ذلك؟ قال المتوكل: إنه أخذ مني أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين دينار حتى أطلق أرزاقي، فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادة ألف فضلاً كما أخذ فضلاً فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل (١٧٠٠٠) دينار، وأخذ منه كفلاء بالباقي. وأما نفس نجاح، فقد ماتت تحت الضرب والتعذيب.

وبعد وفاة نجاح، ضم ديوان التوقيع إلى عبيد الله بن يحيى الوزير، ثم توفي موسى ابن عبد الملك، فضم ديوان الخراج إلى الوزير أيضاً.

من أغرب ما في هذا التاريخ: أن يرتشي العامل من أخي الخليفة حتى يطلق له أرزاقه، فما الظن بغيره من أصحاب الأرزاق؟ ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الأرزاق؟ ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة في الزمن القليل والعمال يعرفون بعضهم بعضاً، فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال، فإذا بلغ خليفته شيئاً من ذلك، هاج أطماعه فيعمد إلى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله.

وما من ظالم إلا سيبلى بظالم

وتلك أمور تعم الفساد في جسم الدولة.

أحمد بن أبي دؤاد: هو الرجل الموثوق به في عهد المأمون، وعظيم دولة المعتصم والواثق، وقاضي القضاة في زمنهما والذي كان يعطف على المتوكل في عهد أخيه الواثق، حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه، فلما ولي المتوكل، حفظ له مقامه ورتبته وسابقته، فكان قاضي القضاة وعظيم الدولة.

وفي سنة (٢٣٣هـ): فلج فعجز عن العمل، فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه في القضاء وولاية المظالم، إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه، فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وعلى ابنه، فعزلهما عن المظالم والقضاء، ورضي عن

يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم. وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر سنة (٢٣٧هـ)، وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد بن ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبد الله بن السري خليفة صاحب الشرطة. وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد (٠٠٠ ٢٠) دينار، وجواهر بقيمة (٠٠٠ ٢٠) دينار، ثم صولح بعد ذلك على (٠٠٠ ٠٠٠ ١٦) درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم. **وفي أواخر سنة (٢٣٩هـ)**: مات محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ببغداد. وبعد وفاته بعشرين يوماً، توفي أبوه أحمد وهم على تلك الحال.

●● العلويون:

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأهل بيته. وهذا ما يُعرف في العقائد بـ «النصب»، وهو ضد التشيع. وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليّا وأهله بأخذ المال والدم. وكان فيما يُقال: يبغض من تقدمه من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق؛ لمحبة علي وأهل بيته. وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بـ «النصب» وبُغْض عليّ فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسنوا الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين.

ومن آثار تلك الكراهة: أنه أمر في سنة (٢٣٧هـ) بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة، بعثنا به إلى المطبق، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه، وحرث ذلك الموضع وزُرع ما حواليه.

وكان إمام الإمامية في عهده، أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، سعي به إلى المتوكل، فأقدمه من المدينة إلى سامرا التي كانت تُعرف بالعسكر، فلقب بـ «العسكري». وقد ظل مقيماً بها نحو عشرين سنة ومات بها. ولما جاء سامرا، لم تنقطع السعايات عنه، فقيل له: إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، فوجه إليه ليلاً من هجم عليه منزله وهو غافل، فَوُجِدَ في بَيْت وَحْدَه، عَلَيْه مدرعة من شعر ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه ملحفة من صوف، وهو يقرأ ويدعو، فحُمِلَ إلى المتوكل في جوف الليل، فَمُثِّلَ بين يديه، والمتوكل يشرب. فأجلسه إلى

جنبه وعرض عليه الكاس فاستعفى، فأعفاه، ثم قال له: أنشدني شعراً. فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة ... وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته، ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه ورده إلى منزله مكرماً.

وفي عهد المتوكل، أتي بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين من بعض النواحي، وكان قد جمع جمعاً فضربه عمر بن فرج ثماني عشرة مقرعة وحُبس ببغداد في المطبق.

•• الجيش:

كان الجيش على العهد الذي كان عليه مدة الواثق والمعتصم، وكلما قدم العهد، زاد الأتراك نفوذاً وقوة. وقد أحسّ المتوكل بتوغل الأتراك في الدولة واستبدادهم بأمور الخلافة وإدارتها وجيشها، فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم، فبدأ بإيتاخ الذي كان على الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة. وأراد المتوكل الإيقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع، فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو بسامرا بين قومه وجنده فدس إليه من أشار عليه بالاستئذان في الحج، ففعل. فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير. فلما حج وانصرف إلى العراق، وجه إليه المتوكل بكسوة وألطاف، وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق، وتقدّم إلى عامله على شرطة بغداد وهو: إسحاق بن إبراهيم المصعبي بأمره فيه. فلما وصل بغداد، قال له إسحاق ابن إبراهيم: إنَّ أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس، وأن

تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز. فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزيمة، حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده، فكان فيها سجنه، ثم نقل إلى منزل إسحاق، فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد في عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر، وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، فحُبِسُوا. وكانت الشدة التي عومل بها إيتاخ سبباً لوفاته، فمات سنة (٢٣٥هـ). وأما ابناه فبقيا في الحبس حياة المتوكل، ثم أطلقهما المستعين بعده.

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم، كره من أجلهم المدينة التي أنشئت لهم، فعزم أن يغير حاضرة خلافته، فاختار سنة (٢٤٣هـ) أن يجعل دمشق حاضرته فشخص إليها ونقل دواوين الْمُلك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه؛ لأنهم ظنُّوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم، حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم. وبعد أن أقام بدمشق أياماً، ظهر أنه استوبأ البلد؛ لأن الهواء بارد نديّ والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا، ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة. وفي سنة (٢٤٥هـ): أمر ببناء الماحوزة [1] وسماها الجعفري [2]، وأقطع القواد وأصابه وجد في بنائها، وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل سَاجَهُمَا إلى الجعفري. وأنفق عليها - فيما قيل - أكثر من ألفي ألف دينار، وكان يسميها هو وأصحابه «المتوكلية» وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصراً سمَّاه «لؤلؤة»، لم يُر مثله في علوه. وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يُقال له: «كرمى» على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة، جعله شرباً لما حوله من فوه النهر إليها وقدر للنهر من النفقة (٢٠٠٠٠٠) دينار، لكنه مات قبل أن يتم، فأُهْمِلَ. وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل. ولما انتقل إلى مدينته الجديدة، شاع أنه عزم علىَ الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم، ولكن لم يتأت له ذلك؛ لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم - كما نبينه في خبر مقتله - . وقد حصلت حوادث في أطراف الدولة في عهد المتوكل، فأطفئت، منها:

أولاً: حادثة محمد بن البُعيث بن حليس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة في مدينة مرند، وهي من مشاهير مدن أذربيجان، استدارتها فرسخان،

---

(١)وقال ابن الأثير في الكامل (٥/٢٩٨) : «الماخورة».
(٢)وقال ابن الأثير في المرجع السابق (٥/٢٩٨): «الجعفرية».

وبينهـا وبين تبرين يومـان، كانت في الأصل قرية صـغيرة، فنزلهـا حليس أبو البـعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه، وبنى بها محمد قصراً. وكان محمد بن البعيث محبوساً في حبس إسحاق بن إبراهيـم، فتكلّم فيه بغا الشرابي، وأخذ منه الـكفلاء وأطلق، فهرب إلى مرند وهي موضعه من أذربيجان، فرمّ مـا كان وهي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم، فصار في نحو من (٢٢٠٠) رجل، وكان الوالي بأذربيجان محمد ابن حاتم بن هرثـمة فقصر في طلـبه فولى المتوكل حـمدويه بن علي بن الفضـل السعدي أذربيجـان، ووجه من سامرا عـلى البريد، فلمـا صار إليهـا، جمع الجند والشـاكرية ومن استجـاب له، فصار في عشـرة آلاف فزحف إلى ابن البعـيث فألجأه إلى مدينـة مرند، ولما طالت مدته، وجـه إليه المتوكل زيرك الـتركي في عدد كبـير من الأتراك، فلم يغن شـيئاً. فوجه إليه عمرو بن سيسل بن كال، فكذلك فاختار له بغا الشرابي في (٤٠٠٠) رجل، ما بين تركي وشاكري ومغربي. وكان القواد الذين سبقوه، قد زحفوا إلى مدينة مرند، وقطعوا ما حولها من الشجر ـ شجر الغياض ـ، ونصبوا عـليها عشرين منجنيقاً، وبنوا بحذاء المدينة ما يستكـنون فيه، ونصب عليهم ابن الـبعيث من المجانيق مثل ذلـك، وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغـا الشرابي ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البـعيث ولابن البعيث، أن ينزلوا وينزل علـى حكم أمير المؤمنين، وإلا قاتلهـم. فإن ظفر بهم لم يستـبق منهم أحداً، ومن نزل فله الأمـان. وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيـسى ابن الشيخ الشيـباني. وكان عامة من مع ابن البعيـث من ربيعة، فنزل منهم قوم كثير من القلعـة بالحبال، ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث، فـدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البعيث أن يهرب، فأدرك وأخذت حـرمه وأخذ نحو (٢٠) من رجاله، فوافاهم بـغا الشرابي، وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح.

ثم عاد إلى سامرا ومعه أسراء، فأمر المتوكل بحبسهم جميعاً، ثم أتي بابن البعيث فأمر بضرب عنقه، فطرح علـى نطع وجاء السيافون فلوَّحُوا له، فقال المتـوكل و أغلظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت؟ قال: الشقوة، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو: العفو. ثم اندفع بلا فصل، فقال:

أبـى النـاس إلا أنـك اليـوم قـاتلـي ... إمام الـهدى والصـفح بالناس أجـمل
وهـل أنـا إلا جـبـلـة مـن خـطيـة ... وعـفـوك مـن نور الـنـبـوة يجـبـل
فـإنك خـيـر الـسـابقـين إلى الـعـلا ... ولا شك أن خـيـر الفـعالـين تفـعل

فالتفت المتوكل إلى علي بن الجهم، وقال: إن معه لأدباً، وعفا عنه. وكان ابن البعيث أديباً شجاعاً، يقال: إن له أشعاراً نظمها بالفارسية. وكان ابن البعيث لما هرب قال:

كم قـد قضـيت أمـوراً كـان أهملهـا غـيري وقـد أخذ الإفـلاس بالكـظم
لا تعـذلـيني فـيـمـا ليـس ينفـعـني إليـك عنـي جـرى المقـدار بـالقـلم
سـأتلـف المال فـي عسـر وفـي يسـر إن الجـواد الذي يعـطي عـلى العـدم

ولم يمكث ابن البـعيث بعد ذلك كثيراً، فـإنه توفي بعد شهر، ثم أطلـق بنوه الثلاثة، وهم: حلبس والـبعيث وجعـفر، وصاروا في عـداد الشاكرية مع عـبيد الله بن يحـيى بن خاقان، وأجريت عليهم الأنزال.

ثانياً: اضطراب أرمينية: كان لبغا الشرابي ولاية أرمينية وأذربيجان، وابنه فارس خليفته. فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزي. وفي شوال سنة (٢٣٦هـ) مات فجأة، فولي بعـده ابنه يوسف بن محمد؛ ولي حربهـا وخراجها، فشخص إليهـا فضبطها ووجه عماله في كل ناحـية. وبينا هو في عمله، خرج عليه رجل من بـطارقة أرمينية وهو كبيـر البطارقة واسمه «بـقراط بن أشوط». خرج يطلـب الإمارة لنفسه، فـأخذه يوسف بن محمد فقـيده وبعث به إلى باب الخليفة، فهـاج ذلك من بطارقة أرمينية، فأجـمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون، فحصروه بها. ولما خرج لقتالهم، قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه. فلما علم بذلك المتوكل، بعث بغا الشرابي إلى أرمينية مطالباً بدمه، فشخص إليها من ناحية الجزيرة، فبدأ بأرزن، وكان بها موسى بن زرارة الذي وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جملة أهل أرمينية، وقـتله يوسف بن محمد، فحـاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثـلاثين ألفاً وسبي منهم خلقاً كثيراً، ثم سار مخترقاً بلاد أرمـينية؛ لإرهاب عصاتها. حتى بلغ دبيل فأقام بها شهـراً، ومنها سـار إلى تفليس فـفي يوم السـبت (١٠ربيع أول سنة ٢٣٧هــ) وجه زيرك التركي فجاوز الكر وعـليه تفليس في الجانب الغربي وصغدبيـل في الجانب الشرقي. وكان معسكر بغا في الـشرق، وكان غرضهم من ذلك، إخضاع إسحاق بن إسـماعيل مولى بني أمية الثائر بها، فناوشوه القتال، فخرج لقتـالهم، فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار، فأقبل ابن إسماعيل إلى المدينة لينظـر فإذا النار قد أخذت في قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً وأخذوا ابنـه عمراً، فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عـنقه. ويُقال: إنه احترق في المدينة (٥٠٠٠٠) إنـسان، وأُسر من بـقي حيًا فيـها، وكان إسـحاق قد حـصنها وحـفر خندقها، وجـعل فيها مقـاتلة من الخويثية وغـيرهم، وأعطاهم بغا الأمان عـلى أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤوا. وكان إسحـاق مصاهراً لملك السرير، تزوج ابنته. ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حـتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم، وأخـذ معه كثيراً من بطارقة أذربيجان وأران.

•• الدولة اليعفرية:

في آخر عهد المتوكل، ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء، وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي، الذي كان والياً للمعتصم على نجد واليمن وصنعاء وما إليها. ولما توفي عبد الرحيم، قام في الولاية مقامه ابنه يعفر ابن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها، إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجاً يحمل إلى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم. وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبدالرحيم سنة (٢٤٧هـ)، واستمر ملك صنعاء في أعقابه إلى سنة (٣٨٧هـ)، وهذه أسماء ملوكهم:

١ ـ يعفر بن عبد الرحيم .... (٢٤٧ ـ ٢٥٩هـ)
٢ ـ محمد بن يعفر .... (٢٥٩ ـ ٢٧٩هـ)
٣ ـ عبد القادر أحمد بن يعفر .... (٢٧٩ ـ ٢٧٩هـ)
٤ ـ إبراهيم بن محمد .... (٢٧٩ ـ ٢٨٥هـ)
٥ ـ أسعد بن إبراهيم .... (٢٨٥ ـ ٢٨٨هـ)
* فترة لأئمة صنعاء والقرامطة .... (٢٨٨ ـ ٣٠٣هـ)
٦ ـ أسعد بن إبراهيم مرة ثانية .... (٣٠٣ ـ ٣٣٢هـ)
٧ ـ محمد بن إبراهيم .... (٣٣٢ ـ ٣٥٢هـ)
٨ ـ عبد الله بن قحطان .... (٣٥٢ ـ ٣٨٧هـ)

وقد اتبعنا في ثبت هذه الدولة، ما جاء في تاريخ الأمم الإسلامية لمؤلفه «لين بول»، وفيه بعض مخالفة لمَا في تاريخ الدولة الإسلامية للشيخ دحلان. ا.هـ. والحوالي: نسبة إلى عبد الله بن حوالة الأزدي صاحب رسول الله ﷺ.

•• العلاقات الخارجية:

كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصال براً وبحراً، لا تنقطع إلا لهدنة وقتيّة.

ففي سنة (٢٣٨هـ): أغار الروم على مصر من جهة دمياط، وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليه بالفسطاط ليتجمل بهم، فلما جاءها الروم بمراكبهم، لم يجدوا بها حامية وكانوا في نحو (٣٠٠) مركب، فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيراً من نساء المسلمين وأهل الذمة، وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من

المغانم، ثم عادوا إلى بلادهم، لم يكلم أحدٌ منهم كلمـاً. وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك في صوائفهم من جهة الدروب التي تلاصق المملكة الإسلامية من الجهة الشمالية، وفي بحر الروم.

وفي سنة (٢٤١هـ): كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس في (١٢) شوال، وكان القائم به: شنيف خادم المتوكل، وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي وعلي بن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية، وكانت عدة من فُودي به من المسلمين في سبعة أيام (٢١٠٠) رجل وامرأة، على رواية المقريزي في الخطط. وروى الطبري: أن عدة أسرى المسلمين كانت (٧٨٥) إنساناً، ومن النساء (١٢٥) امرأة. قال المقزيري: وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام، مائة رجل ونيف ، فعوضوا مكانهم عدة أعلاج.

وفي سنة (٢٤٢هـ): خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة، حتى قاربوا آمد، ثم خرجوا من الثغور الجزرية، فانتهبوا عدة قرى وأسروا عدداً عظيماً من الأهلين، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج في أثرهم قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة، فلم يلحقوا منهم أحداً، فكتب إلى علي بن يحيى أن يسير إلا بلادهم شاتياً.

وفي سنة (٢٤٤هـ): وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم. وفي شهر ربيع الآخر، فَغَزُوا الصائفة، فافتتح صملة.

وفي سنة (٢٤٥هـ): أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحواً من (٥٠٠)، وغزا علي بن يحيى الأرمني الصائفة.

وفي سنة (٢٤٦هـ): كان الفداء السادس بين المسلمين والروم في صفر، على يد علي ابن يحيى الأرمني، ففودي بألفين وثلثمائة وسبعة وستين نفساً.

●● صفات المتوكل وأخلاقه:

لم يكن المتوكل كمن قبله في حب النظر والجدل، بل كان ميَّالاً إلى التقليد. فأمر لأول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدل والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ والمحدِّثين بالتحديث وإظهار السنَّة.

ولم يكن المتوكل ممن يُوصف في عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلاً، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل، فلما

جاء المتـوكل، أحدث ذلك كله، فاتـبعه فيهـا أكثر خواصـه ورعيته، فلـم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه من يُوصف بجود ولا أفـضال، ولا يتعالى عن مجون أو طرب. دخل عليه أبو عبادة البحتري الشاعر المشهور، فأنشده قصيدة يمدحه بها، قال فيها:

عـــن أي ثـغـــر تـبـتـســـم	وبــأي طــرف تحــتـكـــم
حـسـن يـضـيء بـحـسـنــه	والحـسـن أشـبـهـه بـالـكـرم
قـل لـلـخـلـيـفـة جـعـفـر الــ	مـتـوكـل بـن المـعـتـصـم
المـرتـضـي ابـن المجـتـبـي	والمـنـعـم ابـن المـنـتـقـم
أمـا الـرعـيـة فـهـي مـن أمـ	ـان عـدلـك فـي حـرم
يـا بـانـي المجـد الـذي	قـد كـان قـوض فـانـهـدم
أسـلـم لـديـن مـحـمـد	فـإذا سـلـمـت فـقـد سـلـم
نـلـنـا الـهـدى بـعـد الـعـمـى	بـك والـغـنـى بـعـد الـعـدم

فلما انتهـى، مشى القهقرى للانصـراف. فوثب أبو العنبس، فقال: يا أمـير المؤمنين، تأمر برده فقـد والله عارضته في قصـيدته هذه، فأمر برده فأخـذ ينشد أبياتاً هزليـة غثة لم أستحسن إيرادها. فضحك المتوكل حتى اسـتلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى، وقال: يدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم. فقال الفـتح بن خاقان: يا سيدي، البحتري الذى هجا وأسمع المكروه ينصرف خائباً، فقـال: ويُدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم، فوصل الجاد في كرامة الهازل.

وكان ينفر من استـعمال أهل الذمة في الدواوين، ويكره أن يظهـروا في الطريق بمظهر المسلمين، ولذلك أصدر أمـره في سنة (٢٣٥هـ) أن يلبسوا زيّا خاصاً بهـم، وهو الطيالسة العسليـة والزنانير، وأن تكون لهـم سروج خاصة بهم لركـوبهم ونهى أن يُستعـان بهم في الدواوين وأعـمال السلطـان التي يجري فـيها أحكـامهم على المسـلمين، ونهى أن يتـعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم. وكتب منشوراً إلى عماله في الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولي في شوال سنة (٢٣٥هـ).

قال المسعودي: وكـانت أيام المتوكل في حسنها ونـضارتها ورفاهية العيـش بها وحمد الخاص والعـام لها ورضاهم عنهـا، أيام سراء لا ضراء، كما قـال بعضهم: كانـت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأماني الحب وأيام الشباب.

وتتعادل عند المحدثين سـيئاته وحسناته، فإبطاله المناقشة في الـقرآن وحدوثه ترفعه إلى

أعلى الدرجات وهـدمه قبر الحسين يحطـه إلى أسفل الدركات، فكأنه عنـدهم لا عليه ولا له. أما الحكم على زمنه، بما كان من مصادرة الكتـاب وعقوباتهم الشديدة، فلم يكن محل عناية من أحد.

●● ولاية العهد:

تَشَبَّهَ المتوكل في كثـير من أعماله بجده الرشيـد. ومن ذلك: توليته العهد، فـقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة، وهم: محـمد المنتصر، ومحمد المعـتز، وإبراهيم المؤيد؛ وذلك في (٢٧) ذي الحجة سنة (٢٣٥هـ)، وقسَّم البلاد بينهم

فجعل لأكبرهم المنتصر: إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشـامية والجزرية وديار مصر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخـابور وقرقيسـيا وكور باجرمى وتكـريت وطساسيج السـواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامـة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمسـتغلات السامرا وماه الكوفـة وماه البصرة وماه سبـذان ومهرجان قذق وشهرزور وواربـاذ ويصامغان وأصبهـان وقم وقاشان وقزوين، وأمور الجـبل والضياع المنسوبة إلى الجبال، وصدقات العرب بالبصرة.

وجـعل لابـنه المعتـز: كور خراسـان وما يضاف إليه، وطـبرستان، والري، وأرمـينية، وأذربيجـان، وكور فارس. وضـم إليه في سنـة (٢٤٠هـ) خزن بيـوت الأموال في جمـيع الآفاق ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وجعل لابنه المؤيد: جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين.

وكتب بينهم كتابـاً يشبه الكتاب الذي كتبه الرشيد بـين الأمين والمأمون والقاسم. وقد جعل المتـوكل لابنه المعتز والمؤيد تمام الاسـتقلال في أعمالـهما إذا آلت الخلافة للمـنتصر، بحيث لا يجوز أن يشرك في شيء من أعمال أحدهما أحداً، ولا يوجه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير. وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت إليه الخلافة للمعـتز. وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ؛ نسخة بخـزانة أمير المؤمنين، وعند كل من أولياء العهد نـسخة. وهذا نموذج مما قيل من الشعر في هذه البـيعة، وهو ينم على نفاق قائلـه؛ لأن القوم لم ينسوا بعد، مـا كان بين أولاد الرشيد. قال إبراهيـم بن العباس الصولي:

أضحت عرى الإسلام وهي منوطة بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم فسعوا بأكرم أنفس وجدود

•• مقتل المتوكل:

لم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المتوكل، فقد وقع في أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحداً بعد واحد، فأخذتهم من ذلك وحشة، وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولي العهد مائلين إلى المعتز. فأوغرا قلب أبيه عليه حتى همَّ أن يعزله من ولاية العهد، فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولي العهد. مال الأتراك إلى المنتصر ليستعينوا به في تنفيذ غرضهم، ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلاً أو آجلاً. ومما زاد في إغراء المنتصر، أن المتوكل اشتكى، فأمره أن يصلي بالناس يوم الجمعة، فقال عبيد الله والفتح للمتوكل: مُر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف، فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً. فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة، فركب وصلَّى بالناس وأقام المنتصر في منزله. وفي الجمعة الثانية أراد المتوكل أن يصلي المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو؛ لئلا يرجف الناس بعلته، ففعل. وكل ذلك، زاد المنتصر حقداً وخوفاً على الخلافة أن تفوته. ويُقال: إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر، وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك. ولم يكن هذا السر ليستتر، مع النبيذ و الاستهتار بشربه، فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل.

وقد تولى كبر ذلك، بغا الصغير، المعروف بـ «الشرابي»، فإنه أعد لذلك قوماً في مقدمتهم باغر التركي، الذي كان يقوم بحراسة المتوكل، وأعدَّ معه عشرة من الأجناد، فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة، والمتوكل قد أخذ منه الشراب، فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه، وكان معه الفتح بن خاقان فَقُتِلَ معه. وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة (٢٤٨هـ).

ويعجبني ما قاله بعض شعراء الوقت في تلك الحادثة:

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل كمن فقد عيناي مفتقد
لا يبعدن هالك كانت منيته كما هوى عن غطاء الزبية الأسد

لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم إذ لا تمد إلى الجاني عليك يد
لو أن سيفي وعقلي حاضران له أبليته الجهد إذ لم يبله أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة والحرب تسعر والأبطال تطرد
فخر فوق سرير الملك منجدلاً لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له ليثاً صريعاً تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لا دونه أحد وليس فوقك إلا الواحد الصمد
أضحى شهيد بني العباس موعظة لكل ذي عزة في رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم في أديمك من فوهاء هادرة من الجوائف يغلي فوقها الزبد
إذا بكيت فإن الدمع منهمل وإن ونيت فإن القول مطرد
قد كنت أسرف في مالي وتخلف لي فعلمتني الليالي كيف أقتصد
لما اعتقدتم أناس لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذع والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد

وقال علي بن الجهم من قصيدة له:

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم صبراً فكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة، أول ثمرة لغرس المعتصم، فإنه ملك الخلافة قوماً لا حلوم لهم وليس لهم، من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأموناً. وأجلّ من ذلك، أن يكون ولي العهد شريكاً في دم أبيه، وهذا أيضاً أول حادث من نوعه.

ويعجبني ما قاله البحتري:

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

❊ ❊ ❊

١١ ـ المنتصـــر

هو: محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية. ولد سنة (٢٢٢هـ)، وعقد له أبوه ولاية العهد سنة (٢٣٥هـ)، وسنّه ثلاث عشرة سنة. ولما قُتل أبوه، بايعه قواد الأتراك عُقَيْب مقتله في (٤) شوال سنة (٢٤٧هـ)، (١١) ديسمبر سنة (٨٦١م)، واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة (٢٤٨هـ) ـ (٧) يونية سنة (٨٦٢م). فكانت مدته التي تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر.

استوزر المنتصر، أحمد بن الخصيب، وكان كاتبه قبل أن يستخلف. وكان مقصراً في صناعته، مطعوناً عليه في عقله، وكانت فيه مروءة وحدّة وطيش، فمن احتمله بلغ منه ما أراد. وقد وصفه المسعودي بأنه كان قليل الخير كثير الشر، وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه؛ بسبب ما شاع من حدّة ابن الخصيب وطيشه، وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة، فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله، فتحدث الناس بذلك. فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد	أشكل وزيرك إنه شكال
أشكله عن ركل الرجال وإن ترد	مالاً فعند وزيرك الأموال

•• الجيش:

بقتل المتوكل، واستيلاء المنتصر الشاب، زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم؛ لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء، فقتلوا الخليفة، وساقوا الخلافة إلى خليفة، فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة، ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم؛ لما دبَّ إلى قلوب الخلفاء من الهيبة ورعاية جانبهم. ومما يدل على ذلك: أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل، فأشاروا على المنتصر بخلعهما، فأُحْضِرا دار الخلافة، وطُلب منهما أن يكتُبَا طالبين أن يُخْلعَا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك، فرضي المؤيد وأبى المعتز، فقال له المؤيد: يا جاهل، تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا، ثم تمتنع عليهم، اخلع، ويلك، لا تراجعهم. وما زال به حتى أجاب وكتبا ما أملى عليهما في ذلك. وهذا ما كتباه:

(بسم الله الرحمن الرحمن، إن أمير المؤمنين المتوكل على الله ـ رحمه الله ـ قلّدني هذا الأمر وبايع لي وأنا صغير من غير إرادتي ومحبّتي، فلما فهمت أمري، علمت أني لا أقوم

بما قلّدني ولا أصلح لخلافة المسلمين. فمن كانت بيعتي في عنقه، فهو من نقضها في حل. وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لي في رقابكم ولا عقد وأنتم برآء من ذلك).

ثم دخلا على المنتصر، فاعترفا بما في الكتاب، ثم أقبل عليهما، والأتراك وقوفٌ. وقال لهما: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط، وإذا لم يكن في ذلك طمع، فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إليَّ من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء ـ وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ـ ألحُّوا عليَّ في خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما، فما ترياني صانعاً، أقتله؟ فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليَّ.

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل، وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود. وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق، وظهر في كتابه براعة المنشئين في ذلك الوقت، وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق. وكان الكاتب له: أحمد بن الخصيب.

●● صفات المنتصر:

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لإهراق دم أبيه، فإنه كان لا يزال ذا نفس تحس فتتأثر. فلم يزل يلاقي أهوال التوبيخ في يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذلّ نفسه. دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكي وينتحب، فسأله عن سبب بكائه، فقال: كنت نائماً فرأيت كأن المتوكل قد جاءني فقال لي: ويلك يا محمد! قتلتني وظلمتني وغبنتني خلافتي، والله لا تمتعت بعدي إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار. فانتبهت وما أملك عيني ولا جزعي. فهو عليه عبد الله الأمر، وكان كثيراً ما يقول: إذا سئل عن حاله: ذهبت والله مني الدنيا والآخرة. فكان الرجل يكابد نيراناً تضطرم بين جنبيه، جزاء فعلته. وكان يهم أن يكفّر سيئته فينتقم من قتلة أبيه، لولا أنه أحسّ بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه، فكان يفكر في تفريق جمعهم. وأُثِرَت عنه كلمات في ذلك، ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب.

كان من خلق المنتصر: سعة الاحتمال، وكثرة المعروف، والرغبة في الخير، والسخاء،

والعفَّة. وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحُسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله، ومما حببه إلى الناس: إزالته عن آل أبي طالب ما كان قد أوحشهم. فتقدم بالكف عنهم، وترك البحث عن أخبارهم، وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين - ﷺ - ولا قبر غيره من آل أبي طالب. وأطلق أوقاف الطالبين، وترك التعرض لشيعتهم، ودفع الأذى عنهم. ومما يؤثر من قوله: (إن لذة العفو أعذب من لذة التشفي، وأقبح أفعال المقتدر: الانتقام). وقد أظهر الإنصاف في الرعية، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة - مع شدة هيبتها له -.

●● وفاة المنتصر:

قال الطبري: لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن وَلِيَ إلى أن مات. يقولون: إنَّما مدة حياته ستة أشهر «مدة شيرويه بن كسرى» قاتل أبيه مستفيضاً ذلك على ألسن العامة والخاصة، وكذلك كان. فقد أصابته العلَّة التي قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة (٢٤٨هـ)، ومات مع العصر من يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر، ويُقال: إن تلك العلَّة كانت الذبحة في حلقه. وبعضهم يقول: كانت ورماً خبيثاً في معدته. ويُقال: إنه سُمَّ، سمَّه الطبيب في مبضع. والله أعلم أي ذلك كان!

❋ ❋ ❋

١٢ ـ المستعين

هو: أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد. وأمه أم ولد، صقلية، اسمها مخارق. وُلدَ سنة (٢٢٠هـ)، وبُويع بالخلافة في اليوم الذي تُوفي فيه المنتصر، وهو خامس ربيع الآخر سنة (٢٤٨هـ)، (٧) يونية سنة (٨٦٢م). ولم يزل خليفة إلى أن خُلع يوم الجمعة (٤) محرم سنة (٢٥٢هـ)، (١٥) يناير سنة (٨٦٦هـ)، فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و (٢٨) يوماً.

■ كيف انتخب؟

اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية، على أن يرضوا بما رضي به من سمينا، فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل؛ لئلا يغتالهم بدم أبيه، كما أنهم يريدون إخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم، فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم، فقال لهم محمد بن موسى

ابن شاكر المنجم: أتولون رجلاً عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر! فبأي عين يراكم؟ وأي قدر يكون لكم عنده؟ ولكن أطيعوا إنساناً يعرف لكم ذلك. فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعاً إلا بغا الكبير، فإنه قال لهم: نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه، وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا، ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم، وقالوا: هذا من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا، ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه، فبايعوه جميعاً. وهو أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسي الدولة السفاح والمنصور، وأول خليفة تولى بعد ابن عمه.

وفي عهده، توفي من الأغالبة بإفريقية: أحمد بن محمد بن الأغلب سنة (٢٤٩هـ)، وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد سنة (٢٥٠هـ)، وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى سنة (٢٦١هـ).

وفي عهده، توفي من آل طاهر بخراسان: طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، فولي مكانه محمد بن طاهر إلى سنة (٢٥٩هـ).

■ **الوزارة في عهد المستعين:**

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ، فإن الموالى هم الذين حوَّلوا الخلافة عن المعتز؛ بخلعهم إياه من ولاية العهد، وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة. فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاؤوا حتى مثَّله بعض الشعراء بقوله:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى، فإن وافق هواهم رضوا عنه، وإن خالفهم في شيء أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره.

تركوا الوزارة في يد أحمد بن الخصيب، الذي كان وزيراً للمعتصم، ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه في جمادى الأولى من سنة (٢٤٨هـ)، فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى جزيرة أقريطش.

واختير لوزارة المستعين، أتامش أحد قواد الأتراك، وكان الذي يقوم بأمر الكتابة، كاتبه «شجاع»، فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام، فأطلقت يده في الأموال ومعه شاهك الخادم الذي جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره، وضم إليهما في النفوذ

والتصرف أم المستعين، فإنه لم يمنعها من شيء تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصراني. فكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق، يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة، فعمد أتامش إلى ما في بيوت الأموال فاكتسحه. وكان المستعين قد جعل ابنه العباس في حجر أتامش، فكان ما فضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس، فيصرف في نفقاته وأسبابه. وصاحب ديوان ضياعه يومئذ، كاتب اسمه: دليل بين يعقوب النصراني، فاقتطع من ذلك أموالاً جليلة لنفسه. نظرت الموالي هذه الحال ـ الأموال تستهلك وهم في ضيقة، وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره، والمستولي عليه ينفذ أمور الخلافة، ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل ـ فأغرى الموالي به. ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير، فتذمرت الأتراك والفراغنة على أتامش، وخرج إليه منهم يوم الخميس (١٢) ربيع الآخر سنة (٢٤٩هـ) أهل الدور والكرخ، فعسكروا وزحفوا إليه وهو في الجوسق مع المستعين، وبلغه الخبر، فأراد الهروب، فلم يمكنه. واستجار بالمستعين، فلم يجرهْ. وفي يوم السبب دخلوا الجوسق، فاستخرجوا أتامش من موضعه الذي توارى فيه، فقُتِل وقُتل كاتبه شجاع، وانتهبت دار أتامش، فأخذوا منها أموالاً جليلة ومتاعاً وفرشاً وآلة.

استوزر المستعين بعده، أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد. وأبوه كان قبل ذلك وزيراً للمأمون، فمكث في الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالي؛ لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة، فلم يعجب ذلك بغاً الصغير وحزبه، فأظهروا له الغضب، فهرب منهم إلى بغداد في شعبان سنة (٢٤٩هـ).

استكتب المستعين بعده، محمد بن الفضل الجرجرائي، وهو الذي كان وزيراً للمتوكل قبل ذلك، ولم يسمه باسم الوزير.

■ **العلويون في عهد المستعين:**

كان الذي في عهد المستعين من أئمة الإمامية الاثنا عشرية، علي الهادي. وهو العاشر من أئمتهم، وكان مقيماً بسامرا.

أمَّا الزيدية، فقد خرج منهم:

أولاً: يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن علي بن الحسين. خرج بالكوفة، وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه، فكان يرجع دائماً بالفشل. فاستثار جمعاً كثيراً من الأعراب، وانضم إليهم جمع من الكوفة، فعسكر بهم

بضواحي الكوفة. ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر، وجه الجنود إليه، فبادر يحيى إلى الكوفة، فاستولى عليها وعلى بيت مالها، ثم خرج منها. وصار يتردد في السواد ثم عاد إلى الكوفة، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وكشف أمره تولاه العامة من أهل بغداد، لا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره. أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح. كان الذي توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو: الحسين بن إبراهيم بن مصعب، فلما وصل بجناه إلى ظاهر الكوفة، أشار على يحيى جماعة من الزيدية لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين، وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك. فخرج من وراء الخندق ليلة الإثنين (١٣) رجب سنة (٢٥٠هـ) في جمع ليسوا بذي علم ولا تدبير ولا شجاعة، فأسرُوا ليلتهم حتى صبحوا الحسين، وهو وأصحابه مستريحون مستعدون، فلم يكن لأسرع أن انهزم جند يحيى ووضع فيهم السيف. وكان أكثر رجالة الكوفة عُزّلاً فداستهم الخيل، ولما انكشف العسكر عن يحيى، تقطّر به برذونه فقُتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا. واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا، فردّ إلى بغداد لينصب بها، فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك. وقال أبو هاشم داوود الهيثم الجعفري في ذلك

يا بني طاهر كلوه وبيا   إن لحم النبي غير مري
إن وتراً يكون طالبه الله   لوتر نجاحه بالحري

ومع هذا الميل مع الناس إلى العلويين، لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل؛ لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذي التدبير والحيل من رجال الحرب.

ثانياً: خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي.

خرج نواحي طبرستان، وسبب خروجه: أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافي السلطان بطبرستان؛ وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر، وكان من جملة تلك القطائع، قطيعة قرب ثغري طبرستان من نواحي الديلم، وهما كلار وسالوس، وبحذاء تلك القطيعة، أرض لأهل تلك الناحية، فيها مرافق، منها: محتطبهم، ومراعي مواشيهم، ومسرح سارحتهم. وليس لأحد عليها ملك. وجّه محمد بن طاهر، جابر بن هارون أخا كاتبه النصراني لحيازة ما أقطع من تلك الأراضي، وكان عامل طبرستان إذ ذاك: سليمان بن عبد الله بن طاهر. وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخي، ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء، فاستأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية، واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم، وزاد على

ذلك: أن محمد بن أوس، وتر الديلم بدخوله إلى بلادهم من حدود طبرستان على غرة، وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان، فسبي منهم ورجع.

لما جاء رسول محمد بن طاهر، وأراد استلام القطيعة، أحب أن يحوز معها تلك الأرض التي تتصل بها من الموات الذي يرتفق به أهل تلك الناحية.

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة، وكانا معروفين قديماً بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم، وهما: محمد وجعفر ابنا رستم. فأنكرا ما فعله جابر، ومنعاه، وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما، فنهضوا معهما وهرب جابر خوفاً على نفسه، ولحق بسليمان بن عبد الله، فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله، فأجابهم الديلم إلى ذلك، وتعاقدوا هم وأهل كلار وسالوس أن يعين بعضهم بعضاً على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب، ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه، فاتفقوا على الحسن بن زيد، وكان مقيماً بالري، فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم، فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم، ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها، فلحقوا بمدينة سارية.

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل ـ وهي حاضرة طبرستان ـ وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها، فلم يقدر، وفرَّ هارباً. ودخل الحسن مدينة آمل، فكثف جيشه وغلظ أمره ومال إليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم، ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله، فغلبه عليها، ولم يكن له هو ومحمد بن أوس إلا النجاء منها بأنفسهما، فهربا إلى جرجان. وبذلك تم للحسن بن زيد، الاستيلاء على طبرستان كلها، فوجه خيلاً إلى الريّ فاستولت عليها، وطردت عنها عمال ابن طاهر.

ورد الخبر بذلك إلى المستعين، ومدبر أمره وصيف التركي، فوجه إلى همذان قائداً في جمع من الجنود؛ ليقيم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها؛ لأن ما وراء همذان كان لمحمد ابن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه.

هكذا نجح الحسن بن زيد في تكوين هذه الدولة التي تُعرف بالدولة الزيدية بطبرستان، واقتطع من مُلك بني العباس وآل طاهر، طرفاً عظيماً تحميه جبال طبرستان والديلم. واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ ـ ٣٥٥هـ)، تولَّى فيها:

١ ـ الحسن بن زيد الداعي (٢٥٠ ـ ٢٧٠هـ)
٢ ـ محمد بن زيد القائم بالحق (٢٧٠ ـ ٢٧٩هـ)
* الدولة السامية (٢٧٩ ـ ٣٠١هـ)
٣ ـ الحسن الأطروش بن علي بن عمر بن زين العابدين (٣٠١ ـ ٣٠٤هـ)
٤ ـ الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش (٣٠٤ ـ ٣٥٥هـ)

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكي ولا مرتاحة من الأعداء، فإن بني سامان ـ الآتي ذكرهم ـ قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى سنة (٣٠١هـ)، ثم ظهر الحسن الأطروش فاستردَّ طبرستان من آل سامان، ولكنه قتل في بعض حروبه مع السامانية، فقام بعده الحسن بن القاسم، ونازعه أولاد الأطروش. ولم يزل النزاع والخلاف قائماً بينهم حتى انتهى أمرهم سنة (٣٥٥هـ)، وانقضى الملك الزيدي من تلك الجبال.

■ **الجيش:**

كان ما ظنه بغا الكبير في محله، فإنه قال للقوم: (نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه، وإن جئنا بمن يخافنا، حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا). وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم، فكانت أولى جناياتهم: قتل أتامش، لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها. ثم اتفق وصيف وبغا علي قتل باغر التركي الذي تولى قتل المتوكل؛ لأنهما خافاه على أنفسهما، وكان باغر قد جمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل، فجدد عليهم البيعة التي كان قد أخذها عليهم، وقال لهم: الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفاً ـ وكانا يسميان بالأميرين ـ، ونجيء بعلي بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شيء، فأجابوه إلى ذلك. وانتهى الأمر إلى المستعين، فبعث إلى وصيف وبغا، فقال لهما: ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة، وإنَّما جعلتماني وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلاني، فحلفا له أنهما ما علما بذلك، فأعلمهما الخبر، فاتفق الرأي على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه، فهاج أصحابه هيجاناً شديداً، ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء (٤) محرم سنة (٢٥٢هـ)، ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر، ولحقهم جماعة من قواد الأتراك، فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذللاً وخضوعاً، وسألوه الصفح عنهم، فقال لهم: أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم، ألم ترفعوا إليَّ في أولادكم فألحقتهم بكم ـ وهم نحو من ألفي غلام ـ وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد

المتـزوجات ـ وهن نحـو من أربعـة آلاف امرأة ـ وفي المدركـين والمولودين؟ وكل هـذا قد أجبتكم إليه وأدررت لـكم الارزاق حتى سكبت لكم آنية الذهب والفضـة، وحرمت نفسي لذتهـا وشهوتهـا. كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضـاكم وأنتم تزدادون بغـياً وفسـاداً وتهدداً وإبعاداً. فتضرعـوا إليه. حتى قال: قد رضيت عنكم. فقال لـه أحدهم بايكباك: إن كنت رضيت عنا وصفحت، فقم فاركب معنا إلى سـامرا، فإنَّ الأتراك ينتظرونك. فأومأ محمد ابن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبي عـون فلكز في حلق بايكباك وقال له: هكذا يُقال لأمير المؤمنين، قم فاركب معنا. فضحـك المستعين من ذلك، وقال: هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام.

وقال لهم المستعين: تصيرون إلى سـامرا فإن أرزاقكم دارة عليكم، وأنظر أنا في أمري ههنا ومقامي. فـانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم، فأجـمعوا أمرهم على إخراج المعتز والـبيعة له، وكان المعـتز والمؤيد في حبس الجـوسق في حجرة صغيـرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه. فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة. ولأخيه المؤيد، ولاية العهد.

وبذلك صارت بغـداد في جانب المستعين والقـائم بأمره محمد بن عـبد الله بن طاهر ومن لف لفه، وسامرا في جانب المعتز. كان من أول ما فعله ابن طاهر: أن منع الميرة عن سامرا، وقام بتحصين بغداد، فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها، وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع، أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى بغداد، ولا يحملون إلى سامرا شيئاً.

دارت المكاتبات، فكتب المستعين إلى أتراك سامرا، يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه، ويذكرهم أياديه عندهم، وينهاهم عن معصيته، ونكث بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابي. وكتب المعتز إلـى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه من بـايعه بالخلافة، وخلع المستعين ويذكره ما كان أبـوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من الـعهد وعقد الخلافة. فلم تفد هذه المكاتبات شيئـاً، وهيأ المعتز جيشاً لحرب المستعين، جعل قيادته لأخيه أبي أحمد المتوكل، وتدبيره إلى كلبانكين التركي. خرج هذا الجـيس من سـامرا فـوافى عكبـرا في غـاية المحرم مـن سنة (٢٥١هـ). ووصـل باب الشماشية ببـغداد لسبع خلون من صفر. وقد حصل بين الفريـقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبـعيداً عنهـا، وانقطعت بذلك الـسابلة وخربـت الضياع وذهبـت الأرزاق. وكانت الحرب بين الـفريقين في الـبر وفي النهـر. وقد ظلت بـغداد مسـرحاً للفتن والحـروب سنة (٢٥١هـ) كلها، وفي آخرهـا كتب ابن طاهر المعتز في الصلح، وأشيـع بين عامة بغداد أن

ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز، فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة في ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الإيقاع به، فكلم ابن طاهر المستعين، وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعملهم ما عليه ابن طاهر، فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة، وابن طاهر بجانبه. فحلف لهم الله ما اتهمه، وإنه لفي عافية ما عليه من ابن طاهر بأس، ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلي بهم فانصرفوا وجاؤوا في الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج، فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر، فلم يجد من ذلك بدّا وانتقل في أوائل ذي الحجة إلى دار رزق الخادم، وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها القواد خلفه، وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين. ويُقال: إن السبب في عدول ابن طاهر عن الإخلاص للمستعين، أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي كان وزيراً للمتوكل قال له: أطال الله بقاءك، إن هذا الذي تنصره وتجدّ في أمره، من أشد الناس نفاقاً وأخبثهم ديناً، والله لقد أمر وصيفاً وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه، وإن كانت شاكّا فيما وصفت من أمره، فسل تُخبَر. وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر في صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم، فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مراءاة لك، وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك ونحو ذلك من كلام كلمه به، فقال محمد بن عبد الله: أخزى الله هذا، لا يصلح لدين ولا لدنيا. كان وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلي، أن تضعضع أمره، وانحياز العامة له لم يفد، فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته.

وفي يوم السبت (١٠) ذي الحجة سنة (٢٥١هـ): ركب محمد بن عبد الله إلى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجاً فوجاً وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله، فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء يحطه بقبول الشروط التي طلبها المستعين. وعادت الرسل في ثالث المحرم سنة (٢٥٢هـ)، وفي رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط، كتبه سعيد بن حميد، فقال ابن طاهر: يا أمير المؤمنين، قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد، فنقرأ الكتاب عليك، فقال المستعين: لا عليك، لا عليك، فما القوم بأعلم بالله منك. وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت. فما ردّ عليه محمد شيئاً.

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد، أخذ منه البردة والقضيب والخاتم، ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط. ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء العصر:

خلع الخليفة أحمد بن محمد وسيقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بني أبيه فلا يرى أحد بملك منهم يستمتع
إيها بني العباس إن سبيلكم في قتل أعبدكم طريق مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

■ **الأحوال الخارجية:**

كان الحال في الخارج أشد من ذلك وأنكى، فإن الاضطراب الحادث في داخلية الدولة كان سبباً في تقاعد أولي الأمر عن حماية الثغور والوقوف في وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة، وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قُتلا في حرب مع الروم أول عهد المستعين، وهما: عمر بن عبد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني، وكانا نابين من أنياب المسلمين، شديداً بأسهما، عظيماً غناؤهما في الروم. فأمَّا أولهما: فقد غزا ملطية، فقابله ملك الروم في جمع عظيم فأحاطوا به فقُتل وقُتل معه ألفا رجل، وجرَّأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين، فبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين فنفر إليهم في جماعة قليل فقتل نحو (٤٠٠) رجل.

لما بلغ ذلك أهل بغداد، شقّ على عامتهم وعظم مقتل الرجلين في صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، وقتلهم من أرادوا من الخلفاء واستخلاصهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر لأمور المسلمين، فثاروا، وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه، لو وجدوا قائداً يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى، ولكنهم لم يظفروا به.

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير، وانضمت إليهم الأبناء الشاكرية، وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها، ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالاً كثيرة من أموالهم فقوّوا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم، وأقبلت إليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما. لهذا القصد، كل ذلك والخليفة لاهٍ بما هو فيه عن ثغور المسلمين، فلم يوجه لها عسكراً ولم تجد حركة العامة شيئاً.



١٣ ـ المعتز

هو: أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، وأمه أم ولد اسمها قبيحة. ولد سنة (٢٣١هـ)، وكان أبوه المتوكل جعله ولي عهده بعد المنتصر، فلم تتم له الولاية؛ لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه. ولما ولي المستعين بعد المنتصر، حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين، فأخرج المعتز وبُويع. تم له الأمر بعد خلع المستعين في رابع محرم سنة (٢٥٢هـ) ـ (٢٥) يناير سنة (٨٦٦م). ولم يزل والياً إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة (٢٥٥هـ) ـ (١١) يولية سنة (٨٦٩م)، فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوماً.

●● **وزراء المعتز:**

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن؛ لانحطاط أمر الخلافة نفسها، وقد كان الوزراء كتاب أموال، فمن أمكنه أن يقوم بحاجة كبار الأتراك ومقدميهم، بقي في منصبه، وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل.

أول وزراء المعتز: أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافي. لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز؛ لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين، فثارت بسبب ذلك فتنة، فعزل من أجل ذلك.

وتولى الوزارة بعده: عيسى بن فرخانشاه. ولم يمكث إلا قليلاً حتى عزل بسبب فتنة كالأولى، فولي بعده أحمد بن إسرائيل الأنباري، وهو كاتب حاذق ذكي، وكان المعتزل يميل إليه؛ لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلي الخلافة، فمكث وزيراً إلى سنة (٢٥٥هـ). ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد في أحوال الدولة، الكيفية التي عزل بها أحمد بن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه.

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له: يا أمير المؤمنين، ليس للأتراك عطاء، ولا في بيت المال مال، وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا، فقال له أحمد بن إسرائيل: يا عاصي يا ابن العاصي، ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشياً عليه من شدة الغيظ والحر، فرشّ على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب، فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على

المعتز، فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم، فقيَّدهم وطالبهم بالمال، فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: هب لي أحمد فإنه كاتبي وقد رباني، فلم يفعل ذلك صالح، وبعثت إليه أم المعتز في ابن إسرائيل تقول له: إما حملته إلى المعتز، وإما ركبت إليك فيه. فلم يفد هذا ولا ذاك شيئاً. وهذا دليلٌ على انحطاط عظيم في أمر الخلافة، وزاد صالح الأمر شنعة، فبعث إلى جعفر بن محمود الإسكافي الذي كره المعتز أن يعمل له، وولاه الوزارة رغم أنفه.

وإسكاف الذي ينتمي إليها جعفر بن محمود، قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، وهي إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضاً.

●● العلويون في عهد المعتز:

في عهد المعتز مات علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا، وهو الإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامية، فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكري، وهو الحادي عشر من أئمتهم، وإنَّما لُقب بالعسكري؛ لإقامته بسامرا التي كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر.

أمَّا الزيدية، فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد ـ كما تقدَّم ـ . وقد اتهم جماعة من الطالبيين في بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد، ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن، فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوه إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنَّما توثق منهم.

●● حال الجيش والأتراك:

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر ما يكون، فهم أصحاب السلطان والنفوذ، وهم فيما بينهم مختلفون؛ لأنه لا يد فوق تقف كلاً منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمال الحيلة والدسائس حيناً. وهكذا يفعل كل من سُلب سلطان ولا قدرة على استرداده.

في أول خلافة المعتز، كتب بإسقاط اسم وصيف وبغا ـ وهم أكبر قواد الأتراك ـ؛ لِمَا كان من مساعدتهما المستعين، وكان هذا الكتاب مرسلاً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد، فبلغ ذلك وصيفاً وبغا، فجاءا إلى محمد وقالا: بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا، والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه، والله لو أرادوا أن يقتلونا

ما قدروا، فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك، فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما، ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسألوه الأمر بإحضارهما وقالوا: هما كبيرانا ورئيسانا. فكتب إليهما بالرضا عنهما، فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل، وردهما المعتز إلى مراتبهما رغم أنفه؛ بقاء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياعهما.

كان من عناصر الجيش المهمة: المغاربة؛ وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك. رأى المغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو، فساءهم ذلك، فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد فيهم، وجاءوا إلى الأتراك وهم بالجوسق من سامرا، فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه، وقالوا لهم: في كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً، وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذي كان وزيراً للمعتز قبل أحمد ابن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه.

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال، أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها، فاجتمع الأتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة، وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية، فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة، فأصلح جعفر بن عبدالواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئاً ويكون في كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر، فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما. والذي تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الأتراك، ولم يفعل المعتز في ذلك شيئاً وعاد النفوذ إلى الأتراك.

وفي سنة (٢٥٣هـ): شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنة وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الشرابي، فكلمهم وصيف وقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: أرزاقنا. فقال: خذوا تراباً وهل عندنا مال؟ وقال لهم بغا: نذهب فنستأمر أمير المؤمنين. ومضى هو وسيما وبقي وصيف في أيديهم، فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور.

ولما علم بذلك المعتز، لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بغا والشرابي. خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك؛ لخوفه أن يجري عليه ما جرى

على سلفه. وكان بايكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا، منحرفاً عن بغا، وكانا متهاجرين، وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا، فجمع بايكباك جموعه. وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد، ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار، وتتبع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا قد صاروا إليها هرباً، فحبس من ولده وأصحابه نحو (٢٥) شخصاً، وصارت الكلمة العليا في الأتراك وفي الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك.

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات؛ لأمرين:

الأول: بُعد هؤلاء الغلف القلوب عنها.

والثاني: وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها، وهو رجل ذو عزم وأيد، زيادة على ما له في نفس القوم من الهيبة.

ومع ذلك كله، فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في سنة (٢٥٢هـ)، وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند بغداد، وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد، ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر، فلما قُرِئَ الكتاب على القواد، جاءوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر، فأحضر والي البريد وقال له: ما حملك على هذا بغير علمي، وتهدده على ذلك. ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد. إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم، وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم. أعطاهم ابن طاهر ما سكتهم به وقتاً، ثم اجتمعوا في (١١) رمضان سنة (٢٥٢هـ)، ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما، وبنوا بيوتاً من بواري القصب. وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز، فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين، والراجل ديناراً، وشحن داره بالرجال.

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له: عبدان بن الموفق، وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات، وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفيئاتهم وضمن لهم أن يكون رأساً يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى المجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز، فذهبوا إلى

الإمام وحظروا عليه ذلك، فتعلل بالمرض، ولم يذهب إلى الجامع.

وجه إليهم ابن طاهر قواده في جماعة من الفرسان، فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبين قواد ابن طاهر، ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤوسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق، وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن.

وفي (١٤) ذي القعدة سنة (٢٥٣هـ): توفي الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد، واستخلف على إمارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهذه نسخة وصيته:

«أما بعد، فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه أثري، وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك واتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله». وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة (٢٥٣هـ)، وقد أقرَّه المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله إلى سنة (٣٠٠هـ)، وهي سنة وفاته.

●● خاتمة المستعين سلف المعتز:

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطاً عند خلعه، منها تأمينه على حياته، وقد أكدوا في هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة، فقيل له: إن البصرة وبية فكيف اخترت أن تنزلها؟ فقال المستعين: هي أوبأ أو أترك الخلافة؟ فأشخص المستعين مع محمد ابن مظفر بن سيسل وابن أبي حفصة إلى واسط لا إلى البصرة في نحو (٤٠٠) من الفرسان، وقبل أن تنتهي السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين، ولم يبال بكتاب الأمان، فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد بن طولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال، فتسلمه منه سعيد بن صالح، وكان في ذلك ختام حياة المستعين، وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيراً. وأتى المعتز - فيما قيل - برأسه وهو يلعب الشطرنج، فقيل: هذا رأس المخلوع، فقال: ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليهم ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة.

وكما لم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله، كذلك لم يأبه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد

ولا لسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرض الخلافة، فإنه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته، وحبس الثاني وضيق عليه؛ وسبب ذلك، أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره، فبعث ابن فرخانشاه الوزير إليه فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة، وكانت فتنة، فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق وقيّد المؤيد وصيره في حجرة ضيقة، ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة (٧) رجب سنة (٢٥٢هـ).

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع، بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه، فأرسل إلى موسى بن بغا، فسأله، فأنكر، وقال: إنّما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل؛ لأنسهم به يوم كان في الحرب التي كانت. وأما المؤيد، فلا. فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر . وحوّل أبو أحمد إلى الحجرة التي كان فيها المؤيد، ثم نفاه سنة (٢٤٥هـ) إلى واسط، ثم إلى البصرة، ثم رد إلى بغداد وأنزل الجانب الشرقي في قصر دينار بن عبد الله.

●● خلع المعتز:

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبلاً في تاريخ الوزراء، لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه، فذهبت الجنود إلى المعتز، وقالوا له: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف. فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالاً ليعطيهم، فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شيء. ولما وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال، اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز، فساروا إليه لثلاث بقين من رجب، فلم يرعه إلا صياح القوم. وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح، فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز. ثم بعثوا إليه اخرج إلينا. فبعث إليهم إني أخذت الدواء أمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف، فإن كان أمراً لا بد منه، فليدخل إليّ بعضكم فليعلمني، فدخل إليه القوم فجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس، فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه، ثم بعثوا إلى قاضي

القضاة فحضر، وأمر المعتز أن يمضي على كتاب خلع كتب له، فأمضى وشهد عليه الحاضرون. ويُقال: إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البحر فمنعوه حتى مات. وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذي سعى كثيراً للحصول على هذه الخلافة وركب في سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له ما لا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين، وخلع أخاه، ثم قتله، ونفى أخاه الثاني. كل ذلك لتُهَيَّأ له الخلافة، فلم ينل ما أراد؛ بسبب الفساد المستحكم في الدولة، وقال بعض شعراء العصر في ذلك:

عين لا تبخلي بسفح الدموع ... واندبي خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـ ... ـه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه ... خلعته أفدية من مخلوع
قتلوه ظلماً وجوراً فألفو ... ه كريم الأخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد ... ر فتلقاه مظهراً للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشـ ... ـرق إما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السـ ... ـيف فلهفي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكي الأمر والعا ... لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمـ ... ـر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال آخر في قصيدة:

أصبحت مقلتي تسح الدموعا ... إذ رأت سيد الأنام خليعا
لهف نفسي عليه ما كان أملا ... ه وأسراه تابعاً لتبوعا
ألزموه ذنباً على غير جرم ... فثوى فيهم قتيلاً صريعا
وبنو عمه وعم أبيه ... أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يعـ ... ـزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب، وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس، وكذا جماعة من بني أمية، يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم، فلما ركب المعتز بحلية الذهب، اتبعه الناس في فعْل ذلك.

* * *

١٤ ــ المهتدي

هو: محمد بن المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد، وأمه أم ولد رومية، يُقال لها: قرب، ولد سنة (٢١٨هـ)، وبُويع بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة (٢٥٥هـ) ـ (١١) يولية سنة (٨٦٩م)، ولم يزل خليفة إلى أن خُلع في (١٤) رجب سنة (٢٥٦هـ) ـ (١٧) يونية سنة (٨٧٠م)، فكانت مدته (١١) شهراً وأياماً.

•• كيف انتخب؟

لما عزم الأتراك على خلع المعتز، أرسلوا إلى بغداد، فأحضروا محمداً هذا، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها، فأتي به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالي في الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه، فأتي بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل، فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعاً على السرير فقال له محمد: يا أخي، ما هذا الأمر؟ قال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له، فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك، فقال المعتز: لا حاجة لي فيها، ولا يرضوا بي لها. فقال محمد: فأنا في حل من بيعتك. قال: أنت في حل. فلما جعله في حل من بيعته، حوّل وجهه عنه فأُقيم عن حضرته ورده إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا.

•• وزراء المهتدي:

أبقى المهتدي محمود بن جعفر الإسكافي على وزارته مدة قليلة ثم عزله، واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد. وهو من بيت قديم في الكتابة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان. وكان جدّه سعيد في خدمة آل برمك، وكان أبوه وهب في خدمة جعفر بن يحيى البرمكي، ثم تحوّل إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل، وهو القائل فيه: عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه؟ ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده. أما سليمان: فكتب للمأمون وعمره (١٤) سنة، ثم لإيتاخ، ثم لأشناس، وولي الوزارة للمهتدي وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات.

ومن ظريف المدح، ما قاله أبو تمام في سليمان بن وهب:

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الحر ي وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحتري:

كأن آراءه والحزم يتبعها تريه كل خفي وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة في الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم، واستمر وزيراً للمهتدي إلى أن خُلِعَ.

حدّث عبد الله الباقطاني ـ وكان يتقلد ديوان المشرق ـ قال: دخلت مع أبي العباس بن ثوابة إلى المهتدي وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع إليهم في الأعمال، فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العلماء، فأخذ سليمان بيد أبي العباس بن ثوابة ثم قال له: أنت اليوم أَحَدّ ذهناً مني فهلم نتعاون، فدخلا بيتاً ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أُخَر، فكتبا الكتب التي أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما إلى نسخه وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه، ثم وضع سليمان الكتب بين يدي المهتدي، فقال له وقد قرأها: أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت، لولا المعجل والمؤجل؟ وكان سليمان إذا ولى عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجل له مالاً إلى أن يتسلم عمله، فقال له: يا أمير المؤمنين، هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلاً، فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله، وإن كان حقا ـ وقد علمت أن الأصول محفوظة ـ فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال. فقال: إذا كان هكذا، فلا بأس، ثم قال له: اكتب إلى فلان العامل يقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل في يده بباقي ما عليه من المصادرة. فقال أبو العباس بن ثوابة: كلنا يا أمير المؤمنين خدمك وأولياؤك، وكلنا حاطب في حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك، أفنمضي ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق؟ قال: بل قل بالحق يا أحمد. فقال: يا أمير المؤمنين، الملك يقين والمصادرة شك، أفترى أن أزيل اليقين بالشك؟ قال: ، لا. قال: فقد شهدت الرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا؟ فتعجل المصادرة صلحاً، فإذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك، فقال له: صدقت، ولكن كيف الوصول إلى المال؟ فقال له: أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه إلى منزله، فاجعله أحد

عمالك ليصرف هذين الوجهين إلى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود إليك مالك فأمر سليمان بن وهب أن يفعل ذلك.

وقد سقنا هذه الحكاية؛ لنبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدي الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة، وما هذا المعجل والمؤجل الذي لاحظ المهتدي على وزيره؟ أليس هو رشوة؟ ومع ذلك نراه احتج وأقنع خليفته بأنه لا ضرر فيه. وكذلك قول ابن ثوابة، فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق.

●● **صفات المهتدي:**

كان المهتدي من صالح بني العباس، يكره الظلم، ويحب رفعه. وبنى قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرَّم الشراب، ونهى عن القيان، وأظهر العدل. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع، ويؤم بهم. وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به. إلا أن الدولة كانت وصلت إلى الدرجة التي لا يصلحها فيها مثل المهتدي في صلاحه وكثرة عبادته في بدء خلافته. كان موسى بن بغا أميراً على الري وقائداً للجنود التي تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبي، فلما بلغه ما فعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدي، ترك ذلك الثغر وأقبل مريداً سامرا فكتب الخليفة إليه كتباً كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه، فلم يفعل، ثم أرسل إليه في ذلك رسلاً من بني هاشم، فلم يطع. وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى، فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف. قدم موسى سامرا حنقاً على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدي وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم، فقال لموسى: ما تريد ويحك، اتق الله وخفه، فإنك تركب أمراً عظيماً. فردّ عليه موسى خيراً ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق، ألا يمالئ صالحاً عليهم، ففعل، فجددوا له البيعة في (١٢) محرم سنة (٢٥٦هـ). ولثمان بقين من صفر، قُتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة، وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدي بإخفائه فأرادوا خلعه، فانتشر الخبر في العامة، فكتبوا رقاعاً ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات، ونصّ هذه الرقاع:

(بسم الله الرحمن الرحيم، يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤونة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه، وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمدﷺ).

فلما بلغ ذلك الأتراك، خافوا ثورة العامة، فأرسلوا إلى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم و تأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء الدخلاء الذين قد استغرقوا كثيراً من أموال الخراج. وهذه الشكوى كانت في الحقيقة، بدء انقلاب جديد، لو وجدت خليفة قوياً ينتفع بها، لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذي أقطعوا ضياعاً كثيرة لم يلتفتوا إلى إصلاحها، فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج، حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند.

كتب إليهم المهتدي يذكر سروره من طاعتهم، وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم، ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة، وأنه سينظر في أمر الإقطاعات ويسير فيها على ما يحبون. فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون، وهو:

١ ـ أن تُرد الأمور إلى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض.

٢ ـ أن ترد رسومهم إلى ما كان عليه أيام المستعين، وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد.

٣ ـ ألا يدخل مولى في قبالة ولا غيرها.

٤ ـ أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على ما لم يزل.

٥ ـ أن تبطل الإقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء.

وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم، وأنه إن بلغهم أن أحداً اعترض على أمير المؤمنين في شيء من الأمور، أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحاً وياجور وبكالبا وغيرهم.

وهذه المطالب كلها في مصلحة الخلافة. لذلك أجابهم إليها المهتدي موقّعاً بخطه إجابة إلى كل ما سألوا. فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم.

فأعادوا الكتاب يقولون: لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمسة توقيعات بطلباتهم، ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلاً من الموالي، وأن يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال. وكتبوا إلى القواد بمثل ما كتبوا به إلى المهتدي وأخبرهم أنه إن شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤوسهم جيمعاً.

فلما جاء كتابهم المهتدي، كتب لهم بكل ما يريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمسة التي طلبوها. وكذلك كتب لـهم موسى بن بغا. فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات، كان بينهم اختلاف وهرج كثير. فطائفة يقولون: نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفّر علينا أرزاقنا، فإنا قد هلكنا بتأخيرها عنا. وطائفة يقولون: لا نرضى حتى يولي علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحد منا يكون علينا رأساً، ولم يكتبوا للمهتدي جواباً شافياً. فأرسل إليـهم المهتدي يسألهم عن سبب اجتماعهم بـعد أن أُجيبت طلباتهم، فتفرّقوا ثم عادوا إلى الاجتماع.

كانت كل الأحوال فرصاً لخلاص المهتدي مـن سيادة القواد الأتراك، فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤسـاء وباطنه مع الجنود. ويظـهر أنه أراد استعـمال الحيلة في الخـلاص منهم فأنفـذ جنداً لمحاربة خارجـي، وفيه موسى بن بـغا وبايكباك ومـفلح، فكتب المهـتدي إلى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذي مع مـوسى إلى نفسه، وأن يكون هو أمير الجيش، وأن يقتل موسى ومفـلحاً. فلما وصل الكتاب بايكباك، ذهـب إلى موسى وأراه إياه، وقال له: إني لست أفرح بهذا، وإنّما هو تدبير علينا جميعاً، وإذا فُعل بك اليوم شيء، فُعلَ بي غداً مثله، فما ترى؟ قـال: أرى أن تصير إلى سامرا وتظهر له أنك في طاعتـه فإنه يطمئن إليك ثم تدبر في قتله، فـقدر بايكباك فدخل على المهتـدي فأظهر المهتدى الغضب من مـخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه، ولما رأى الجند الذين مـعه، غيبته عنهم جـاشوا وأحاطوا بالجـوسق، فملا رأى المهـتدي ذلك استشار صالح ابن علي بن يعقوب بن المنصور، فـأشار عليه أن يفعل ما فعله المنصور بأبي مسـلم. فأمـر المهتـدي بضرب عنـق بايكبـاك فضُرب عنقـه والأتراك مطيـفون بالجـوسق بسلاحهـم، فلم يرعهم إلا رأس بايكبـاك بين أيديهم. أمر المهـتدي برميها. فـلما رأوها، اضطربوا واستعـدوا للقتال فحاربتهم الفـراغنة والمغاربة والأشروسنة وكثر بـينهم القتل، ثم انفصل الفريقـان وذهب الأتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عـشرة آلاف وخرج المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته، فلما التحم القوم مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى إخوانهـم وبقي في المغاربة والفـراغنة ومن خف من العامـة، فحملت علـيهم الأتراك حملة شديدة، فمروا منهزمين معهم المهتدي والسيف في يده مشهور، وهو يقول: يا معشر الناس، انصـروا خليفـتكم حتى صـار إلى دار محمد بـن يزداد، وفيهـا أحمد بن جـميل صاحب الشرطة، فدخلهـا ووضع سلاحه، فعلم الأتراك خبره، فجاءوا إليـه وقبضوا عليه وحملوه إلى داره مهاناً، وذلك في (١٤) رجب سنة (٢٥٦هـ)، ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه، ثم مات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٥٦هـ).

❊ ❊ ❊

١٥ ـ المعتمد

هو: أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم، وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان. وُلد سنة (٢٣١هـ)، وبُويع له بالخلافة من غير عهد سابق، يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٥٦هـ) ـ (١٩) يونية (٨٧٠م)، ولم يزل خليفة حتى توفي ليلة الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٧٩هـ) ـ (١٥) أكتوبر سنة (٨٩٢م)، فكانت مدته (٢٣) سنة وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس: محمد بن عبد الرحمان المتوفى سنة (٢٧٣هـ)، ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ)، ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ).

وفي إفريقية وصقلية من الأغالبة: محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى سنة (٢٦١هـ)، ثم أخوه إبراهيم المتوفى سنة (٢٨٩هـ).

وفي اليمن من آل زياد بزبيد: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم (٢٤٥ ـ ٢٨٩هـ).

وفي اليمن من آل الحوالي بصنعاء: محمد بن يعفر (٢٥٩ ـ ٢٧٩هـ).

وفي خراسان من آل طاهر: محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ ـ ٢٥٩هـ)، وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان.

ويعاصره في طبرستان: الحسن بن زيد (٢٥٠ ـ ٢٧٠هـ)، ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ ـ ٢٧٩هـ).

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية: الملك بسيل الصقلي (٨٦٧ ـ ٨٨٦م)، ثم لاون السادس الملقب بـ «الفيلسوف» (٨٨٦ ـ ٩١١م).

ويعاصره في فرنسا: شارل الملقب بـ «الأصلع» (٨٤٠ ـ ٨٧٧م)، ثم لويز الثاني الملقب بـ «التمتام» إلى سنة (٨٧٩م)، ثم لويز الثالث إلى سنة (٨٨٢م)، ثم كارلومان إلى سنة (٨٨٤م)، ثم شارل الملقب بـ «الغليظ» إلى سنة (٨٨٧م)، وكان إمبراطور ألمانيا أيضاً ثم أودون الذي توفي سنة (٨٩٨م).

•• الأحوال الداخلية:

كانت نتيجة طلبات الأتراك، أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أميرالمؤمنين، وألا يرأسهم

أحد منهم، لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات، فولاه في صفر سنة (٢٥٧هـ) الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن، ثم ولاه في رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. وفي ربيع الأول سنة (٢٥٨هـ): عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلي لأبي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسّن الأحوال العامة بعض التحسين، وإن كانت أحوال المعتمد نفسه ساءت؛ لأنه لم يترك له شيء من التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة دينار، فلم يجدها، فقال:

أليس من العجائب أن مثلي	يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً	وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرا	ويمنع بعض ما يجبى إليه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلاً صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان. على يديه تمت الحوادث الجسام في عهد المعتمد. وسنقتصها بعد أن نذكر إجمال الوزارة لعهده.

كان الذي يولي الوزراء هو: أبو أحمد الموفق؛ لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم، وما عدا ذلك فهو لأخيه.

كان أول الوزراء: عبيد الله بن يحيى بن خاقان. وقدمنا ذكره؛ إذ كان وزيراً للمتوكل. ولما عُرضت عليه الوزراة، كرهها وتنصل منها، ولكنهم أبوا إلا إياه فرضي بعد ذلك الإباء وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال ضابطاً للأموال ولم يزل وزيراً إلى سنة (٢٦٣هـ)، حيث مات بسقوطه عن دابته في الميدان وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ومشى في جنازته.

استوزر بعد الحسن بن مخلد وكان كاتباً لأبي أحمد الموفق، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وأصله من دير قنى، وكان أحد كتاب الدنيا، قالوا: كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها، فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل في الغد عن أي شيء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور. ولم يمكث في وزارة المعتمد كثيراً، فإن مدته لا تزيد على (١٦) يوماً؛ من (١١) ذي القعدة سنة (٢٦٣هـ) إلى (٢٧) منه؛ وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك، فإنه لم يكن على وفاق معه، فهرب إلى بغداد عقب حضوره.

ولي الوزارة بعده سليمان بن وهب، وهو الذي كان وزيراً للمهتدي ـ وقد قدَّمنا صفته وبيته ـ. وولي عبد الله بن سليمان كتابة أبي أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا.

وفي سنة (٢٦٤هـ) : خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا، حيث يقيم الخليفة، فلما صار بها، غضب عليه المعتمد، وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وإبراهيم، وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد، لثلاث بقين من ذي العقدة، فلما علم بذلك الموفق، شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان، فلما قرب من سامرا، تحوَّل المعتمد إلى الجانب الغربي، فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد، واختلف الرسل بينهما. ولما كان بعد أيام خلون من ذي الحجة، صارالمعتمد إلى حراقة في دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد في زلال، فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد.

وفي ثامن من ذي الحجة، عبر جند أبي أحمد إلى جند المتوكل على وفاق، وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق، وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب في قبض أموالهما وأموال أسبابهما.

ولم يدم رضا أبي أحمد طويلاً عن سليمان بن وهب، فإنه غضب عليه سنة (٢٦٥هـ)، وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحُبسا، وعدة من أسبابهم، في دار أبي أحمد، وانتهبت دور عدة من أسبابه، ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما، خلا أحمد بن سليمان، ثم صُولح سليمان وابنه عبد الله على (٩٠٠٠٠٠) دينار، وصيرا في موضع يصل إليهما من أحبا.

وقد مات سليمان بن وهب في حبس أبي أحمد سنة (٢٧٢هـ).

ولي الوزارة بعده للمعتمد: أبو الصقر إسماعيل بن بلبل ـ وهو عربي منتسب إلى شيبان، ولكن نسبه كان مغموراً ـ . ومن مساورة الظنون للمتهم: أن ابن الرومي الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها:

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمري ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا ... كما برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله، قلت لهم كلاماً، ظنَّ ابن الرومي قد هجاه بذلك باطناً

وأنه عرض بأنه دعي واشتبه على أبي الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومي إلى إفهامه معنى الشعر، فلم يقبل في ذلك قول قائل، وقيل له: يا سبحان الله، انظر إلى البيت الثاني وحسن معناه، فإنه معنى مخترع، ما مدح أحد بمثله قبلك. فلم يصغ وجزم بأن ابن الرومي هجاه، فكان ذلك داعياً إلى أن سلّ ابن الرومي عليه لسانه وهجاه، فأفحش في هجائه. ومما هجاه به، قوله:

مهلاً أبا الصقر فكم طائر	خر صريعاً بعد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفؤها	فصانها الله بتطليق
لا قدست نعمى تسربلتها	كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريماً مطعاماً متجملاً، وبلغ في الوزارة مبلغاً عظيماً، وجمع له السيف والقلم، فنظر في أمر العساكر أيضاً وسُمِّيَ الوزير الشكور.

وفي سنة (٣٧٨هـ): قبض على أبي الصقر وأسبابه، وانتهبت منازلهم، وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب، وولي الوزارة، وكان من كبارالوزراء مشايخ الكتاب، وقد مرَّ ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب.

ومن خدموا في كتابه: الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد. خلع عليه سنة (٢٦٥هـ)، واستعمله الموفق في قواد الجيوش مع الكتابة. ومن أجل ذلك سمي ذا الوزارتين سنة (٢٧٠هـ)، وقبض عليه الموفق سنة (٢٧٢هـ)، وعلى ابنيه أبي عيسى وأبي صالح وعلى أخيه عبدون.

وعلى الجملة، فإنَّ أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا، وقد استوزر بعض من سمعنا من الوزراء أكثر من مرة.

•• العلويون:

في عهد المعتمد على الله، توفي أبو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية. والذين في عمود نسبه إلى علي بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن علي. وكانت وفاة الحسن العسكري سنة (٢٦٠هـ) بسامرا، ودفن بها بجانب أبيه علي الهادي. ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافاً كثيراً وجمهورهم على أن الإمام بعده ابنه محمد العسكري، وهو الثاني عشر من أئمتهم. قالوا: إنه دخل سرداباً في دار أبيه بسامرا وأمه

تنظر إليه، فلم يخرج إليها. وسيظهر فيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً. ويسمونه المنتظر، والقائم، والمهدي. والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب.

ويقول غيرهم: إن الحسن العسكري لم يعقب، وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته، وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي.

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به، بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق، فقد كان له سبعة من الأولاد؛ منهم: عبد الله الأفطح، ومحمد، وموسى، وإسماعيل.

فقال قوم: إن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفطح؛ لأنه أسن أولاد الصادق، وزعم بعضهم أن جعفراً نص على إمامته بعده، ومع ذلك فإنه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوماً، ولم يعقب ولداً ذكراً.

وقال قوم: إنَّ الإمامة من بعده لابنه محمد، ورووا عنه أنه قال: إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم ـ منهم الاثنا عشرية الذين ذكرناهم ـ : إنَّ الإمامة من بعده لابنه موسى، ورووا عنه أنه قال: سابعكم قائمكم، واجتمع عليه جمهور الشيعة، وساقوا الإمامة في أولاده كما بيَّنَّا.

ومنهم من قال: إنَّ الإمام بعد جعفر، ابنه إسماعيل نصا عليه من أبيه جعفر، ثم اختلفوا: فمن قائل: إنه عاش بعد أبيه. ومن قائل: إنه مات في حياة أبيه.

وفائدة النص: بقاء الإمامة في أولاده دون غيره، وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه محمد، ويقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية ـ نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ـ وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثنا عشرية في المبدأ العام للتشيع الإمامي: وهو أنه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله ﷺ، وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي. ويتفقون معهم على: إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق، ومنه يبدئ الاختلاف. فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم، والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل.

ولما كان الإمام هو حجَّة الله على خلقه، وأنه لا بد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها، ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس، قالوا: إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره. وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو

الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه. وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده. وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثنا عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيراً منها عن الناس. ومن أجل ذلك، قيل لهم: الباطنية. ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم إلى بغيتهم. وقد حاول قوم أن يربطوا نِحْلَةَ هؤلاء القوم بالنِّحْلَةِ الديصانية، وهي نحلة تنسب إلى رجل يعرف بـ «ابن ديصان» خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الإسلامي بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة، وكان ظهور مرقيون في السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومي وجاء بعد ابن ديصان «مان». وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة في أصولها؛

فالمرقيونية يقولون: بوجود أصلين قديمين، هما: النور والظلمة. وقالوا: إن هاهنا كوناً ثالثاً هو الحياة وهو عيسى، وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث، وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته، إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث، وأن الصنعة بينة فيه، لا يشكون في ذلك. وزعموا أن من جانب الزهومات والمسكر وصلى لله دهره وصام أبداً، أفلت من حبائل الشيطان. وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور، وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر. والله متنزه عنه.

أمَّا الديصانية الذين جاءوا على أثرهم، فتقول أيضاً بالأصلين: النور والظلمة. وتقول طائفة منهم: إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها، فلما حصل فيها ورام الخروج منها، امتنع ذلك عليه. وقال طائفة: إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختيار. وزعم ابن ديصان: أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد، وزعم بعض الدياصنة أن الظلمة أصل النور، وذكر أن النور حي حساس عالم، وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة، فتكارها. ولهم كتبٌ كثيرة في مذهبهم.

والمانية يقولون أيضاً بالأصلين، النور والظلمة، وهما مبدأ العالم. فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الإله. وزعم أنه أزلي بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان؛ أحدهما الجو. والآخر: الأرض. والأصل الثاني: الظلمة، وله كلام طويل في بدء كون الإنسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثاني الأول، ثم خلاص الثاني من هذه الشباك. وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها، سن لهم عبادات من الصلاة والصوم، وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس، وكان لهم بعد ماني أئمة يدينون بطاعتهم قبل الإسلام وبعد ظهوره. ولهم كتب دينية، كتبها لهم ماني ومن بعده من الأئمة. وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب ماني، وكانوا يعرفون بالزنادقة، وهم الذين تجرد لهم

المهدي وابنه الهادي فقتل منهم عدداً كبيراً. قال ابن النديم في «الفهرست»: قيل: إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك، كانت زنادقة، وقيل في الفضل وأخيه الحسن ابن سهل مثل ذلك، وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقاً، واعترف بذلك، فقتله. قرأت بخط بعض أهل المذهب: أن المأمون كان منهم، وكذب في ذلك، وقيل: كان محمد ابن عبد الملك الزيات زنديقاً. ومن رؤسائهم: يزدان بخت، وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه فقطعه المتوكلون فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن، فقال يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فقال المأمون: أجل.

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية: إن عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين، وادَّعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة، وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي أين أحب في أقرب مدة، و كان يخبر بالأحداث والكائنات في البلدان الشاسعة، وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم. وكان قد انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران في موضع يُعرف بسباط أبي نوح، فبنيت إحداهما مسجداً، والأخرى تمت على خرابها، وصار إلى البصرة فنزل قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب، فكبس هناك فهرب إلى سلمية، ومن هناك ابتدأت الدعوة. ويزعم أصحاب هذا القول: أن عبيد الله المهدي ـ رأس الدولة الفاطمية ـ من نسل هذا الرجل. وأن عبيد الله هو: سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح، وأنه تسمى بعبيد الله لَمَّا ورد مصر.

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع، كُتِب إرضاءً لبني العباس الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل. والحق: أن النِّحْلَةَ سياسية يُقصد منها الوصول إلى هدم دولة بني العباس، إلا أنها شيبت بشيء من التعاليم؛ لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى يفجأ المدعو بالغرض السياسي لأول وهلة. والتعاليم متى كانت سريَّة، حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك في ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها.

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبيرتان، كلتاهما ضد الدولة العباسية؛

إحداهما: منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص، وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ (١٦٠) سنة، موئل الدولة

العباسية ومجمع أسرارها.

الثانية: قوة ذات فوضى وجون ونكوب عن حسن السياسة، ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق، وهي القرامطة. وهذه أولاهما في الظهور، فإنها ظهرت بوادر شرها في عهد المعتمد على الله، والثانية تأخرت عنها. وسنتكلم الآن عن القرامطة.

ظهر في أواخر دولة المعتمد، رجل بسواد الكوفة، قدم إليها من نواحي خوزستان، وكان يُظْهِرُ الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة. فأقام على ذلك مدة وأعلَم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، وكان يزداد في أعين الناس نبلاً بما يُظْهر من الزهد، ثم مرض وكان في القرية رجلٌ يلقبه أهلها بكرمية؛ لحمرة عينيه، وهو بالنبطية أحمر العين، فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به، ولم يزل مقيماً عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة، وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام، واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع، فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل عن ذلك، فعلم بخبر الرجل، فوجه في طلبه. فأخذ وجيء به إليه، فحبسه واشتغل بشربه. رقت إحدى جواري الهيصم للرجل، فأخذت مفتاح الحجرة التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته، ثم أعادت المفتاح إلى مكانه، فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده، وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتتنوا به، وقالوا: رفع ثم ظهر في ناحية أخرى، وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء، فعظم في أعينهم. ومع ذلك، فإنه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل: قرمط.

ثم فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة، والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه، حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلَّت بالأمة الإسلامية، وحتى أُخيفت السبل وقطع الطريق الحاج، مما سنذكره في مواضعه ـ إن شاء الله ـ .

•• دعيّ آل عليّ

لم يكف بني العباس ما أصاب دولتهم من آل علي بن أبي طالب، الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة، فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها، بل قام دعيّ في آل

عليّ لا يُعرف الطالبيون له نسباً ولا رَحماً يدلي بدلوه في الدولة لينال منها حظاً لنفسه، ذلك هو علوي البصرة أو الخبيث صاحب الزنج. زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأصله من عبد القيس من ربيعة، ورد البحرين سنة (٢٤٩هـ)، فادَّعى أنه عباسي، ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون، فوجدت فتنة بين الفريقين. فانتقل عنهم إلى حي من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحري حتى أحلوه من أنفسهم محل النبي وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين؛ منهم: مولى لبني حنظلة أسود يُقال له: سليمان بن جامع وهو قائد جيشه. نبت به البادية لسوء طاعة أهلها، فشخص إلى البصرة فنزل بها في بني ضبيعة فاتبعه بها جماعة، منهم: علي بن أبان المعروف بـ «المهلبي»، وأخواه محمد، والخليل، وغيرهم. وكان قدومه البصرة سنة (٢٥٤هـ)، وعاملها محمد بن رجاء الحضاري، فعلم بهم، فخرجوا من البلد خائفين. وحُبِس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه، منهم: ابن الدعيّ.

مضى الدَّعيّ مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام، فأقام بها حولاً يستميل إليه الناس سراً حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها في رمضان سنة (٢٣٥هـ)، ونزلوا بقصر قريب منها يُعرف بقصر «القرشي»، وهناك خطرت له فكرة غريبة، وهي: الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة، وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه، فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم؟ فأخذ منهم غلاماً اسمه ريحان بن صالح، ووعده أن يكون قائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم، فاجتمع إليه كثير منهم، فخطب فيهم، فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يقدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم.

حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو (١٥٠٠٠) غلام.

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة (٢٥٥هـ)، وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد، وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأموال، ثم حلف لهم على ذلك. وشرع فقود قواده، وقال لهم: كل من أتى برجل فهو مضموم إليه. استمر يعيث في تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر

من الرجال وقد أرسلت إليه جيوش من البصرة فهزمها، ثم اتجه نحو البصرة، فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان، فانتصر عليها، وقتل منها مقتلة عظيمة، وقوي أمره جدا بتلك الواقعة، وحلّ الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدي بالله. أقام الدعيّ بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تُعرف بسبخة أبي قرّة، ثم تحول منها إلى الجانب الغربي من نهر أبي خصيب، وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة في دجلة، وكانت شيئاً كثيراً.

وفي رجب سنة (٢٥٦هـ): أحرق مدينة الأيلة، واستسلم له أهل عبادان؛ خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل الأيلة، فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده، وفرّق فيهم السلاح. ومن هناك سيّر عسكراً إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم بن المدبر عامل الخراج بها، فزاد ذلك أهل البصرة رعباً. أرسل السلطان إلى الدعيّ جنوداً فكان يصيبها أبداً الفشل.

وفي شوال سنة (٢٥٨هـ): أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة، قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثرمبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع، حتى استفحل أمره وعَظُم شره، وخيف على الدولة منه، فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح. فعبأ جنداً كثير العدد، ثم العدة، وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعي، وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواماً. وفي آخر الأمر، أنزل الله نصره على رجال الدولة، وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعيّ، وكان ذلك في أواخر سنة (٢٧٠هـ)، وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأيلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعي وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم، ففعل ذلك، فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التي اختطها الموفق هناك من جميع النواحي، وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً.

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع من رمضان سنة (٢٥٥هـ)، وقُتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة (٢٧٠هـ)، فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه (١٤) سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة (٢٥٦هـ). وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها، لثلاث عشرة

ليلة بقيت من شوال سنة (٢٥٧هـ).

ولم يكن يدري إلا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم، كان الأمر ينتقل من أيدي الأتراك إلى أيدي الزنوج، فتقع الأمة في الشر العظيم والوباء الوبيل؛ لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولاً. فانتصار العباسيين عليهم، خلاصٌ للأمة من شر مستطير.

●● الاضطراب في المشرق:

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان، وكانوا كفاة لما عهد به إليهم موثوقاً بهم في ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية، إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمورالملك والاستبداد على الخلفاء، جعل الطامعين ـ فيما بعد ـ عن دار الخلافة، أشره إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معاكسيها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع.

وجد بالمشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض:

الأولى: القوة الزيدية بطبرستان وجرجان، وقد شرحناها قبل.

الثانية: القوة الصفارية بسجستان. أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان في حداثتهما بعلم الصفر وكانا يظهران الزهد، فصحبا رجلاً من أهالي سجستان وكان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج، اسمه: صالح بن النضر الكناني، فأحبهما وحظي بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه. ولما توفي صالح، ولي مكانه في رياسة المطوعة: درهم بن الحسين، فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح، وكان قائداً لعسكره. وكان درهم غير ضابط لأموره، على عكس ما كان يعقوب. فرأت المطوعة ذلك، فعزلوا درهماً وولوا يعقوب مكانه، فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفراً عظيماً، وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً قبله، ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها. ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم، فرهبه الملوك الذين حوله، منهم: ملك الملتان وملك الرخج ومل الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم، وأذعنوا له. وكان ملكه: هراة وبوشنج سنة (٢٥٣هـ)، وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التـام عن الخلافة العباسية، بل كان يريد أن يكون أميـراً بعهد من خلـيفة بغداد؛ لـيستعين بذلك علـى تأييد مركزه والحـلول محل آل طاهر، فراسل المعتـز وبعث إليه بهدية سنية؛ منها: مـسجد فضة مخلع يصلي فـيه خمسة عشر إنساناً. وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم، على أن يتولى إخراج علي بن الحـسين المتغلب على بلاد فارس. ثم شخص على أثر كتـابه للمعتز إلى كرمان، فنـزل بم وهي الحد الفاصل بين كرمان وسـجستان ثم استولى عـلى كرمان ثم دخل إلى عمل فـارس فخندق علي بن الحسـين على نفسه بشيـراز، وذلك في (١٨) ربيع الآخر سنة (٢٥٥هـ)، وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لأنصرف. فلم يلتـفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب. فحصلت بينهما موقعة في جمادى الأولى سنة (٢٥٥هـ)، انهزم فيها جند شيراز وأسر عليّ ابن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافراً وصلَّى الجمعة بـها ودعا خطيبه للمعتز، ثم دعا بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان.

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث، فـإن كوراً عظيمة أذعنت لسلطانه. وفـي سنـة (٢٥٩هـــ) : في عهد المعتمـد، قصد نيسابور. فلما قرب منهـا، ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين؛ لَمَّا رأوا أنه لا قـبل لهم بمقاومته، وأن قوة الخلافة ضعـفت عن إعانتهم. فلما دخلهـا حبس محمد بن طاهر وآل بيـته. وبهذا انتهت دولتهـم وفض اللواء الذي كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين؛ إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق.

بعد هذا الانتصار الباهر، أرسل يعقوب إلى سامرا وفداً معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى إليه من حال أهل خراسـان، وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعـف عنهم محمد بن طاهر، وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليه، وأنه بسبب ذلك سار إليها، فلما كان على عشرة فراسخ منها، سار إليه أهلها فدفعوها إليه فدخلها.

كان المدبر للدولة في ذلك الوقت: أبو أحمد المـوفق، فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعـقوب على ما فعل، وأنه يـأمره بالانصراف إلى العـمل الذي ولاه إياه، وأنه لم يكن له أن يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين، فليرجع إلى عمله، فإنه إن فعل ذلك، كان من الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين. فـلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير في نفس يعقوب ولا في مركزه القوي؛ لأن المسألة مسألة تنازع في الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة.

وفـي سنـة (٢٦٠هـ) : كانت بين قـوة يعقوب وقـوة الحسن بن زيد المتـغلب على طبرستان، وقـائع انهزم فيها الحسن، ودخـل يعقوب سارية وآمل ظافراً وصـار يتبع الحسن

وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان، فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة، فلم يتخلص مما هو فيه إلا بمشقة شديدة. ولما رأى صعوبة السير إلى الامام، انصرف بجنده. وقد فُقِد منه في هذه الواقعة نحو أربعين ألفاً، وتقرَّب بما فعل إلى سامرا، فبعث يخبر به وذكر أنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين.

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان؛ لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها، فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان، ويقرأ عليهم كتاباً يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان، ويأمرهم بالبراءة منه؛ لإنكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر. وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التي لخليفة المسلمين، ولكنهم لم يروا لها تأثيراً بإزاء القوة، فعادوا إلى الحيلة خوفاً من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله، فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس والشرطة بمدينة السلام، وذلك إقامة له مقام آل طاهر.

لما نال يعقوب ما طلب، ازداد طمعاً وجرأة، فأرسل يقول: إنه لا يرضيه ما كتب به إليه دون أن يصير إلى باب السلطان، ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلي على بغداد وبلاد العراق، فلما علم المعتمد ذلك، رأى - أو رأى مدبروا أمره -، أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولا سيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا، فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد، ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذي وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بني كوما ودير العاقول، وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولاً لجند يعقوب، ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك، فإن كثيراً من الجند اليعقوبي كرهوا القتال؛ إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجهاً لوجه، فانفصلوا عن الجيش، فانهزم جنده. أما يعقوب، فإنه فارق موضعه على تعبئة ومضى. تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره، فأحضره الخليفة وخلع عليه مرتبته وقرأ على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب، وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً. وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم (١١) رجب سنة (٢٦٢هـ).

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد، وقد ردّ إليه عمله فخلع عليه في الرصافة. أما يعقوب، فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالاً من قِبَله، وكانت له بها وقائع مع رجال الدعيّ صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد.

وفي سنة (٢٦٥هـ): توفي يعقوب بن الليث بالأهواز.

كان هذا الرجل عصاميا نشأ في صناعة الصفر، ثم ما زال يهم بالمعالي فتنقاد له. قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية، حتى أمكنه أن يفعل ما فعل. ولم يؤخذ عليه في تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهي: قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد، وهو في جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل، ويظهر أن هذا الرجل ما كان يظن أنه يلقى حرباً وكان يرى أنه كتبه التي يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجئ إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة، وكانت مدته (١٨) سنة.

بعد موت يعقوب، بايع جنده أخاه عمرو بن الليث، فكان خيراً من أخيه في التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث. وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية، فكان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولاً باسم عمرو بن الليث لتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس، فيتفقدها ويأمر بوزن (٣٠٠) درهم باسم عمرو بن الليث، فتحمل إليهم في صرة فيأخذ الصرة فيقلبها ويقول: الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق، ثم يضعها في خفة تكون لمن يخلع خفه. ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها، فمن أخلّ بإحضار شيء، حرموه رزقه. وفوق ذلك، كان يرضي الخليفة وبطانته بما كان يرسله من الأموال والهدايا والتحف، فجعله الخليفة والياً على ما كان يلي أخوه ، ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد.

ولم يزل أمره على ذلك، حتى تغيّر عليه الخليفة سنة (٢٧٢هـ)، لما كان يبدو له من طموحه إلى ما طمح إليه أخوه، فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهر، وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر، ثم رضي عنه بعد ذلك؛ لما استرضاه بالمال. ولم يزل عمرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيراً لما كان بيد السامانيين من بلاد ما وراء النهر، فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزّه كما سيجيء.

●● السامانيون:

تُنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كسرى هرمز، فهي أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية. كان في عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان. وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لذوي البيوتات، فقربهم ورفع من أقدارهم، وكانت بلاد

ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان، فكان نوح بن أسد في سمرقند، وأحمد بن أسد في فرغانة، ويحيى بن أسد في الشاس وأشروسنة، وإلياس بن أسد في هراة. وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة، مرضي السيرة، لا يأخذ رشوة، ولا أحد من أصحابه. ولما توفي استخلف ابنه نصراً على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقي عاملاً بها إلى آخر أيام الطاهرية. وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصراً فولاه بخارى سنة (٢٦١هـ)، وكان بين هذين الأخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء، حتى إنه في سنة (٢٧٥هـ)، تحارب نصر وإسماعيل، قهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل، فلما رآه ترجّل له وقبّل يديه وردّه من موضعه إلى سمرقند وتصرّف هو على النيابة عنه ببخارى.

وإسماعيل هذا، هو الذي على يده انتهى عز عمرو بن الليث، وورث ما كان بيده من ملك خراسان، وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته، واستمرت دولتهم (١٧٠) سنة وستة أشهر، ثم انتهت على أيدي آل سبكتكين من جهة، والترك الخاقانية من جهة أخرى. وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم:

١ ـ نصر بن أحمد بن سامان .... (٢٦١ ـ ٢٧٩ هـ)
٢ ـ إسماعيل بن أحمد .... (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ)
٣ ـ أحمد بن إسماعيل .... (٢٩٥ ـ ٣٠١ هـ)
٤ ـ نصر بن أحمد .... (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ)
٥ ـ نوح بن نصر .... (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ)
٦ ـ عبد الملك بن نوح .... (٣٤٣ ـ ٣٥٠ هـ)
٧ ـ منصور بن نوح .... (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ)
٨ ـ نوح بن منصور .... (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ)
٩ ـ منصور بن نوح .... (٣٨٧ ـ ٣٨٩ هـ)
١٠ ـ عبد الملك بن نوح .... (٣٨٩ ـ ٣٨٩ هـ)

مما تقدّم يُفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلاً، وإن كان يدعى لهم ببعضها أسماء.

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان، وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر، وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية والعلوية، وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة.

أما بالمغرب، فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر وسور وهي دولة أحمد بن طولون.

●● أحمد بن طولون:

كان طولون مملوكاً تركياً أهداه نوح بن أسد السماني إلى المأمون سنة (٢٠٠هـ)، فكان من عداد الجنود التركية الكفاة. وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة (٢٢٠هـ)، فربي في حلبة أولئك الجنود. وأفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم، وكان ذا خلق قويم، ولما بلغت سنّه العشرين، توفي أبوه طولون، فكان بعده في ضمن جنود بايكباك الذي تقدم ذكره.

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذي يختار أميرها. ففي سنة (٢٥٤هـ)، اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته، فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان. وكان يتقلّد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب بايكباك.

لما توفي المعتز سنة (٢٥٥هـ)،وتولى المهتدي وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهراً لأحمد بن طولون، فإن أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة (٢٥٨هـ)، فاستقل أحمد بمصر ودعى بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر.

وفي سنة (٢٦٢هـ): حصل بينه وبين أبي أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها، فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل، فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة، فسير إليه الموفق جيشاً يقوده موسى بن بغا، فلما بلغ الرقة أقام فيها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم، فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق، وكفى ابن طولون شره.

وفي سنة (٢٦٣هـ): ولى المعتمد أحمد بن طولون طرطوس، ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة.

وفي سنة (٢٦٤هـ): دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذي كانت تلك البلاد له، فاتسع ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته تنتهي إلى نهر الفرات، وبذلك تم التغلب والانفراد عن بني العباس من أقاصي الغرب إلى نهر الفرات. فضاقت مملكة بني العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الري والأهواز.

وكان الموفق في ذلك الوقت مشغولاً بحرب الدعيّ صاحب الزنج، فكان ذلك فرصة

عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوي أمر ملكه. وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور. فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه، وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم، فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك، لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر، ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذي أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير إلى مصر، فلما بارح المعتمد سامرا ووصل إلى عمل الموصل، منعه العامل من المسير، فعاد ثانية إلى سامرا. وبسبب ذلك؛ اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد يبلغه، ففضّل مكرهاً لأن هواه كان مع ابن طولون.

وفي سنة (٢٧٠هـ): توفي أحمد بن طولون، فخلفه في مصر والشام والثغور الشامية، ابنه خمارويه. وقد استمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون إلى سنة (٢٩٢هـ)، وقد ولي من هذا البيت خمسة أمراء، وهم:

١ ـ أحمد بن طولون. .... (٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ)
٢ ـ خمارويه بن أحمد .... (٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ)
٣ ـ أبو العساكر جيش بن خمارويه .... (٢٨٢ ـ ٢٨٣ هـ)
٤ ـ هارون بن خمارويه .... (٢٨٣ ـ ٢٩٢ هـ)
٥ ـ شيبان بن أحمد بن طولون .... (٢٩٢ ـ ٢٩٢ هـ)

●● الحوادث الخارجية:

ترتَّب على الاضطراب الذي قصصنا حديثه في عهد المعتمد، أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت، فيجدون الدفاع عنها ضعيفاً حتى أنهم أخذوا سنة (٢٦٣هـ)، حصن لؤلؤة الذي كان شجى في حلوقهم وغلبوا كثيراً من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلاً إلا بعد أخذ ابن طولون مدينة طرطوس، وعهد إليه حماية الثغور الشامية، فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة (٢٧٠هـ).

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية، فكانت ترد السرايا من تلك الجهة، فتغير على المسلمين، وهم غارون فيأخذون منهم كثيراً من الأسرئ. ولولا جنود المتطوعين، لكانت الحال أسوأ مما حصل.

•• ولاية العهد:

كان أبو أحمد الموفق، ولي العهد بعد المعتمد، وكانت إليه أمور الخلافة فعلاً، فلما توفي سنة (٢٧٨هـ)، جعل ولي العهد المفوض بن المعتمد. ومن بعده أبو العباس بن أحمد ابن الموفق، وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه، فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدماً.

•• صفات المعتمد:

لم يكن للمعتمد نفوذ في إدارة البلاد ولا شيء من سياسة المملكة؛ لأن الأمر كله كان منوطاً بأخيه أبي أحمد، وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب. والغالب عليه، المعاقرة، ومحبة أنواع اللهو والملاهي، لا همَّ له إلا ذلك. و له أحاديث في الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء، استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات.

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه، ثم أتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته، لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٧٩هـ).

❋ ❋ ❋

١٦ ــ المعتضد

هو: أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم، وأمه أم ولد اسمها ضرار، وكان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولي العهد بعد وفاة أبيه، وبعد خلع المفوض بن المعتمد سنة (٢٧٩هـ). وبُويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على الله لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة (٢٧٩هـ) ـ (١٥) أكتوبر سنة (٨٩٢م)، ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ) ـ (١٥) أبريل سنة (٩٠٢م)، فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس: عبد الله بن محمد، الذي توفي سنة (٣٠٠هـ).

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره في دولة إفريقية وصقلية من الأغالبة: إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، الذي توفي سنة (٢٨٩هـ).

وفي مصر من آل طولون: خمارويه بن أحمد، المتوفى سنة (٢٨٢هـ)، ثم جيش ابن

خمارويه المتوفى سنة (٢٣٢هـ)، ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة (٢٩٢هـ).

وفي زبيد من آل زياد: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد، المتوفى سنة (٢٨٩هـ).

وفي صنعاء من آل يعفر: عبد القادر أحمد بن يعفر، المتوفى سنة (٢٧٩هـ)، ثم إبراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى سنة (٢٨٥هـ)، ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع سنة (٢٨٨هـ)، ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية، ثم القرامطة.

وفي طبرستان وجرجان: محمد بن زيد العلوي المقتول سنة (٢٨٧هـ).

وفي خراسان وسجستان: عمرو بن الليث الصفار، الذي أُسِرَ سنة (٢٨٧هـ).

وفي بلاد الروم: لاون السادس، الملقب بـ «الفيلسوف»، المتوفى سنة (٩١١م).

وفي فرنسا: أودون أول ملك من الكاباسيان، المتوفى سنة (٨٩٨م)، ثم شارل الثالث الملقب بـ «الساذج»، المتوفى سنة (٩٢٣م).

●● وزراء الدولة:

أول وزراء المعتضد: عبيد الله بن سليمان بن وهب، واستمر في وزارته حتى مات سنة (٢٨٨هـ)، فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد الله، ومات وهو وزيره.

من المهم أن نذكر هنا ملخصاً لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابئ في كتابه الموسوم بـ «تحفة الأمراء في أخبار الوزراء» لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد.

قال عن عبد الحميد الكاتب: لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد بالله ـ رحمة الله عليه ـ والدنيا منغلقة بالخوارج، والأطماع مستحكمة من جميع الجوانب، والمواد قاصرة والأموال معدومة، وقد استخرج إسماعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة، احتاج في كل يوم إلى ما لا بد منه من النفقات إلى سبعة الاف دينار، وتعذر عليه قيام وجهها. وقال له يوماً وهو في مجلسه من دار المعتضد بالله: يا أبا الفضل، قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة، وبيوت مال فارغة، وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر، وبيننا وبين الافتتاح مدة، ولابد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة، فإن كنت تعرف وجهها، تعينني به، فأحب أن ترشدني إليه فحسن له إطلاق ابني الفرات وأبي الحسن علي وأبي العباس أحمد ابني محمد بن موسى بن الفرات. وكانا محبوسين بعد أن صودر، فحسن الوزير للمعتضد إطلاقهما والاستعانة بهما، ففعل. وحينئذٍ أحضرا أحمد بن محمد الطائي

وضمناه أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها، على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار، وفي كل شهر ستة آلاف دينار، وأخذ خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به في المياومة يومهما وفي المشاهرة غدهما.

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله:

١٠٠٠	دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم.
١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجّاب.
١٥٠٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية.
٦٠٠	دينار أرزاق المماليك المختارين.
٥٠٠	دينار أرزاق الفرسان المميزين.
١١٠	دينار أرزاق سبعة عشر صنفاً من الموسومين بخدمة الدار.
٥٠	دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام، والخلفاء عليهم، ومن يجري مجراهم.
٣٠٠	دينار أثمان إنزال الغلمان المماليك.
٢٥٣ $\frac{1}{3}$	دينار نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان.
١٠٠	دينار ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة و الخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك.
٤	دينار أرزاق السقايين بالقِرَب.
١٦٧	دينار أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك.
١٠٠	دينار أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة.. إلخ.
١٠٠	دينار أرزاق الحرم.
٤٠٠	دينار ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة.
٦٦ $\frac{1}{3}$	دينار ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل.
٣٠	دينار أرزاق المطبخين.
٣٠	دينار أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم.

٦ ١/٣ دينار ثمن الشمع والزيت.

٥ دينار أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج.

٤٤ ١/٣ دينار أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.

٢٣ ١/٣ دينار أرزاق المتطببين وتلاميذتهم مع أثمان الأدوية.

٧٠ دينار أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح.

٦١ ١/٣ دينار أرزاق الملاحين.

٤ دينار ثمن نفط ومشاقة.

١٥ دينار صدقة يومية.

٣٣ ١/٣ دينار جاري أولاد المتوكل.

١٦ ١/٣ دينار جاري ولد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.

١٦ ١/٣ دينار جاري ولد الناصر.

٢٠ دينار أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام.

٣٣ ١/٣ دينار جاري جمهور بني هاشم.

٣٣ دينار رزق الوزير وابنه.

١٥٦ ١/٣ دينار أرزاق أكابر الكتاب وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد.

١٦ ١/٣ دينار رزق القاضي وخليفته وعشرة فقهاء.

٣ ١/٣ دينار خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام.

٥٠ دينار نفقات السجون.

١٠ دينار نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين.

١٥ دينار نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية.

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالي سبعة آلاف دينار، وفي الشهر (٢١٠ ٠٠٠)، وفي السنة (٢ ٥٢٠ ٠٠٠) دينار، وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة في عهد المأمون والمعتصم، ولا غرابة في ذلك، فإن كثيراً من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون، وما بقي لبني العباس لم يعمره العدل والأمن؛ لكثرة الاضطرابات في الجزيرة وبلاد العراق وفارس.

•• اضطرابات الجزيرة:

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بني العباس، لا يقرون بالخضوع لهم، بل كانوا على ما لم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار ربيعة وفي ديار مضر ولاسيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة، فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين، وأكثر هؤلاء العرب جمعاً وخروجاً بنو شيبان من ربيعة.

ففي أول خلافة المعتضد، سار إلى بني شيبان بالموضع الذي يجتمعون فيه من أرض الجزيرة، فلما بلغهم قصده، جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن، فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم غرق في نهر الزاب، مثل من قُتل ثم سار إلى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد إلى بغداد.

وفي سنة (٢٨١هـ) : سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدي حمدان بن حمدون الذي تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية، فلما بلغه مسير المعتضد إليه، ترك في القلعة ابنه وسار عنها، فلما وصلها المعتضد، نازلها يومه. وفي الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان، فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد.

وكان مما يهم المعتضد، خارجيٌّ ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشاري، واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه، فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون، فقال له الحسين: إن أنا جئت به، فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين؛ إحداها: إطلاق أبي. وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي. فأجابه المعتضد إلى ذلك، فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه، وهزمه ثم مازال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد، فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والإحسان إليه، فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

•• القرامطة:

قد ذكرنا فيما مضى، كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع في سواد الكوفة، ويدخل

الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة.

في قريب من الوقت الذي انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة، ظهر بالبحرين رجل يُقال له: أبو سعيد الحسن الجنابي. و«جنابة»: من سواحل فارس، يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال، وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك، نشأ بها أبو سعيد هذا، وكان دقاقاً، فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين، فأقام بها تاجراً وجعل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها، وقوي أمره، فقتل ما حوله من أهل القرى، وفعل ذلك بالقطيف، وأظهر أنه يريد البصرة التي كتب عليها الشقاء، فإنه لم يمض على ما لاقته من السوء على يد دعي العلويين أكثر من (١٥) سنة، فكتب واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر، فأمره المعتضد أن يبني على البصرة سوراً، ففعل. وفي سنة (٢٨٧هـ): أقبل الجنابي بجموعه يريد البصرة، فأرسل إليه المعتضد جيشاً قائده العباس بن عمرو الغنوي، فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما في العسكر وقتل الأسرى، ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى هجر، وانصرف المنهزمون إلى البصرة، فلقيهم الأعراب فأفنوهم: أحدث ذلك بالبصرة قلقاً واضطراباً حتى هَمَّ أهلها بالجلاء عنها، ولكن واليها هدأ بالهم.

أما أمرهم بسواد الكوفة، فإنه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه، أرسل إليهم جيشاً يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي، فظفر بهم وأخذ رئيس لهم يُعرف بأبي الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد: هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ فلا تسأل عما لا يعنيك، وسل عما يخصك. فقال: ما تقول فيما يخصني؟ قال: أقول: إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حيٌّ، فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد الصحابة على ذلك، ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس، ولم يوص إليه، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس، ولم يوص إليه، ولا أدخله فيهم، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة ـ وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ـ؟ فأمر به المعتضد فقتل.

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة؛ سبباً لأن داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة (٢٩١هـ) ابن زكرويه المسمى: يحيى المكنى بأبي القاسم، ولقبوه: الشيخ. زعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه

فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا الشام، وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه.

هذا ما كان منهم في حياة المعتضد. ظهروا بثلاثة مواضع: بالبحرين، والعراق، والشام. وبدأوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله المقدس ـ كما سيأتي بيانه ـ.

وفي تلك الأزمنة، كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وإفريقية، فكانت الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية، حتى لا يكون لبني العباس قِبَل بملافاة شرها. وكذلك كان.

●● أمر المشرق:

اتسع سلطان عمرو بن الليث في أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة (٢٨١هـ). ولما خرج بجيشه منها، خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي، ودعا له على منبر نيسابور، فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانياً. وكان رافع قد هرب إلى طوس، فأرسل إليه عمرو جنداً فلحقوه هناك وقاتلوه، فانهزم إلى خوارزم فتبعوه إليها، وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتاباً بذلك مع رأس رافع، فأرسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الري وهدايا من قبل المعتضد.

لما اتسع لعمرو هذا السلطان، أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد الساماني أميرها، ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية، فأجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية، فكان مبلغ المال الذي وجهه، أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و(١٥٠) دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة.

كانت هذه الولاية سبباً لمصيبة عمرو بن الليث، فإنه خرج ليحوزها ولم يكن إسماعيل بالذي يسلمها إليه، فكتب إليه: إنك قد وليت دنيا عريضة، وإنّما في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك واتركني مقيماً بهذا الثغر، فأبى إجابته إلى ذلك، فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة في عبوره، فقال: لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرتهُ. و لما آيس إسماعيل من انصرافه عنه، جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي، وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ إسماعيل عليه النواحي، فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة، فأبى إسماعيل عليه ذلك، فلم يكن بينهما كبير قتال، حتى هزم عمرو فولّى هارباً ومرّ بأجمة في طريقه. قيل له: إنها أقرب. فقال لعامة من معه: امضوا

في الطريق الواضح. ومضى في نفر يسير، فدخل الأجمة، فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له في نفسه حيلة، ومضى من معه ولم يلووا عليه، وجاء أصحاب إسماعيل، فأخذوه أسيراً وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده، وأن يرسل إلى المعتضد. فاختار أن يوجه إلى المعتضد، فحُبِسَ. وبذلك انتهت أيام عزه، وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو، فقُتِل في أول خلافة المكتفي.

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو، ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان؛ لأنه فهم أن إسماعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر، فخرج من طبرستان مريداً الاستيلاء على خراسان، فلما صار إلى جرجان، كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وتَرْكَ جرجان له، فأبى عليه ذلك ابن زيد. فندب إسماعيل لحربه قائداً في جند، فلقيه على باب جرجان، فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأُسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد. بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين: عمرو بن الليث الصفار، ومحمد بن زيد. ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ.

ولما تم ذلك كله على يد إسماعيل، أرسل إليه المعتضد الخلع بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب مركباً على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف دينار يفرقها في كل جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد ابن عمرو بن الليث. وبذلك صارت القوة في المشرق للأسرة السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الري وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام.

●● أمر المغرب:

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة، وكان خمارويه يتقرَّب إليه كثيراً. فأهدى إليه كثيراً، فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملاً على بغال، وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة، ومعهم حراب فضية وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم، منها: خمسة بذهب والباقي بفضة، و(٣٧) دابة بجلال مشهرة، وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة. ثم أراد أن يتقرَّب إلى الخليفة بالمصاهرة، فعرض أن يزوّج ابنته قطر الندى من علي بن المعتضد، فقال المعتضد: أنا أتزوجها، فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال. ومن ضمن ذلك الجهاز، دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من ذهب. ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار. فانظروا كم يكون بعد هذا؟

ولما تم الجهاز، أمر فبنى لـها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر، فيـما بين مصر وبغداد، وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه، وعلقت فيه الستور وأُعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامـة، فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنـتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة (٢٨٢هـ)، وكان المعتضد ـ إذ ذاك ـ غائباً بالمـوصل، فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه في رابع ربيع الثـاني. ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحـد في دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف، وغـلقت أبواب الدروب التي تلي الشـط ومد على الشوراع النافـذة إلى دجلة شراع، ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس أن يـظهروا في دورهم على الشط، فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المـعتمد، وفيها خدم معهم الشمع فـوقفوا بإزاء دار صاعد التي كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد، فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد.

كان خـمارويه يـلي مصـر وإليه طرطوس والـشام، فكانـت إليه المحـافظة على ثـغر طرطوس وجنوده تقـوم بذلك خير قيام. لم يـزل الحال على ذلك حتى قتل خـمارويه سنة (٢٨٣هـ)، ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسـوس بها ملك أبيه، فاتفق جمع من جنده على الـفتك به، ولكن عرف أمـرهم، فهربوا ووردوا بغداد فـأكرم المعتضـد وفادتهم وبعد ذلـك ثار جماعـة آخرون بجيش فـقتلوه وولوا أخـاه هارون، وكانت هذه المـنازعات الداخلية سبباً لخروج طرطوس من أيدي بني طولون فقد قدم وفد من أهلهـا على المعتضد يطلبون أن يولي عليها والياً من قبله، ففعل.

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتـنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته عـلى مصر والـشام، على أن يحـمل إلى بيت المـال ببغداد كـل سنة (٤٥٠٠٠٠) دينار، ووجهت الخلع والعقد إلى هارون. ومن هذا يتبيَّن أن نفوذ المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل؛ لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم.

●● صفات المعتضد:

كان المعتضد قوى القلب، جريئاً. ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهده أبيه من الهـيبة، وإن كان الأمر في الحـقيقة جل أن يصلح؛ لأن وراءهم عـدواً لاينام يريد إفساد مـلكهم ما أمكنـه ولو أدى ذلك إلى إفساد الـبلاد كلها. وكـان مع شجاعتـه، قليل الرحمة سفَّاكاً للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله.

وله إصلاحات داخلية جليلة، منها: أنه أمر بردّ الفاضل من سهام المواريث على ذوي

الأرحام. وأمـر بإبطال ديوان المـواريث، وكان أصحـاب التركـات يلقون من ذلـك عناء. ومنها: اهـتمامه بكري دجـيل ـ وهو أحد روافد دجلة ـ وقلـع من فوهته صخـراً كان يمنع الماء.

ومن أهم إصلاحه: ما يعرف بالتقويم المعتـضدي، وإنا قائلون كلمة في شرحه معلوم أن دين الإسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهـلة الشهور علامة على عبادات افترضها، منها: صوم رمضان، وحج البيت في ذي الحجة، فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التي تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعـاً إلا قليلاً، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشـمسية والهلالـية، ولكن حصل أن المسلمين اضـطروا ـ فيما بعد ـ لمـراعاة السنة الشمـسية؛ لأن جباية الخـراج، إنّما تكون عند إدراك الثـمار والغلات، وهذه وقتـها واحد فكانوا يفتتحون الخراج في يوم النيروز.

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية (٣٦٠) يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً كاملاً، وكانوا يضيـفون إليهـا خمسـة أيام بين آبان ماه وأذرمـاه وهما الشـهر الثامـن والشهر التـاسع من شهورهم، ويجتمع لهم في كل (١٢٠) سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذي يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد، فألحقـوا الشهر التام بها في كل (١١٦) سنة. وبناء على ذلك، كانوا يؤخرون النـيروز عن وقته شهراً كاملاً كلما مـضت هذه المدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخـراج أيام النيروز. ففي عهد المتوكل، دخل بعض بساتينه فمر بـزرع فرآه أخضر، فقال لعلي بن يحيى المنجـم: إن الزرع اخضر بعد ما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفـتاح الخراج، فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النيروز والزرع لم يدرك بعد؟ فقال له عليّ: ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس ولا النيروز في هذه الأيام في وقته الذي كان في أيامها؛ لأنها كانت تكبس في كل (١٢٠) سنة شهراً، وكان النيروز إذ تقدم شهراً وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا. ، فـلما تقلّد خالد القسري الـعراق، وحضر الوقت الذي تكبس فـيه الفرس، منعها من ذلك، فلما امتنعوا من الكبس تقدّم النيروز تقدما شديدا حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل : فأعمل لهذا عمـلا ترد النيروز فيه إلى وقته الذي كان يقع فيه أيام الفرس، وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب سنة (٢٤٣هـ)، ولكن أمرها لم يتم؛ لقتل المتوكل. فلما ولي المعتضد وأخبر بخبر المتوكل، اهتم بالأمر وحسب المدة التـي تقدمها تاريخ النيروز بسبب إهمـال الكبس، فوجد أنه تأخّر ستين يوماً، فأخر الـنيروز بقدره، فكان في (١١) حزيران، فجعله كـذلك دائماً، لا يتأخر

عنه. وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها، فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر.

قال البيروني في كتابه «الآثار الباقية»: (وهذا - وإن دقق في تحصيله - فلم يعد به النيروز إلى ما كان عليه عند الكبس في دولة الفرس، وذلك أن إهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزجرد بقريب من سبعين سنة؛ لأنهم كانوا قد كبسوا السنة في زمان يزجرد بن سابور بشهرين، أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة وكان النوبة لأبان ماه - كما سنذكر - والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغاً منه إلى مدة طويلة، فإذا أسقط من السنين التي بين يزجرد بن سابور وبين يزجرد بن شهريار (١١٠) سنة، بقي بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق. فإن تواريخ الفرس مضطربة جداً، ويكون حصة هذه السبعين سنة من الأرباع قريباً من (١٧) يوماً، فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر (٧٧) يوماً لا (٦٠) حتى يكون النيروز في (٢٨) حزيران، ولكن المتولي لذلك ظن أن طريقة الفرس في الكبس كانت شبيهة بالتي يسلكها الروم فيه، فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم، والأمر فيه على خلاف ذلك) ا.هـ.

أمَّا مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية: فإنهم - لما رأوا بالحساب - أن كل (٣٢) سنة شمسية تساوي بالتقريب (٣٣) سنة هلالية، كانوا يضيفون على حساب السنة الخراجية كلما مرت (٣٢) سنة. ففي سنة (٢٤١هـ) الخراجية، نسب الخراج إلى سنة (٢٤٢هـ) الهلالية، وأسقطت سنة (٢٤١هـ)؛ لأن الغلة إنَّما أدركت سنة (٢٤٢هـ). ولنضرب لذلك مثلاً يفهم به ما كانوا يعملونه. كان أول المحرم سنة (٢٠٤هـ)، وهو (٤) مايو سنة (٨٢٤م) أول المحرم سنة (٢٤٢)، وهو (١٠) مايو سنة (٨٥٦م)، ومن بين هذين (٣٣) سنة قمرية، و(٣٢) سنة شمسية، فتكون السنة بالحساب الخارجي سنة (٢٤١هـ) فلكي تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحداً حتى يكون سنة (٢٤٢هـ)، ويسقطون من الخراج سنة (٢٤١هـ).

وقد كتب المعتضد بذلك كتاباً أمر فيه أن تكون جباية الخراج في العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجري مجراهما، على الطريق التي رسمها. وإنَّما قيد بالعراق والمشرق؛ لأنَّ الحال في مصر كانت على الكبس القبطي، وفي الشام على الكبس الرومي، وكلاهما لا يتغير به الزمان.

والمعتضد هو الذي ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد، بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها. ولما استدبر أمرها، جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد. وفي ذلك يقول ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء، وهم: الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمعتز، والمهدي، والمعتمد. وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة، وهما: علي بن محمد، والحسن بن علي العسكريان. وبها السرداب التي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر.

●● **وفاة المعتضد:**

تُوفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ)، وكان ولي عهده ابنه المكتفي.

* * *

١٧ ــ المكتفي

هو: علي المكتفي بن المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل، وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك. وُلد سنة (٢٣٦هـ)، وبُويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه، وذلك في (٢٢) ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ) ـ (١٥) أبريل سنة (٩٠٢م)، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في (١٢) ذي القعدة سنة (٢٩٥هـ) ـ (١٣) أغسطس سنة (٩٠٨م)، فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و(١٩) يوماً.

وتولى في عهده على بلاد المغرب الأقصى من الأدارسة: يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت. وكانت ولايته سنة (٢٩٢هـ).

وفي عهده تولى إفريقية من الأغالبة: زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، وهو آخر أمراء هذا البيت. وكانت ولايته سنة (٢٩٠هـ).

وكان أمير مصر على عهده: شيبان بن أحمد بن طولون، وهو آخر الأمراء من هذا البيت.

وكان الأمير على زبيد: من آل زياد بن إبراهيم بن محمد (٢٨٩ ـ ٢٩١هـ)، ثم أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم.

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق: إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ ـ ٢٩٥هـ)، ثم أحمد ابن إسماعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١هـ).

ويعاصره في بلاد الروم: لاون السادس، الملقب بـ «الفيلسوف».

وفي فرنسا: شارل الثالث، الملقب بـ «الساذج».

●● وزراء المكتفي:

لما استخلف المكتفي أبقى في الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب. فدبر الأمور على ما كان في زمن المعتضد واستمر في الوزارة عظيماً مهيباً إلى أن توفي سنة (٢٩١هـ).

فاستوزر المكتفي بعده، العباس بن الحسن.

●● الأحوال في عهده:

انتكست البلاد في عهد المكتفي بعد أن كانت ابتدأت تنتعش في عهد أبي أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد، فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوي النفوذ من الدولة، فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك من غير نظر في ذلك إلى ما تقتضيه مصلحة الأمة.

ومما حصل ـ مما يدل على ذلك ـ: أن بدراً غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ في إقليم فارس، وكان بينه وبين وزير المكتفي القاسم بن عبيد الله مباعدة، فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر، بفارس يأمرهم بالمسير إليه، ومفارقة بدر، ففعلوا. لما رأى ذلك بدر، انصرف إلى واسط. فلما بلغ الخليفة انصرافه، وكّل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحُبِسُوا وأمر بمحو اسمه من التراس والأعلام كلها. وكان عليها (بو النجم مولى المعتضد بالله)، وذلك كله حصل بإغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر.

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة في القبض على بدر، فدعا بأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأمره بالمضي إلى بدر ورفقائه وتطييب نفسه وإعطائه الآمال من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده. فذهب إليه القاضي ودفع إليه الأمان فاستقر الأمر بينهما على أن بدراً يدخل بغداد سامعاً مطيعاً وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لا تحاربوا أحداً وبينما هو يسير في الحراقة؛ إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداج في شذا، فلما قاربه،

تحوَّل إلى الحراقة وطيب نفس بدر، ثم ورد عليه في ذلك الحين أحد غلمان السلطان في طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة في الصافية، فأخرجه إليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله.

وكان بهذا العمل الخزي للقاضي الذي توسط في أمر لم يكن قادراً على تنفيذه. وقد كانت العامة تدرك ما في الإخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء يذم القاضي على فعلته:

قل لقاضي مدينة المنصور	بم أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعهد	وعقد الأيمان في منشور
أين أيمانك التي شهد الله	على أنها يمين فجور
إن كفيك لا تفارق كفيه	إلى أن ترى مليك السرير
يا قليل الحياء يا أكذب الأمة	يا شاهداً شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة	ولا يحسن أمثاله ولاة الجسور
أي أمر ركبت في الجمعة الزهراء	من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت في رمضان	صائماً بعد سجدة التعفير
يا بني يوسف بن يعقوب أضحى	أهل بغداد منكم في غرور
بدد الله شملكم وأراني	ذلكم في حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا	دل من بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فداء لأبي حا	زم المستقيم كل الأمور

والذي هاج الناس من هذا، أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الإسلام أن يكونوا عوناً على الغدر وعدم احترام الأيمان.

كانت تلك الحال سبباً لازدياد أمرالقرامطة واضطرام نيرانهم في الشام والعراق والبحرين وطريق مكة.

لما رأى داعيتهم زكرويه أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم، سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيء وتميم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا. وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها، فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا إلى علي بن أبي طالب فقبلوا منهم ذلك ثم دعوهم إلى رأي القرامطة، فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا في آخر سنة (٢٨٩هـ)، يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ، وزعم لهم أن بالسواد

والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه، فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بناحية الرصافة غربي ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التي كانت في حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف، فهزم القرمطي كل جيش وجهه إليه طغج حتى حصره في مدينة دمشق، فأنفذ إليه المصريون بدراً الكبير غلام أحمد بن طولون، فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريباً من دمشق وقتل في الواقعة يحيى القرمطي ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة، وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ـ كان ذلك كله في سنتي (٢٨٩ و ٢٩٠هـ).

وكان يكثر القتل في كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصلحه والدخول في أمره، وكان لا يترك أحداً حتى صبيان المكاتب. ومن البلدان التي لم يبق بها أحداً سليمة.

توالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد، يشكون مما ألمّ بهم من ذي الشامة، من القتل والسبي وتخريب البلاد، فلم ير بداً من الخروج بنفسه إلى الشام، فتأهّب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الأغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريباً من حلب فكبسهم القرمطي فقتل منهم خلقاً كثيراً، وسلم أبو الأغر. فدخل حلب في ألف رجل فتبعه القرمطي إلى حلب، فحاربه أبو الأغر بمن بقي معه من أهل البلد، فرجع عنهم.

سار المكتفي حتى نزل الرقة وسيّر الجيوش إليه، وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب، فسار محمد حتى صار بينه وبين حماة (١٢) ميلاً، فالتقوا بأصحاب القرمطي فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت، فهزم أصحاب القرمطي وقُتلوا وأُسر من رجالهم بشر كثير. وتفرق الباقون في البوادي وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى القرمطي ما نزل بجنده حمل أخاً له مالاً وتقدم إليه أن يلحق بالبوادي إلى أن يظهر في موضع فيسير إليه وركب هو في ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية حتى انتهى إلى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات، فلما دخلها أنكر زيه وسئل عن أمره فمجمج ثم أقرّ أن ذا الشامة معه، فخرج متولي المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه. فصاروا به إلى المكتفي.

وفي (٢٦) محرم سنة (٢٩١هـ): أدخل الرقة مشهراً ثم حمل إلى بغداد، وعقب ذلك

أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة، وهم نيف وسبعون أسيراً، فأُعدموا كلهم. ونظفت النواحي الشامية من هذه الفرقة المنكرة، إلا أن ذلك لم يكن مبدأً للمذهب القرمطي، فإن والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة، وهو زكرويه رأس الفتنة.

لما بلغه مقتل ذي الشامة، أنفذ رجلاً كان معلماً للقرآن بإحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد، فتسمى نصراً ليعمى أمره، فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام، واستغوى له طوائف من أعراب البادية، فذهب بهم إلى جهات الشام، فأغار على مدينتي بِصْرَى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمنهم. فلما استسلموا، قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم، ثم سار يؤم دمشق، فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع في دمشق؛ لدفاع أهلها عنها. ولما علم الخليفة بفعله نفذ إليه الحسين بن حمدان، فورد دمشق، وقد دخل القرامطة طبرية، فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في برية السماوة، وهم ينتقلون من ماء إلى ماء، فلما أوغلوا انقطع عنهم. أما هم، فأسرعوا إلى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية، فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق في جيش، وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم. ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش إليهم، عمدوا إلى نصر فقتلوه وتقرّبوا برأسه إلى السلطان، وأظهروا الخضوع، فعفا عنهم. أما بقية القرامطة فانحازوا إلى البادية.

ولما بلغ زكرويه كل ذلك، أرسل إليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة، ليغيروا عليها يوم النحر من سنة (٢٩٣هـ)، فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد، وعددهم نحو (٨٠٠) رجل، فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصادف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد، فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القادسية، ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعته، فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما في معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة، ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجوه من مخبئه، فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد لا يبرزونه، والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها، وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث ما فعلوه في سنة (٢٩٤هـ): أنهم أغاروا على قوافل الحج الآيبة من مكة إلى المشرق: خراسان والعراق، فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر، وأخذوا من

الأموال شيئاً عظيماً، وورد خبر ذلك إلى بغداد، فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب إليهم جيشاً عظيماً، ذهب إليهم في جادة مكة، وقاتلهم، فقتل منهم كثيراً وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما في معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام، ثم مات. والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين ابن حمدان فأوقع بهم.

ولنذكر هنا نص كتابين، أحدهما: من ذي الشامة إلى عامل من عماله.

والثاني: من عامل إلى ذي الشامة؛ ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم في دعاويهم التي بها يستحلون سفك دماء الناس والسعي في الأرض بالفساد.

* الكتاب الأول: من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعي إلى كتاب الله الذابّ عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين، وولد خير الوصيين ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين كثيراً، إلى جعفر بن حميد الكردي سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على جدي محمد رسول الله ﷺ . أما بعد، فقد انتهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعبث والفساد في الأرض فأعظمنا ذلك ورأينا أن تنفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذي يسعون في الأرض فساداً وأنفذنا عطيراً داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن في أثرهم. وقد أوعزنا إليهم في المسير إلى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا، ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم فينبغي أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذي لم يزل يعودناه في كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها إن شاء الله. سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على جدي محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلّم كثيراً.

* الكتاب الثاني: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أحمد الإمام المهدي المنصور بالله ـ ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله ـ ثم بعد ذلك عن عامر بن عيسى العنقائي، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد: أطال الله بقاء أمير

المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد في إحسانه إليه وفضله لديه، فقد كان وصل كتاب سيدي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يعلمني فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا المجاهدة أعداء الله بني القصيص والخائن ابن دحيم، وطلبهم حيث كانوا والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرني أدام الله عزه عند نظري في كتابه بالنهوض في كل من قدرت عليه من أصحابي وعشائري للقائهم ومكاتفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمل كل ما يومون إليه ويأمرون به ، وفهمته، ولم يصل إليَّ هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفاً من ناحيةابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور ابن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد عليّ كتاب مسرور بن أحمد في درجة الكتاب الذي اقتصصت ما فيه في صدر كتابي هذا يأمرني فيه بجمع من تهيًّا من أصحابي وعشيرتي والنهوض إلى ما قبله ويحذرني التخلف عنه، وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة في زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا. وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه، ووجهت إلى جميع أصحابي فجمعناهم إلينا ووجهنا العيون إلى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه. ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنِّه وقدرته، ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق في هذه الناحية وإشرافه على بلدنا؛ لما تأخرت في جماعة أصحابي عن النهوض إلى مدينة أفامية لتكون يدي مع أيدي القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وأعلمت سيدي أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ السبب في تخلفي عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه، ثم إن أمرني ـ أدام الله عزه ـ بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذي برأيه وامتثلت ما يأمرني به ـ إن شاء الله ـ أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنَّأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته ـ والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار.

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق، بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم، ولكن قد بقي ذنب الأفعى وهو الجنابي بالبحرين، ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمل، وإنَّما كانت مصائبه ورزاياه في عهد المقتدر. وسنبين ذلك في حينه.

●● خبر المشرق:

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لإسماعيل بن أحمد الساماني، وكان رجلاً عاقلاً

مدبراً ذا عزيمة ثـابتة، لم يزل أمره على ما هـو عليه، والمكتفي راض عنه حتى توفي سنة (٢٩٥هـ)، فولي بعده ابنه أحمد بن إسماعيل وعقد له المكتفي بيده لواء وأرسله إليه.

●● خبر المغرب:

وفي عهـد المكتفي، انقـرضت دولتان؛ إحداهمـا: دولة بني طولون بمصـر على يدي العباسيين، وآخر أمرائها شيبان بن أحـمد بن طولون سنة (٢٩٢هـ). والثانية: دولة الأغالبة بإفريقية، انتهت على يدي أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب.

●● العلاقات مع الروم:

كانت الـعلاقات في أول الأمـر حسنة مع مـلك الروم حتى أنـه تبودلت الهـدايا بين الملكين.

وفي سنة (٢٩٠هـ): وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفي المفاداة بمن في أيدي المسلمـين من الأسرى ومعـهم هدايا، فـأجيبـوا إلى طلبهـم، ولم يتم هذا الفـداء إلا سنة (٢٩٣هـ)، فكان جملة من فودي به من المسلمين نـحو (١٢٠٠)، وكان المتولي للفداء أمير الثغور رستم بن برد، ولم تستمر العلاقات حسنة.

فـفي سنة (٢٩١هـ): سار جيش إسلامي من طرسوس وصمد نحـو أنطاكية ففتحها بالسـيف عنوة، وهي مـن أهم مدن الروم وثغـورهم البحـرية وقد قـتل في فتـحها نـحو (٥٠٠٠) من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك، وأخذوا من الروم ستين مركبـاً فحملت فيها الغـنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقـدر نصيب كل رجل ألف دينار، وغزا من المسلمين أمير الثغر رستم مرتين وبلغ في غزوته الثانية سلندوا ففتحها وصار إلى آلس فأسر من الروم عدداً كبيراً وغزا ابن كيغلغ من طرسوس.

وفي سـنة (٢٩٤هـ): استأمن إلى السلطان بطريق اسـمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور مـن قبل ملك الروم، فأجيب طلـبه وأخرج نحواً من مائتي نـفس من المسلمين كانوا أسرى في حـصنه وكان ملك الروم قد وجه مـن يقبض عليه فأعطـى المسلمين الذين كانوا أسرى في حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنـيه فكبسوا البطريق الموجه إليه للقبض عليه ليلاً وقتلوا من معه خلقاً كثيراً وغنموا ما في معسكرهم.

وكان رستم قد خرج فـي أهل الثغور في جمادى الأولى قاصداً أندرونـقس ليخلصه، فوافى رسـتم قونية بعـقب الواقعة وعـلم البطارقة بمسـير المسلمين إلـيهم فانصـرفوا ووجه

أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا في الحصن، فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليهم منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين وضرب قونية، ثم قفلوا إلى طرسوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى، وقد وصل هذا البطريق إلى بغداد فأُكرم.

وحصل في آخر عهد المكتفي مفاداة ثانية تمت سنة (٢٩٥هـ)، وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء، ثلاثة آلاف نفس.

●● وفاة المكتفي:

توفي المكتفي في (١٢) ذي القعدة سنة (٢٩٥هـ).

* * *

١٨ ـ المقتدر

هو: جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل، وهو أخو المكتفي. وأمه أم ولد اسمها شغب. وُلد سنة (٢٨٢هـ)، وبُويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل في (٢٨) شوال سنة (٣٢٠هـ) ـ (١) نوفمبر سنة (٩٣٢م)، فتكون مدته (٢٤) سنة و(١١) شهراً و(١٦) يوماً.

كان يعاصره في الأندلس: عبد الله بن محمد إلى سنة (٣٠٠هـ)، ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، المتوفى سنة (٣٥٠هـ)، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بين أمية بالأندلس.

ويعاصره بإفريقية: عبيد الله المهدي، أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ).

ويعاصره في بلاد الروم: لاون السادس، ثم أخوه الإسكندر بن بسيل (٩١١ ـ ٩١٢م) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس. وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمني الذي اغتصب الملك سنة (٩١٩م)، ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم. وشارك رومانس في الملك، أبناؤه خريستوف وساطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك (٢٥) سنة إلى سنة (٩٤٤م)، فأغرى قسطنطين السابع ابني رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه في دير حيث مات سنة (٩٤٨م)، وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة (٩٤٥م)، حيث مات مستبداً به إلى سنة

(٩٥٩م) حيث مات مسموماً على ما يقال.

ويعاصره في فرنسا: شارل الثالث، الملقب بـ «الساذج»، ثم روبرت الأول (٩٢٢ ـ ٩٢٣م)، ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ ـ ٩٦٢م).

ويعاصره في خراسان وما وراء النهر: أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني.

●● كيف انتخب؟

لما ثقل المكتفي كان في منصب الوزارة العباس بن الحسين، ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده؛ لأنه لم يكن ولى أحداً العهد في صحته، وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين، وهم: أبو عبد الله محمد بن داوود بن الجراح، وأبو الحسن محمد بن عبد الله، وأبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، وأبو الحسن علي بن عيسى. فاستشار الوزير يوماً محمد بن داوود بن الجراح في ذلك، فأشار بعبد الله بن المعتز، ووصفه بالعقل والأدب والرأي واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات، فقال: هذا شيء ما جرت به عادتي أن أشير فيه وإنما أشاور في العمال لا في الخلفاء. فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال: إن كان رأي الوزير قد استقر على أحد بعينه، فليفعل. فعلم الوزير أنه يعني ابن المعتز؛ لاشتهار خبره فقال: لا أقنع إلا أن تمحضني النصيحة، فقال ابن الفرات: فليتق الله الوزير ولا ينصب إلامن قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام، ويرجو الثواب فيما يفعله، ولا يولي من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا، ومن قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم، فقال الوزير: صدقت ونصحت فبمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد. فقال: ويحك هو صبي. قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفي فإنه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة، فلما مات المكتفي، اختار الوزير جعفراً للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمي ولُقّب المقتدر بالله وسنّه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكأن ذلك لم يرق للناس؛ لصغر سنّ المقتدر، فاجتمع القواد والقضاة والكتّاب مع الوزير العباس بن الحسن، واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم في

ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم و لا حرب، فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داوود بن الجراح وأحمد ابن يعقوب القاضي. ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين. ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم؛ لأنه رأى حاله صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب، فقام عليه الآخرون فقتلوه، قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف في (٢٠) ربيع أول سنة (٢٩٦هـ)، وفي غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر. وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة، فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار. فلما هم المقتدر بالانتقال، قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عذراً ونجتهد في دفع ما أصابنا، فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في المساء إلى الدار التي فيها ابن المعتز ويقاتلوه. وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك، فركبوا في السميريات وأصعدوا في المساء، فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم، وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدري لِمَ فعل ذلك.

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال، ركب و معه وزيره الذي اختاره له وهو محمد بن داوود وهربا وغلام له ينادي: يا معشر العامة، ادعوا لخليفتكم السني البربهاري (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد، فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول). سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظنًا منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه، فلم يلحقه منهم أحد. ولما رأوا ذلك، اختفى محمد بن داوود في بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص، فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدولة؛ لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضاً.

وفي ذلك الوقت، خرج المقتدر بالعسكر وقبض على من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز، فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره. ثم عثر على ابن المعتز فأُخذَ وحُبِسَ إلى الليل وعُذِّبَ حتى مات، وأخذ وزيره محمد بن داوود فقُتِل ثم أرسل خلف الحسين بن

حمدان، فلم يُدْرَك، وأخيراً رضي عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضياً عنه.

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها، واشتد الانتكاس في عهد المقتدر، حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام. فإن المقتدر حين ولي كان شاباً غراً لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً، وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجري من الشؤون وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة. والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر في صلاح ولم يعد بيده شيء. ولنصور لكم الحال تماماً، نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة؟ وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة من يريد أن يحل محلهم؟

* كان أول وزرائه:

- **أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات.**

استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة (٢٩٦هـ)، فنظر في الأمور نظر جدّ واهتمام، وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال، وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز، فصادر من صادر وقتل من قتل. وكان ممن دخل في هذه الفتنة: أبو عمر محمد بن يوسف القاضي، فأُخذ فيمن أُخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاءً شديداً رقّ له منه وسأله حراسه نفس ولده أبي عمر والتصدق عليه به. فقال الوزير: الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته، فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار، فأدى منها تسعين ألفاً من جملتها (٤٥) ألفاً كانت عنده وديعة لعباس بن الحسين، وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها؛ لئلا يجعل له حديث مجدد.

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، اختلفت عليه الأمور فيها، وحدثت الحوادث، وحضر عيد النحر من سنة (٢٩٨هـ)، فاحتيج فيه من النفقات إلى ما جرت العادة به وكانت المواد قصرت والمؤن قد تضاعفت. وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات هذا العيد، فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته، فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقيعة به.

فركب في يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة إلى دار الخلافة، وهو على غاية

السكون والطمأنينة، وجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان، فقبض عليه وعلى كاتبه، ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفرات، فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر في النهب حتى ركب أبو القاسم في الحال بعد العصر في القواد والغلمان وطلب النهاية وعاقب قوماً منهم، فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني.

- **محمد بن عبيد الله بن خاقان:**

تقلّد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات، وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال.

تولى ابن خاقان، فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه. وحول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض. ولمْ يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار. وكان في ابن خاقان إهمال للأمور واطراح للأعمال وتلون في الأفعال، فكانت الكتب ترد عليه تصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها. وإذا أخرجت إليه جوامعها تركها أياماً فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياماً لا تفض. وإذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه. فقيل: إنه اجتمع في خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماء الكوفة في عشرين يوماً. وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا إليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية.

وكان إذا سئل الحاجة دق صدره بيديه، وقال: نعم، وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدي أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والإطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم، فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في إخلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج إليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء، حتى إذا

انحلّ النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنساً الخادم فيمن يقلده الوزارة، فاستقر الأمر على وزارة:

- **علي بن عيسى:**

وكان بمكة، بعيداً عما يجري ببغداد؛ خوفاً على نفسه. فأنفذ إليه، فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم سنة (٣٠١هـ)، فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام، فسلم إلى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة. ولما نظر علي في الأمور، وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابة في فك وإثبات وتقرير وإيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقاطعات بما مثله يأتي على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل ما رأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وعرضهم الارتفاق وأخذ ما لاح. تأمَّل علي بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت في الدواوين وما لم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ما على الملك وبيت المال من الوهن والنقص بإمضائها، فقال له أحد خلصائه: لا تفعل، فإن الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين إليهم، فاعدل إلى أن تنظر ما قد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته. فإنك تمضي القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس، ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بإمضائها كلها فتقع في الطويل العريض. فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في إسقاط التوقيعات. وقد كان الحواشي سبقوا إليه بالشكوى، فقال له: ارجع إلى الخاقاني وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته. فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقاني وابنه في السجن فأقر الخاقاني بصدور كلها عن إذنه، فقامت قيامة علي بن عيسى من ذلك الجواب، واضطر إلى إمضاء الأكثر، وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقني وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجيء.

كان علي بن عيسى رجلا عاقلاً متدينًا متصوناً متعففاً، عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتهجم ظاهر في أخلاقه. وعمد في نظره إلى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج المضايقة في الجاري والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقاني من الإثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه، واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره

ووقع الشروع في إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجري من ذلك، فبدأ بالاستعفاء، وكان فيما كتب من رقاعه بذلك إلى السيدة أم المقتدر:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها، وأسبغ نِعَمه عليها، وزاد في إحسانه إليها، ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنية وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الأمراء، استودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ما تضمنت. فأما الفتنة التي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت في صدور الأعداء شرقاً وغرباً الهيبة وما أنفقت مع ذلك من مال بيت الخاصة بعد الذي رددته إليه نصف عُشر ما أنفقه محمد بن عبد الله الخاقاني وابن الفرات قبله، وأنا عامل ـ بعون الله ـ على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله في أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفي بالله وكان من النظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات في أيام المعتضد بالله وما أقول قولاً يدفع؛ لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقي بالرعية وعمارتي النواحي المحتلة وإزالتي عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمي بالحجارة على ما قيل لي عند اجتيازهم في دجلة. وأمَّا الاستحقاقات المتأخرة، فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض في وقت من الأوقات قبضاً متصلاً، وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شيء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم. وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة في الاستحقاقات وإنَّما التمسوا الزيادة والنظر والصلة، وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئًا لكان ذلك واجباً

صالحاً ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شيء متأخر ما كان هذا في زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ في ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم عيسى مرة بعد مرة فيه، وأما ما قيل للسيدة ـ أعزها الله ـ في استعفاء فلم أستعف نصاً ولو حملت الرماد على رأسي لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وإني لألزم نفسي الصبر على كل نائبة في خدمة سيدنا أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ وأرى ذلك ديانة ولكني ـ أعز الله السيدة ـ أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدي في النصيحة وتأدية الأمانة، فإن كان ذلك واقعاً موقعه فهو الذي أقصد وإن كان يظن بي غير ما أنا عليه فهي المصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعني وما يحل لي أن أؤخر الصدق في جميع الأحوال قاضياً بذلك حق الله عز وجل، وحق سيدنا أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، وحق السيدة أعزها الله، وأسأل الله أولاً وآخراً أن يصلح لهما أمورهما ظاهراً وباطناً صغيرها وكبيرها، ويكفيهما المهم، ويسهل الصلاح بهما، وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه.

وإنّما كتبنا هذا الكتاب بطوله؛ ليتبيّن كيف كان تداخل النساء في سياسة المملكة. إن علي بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر، وقد كان مما فعله في وزارته هذه، أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدي ونهر السدرة، وكان يعترض في هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار، والضياع الموروثة بالسواد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور، فقبل رأيه ونصب علي بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سمّاه ديوان البر. ولما كان بمكة، وجد الماء ضيقاً على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عدداً كبيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئراً عظيمة، فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية. وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة.

ومع كل ما أجراه من الإصلاح، فإن حكومة النساء لم تتركه هادئ البال. قرب عيد الأضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرم، فجاءته أم موسى القهرمانة في آخر ذي القعدة مخاطبة في ذلك ومقررة للأمر فيه، وكان محتجباً فلم يأذن لها حاجبه، واعتذر لها عذراً لطيفاً وصرفها صرفاً جميلاً فغضبت وانصرفت. وأعلم علي بن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه في يوم الإثنين ثامن ذي

الحجة سنة (٣٠٤هـ)، فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر وثمانية وعشرون يوماً.

وفي يوم القبض عليه، أطلق الوزير ابن الفرات وأُعيد من محبسه إلى دست الوزارة وردّ عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والأموال، فارتجع ماكان حصل في أيدي الناس القواد وخواص الدولة من ذلك، وكان قد تعهد وهو في السجن أنه متى رد للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماماً وإدراراً وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء (٥٠٠) دينار، فوفّى بما تعهّد به.

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرجه، ضمنه إياها علي بن عيسى. فلما وزر ابن الفرات، كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيراً، فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وكان بواسط قسيم الجوهري يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيماً يفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصراً الحاجب في ذلك وأطمعه في حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعي سوء رأي نصر الحاجب في ابن الفرات، وخوفه منه. وكثرة الوقيعة فيه، وقول الناس: إنه قد قلّد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشايات التي تروج في حكومة النساء، فاتفق الأمر على إصعاد حامد وتوليته الوزارة، فأرسل إليه فحضر. وفي يوم حضوره قُبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة (٣٠٦هـ)، وكانت مدة وزارته هذه الدفعة، سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً.

- **حامد بن العباس:**

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة، فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه إلى الجهل بأمور الوزارة، فأمر بإطلاق علي بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد، فكان يراجعه في الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمر دون حامد، ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما:

هـذا وزير بلا سـواد   وذا سـواد بلا وزيـر

ثم إنّ حامداً أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته علي بن أحمد المادرئي ليصحح عليه الأحوال، فلم يقدر على إثبات الحجة، فانتدب له حامد وسبّه ونال

منه، وقام إليه فلكمه. وكان حامد سفيهاً، فقال له ابن الفرات: أنت على بساط السلطان وفي دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أو غلة تستفضل في كيلها ولا مثل أكار تشتمه. ثم قال لشفيع اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين عني: إنَّ حامداً إنَّما حمله على الدخول في الوزارة وليس من أهلها إنني أوجبت عليه أكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه في مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله في الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ في شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال علي بن عيسى ونصر الحاجب لحامد: قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطاناً لا ينام.

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع علي بن عيسى، شرع في عمل له آخر، فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن في الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول، فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلي بن عيسى يدبر الأمور، وأظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد في الأعمال حتى خافه علي بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر. وكان حامد يخزن الغلال، وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد جنداً لمنعهم فقاتلهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا، وضربوا بالمقارع، وقطعت أيدي من عرف بالفساد ، فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التي لحامد ولأم المقتدر وغيرهما. وبيع ما فيهما، فرخصت الأسعار، وسكن الناس وأفهم علي بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنَّما هو ضمان حامد؛ لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها، فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر علي بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس.

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم، فإن علي ابن عيسى كان يؤخرها، فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين، فزادت عداوة الناس له، وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات، وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد، وليس له من الأمر شيء، غير لبس السواد، وأنف من اطراح علي بن عيسى لجانبه، فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام، فقال حامد: لقد هممت أن أشتري مائة خادم

أسود وأسميهم مفلحاً فحقدها عليه مفلـح وكان خصيصاً بالمقتدر، فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الـفرات للحسن بالـوزارة وضمن أموالاً جليلـة وكتب على يده رقعـة يقول: إن تسلم الوزيـر وعلي بن عيسى وابـن الحواري وشفيعـاً اللؤلؤي ونصراً الحـاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يـستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار، وهذه رشوة عـظيمة لا يُستهان بها، فـأصاب ذلك السـعي وقبض علـى علي بن عيـسى في ربيع الآخـر سنة (٣١١هـ)، وأطلق ابن الفرات وعـهدت إليه وزارته الثالثة وسمـع حامد بالخبر واختفى بـبغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مـكانه الذي اختفـى فيه ومشى إلـى نصر الحاجب وسـأله أن يوصل حاله إلى الخليفة، فدعا نصر مفلحاً، فلما حضر ورأى حامداً، قال: أهلاً بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الـذي سميت كل واحد منهم مفلـحاً؟ ولم يكن لحضوره نتيجـة تفيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحـسن ابنه وكان وقحاً سيء الأدب ذا قسوة شديدة، وكان الناس يسمونه الخـبيث، فعذب حامداً بأنواع العذاب، وأخيراً أنـفذه إلى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم؛ لكثـرة ما نكب الناس وصـادرهم وعذبهم بأنـواع العذاب لاستـخراج أموالهم حـتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤسائها وكتاب دواوينها. وصادف ذلك أن وقع الـشر العظيم من القـرامطة بالحجاج فـتضاعفت المصـائب على أهل بغداد؛ رؤسـائهم تُقتل، وحجـاجهم تُنهب وتمـوت عطشاً، ولا مـدافع ولا محام، فـكثر الإرجاف علـى ابن الفرات. وأخـيراً صدر الأمر بـالقبض علـيه من ثامن ربـيع الأول سنة (٣١٢هـ)، بعد أن استقر فـي هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عـشر يوماً، فقبض عليه، ثم قُبض على ابنه المحسن، وتولى الوزارة:

● **عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان:**

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي ألف دينار، فكان ذلك سبباً لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بـأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يبذلهـا فلم يجبهم إلى دينار واحد وقال: لا أجـمع لكم بين نفسي ومالي. واشـتد عليه العذاب بحـيث امتنع عن الطعام والشراب، فلما علم بذلك المقتدر، أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشيـة على قتلهما فـذبحوهما كما تُذبـح الغنم، وكان عمر ابن الفـرات حين قتل (٧١) سنة، وعمر ولده المحسن (٣٣) سنة، وكان ابن الفرات يـقول: إن المقتدر يقتلني. عاد يوماً وهو مفكر كثـير الهمّ، فقيل له في ذلك، فقـال: كنت عند أمير المؤمنين، فما خـاطبته في شيء من الأشيـاء إلا قال لي: نعم. فقلت لـه الشيء وضده، ففي كل ذلك يـقول: نعم. فقيـل له: هذا لحسن ظنه بك وثـقته بما تقول، فـقال: لا والله، ولكنه أذن لكل قـائل وما يؤمنني أن يُقـال له: يقتل الوزير، فيقـول: نعم والله إنه قاتلي. وكان ابن الـفرات كريماً ذا رياسة وكفاية في عمل حسن السؤال والجواب، ولم يكن له إلا ولده المحسن.

لم يكن الوزير الخاقاني بأحسن حظاً من غيره من الوزراء، فقد وجد من يساوم عليه، فرفع إلى المقتدر رقعة من أبي العباس الخصيبي يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال، ثم إن الوزير مرض فوقفت الأموال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا، فأرسل إليه المقتدر في ذلك، فلم يقدر على شيء، فعُزِل في رمضان سنة (٣١٣هـ)، وولي الوزارة.

● **أبو العباس الخصيبي:**

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل، فإنه كان شروباً. فكان يصبح سكراناً لا قصد فيه لعمل و سماع حديث، وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها، فضاعفت الأموال وماتت المصالح، ثم إنه لضَجَرِه وتبرّمه بها وبغيرها من الأشغال، وكّل الأمور لنوابه، وأهمل الاطلاع عليهم، فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم. ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية علي بن عيسى، فقبض عليه في ذي القعدة سنة (٣١٤هـ) بعد وزارة مدتها سنة وشهران، وأخذ ابنه وأصحابه فحُبِسُوا واستدعى علي بن عيسى من مكة، وكان بها مقيماً ليدّبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله ابن محمد الكلوذاني بالنيابة عن علي بن عيسى إلى أن يحضر، فسار علي بن عيسى فحضر بغداد في أول سنة (٣١٥هـ)، وبه صلحت الأموال نوعاً، وكان من أقوم الأسباب في ذلك: أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها علي وأرسل في طلب تلك الأموال، فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء فأدّى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح، ومن أولاد المرتزقة من هو في المهد فإن آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنيين والمساخرة والندماء وغيرهم، وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال في الولايات، واختار الكفاءة. ومع ما أظهره من الهمَّة وظهر على يده من الصلاح، لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر؛ لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد في النفقة ونفقة الخدم والحرم ولاسيما أم المقتدر ، كانت هائلة ، فلابد من الاقتصاد فيها، ولما علموا بذلك، شرعوا يشون به. فلما أحس علي بذلك، استُعْفَى من الوزارة واحتج بالشيخوخة، وقلة النهضة. فأمره المقتدر بالصبر، وقال: أنت عندي بمنزلة والدي المعتضد فألحَّ في ذلك. ومع أن الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام، أبى سوء الحال في تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية، أن ينيله هذه الراحة في خروجه، فأمر المقتدر في منتصف ربيع الأول سنة (٣١٦هـ) بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن

وولي الوزارة.

- **أبو علي بن مقلة:**

وكما كانت لأبي علي يد ماهرة في الكتابة حتى ضرب بها المثل، كانت ماهرة في أخذ الرشاء على التولية والعزل، وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة. فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل، حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس، فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلة في آخر جمادى الأولى سنة (٣١٨هـ)، وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام، واستوزر:

- **سليمان بن الحسن:**

ولما لم يكن المقتدر ميَّالاً لسليمان، وإنَّما رضيه تبعاً لرأي مؤنس، أَمَرَ علي بن عيسى بالاطلاع على الدواوين، وأن لا ينفرد عنه سليمان بشيء، وصُودر ابن مقلة بمائتي ألف دينار.

لم تطل هذ الوزارة كثيراً؛ لأنَّ الأحوال ضاقت على سليمان: كثرت عليه المطالبات، ووقفت وظائف السلطان، واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعادية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك. وكانت وزارته غير متمكنة؛ لأن علي بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور، وأفرد علي بن عيسى بالنظر في المظالم، واستعمل على ديوان السواد غيره، فانقطعت مواد الوزير. فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم، فكان يعطيهم نصف المبلغ. وكذلك إدارات الفقهاء وأرباب البيوت، فكانت أحواله رديئة. وأدَّى ذلك إلى القبض عليه، لثلاث بقين من رجب سنة (٣١٩هـ)، بعد سنة وشهرين. واستوزر:

- **أبو القاسم الكلوذاني:**

ولم تكن وزارته - أيضاً - عن رغبة المقتدر، بل عن رأي مؤنس. وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة؛ وذلك أنه كان ببغداد إنسان يعرف بالدانيالي وكان ذواقاً ذكياً محتالاً وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق، ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة، فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه في كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار، ويقول: إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بني العباس وتستقيم الأمورعلى يديه ويقهر الأعادي وتنغمر الدنيا في أيامه وجعل هذا كله في جملة

كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود، فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له: أتعرف في الكتاب من هو على هذه الصفة، فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم، فقال المقتدر: صدقت وإن قلبي ليميل إليه فإن جاءك رسول برقعة منه فاعرضها عليّ واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً. وذهب الدانيالي إلى الحسين وعرَّفه الخبر، فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص، فعزل الكلوذاني في رمضان سنة (٣١٩هـ)، بعد شهرين وثلاثة أيام. وتولاَّها:

● **الحسين بن القاسم:**

ولما جاء، لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوي التدبير، فضاقت عليه الأحوال وكثرت الإخراجات، فاستسلف جملة وافرة واطلع المقتدر على اضطرابه، فعزله في ربيع الآخر سنة (٣٢٠هـ) بعد سبعة أشهر. واستوزر:

● **أبا الفتح الفضل بن حجر:**

وهو آخر وزرائه. تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً، منهم من تقلّد الوزارة مرتين وثلاثاً. وكانت تُنَال بالرشوة. ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية. ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيراً؛ لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار، وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها. فمتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر رشوة، فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني. وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبي الأطراف، حرمة. وليس ذلك كل ما أسقط أمرالدولة في عهد المقتدر، بل أُضيف إلى ذلك: قوة القرامطة، وما كان منهم من الإخلال بالأمن في العراق والحجاز.

●● **أمر القرامطة:**

كان رئيس القرامطة بالبحرين، أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، فقتل سنة (٣٠١هـ) بعد أن استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي. وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها. وأشد غزواته لها، سنة (٣١١هـ)، فإنه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة، ودخلها

وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان، ثم عاد إلى بلده، ومنها توجه إلى طريق الحاج، ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم، فنهبهم واتصل الخبر بباقي الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة، فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، ثم عاد الجنابي إلى هجر وترك الحاج في مواضعهم، فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس، فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر، وكان وصوله في الوقت الذي قتل المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة، وكان ابن الفرات يتَّهم بالتشيع. فذكر بكل قبيح على ألسنتهم.

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج، فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز، فلم يجبه المقتدر، فسار من هجر يريد الحاج، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة، فلمَّا سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر ومعه ألف رجل من بني شيبان، وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر القرمطي جعفراً الشيباني فقاتله جعفر. فبينما هو يقاتله؛ إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه، فانهزم من بين أيديهم فلقي القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا فيقيم في الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، ثم عاد إلى هجر. وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم.

وفي سنة (٣١٥هـ): سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبي الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة. وقد أعدّ له بالكوفة الأنزال له ولعسكره، فسبقه إليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن ـ وكانت شيئاً كثيراً ـ ووصل يوسف بعد أبي طاهر بيوم واحد، فلما وصل، أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر، فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد، فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد. فلما كان الغد، رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم، وقال: إن هؤلاء الكلاب لا بقاء لهم بعد ساعة في يدي. وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاوناً بهم، ثم رحف الناس بعضهم إلى بعض، واستمر القتال إلى غروب الشمس، فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه و معه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم

فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه. وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان. وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار. ولما وصلوها نزلوا غربي الفرات؛ لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة، فجاءوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه، فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار. وعقدوا الجسر وعبر عليه أبو طاهر. ولكنه خلف معظم جيشه في البر الغربي. ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار، خرج نصر الحاجب بجيش جرار، فلحق بمؤنس. فلحق المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل. وكان هذا الجيش مضطرباً في مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده، وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيراً حسناً أن يأخذوا أبا طاهر الذي كان قد عبر وترك جنده. ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشه، ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف بن أبي الساج، ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك؛ أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة في هذه الخرجة (٢٠٠). ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة، قال: لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن (٢٧٠٠)، وجاء إنسان إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره وسأله فاعترف، وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق، وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة في أرضه، وإمامنا المهدي محمد ابن فلان ابن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب، ولسنا كالرافضة والاثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم: إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض، فيقول: قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه. فقال الوزير: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم، فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم! لا أفعل ذلك. فأمر به فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب، فمات بعد ثلاث أيام.

أما أبو طاهر، فإنه سار من الأنبار وعثى في أرض الجزيرة نهباً وقتلاً إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه، فلما تم له ما

أراد من الجزيرة، عاد إلى الكوفة، ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يُعرف بـ «حريث بن مسعود»، واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بـ «عيسى بن موسى»، وكانوا يدعون إلى المهدي. وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد، وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية، فكان أصحابه ينتهبون ويقتلون ويسبون. فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب. وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصري، فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كُتب عليها ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]. فادخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

وفي سنة (٣١٧هـ): فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى، وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام، وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود، وأنفذه إلى هجر. فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم، فقاتلوه وقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام، حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلي هذا الحد، حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك، كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة، ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة. ولما وصله هذا الكتاب، أعاد الحجر الأسود، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فردّه وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم.

---

(١) القصص : ٥.

●● المتغلبون وما كان منهم:

في عهد المقتدر، اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة؛ وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل.

ففي الأندلس: قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمان الناصر، وتَسَمَّى باسم أمير المؤمنين؛ لأنه لم يعد هناك ما يُراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الإسلامية ببغداد؛ لانحطاط شأنها، ولعب الفساد بها، وخيانة الوزراء فيها. وكان عبد الرحمان قد مكَّنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبُعد الصيت حتى رَهِبَتْهُ ملوك الإفرنجة والروم وهادوه، وأرسلوا إليه السفراء. وكذلك فعل هو معهم.

وفي إفريقية: قامت الدولة العلوية ومحت في طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب الأقصى، والأغالبة من إفريقية. وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان. وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر، فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها.

وفي البحرين وما صاقبها: اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد، وكانت العراق دائماً على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة.

وفي خراسان وما وراء النهر: استقر ملك الدولة السامانية، وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر ـ كما سيأتي في تاريخهم ـ.

وفي الموصل: ابتدأت دولة آل حمدان، ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر.

أما ما فعله الروم بثغور المسلمين في هذا العهد: فهو في غاية الشنعة. ففي سنة (٣٠٣هـ)، أغاروا على الثغور الجزرية، وقصدوا حصن منصور وسبُوا من فيه، وجرى على الناس أمر عشيم. ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم؛ لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التي كانت متوالية.

وفي سنة (٣٠٥هـ): وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً كثيراً، وأُدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة، فأجابهما المقتدر إلى طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه. وسير معه جمعاً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقاً واسعة، وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين، وسار مؤنس والرسل، وكان الفداء على يديه.

ولم يدم هـذا الصفـاء طويلاً، بـل عادت الحـروب والغارات مـن الطرفين، وكـانت سجالاً. وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى، يحصل الفداء كالعادة.

وفي سنة (٣١٣هـ): كتب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرهم بحمل الخراج إليه، فإن فعلوا، وإلا قصَدهم فقتل الـرجال وسبى الذرية، وقال: إنني صح عندي ضعف ولاتكم فلم يفعلوا، فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة (٣١٤هـ)، فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيـها ستة عشر يوماً، ولما رأى أهل ملطية ما حـل بقراهم من التخريب، قصدوا بغداد مستغيثين فلم يُغاثوا وعادوا بغير فائدة.

وفي سـنة (٣١٥هـ): خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم فـوقع عليها العدو وأسروا من المسلمين أربعمـائة رجل فقتلوا صبراً. وفيها سار الدمـستق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة دبيل ـ وهي قاعدة أرمينية ـ وكـان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار، فلا يـقوم بين يديها أحد من شـدة النار، فكان ذلك أشد شيء على المسـلمين حتى أصيب الرامي بسهم من سهام المسلمين، فخفت الشدة. وكان الدمستق يجلس على كرسي عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقـتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فـنقبوا فيها نقوباً كثـيرة، ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلهـا قتالاً شديداً حتى أخرجـوهم من المدينة وقتلوا منهم عـشرة آلاف قتيل. وكانت هذه الـسنة، سنة نجاح المسلمين على الروم.

وفـي سنـة (٣١٩هـ) :اشتدت وطأة المسـلمين على الروم وغـزوا بلادهم حتى بـلغوا عامورية وأنقـرة والفضل فى ذلك كله يرجع إلى قـائد عظيم من غلمان المقتـدر اسمه ثمل وكان والى الثـغور فأمكنه بما أوقعـه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يسـتعيد بعض الهـيبة للدولة بعد أن كانت تذهب من صدر الروم بمرة .

وعلى الجملة، فكانت خلافـة المقتدر في جميع أيامها شر أيام علـى الدولة العباسية؛ لأنه حكم فيـها النساء والخدم ويبذر في الأمـوال تبذيراً مفظعاً، وكـان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليـحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منـهم أن يسد حاجته أولاً ثم حاجة من ولاّه، لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظـلم أو عدل؟ وهكذا نهاية الفساد في الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها.

●● قتل المقتدر:

كان في دولة المقـتدر قائدان، هما في أرفـع الدرجات، أولهما: مؤنـس المظفر، وهو القائد العام للجيوش، وعليه المعول في تسييرها، ويليه في المرتبة: محمد بن ياقوت، وكان

بينهما شيء من المنافسة.

ففي سنة (٣١٩هـ): قوي أمر محمد بن ياقوت، وقلد مع الشرطة، الحسبة. وضم إليه رجال، فقوي بهم. فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة، وقال: هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول. فأجابه المقتدر، وصرف محمداً عن الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدها عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن حسبما طلبه مؤنس، وولى بدلهما: إبراهيم بن رائق وأخاه محمداً الحسبة والشرطة. وهذا كان بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس. ومتى وجدت الوحشة، ساءت الظنون وكان للوهم في النفوس أكبر الآثار.

بلغ مؤنساً أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره، فلم يقنع مؤنس بذلك، فبقي الحسين في الوزارة وكتب إلى هارون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغداد، وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه، فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى في التدبير عليه، ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة، فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاماً له إلى المقتدر برسالة، فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه، فأبى فسبّه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره، فلما بلغ مؤنساً الخبر، سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه، وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه، فحصّل من ذلك مال عظيم، وزاد في محل الوزير عند المقتدر، فلقّبه عميد الدولة، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وتمكّن من الوزارة وولى وعزل.

أمّا مؤنس: فإنه استولى على الموصل من يد بني حمدان، واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر؛ لإحسانه إليهم. وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان، فصار معه. فلما اجتمعت إليه العساكر، انحدر إلى بغداد في شوال سنة (٣٢٠هـ)، فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالاً عظيماً، إلا أنه لم يشبعهم وسير العساكر بمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية، فحلّ الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط، فردّه عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه، فرجع إلى قوله وهو كاره، ثم أشار عليه بحضور الحرب، فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء و القرّاء، معهم المصاحف مشهورة، وعليه

البردة والناس حوله، فوقف على تل بعيد من المعركة، فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه، فلما ألحُّوا عليه تقدَّم من موضعه، فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم، فلقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبَّلَ الأرض وقال له: أين تمضي؟ ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور، فأراد الرجوع، فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه. وأخذ جيمع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مرَّ به رجلٌ من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قُتِل (٢٨) سنة، ثم تقدَّم مؤنس وأنفد إلى دارالخليفة من يمنعها من النهب.

* * *

١٩ ـ القاهـــر

هو: أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل، وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول. وبُويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر في (٢٨) شوال سنة (٣٢٠هـ) ـ (١) نوفمبر سنة (٩٣٢م)، ولم يزل خليفة حتى خُلِعَ في (٥) جمادى الأولى سنة (٣٢٢هـ) ـ (٢٣) أبريل سنة (٩٣٤م)، فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام.

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين، هم: معاصرو المقتدر، ما عدا أحمد بن إسماعيل الساماني.

●● كيف انتُخِبَ؟

لما قُتل المقتدر، كان من رأي مؤنس إقامة ولد أبي العباس أحمد، وقال: إنه تربيتي وهو صبي عاقل، وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول. فإذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح في قتل المقتدر عنزان. فاعترض عليه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي، وقال: بعد الكد والتعب، استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يديرونه، فنعود إلى تلك الحال! والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا. وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه. وذكر له محمد بن المعتضد، وهو أخو المكتفي. فأجابه إليه على كره منه، فإنه كان يقول: إني عارف بشرِّه وسوء نيته، ولكنه لا حيلة. فبايعوه واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق، وأخذوا خطه بذلك

واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا علي بن مقلة واستحجب علي بن بليق.

●● الحال في عهد القاهر:

كان القاهر ـ كما قال مؤنس ـ شريراً خبيث النية، فإنه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء، وقد زاد مرضها بقتل ابنها، ولما سمعت أنه بقي مكشوفاً جزعت جزعاً شديداً وامتنعت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك، فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح. أحضرها القاهر عنده وهي على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها، فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال و الجوهر، فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها، فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه، وقالت: لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ولم تعترف بشيء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها حلت أوقافها ووكلت في بيعها فامتنعت من ذلك، وقال: قد وقفتها على أبواب البر والقرَب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفاء والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها، وإنّما أوكل في بيع أملاكي. فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل أوقافها جميعاً ووكل في بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع في التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبناً وخسّة وشراهة نفس.

بعد قتل المقتدر، هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون بن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر، فلما صاروا بواسط، أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار، وعلى أن تطلق له أملاكه. فأُجيب إلى طلبه وظل رفقاؤه سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطردوا عماله فجهز إليهم مؤنس جيشاً أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم. وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت، فتقدّم عند القاهر، وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره، فغلظ ذلك على الوزير مؤنس المظفر، وبليق الحاجب، وابنه؛ لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله، وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يدبّر عليهم، فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه، وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب ، علم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية، فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فكان يكاتب القاهر بجميع الأخبار.

أمّا هؤلاء الخصوم، فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك، ولكنهم لم يبدوا

شيئاً من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه، فرأى الوزير أن يظهروا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة، وأن علي بن بليق صائر إليه ليمنعها منه، فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه. فكتب ابن مقلة إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك؛ لأن الخبر جاء القاهر سرّاً بما دبّر عليه، فاحتاط لنفسه وأنفذ إلى الساجية فأحضرهم وفرّقهم في دهاليز الدار مستخفين، فلما جاء ابن بليق وطلب الإذن، لم يؤذن له وردّ ردّاً قبيحاً من الساجية، فخرج هارباً من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتدّ، وقال: لا بد من المضي إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابني. فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس، فلما حضر، أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك صاحب الشرطة، ثم أرسل إلى مؤنس في داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكِبر، فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه علي وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هارون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة.

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء، وضبطهم بداره، أمر بقتلهم جميعاً، فقُتلُوا. ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم.

ومن الغريب: أن القاهر ـ بعد أن تم له ما أراد ـ أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكري الذي كان من قواد مؤنس فَخَانَهُ.

بقي من أعداء القاهر: الوزير ابن مقلة، فإنه كان مستتراً لم يظهر عليه، وكذلك الحسن ابن هارون، فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة. وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلاً تارة في زي أعمى، وتارة في زي مكد، وتارة في زى امرأة. ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب، فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة، استيقظ مخموراً وطلب باباً يهرب منه فلم يجده، فقبضوا عليه وحبسوه، ثم سَمَلُوا عينيه. وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح، ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة. وأما الجواري والمغنيات فأمر ببيعهن على أنهم سواذج لا يعرفن الغناء، ثم بدا له أن يشتري كل حاذقة في صنعة الغناء، فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان، وكان القاهر مشتهراً بالغناء والسماع، فجعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصا ـ نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي لا يرضاها العامة من الناس ـ.

❊ ❊ ❊

٢٠ ـ الراضي

هو: أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل، وأمه أم ولد اسمها ظلوم. وُلد سنة (٢٩٧هـ)، وبُويع بالخلافة بعد خلع القاهر في (٥) جمادى الأولى، سنة (٣٢٢هـ) ـ (٢٣) أبريل سنة (٩٣٤م)، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في منتصف ربيع الأول سنة (٣٢٩هـ) ـ (٨) ديسمبر سنة (٩٤٠م)، فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

•• كيف انتُخِبَ؟

لما قُبض على القاهر، سأل القواد الخدم عن المكان الذي فيه أبو العباس بن المقتدر، فدلوهم عليه، وكان هو ووالدته محبوسين، فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلَّمُوا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى، ولقَّبوه الراضي، وبايعه القوَّاد.

•• الحال في عهده:

كانت الحال تزيد إدباراً وانتكاساً واضطراباً في عهده، فأصحاب السلطان في العراق يتنافسون ويقتتلون، والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدُّون ويجتهدون.

فدولة الأندلس: زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمان الناصر، الذي أعلن في بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك، وإنَّما كانوا يسمون بالأئمة.

والدولة العبيدية: في المغرب والمهدية، قد اشتدت وطأتها وهي آخذة في العلو وتحاول الاستيلاء على مصر.

وبنو بُوَيْه: ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز.

والروم: انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الإسلامية، وغزو الثغور.

وأهل بغداد ـ مع هذا كله ـ: مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما في أيديهم من البلاد العراقية ـ كما ترى ـ.

كانت الكلمة العليا في أول عهد الراضي، لوزيره ابن مقلة، وحاجبه محمد بن

ياقوت؛ فهما اللذان بأيديهما الحل والعقد في البلاد. **في سنة (٢٢٣هـ):** نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم في البلاد بأسرها، وأنه لم يعد بيده شيء، فسعى به إلى الراضي، وأدام السعاية، فبلغ ما أراد. ففي خامس جمادى الأولى ركب القواد إلى دار الخليفة حسب عادتهم، وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه، فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما. وقد مات محمد في الحبس، ثم أُطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه. ظنَّ ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس ابني ياقوت، وأنه لم يعد له منافس في سلطانه، ولكنه غفل عن المظفر الذي أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد، فإن المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه، فكان لذلك يتحيَّن الفرصة للقبض عليه، فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة، فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضي يعلمونه، فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً، فردَّ الاختيار إليهم، فاختاروا للوزارة علي بن عيسى وعرضوها عليه، فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمان، فاستوزره الراضي وسلم إليه ابن مقلة فصادره.

رأى عبد الرحمان أنه لا يمكنه إدارة الحركة؛ لازدياد الفساد، فاستعفى فلم يقبل الراضي منه، وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه عليا على مائة ألف.

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخي، فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد، فازداد عجزاً إلى عجزه، وضاق عليه الأمر. وما زالت الإضافة تزيد وطمع من بين يديه من العاملين فيما عنده من الأموال، وقطع محمد بن رائق والي البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد، وقطع البريدي والي الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها. وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحيَّر أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته، فلما استتر استوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن، فكان في الوزارة كأبي جعفر في وقوف الحال وقلة المال.

ولما رأى الراضي ذلك، اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق، وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد، فحضر مسرعاً فقلَّده الراضي لقب أمير الأمراء، وولاَّه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر وأنفذ إليه الخلع، فانتقل السلطان ببغداد، إليه. ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور، وإنَّما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها. وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما

يريدون ويطلقـون للخليفة ما يـريدون، وبطلت بيوت الأموال، وتغلـب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخدمة غير بغداد وأعـمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

كتب ابن رائق كتاباً عن الراضي إلى أبي الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيراً وكان يتـولى الخراج بمصـر والشام، وظنَّ ابـن رائق أنه إذا استـوزره جبى له أمـوال الشام ومصر، فقدم بغداد ونفذت له بالخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد، وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً.

فكَّر ابن رائق فـيما بيـد أبي عبد الله البـريدي من بلاد الأهواز، وأشار عـلى الراضي بالانحدار معه إلى واسط؛ ليقرب من الأهـواز، ويراسل البريدي، فإن أجاب إلى ما يطلب منه، وإلا قرب قـصده عليه فأجـاب الراضي وانحدر معه إلى واسـط ثم تهيأ للمـسير إلى الأهواز. ولما علم بذلك البـريدي جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلثمـائة وستين ألف دينار، يحمل كل شهر قسطه. فأجاب الراضي إلى ذلك، وعاد إلى بغداد ولكن البريدي لم يحمل مما ضمن ولا ديناراً واحداً.

رأى ابن رائق استفـحال قوة البريدي وعدم التـمكن من قهره، ففكر فـي أنه يستوزره فكتب إليـه بذلك، وطلب منه أن يرسل نائبـاً عنه في الوزارة، فأجاب. وأرسـل أحمد بن علي الكوفي نائباً عنه. فسارت أمور البريد ببغداد على ما يروق وضمت البصرة التي كانت في يد ابن رائق إلى أبـي يوسف بن البريدي أخي عـبد الله فصار بيد الـبريدي بين الأهواز والبصرة، وأرسل إلى البصرة جنداً للاستيلاء عليـها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدي حيث رأى الأول أنه زاد البريدي سلطاناً على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئاً ما، ففكر أن يرسل جنداً إلى الأهواز لقتال البريدي، فاختار رجلين لقيـادة الجند، أحدهما بدر الخـرشني، والثاني: بجكم الـديلمي. فسار بجكـم بالجند إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالمة، ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبدالله البريدي، ركب هو وإخوتـه ومن يلزمه، السفن. وأخذ معه مـا يبقى من الأموال و(٣٠٠) درهم، فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الـغواصون، وقد كادوا يغرقون، فركبوا ووصلوا إلى الأبلـة فـأقام بها وكتـب إلى ابن رائق يستعـطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعـيان أهل البصـرة، فلما رأوا ذلك منه، ازدادوا جـدا في مقاومـته، فصاروا كلـما جهز إليـهم جنداً هزموه. ولما رأى ذلك ابن رائـق سار بنفسه إلى واسط وكتب إلـى بجكم وهو في الأهواز مستـول عليها يأمـره باللحاق به فـأتاه فيمن عنـده من الجند فتقـدموا وقاتلوا أهل الـبصرة

فقاومهم مقاومة عنيفة حتى ردّوهم منهزمين ورأى البريدي أنه لا بد له من معين على ابن رائق **وبجكم فسار إلى** عماد الدولة بن بُوَيْه وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه، فسير معه أخاه **معز الدولة، فاستولى** على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه، فسار بجكم **إلى واسط، لم يستمر** الصفاء بين البريدي ومعز الدولة؛ لأن كلا طامعٌ يريد أن يمكر **بالثاني، وكانت نتيجة** المنافسة بينهما، أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على **السوس وجنديسابور** وبقيت الأهواز بيد البريدي، ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم، **ثم عاد فاستولى على** الأهواز وأجلى عنها البريدي إلى البصرة.

أما حال ابن رائق ببغداد، فكانت حال إدبار؛ لأن بجكم منع عنه مال واسط ولم **يرسل إليه شيئاً**. وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد. وكان **يسعى له فيها ابن** مقلة. وقد كلم الخليفة بذلك، فأجاب. وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه **الأمر لبجكم فسار** من واسط نحو بغداد في غرة ذي القعدة سنة (٣٢٦هـ)، ولم يزل حتى **ورد بغداد فقاتلته** الجنود الرائقية، ولكنهم انهزموا عنه. فدخل بجكم بغداد في (١٣) ذي القعدة، **ولقي الراضي** من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء، فكتب إلى جميع القواد الذين **كانوا مع ابن رائق** يطلب إليهم العودة إليه، ومنّاهم. فجاءه أكثرهم، وسقط ابن رائق بعد **إمارة استمرت** سنة واحدة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً واستتر عن العيون.

في أول سنة (٣٢٧هـ): منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل، فسار إليه **الراضي هو وبجكم** فأقام الراضي بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة، فقهره فانتهز **ابن رائق** فرصة غيابهما عن بغداد، فظهر واستولى عليها. ولما بلغ الراضي وبجكم خبره **انزعجا واضطرهما** ذلك إلى الإسراع بمصالحة ناصر الدولة بن حمدان على أن يعجل (٥٠٠) **ألف درهم** وعادا يريدان بغداد، فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك، **وقلّد** طريق الفرات وديار مضر حران والرّها، وما جاورهما، وجند قنسرين والعواصم.

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه، فاتفق مع البريدي أن يسير إلى الأهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل، ولكن علم بجكم أن البريدي يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه في المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلاً من أن يسير إلى بلاد الجبل، **سار إلى واسط** فاستولى عليها وأجلى عنها البريدي.

هكذا كانت مدة الراضي منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن له تكون **إمارة الأمراء** ببغداد، والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة، ولم يعد لها شيء

من الهيبة ولا نفوذ الكلمة.

ومما زاد الأمر إدباراً، ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشى الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا من يمشي مع امرأة أو صبي، سألوه عن الذي هو معه من هو؟ فإن أخبرهم، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأزعجوا بغداد، فركب بدر الخرشني وهو صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري: الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين، فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت. فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم، ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره. فمنه تارة: أنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا ـ تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيراً ـ. ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم ـ مع ذلك ـ تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملنَّ السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم.

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الأمراء إلى عامة الناس، وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا.

●● أمر القرامطة:

لم تزل القرامطة على حالهم في الإفساد والعبث واعتراض الحجاج. وفي سنة (٣٣٢هـ) أرسل محمد بن ياقوت رسولاً إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة ليقره على

ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك من البلدان ويحسن إليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم، وأن يـرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة. فأجاب أبـو طاهر إلى أنه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلـى مكة. وسأل أن تطلق له الميرة من البـصرة ليخطب للخليـفة بهجر. فسـار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعـترضهم القرمطي. ولكنه في سنـة (٣٣٣هـ)، اعترضهم. فخرج جماعة من الـعلويين بالكوفة إلى أبي طاهر فسـألوه أن يكف عن الحاج، فكف عنهـم وشرط عليهم أن يرجعـوا إلى بغداد، فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد. وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

وفي سنة (٣٢٦هـ): أصابهم خلل وفساد في سياستهم؛ وسببه: ما كان من ابن سنبر ـ وهو رجل كان من خـواص أبي سعيد القـرمطي والمطلعين على سره ـ وكـان له عدو من القرامطة يدعى أبا حفص، فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان، وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد مـنك أن تقتل عدوي أبا حفص. فـأجابه إلى ذلك، وعاهده عليـه، وأطلعه على أسرار أبي سعيد وعـلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعـون إليه،فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك، فقال أبو طـاهر: هذا هو الذي ندعو إليه، فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيـقتله وكان إذا كره رجلاً يقول إنه مريض، يعني: إنه قد شك في دينه ويأمر بقتله. وبلغ أبا طاهر أن الأصبـهاني يريد قتله، لينفرد بالملك. فقال لإخوته: لقد أخـطأنا في هذا الرجل وسأكشف حالـه، فقال له: إن لنا مريضاً فـانظر إليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار، فلما رآها قال: إن المريض لا يبرأ. فاقتلوه، فقـالوا له: كذبـت هذه والدتك، ثم قـتلوه بعد أن قـتل منهم خـلق كثيـر من عظمـائهم وشجعانهم. وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

وفي عهد الراضي، ظهرت الدولة الأخشيدية بمصر عـلى يد مؤسسها محمد الأخشيد ابن طغج وهو من موالـي آل طولون، وكان ملكه مصر سنة (٣٢٣هـ)، واسـتمر الملك في عقبه إلى سنة (٣٥٨هـ)، وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر، وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ محمد الأخشيد بن طغج .... (٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ)
٢ ـ أبو القاسم أنوجر بن الأخشيد .... (٣٣٤ ـ ٣٤٦ هـ)
٣ ـ أبو الحسن علي بن الأخشيد .... (٣٤٦ ـ ٣٥٥ هـ)
٤ ـ أبو المسك كافور مولى الأخشيد .... (٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ)
٥ ـ أبو الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد .... (٣٥٧ ـ ٣٥٧ هـ)

وفي عهد الراضي، مات عبيد الله المهدي، أول خلفاء الفاطميين بالمهدية، وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد، وكان ملك مصر فلم يتمكن.

ختم الراضي الخلفاء في أشياء، منها: أنه آخر خليفة دوّن له شعر، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وفي أيامه: حدث اسم أمير الأمراء في بغداد، وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء.

وكان الراضي أديباً له شعر مدوّن، يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم، وكان سمحاً سخيّاً.

توفي الراضي في منتصف ربيع الأول سنة (٣٢٩هـ) ـ (١٨) ديسمبر سنة (٩٤٠م)، كما ذكر ذلك ابن الأثير.

* * *

٢١ ـ المتقي

هو: إبراهيم المتقي لله بن المعتمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل، وأمه أم ولد اسمها خلوب، بُويع بالخلافة في (٢٠) ربيع الأول سنة (٣٢٩هـ) ـ (٤) ديسمبر سنة (٩٤٠م)، ولم يزل خليفة حتى خُلِعَ في (٢٠) صفر سنة (٣٣٣)، (١٢) أكتوبر سنة (٩٤٤م)، فكانت مدته أربع سنوات وإحدى عشر شهراً.

•• كيف انتُخِبَ؟

لما مات الراضي، كان بجكم بواسط، فورد كتابه مع وزيره أبي عبد الله الكوفي يأمره فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضي كل من تقلد بالوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفي واستشارهم فاتفقوا على إبراهيم ابن المقتدر، فبايعوه في التاريخ السابق، ولقب نفسه المتقي لله وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط.

•• الحال في عهده:

كان بجكم أمير الأمراء، والتدبير كله إلى وزيره أبي عبد الله الكوفي، وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شيء، لم يطل زمن بجكم في الإمارة، فإن البريدي كان لا يزال يمني نفسه بالاستيلاء على بغداد، فأنفذ من البصرة جيشاً إلى المذار، فأنفذ إليه بجكم جيشاً يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتتلا وكان النصر أولاً لجيش البريدي، فأرسل توزون إلى بجكم يطلب أن يلحق به، فسار إليه وصادف أن عادت الكرة لتوزون فأرسل إلى بجكم يخبره بالظفر، فأراد الرجوع إلى واسط، فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد، فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الأكراد الذين يسكنون هناك، وكان قتله مفرجاً عن البريدي، ومفيداً للمتقي؛ لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتي دينار. وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر.

لما قُتل بجكم، انحدر الديلم إلى البريدي فقوي بهم وعظمت شوكته، فسار مريداً الاستيلاء على بغداد، ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها في (١٢) رمضان سنة (٣٢٩هـ)، ولقيه الوزير والقضاة والكتّاب وأعيان الناس، فأنفذ إليه المتقي يهنئه بسلامته. ولم يتم له ما أراد من التأمير؛ لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه. ففارق بغداد بعد أن أقام بها (٢٤) يوماً وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمي فسمّاه المتقي أمير الأمراء، وخلع عليه. وكانت مدته مضطربة؛ لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم، فلم ينكر كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقي أن كورتكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهو بالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد؛ ليكون أمير الأمراء، فعاد. أما كورتكين فإنه خرج إليه وقابله بعكبراء فوقعت الحرب بينهما عدة أيام، وفي (٢١) ذي الحجة، سار ابن رائق بجيشه ليلاً، فأصبح ببغداد وقابل المتقي. أما كورتكين، فإنه لما أحسّ في الصباح بمسير ابن رائق، تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق، فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو(٤٠٠)، وحينئذ خلع المتقي على ابن رائق وسماه أمير الأمراء.

تجددت أطماع البريدي، لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق، فأرسل جنداً في الدجلة للاستيلاء على بغداد، ولم ير مقاومة شديدة، فاستولى عليها وهرب المتقي وابنه وابن رائق إلى الموصل. أما أصحاب البريدي، فإنهم فعلوا ببغداد فعالاً قبيحة قتلوا من وجدوه في دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دورالحرم وكثر النهب في بغداد ليلاً ونهاراً، وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة

والشعير وأصناف الحبوب. وكان ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب. وفي آخر شعبان، زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلاً ونهاراً، واستتر أكثر العمال لعظيم ما طُولبوا به مما ليس في السواد.

وعلى الجملة، فإن هذه الفترة ببغداد، لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدَّة.

طلب المتقي من ناصرالدولة بن حمدان، أن يعينه على البريدي، فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته، فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما إلى الموصل. وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق؛ لأنه يريد أن يحل محله في إمرة الأمراء، وقد كان ذلك. فإن المتقي خلع عليه وسماه أمير الأمراء في أول شعبان سنة (٣٣٠هـ)، وخلع على أخيه أبي الحسن علي ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة.

بعد ذلك، تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقي. ولما قارباها هرب عنها أبو الحسين بن البريدي وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة.

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدي، فأقام ناصر الدولة بالمدائن، وسيّر أخاه سيف الدولة لقتال البريدي، فالتقى به تحت المدائن بفرسخين، وكانت مقاومة البريدي شديدة، حتى إنه هزم سيف الدولة ومن معه، فعاد إلى المدائن فقوّاهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط لما في أصحابه من الوهن والجراح، ولما اندملت جراحهم وقووا، سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين إلى البصرة. وأقام سيف الدولة بواسط، وكان يريد المسير إلى البصرة، فلم يمكنه؛ لقلة المال عنده، فكتب إلى أخيه فلم يسعفه. فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة في أخيه ناصر الدولة. وكان القواد الذين معه الأتراك قد قلت عندهم هيبته؛ لقلة المال، فسار بنو بُوَيْه وكبسوه ليلاً فهرب وترك معسكره. ولما علم ناصر الدولة بالخبر، سار عن بغداد إلى الموصل، وترك إمارة الأمراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشرة شهراً وخمسة أيام.

اختار المتقي بعد رحيل ناصر الدولة لإمارة الأمراء، أكبر قواد الديلم، واسمه توزون، ولم يكن عنده شيء من حسن السياسة، فاستوحش منه المتقي وخافه على نفسه فرأى أن يسير إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين، فبارح بغداد إليها، ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت. وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقي معهم إلى نصيبين. ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة

وبين الحمدانيين والمتقي من جهة، على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم وعاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقي بل استمر في الموصل. ثم أرسل إلى توزون يطلب منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة في ذلك وحلف للمتقي أنه لا يغدر به فاغترّ المتقي بتلك اليمين. وسار إلى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الأرض، وقال: ها أنذا قد وفيت بيميني، والطاعة لك، ثم وكل به. وبعد ذلك سمله وخلعه. وبذلك انتهت خلافة المتقي.

* * *

٢٢ ـ المستكفي

هو: أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي بن المعتضد.

لما قبض توزون على المتقي، أحضر المستكفي إليه السندية وبايعه هو وعامة الناس.

●● الخلافة العباسية تحت سلطان آل بُوَيْه:

يبتدئ هذا الدور من سنة (٣٣٤) إلى سنة (٤٤٧هـ)، تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء، وهم: المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق. لذلك أردنا أن نسوق فصلاً نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

بلاد الديلم أو بلاد جيلان، واقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر، سهلها للجبل وجبالها للديلم وصقبتها روزبار.

كانت في القديم إحدى الأيالات الفارسية، إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي، بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم: الديالمة، أو الجيل. ولما أذن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بالانسياح في بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون. واستمر الديلم خاضعين للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم. وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام، وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة.

على هذا، كان الحال في صدر الدولة العباسية، فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين، ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل في بلادهم حتى كانت حادثة إقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك الفظائع التي يقرب بعضها من ثغور طبرستان، وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الأرض التي كانت مرافق لأهل تلك النواحي فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذي قدمنا حديثه في خلافة المستعين، وكان مقيماً بالري، فراسلوه فأقبل إليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر، فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لإساءة كانت من عمال ابن طاهر إليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الري وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة (٢٧١هـ)، ثم ولي أخوه محمد بن زيد. وكانت مدته مضطربة حتى قُتِلَ سنة (٢٨٧هـ)، وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه في تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الإسلامية بينهم.

بعد ذلك دخل بلاد الديلم، الحسن بن علي الملقب بـ «الأطروش»، وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم على العُشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد. وكان لآل سامان بإزائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما، وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن، لما أسلم الديلم والجيل. ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه؛ لإحسان عبد الله ابن محمد بن نوح الذي كان أميراً على تلك الجهات من قِبَل آل سامان، فاتفق أن أحمد الساماني عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام، فلم يحسن سياسة أهلها، فهاج عليه الديلم، فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد الساماني عبد الله بن محمد بن نوح، فصلحت البلاد. ولما مات، جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة، وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه إليهم ابن نوح، فانتهز الحسن بن علي الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه، فأجابوه. وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان، فهزموه واستولوا على طبرستان، وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان، وماكان بن كالي الديلميان، وكانا من عظماء الديلم وقوادهم، استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن علي الأطروش.

وممن عُرف اسمه في تلك الوقائع: الحسن بن القاسم الداعي العلوي وكان ختن الأطروش.

وتوفي الأطروش سنة (٣٠٤هـ)، وكان يلقب بـالناصر لله وكان له من الأولاد الحسن وأبو القـاسم والحسين. وكان الحـسن مغاضبـاً له، فلم يوله شـيئاً، وولّى ابنيـه الآخرين، فكانت طبرستان في أيديهم بمعونة الحسن بن القاسم الداعي.

وفي سنـة (٣٠٩هـ): قتل ليلى بن النعمان أحـد قواد الزيدية وكان يلي بلاد جرجان. وكان أولاد الأطروش يكاتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله ﷺ ليلى بن النعمان، وكان سبب قتله: أنه سـار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستـيلاء عليها وكانت بيد السامـانية فكان في هذه الإغارة حتفـه وانهزام جنوده، ثم تقدمت جنود السـامانية إلى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر. فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل على اسـتراباذ ماكان بن كـالي وهو ثاني القواد المشـهورين من الديلم بعـد ليلى بن النعمـان، فاجتمع إليـه الديلم وقدموه وأمَّرُوه عليـهم، وكان على يديه إعـادة جرجان من الجنود السامانية، فأقام بها.

وكان من أصـحاب ماكان قـائد ديلمي اسمـه أسفار بن شـيرويه، وكان سـيئ الخلق والعشرة، فأخرجه ماكان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فـأكرمه بكر وسيـره إلى جرجان ليأخذهـا من يد أبي الحسن بن كالـي أخي ماكان، وكان أخوه قـد ولاه عليها وذهب إلى طـبرستان. وكان أبـو الحسن قد اعتقـل أبا علي بن الأطروش عنده فتـمكَّن أبو علي من الخلاص من هذا الاعـتقال واغتال أبا الحـسن ماكان، وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بمقتله، ففـرحوا وبايعوا العلوي وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إلـيهم، فسار إلى جرجان وضبطها وجاءه ماكان يحاربه، فـهزمه أسفار وصادف أن مـات أبو علي بن الأطروش وصفت جرجـان لأسفار. وأسفـار هذا هو ثالث قواد الـديلم. ولَمَّا تمكَّنت قدمـه بجرجان، أرسل لمـرداويج بن زيار الجيلي يستدعيه، فحضر عنده وجعله أمير الجـيوش وأحسن إليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليهـا فعلم بذلك الحسن بن الـقاسم الداعي وهو بالري ومعـه ماكان بن كالي فـسار نحو طبرستان، والتقى بأسفار عند سارية، فانهزم الحسن وماكان، ثم أدرك الحسن فقُتل. وبقتله صفت لأسفار طبرستان والري وجرجـان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان، وهوالسعيـد بن نصر الساماني، وأقام بسارية ثم استـولى على قلعة الموت، وهي قلعة على جبل شاهق في حدود الديلم.

عظمـت جيوش أسـفار وجلّ قَدَرَهُ، فـتجبَّر وعـصى على الأمـير السـعيد صـاحب خراسان، وأراد أن يـجعل على رأسه تاجـاً وينصب سرير ذهب للـسلطنة ويحارب خلـيفة

بغداد المقتدر بالله، فسيَّر إليه المقتدر جيشاً فحاربه أسفار وانتصر عليه. ولما علم السعيد بذلك، سار من بخارى حاضرة مُلكه؛ ليحارب أسفار ويأخذ بلاده، فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور، أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه، فراسله في الصلح، واتفقا على شروط؛ منها: حمل الأموال، والخطبه باسمه في بلاده.

وبينما هو في ذروة عزّه، قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران، وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار. ومن حُسْن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملُّوه؛ لجبره وظلمه. فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره، وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قُتِلَ أسفار سنة (٣١٦هـ).

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته. واتسعت رقعة مُلكه وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قوّاده. وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفاً بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجّاب الذين رتبهم لذلك، وخافه الناس خوفاً شديداً. ودخلت في حوزته طبرستان وجرجان، واجتهد ماكان بن كالي أن يدافعه عنهم. واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه، فلم يكفه ما في يده، فذهب إلى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة، وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها، وبلغت عساكره إلى نواحي حلوان، وهي أول حدود العراق.

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز، وأرسل إلى المقتدر رسولاً يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد كلها، فأجابه المقتدر إلى ذلك وقُوطع على مائتي ألف درهم كل سنة.

في سنة (٣٢٠هـ): أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان، يستدعيه إليه، فجاءه واعتز به. والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي يؤكد في كتابه الموسوم بـ «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذي ألَّفه باسم شمس المعالي قابوس بن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين. فأما أحد الأصلين: فوردانشاه الذي لا تجهل سيادته في الجبل. وأما الأصل الآخر: فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوار جرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك إلى ما يجمعهم والأكاسرة في شعب واحد فإن خاله هو الأصفهبذ رستم بن قارن بن شيرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور بن كياس بن قباذ والد أنو شروان.

ولما استقرت قدم مرداويج، قَدِم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ماكان ابن كالي وفارقوه لما ضاقت بهم الحال، وهم: علي، والحسن، وأحمد أولاد بويه. ساروا

إلى مرداويـج ومعهم جـماعة مـن قواد ماكـان. وهؤلاء الثلاثة هـم الذين أسسـوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافـة العباسية. ولما ارتفع شأنهم، ظهر لـهم ذلك النسب العالي. فقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في كتابه الذي سماه بـ«التاج»: أن بُوَيْه ينتهي نسبه إلى بهرام جور الملك. والبيروني ـ السـابق ذكره ـ يرجح أن هذا النسب إنَّما ظهر لهم بعد ثبـوت ملكهم. وإلا فتلك الأمم ليـست معروفة بحـفظ الأنساب ولا مذكورة بتـخليد ذلك، ولا بأنها كانـت تعرف ذلك منهم قبل انتقـال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها إلى قباذ ملك الفرس.

لما ورد أبناء بـويه على مرداويج خـلع على علي والحسن وولى القواد الـذين وصلوا معهما النواحي وولى علي بن بويه بلاد الكرج، وكتب لهم بذلك العهود. فساروا إلى الري وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد. صادف أن كان مع ابن بويـه بغلة شهباء من أحـسن ما يكون، فعرضـها للبيع فبلـغ ثمنها (٢٠٠) دينار، فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها، فلما حمل إلى علي أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقي، ومعه هدية جميلة. فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ندم مرداويج بعد انفصـال هؤلاء القواد على توليتهم، فكتب إلى أخـيه وشمكير وإلى العميد، يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسـير إلى أعمالهم، وإن كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تـصل إلى العميد قبل وشـمكير فيقرؤها ثـم يعرضها على وشمكـير. فلما وقف العميـد على هذا الكتاب، أنفذ إلى علي بن بـويه يأمره بالمسير من ساعـته إلى عمله ويطوي المنازل. فسار من ساعته. ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الري واستـعاد التوقيعات التي كانت معـهم وأراد أن ينفذ خلف علي ابن بويه من يرده، فـقال العميد: إنه لا يرجـع طوعاً، وربما قاتل من يقصـده ويخرج من طاعتنـا، فتركه. وصل علي الـكرج وأحسن إلى الناس ولطف بـعمال البلاد، فكتـبوا إلى مرداويج يشكرونـه ويصفون ضبطه للبـلد وحُسن سياسته، وافـتتح قاعات كانت للـخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة، صرفها جميـعاً إلى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه. ولما كان مرداويج بالري، أطلق مالاً لجماعة من قواده على الكرج، فاستمالهم علي بن بويه ووصلهم وأحسن إليـهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته، وبلغ ذلك مرداويج فاستـوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد فكـتب إليهم وإلى علي يستدعـيهم إليه وتلطف بهم ودافـعه علي واشتغل بـأخذ العهود عليـهم وخوفهم سطوة مرداويـج فأجابوه

جميعاً، فجيء علـى مال الكرج واستأمن إليه شيرازاد وهو من أعيـان قواد الديلم، فقويت نفسه وسار بمن معه إلى أصبهان، فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت. بلغ ذلك الخليفة فاستعظـمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخـاف على ما بيده من البلاد واغتـم لذلك غمّا شديداً، ولكن رأى أن يحتال فـراسل عليها يعاتبه ويستـميله ويطلب إليه أن يظهر طـاعته حتى يمده بالعساكر الكـثيرة ليفتح بها البلاد ولم يكـلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يسـتولي عليها وجهز بعقـب تلك الرسالة أخاه وشمكير في جـيش كثيف ليكبس عليـا، وهو مطمئن إلى الرسالة المتقدمة، فعلم بذلك فرحل عن أصبـهان بعد أن جباها شهرين. وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بـن ياقوت فانهزم عنهـا أبو بكر من غير قتال وقـصد رامهرمز فاسـتولى عليّ على أرجان في ذي الحجة سنة (٣٩٠هـ)، فاستخـرج منها أموالاً قوي بها. جاءته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر يـاقوت وأصحابه ويعرفه بـتهوره واشتغاله بـجباية الأموال وكثرة مـؤونته ومؤونة أصحابـه وثقل وطأتهم على النـاس مع فشلهم وجبـنهم، فتردد علي أولاً، ثـم عزم على السير، فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة (٣٢١هـ)، فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى إصطخر خوفاً أن يقع بين ياقوت ومـرداويج؛ لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فـقابله في الطريق ياقـوت بجيوشه فكان النصـر لعلي وانهزم ياقوت هـو ومن معه، وكان أحمد بـن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم، وهـو صبي لم تنبت لحيتـه وكان عمره (١٩) سنة. وبعد هذا الانتصـار عامل علي الأسرى أحسن معاملة وخـيّرهم بين المقام عنده واللحاق بياقـوت فاختاروا المقام عنده فخلـع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حـتى أتى شيراز قصبـة فارس فاستـولى عليها ونـادى في الناس بالأمان وبث الـعدو وأقام لهم شـحنة تمنع ظلمهم واسـتولى على كثيـر من أموال ياقوت وودائعه فسـهلت عليه أمر استـرضاء الجنود والتودد إليهم فأحـبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بـغداد الراضي بالله وإلى وزيره ابن مقلة يعـرفهما أنه على الطاعة، ويـطلب أن يقاطع على ما بيده مـن البلاد وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه، قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده فلا يبقى له طريق إلى الخليفة ويقصـده هو من ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فـلا يثبت لهم. فسارت عسـاكر مرداويج حتى بلغت أيـذج في رمضان ثم استولت عـلى رامهرمز في شوال سنـة (٣٢٢هـ)، ثم استولت على الأهواز وأجـلت عنها ياقوتاً.

بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز، فكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل، واستقر الأمر بينهما على ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة.

من حسن حظ ابن بويه، أن مرداويج قتل بعد ذلك سنة (٣٢٣هـ)، تمردت عليه جنوده الأتراك؛ لأنه كان كثير الإساءة إليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره، فاتفقوا على اغتياله ففعلوا. وكان رؤساء المتآلبين عليه من الأتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا أنهما إمرة الأمراء بالعراق، وباروق وابن بغرا ومحمد بن بنال الترجمان. ولما تم لهم ما أرادوا تفرّق الجيش. فأما الأتراك: فافترقوا فرقتين؛ فرقة منهم لحقت بابن بويه، وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم. وأمّا الديلم: فذهبوا إلى وشمكير بالري وأطاعوه. وكان من نتيجة قتل مرداويج أن يخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس.

صارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثاً: قوة علي بن بويه فارس، وقوة وشمكير بن شيرويه بالري، وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر. أما ياقوت الذي كان بالأهواز؛ فضعفت قوته جدًا حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها ـ فضلاً عن مصادمة غيرها ـ . أمّا القوة الحيّة النامية فهي قوة ابن بويه. سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقي ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهي أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والري وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة، وانجلى عنها نواب وشمكير.

خطر ببال علي بن بويه أن يمد بويه سلطانه إلى الأهواز والعراق، لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولاً بإدارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل، وأخوهما الأصغر لا شغل له. فسيره على الأهواز، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقي، وانهزم بجكم إلى واسط.

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط، فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط، ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد، فوصلها في (١١) جمادى الأولى سنة (٣٣٤هـ)، والخليفة بها هو المكتفي بالله، فقابله واحتفى به وبايعه أحمد، وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة، وذاك بالسلطنة. وفي هذا اليوم، شرف الخليفة بني بويه بالألقاب، فلقب عليّا

صاحب بلاد فارس: عماد الدولة، وهو أكبرهم. ولقب الحسن صاحب الري والجبل: ركن الدولة. ولقب أحمد صاحب العراق: معز الدولة. وأمر أن تضرب ألقابها وكناهم على النقود.

وهذا اليوم هوتاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا شيء ولا وزير، وإنَّما له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته لا غير. وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء.

وكان يخطر ببال معز الدولة، أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس،ويوليها علويًا؛ لأن القوم كانوا شيعة زيدية؛ لأن التعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد الحسن ابن زيد، ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدي. فكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل. وقال له: إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه. ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته. فلو أمرهم بقتلك، لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان، ولم يبق بيد الخليفة شيء ألبتة إلا أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته.

●● خبر المشرق والمغرب:

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبني أمية، والقائم بالأمر منهم: عبدالرحمن الناصر. وقد لُقِّبَ بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد.

وببلاد إفريقية للعبيد الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة. والقائم بالأمر منهم: إسماعيل المنصور، وهو ثاني خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين.

وبمصر والشام للأخشيديين، والأمير منهم: أنوجور بن محمد الأخشيد، وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي.

وبحلب والثغور: لسيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان الشيباني، ويخطب باسم الخليفة العباسي.

وبالجزيرة الفراتية: لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيباني، يخطب باسم الخليفة العباسي.

وبالعراق: للديلم والسـلطان، منهم معز الدولة أحمد بن بويـه، ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسي، ثم باسم معز الدولة من بعده.

وبعمان والبحري واليمامة وبادية البصرة: للقرامطة، ويخطبون باسم المهدي.

وبفارس والأهواز لعلي بن بويه الملقب عماد الدولة، ويخطب باسم الخليفة العباسي، وكان يلقب بأمير الأمراء؛ لأنه أكبر بني بويه.

وبالجبل والري، لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة. ويخطب باسم الخليفة العباسي.

وجرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان.

وبخراسان ومـا وراء النهر لآل سامان، ومقـر ملكهم مدينة بخارى. ويـخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسي.

هذه هي القرى الكـبرى التي كان لأسر ملوكيـة في الرقعة الإسلامية. فـقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متمـاسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة كبرى تجمع شتاته.

ومما يستـحق النظر: أن العنصـر العربي لم يبـق له شيء من الملك إلا ما كـان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة، فإنهما من عنصـر عربي. ومع هذا، فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي، بل كان أمر بني بويه فوقهما، وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي.

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوماً وخلع؛ لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليهم، فصمم علـى خلعه، ففي الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٣٣٤هـ)، حضر الخليـفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسـان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فـتناولا يد المستكفي، فظن أنهما يريدان تقبيلها فـمدَّهَا إليهما فجذباه عن سريره وجعـلا عمامته في حلقـه ونهض معز الدولة واضطربت النـاس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة، فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كـاتب المستكفي وكانت مدة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر.

* * *

٢٣ ــ المطيع

هو: **الفضل المطيع لله** بن المقتدر بن المعتضد، **فهو ابن عم المستكفي. بُويع بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة سنة (٣٣٤هـ) ـ (٢٩) يناير سنة (٩٤٦م)، ولم يزل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة سنة (٣٦٣هـ) ـ (٧) أغسطس سنة (٩٧٤م)، فكانت مدته (٢٩) سنة وخمسة أشهر غير أيام.** ولم يكن له من الأمر شيء والنفوذ في حياته للملوك من آل بويه، وهم:

● **أولاً: معز الدولة:**

وهو: أحمد بن بويه فاتح العراق، وكان أصغر إخوته.

وكان سلطان معز الدولة بالعراق، مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا، فإنه لما استقرت قدمه فيه. شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه، فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه بالقرى جميعها التي للسلطان وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف وفي الغلاء والنهب، فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه، فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك. وأما الأتباع، فإنّ الذي أخذوه زاد خراباً فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها، وأخذ غلمان المقطعين في الظلم وتحصيل العاجل، فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها. ثم إن معز الدولة قد فوض حماية كل موضع إلى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكناً فاجتمع إليه الإخوة وصارالقواد يدعون الخسارة في الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك، فإن اعترضه معترض، صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون، فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث. وأكثر من إعطائه غلمانه الأتراك والزيادة لهم في الأقطاع، فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه، فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانت الكلاب تأكل لحومهم. وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة، فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعات أول فساد بالعراق؛ لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها.

السبب الثاني من أسباب الفساد، اختلافان:

الأول: اختلاف عنصري بين الأجناد، فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات، فكان بينهما في أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على ما بيدهم من المال. وقد كادت هذه المنازعات تؤدي سنة (٣٣٥هـ) إلى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم، فإنهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخوه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الأتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم، ثم أطلق للأتراك إطلاقات زائدة على واسط والبصرة، فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم.

وأما الاختلاف الثاني: فهو اختلاف ديني، تأججت ناره ببغداد نفسها، وبما جاورها من بلاد. فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة غالية؛ نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً. فقد كتب على مساجد بغداد سنة (٣٥١هـ)، ما صورته (لعن الله معاوية بن أبي سفيان؛ ولعن من غصب فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ (فدكا)، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده - ﷺ - ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى). والخليفة كان محكوماً عليه لا يقدر على المنع. وأما معز الدولة: فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس، فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبي بأن يكتب مكان ما محى: لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية ففعل ذلك.

وفي سنة (٣٥٢هـ): أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنواح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ ، ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنية قدرة على المنع؛ لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم.

وفي ثامن عشر ذي الحجة، أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد. فَعَلَ ذلك، احتفالاً بعيد الغدير - يعني: غدير خم - وهم الموضع الذي يروي أن رسول الله ﷺ قال فيه عن علي: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه». وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً.

وبهذا الانقسام، صارت بغداد وبلاد فارس والري ميداناً للاضطرابات المتكررة بين العامة، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر. وهو الأكثر عدداً. ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فإنها يشتد توهجها إذا وجدت محضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان في تحريكها. فإذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا، وأثر ذلك في الأحوال العامة أسوأ تأثير، ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس في نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل إلى ذلك؛ لأنَّ إحدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلعنه فأنى تتفقان؟!

ومع ما أدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله في شمالي بلاده وجنوبيها. أما في الشمال: فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان، وكل يريد الإغارة على ما بيد الآخر.

ففي السنة الأولى لولاية معز الدولة، جاء ناصر الدولة، واستولى على الجانب الشرقي من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس، فكان مقدار ما غنموا من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيراً ممن اتهموه. واضطر ناصر الدولة يطلب معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد، فقبل ذلك معز الدولة.

وفي سنة (٣٣٧هـ): سار معز الدولة إلى الموصل مريداً الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولي على جميع مابيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والري وطلب منه المدد، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسل واستقر الأمر على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام في كلِّ سنة ثمانية آلاف ألف

درهم، ويخطب في بلاده لأولاد بويه الثلاثة، وإذا ذاك رجع معز الدولة إلى بغداد.

ولما قامت فتنة روزبهان الديلمي على معز الدولة، أراد ناصر الدولة إعادة الكرَّة على بغداد، فسيّر أحد أولاده في جيش لكنه لم يتمكن ممن أراد، فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولي وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة، فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصرالدولة لم يف بما ضمن، فسار إليه معز الدولة سنة (٣٤٧هـ)، فلما قارب الموصل، سار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة، ثم سار إلى نصيبين ففارقهما ناصر الدولة إلى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة.

ولما رأى ناصر الدولة ما صار إليه، سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فلقيه أخوه وبالغ في إكرامه وراسل معز الدولة في طلب الصلح فامتنع معز الدولة، من تضمين ناصر الدولة لإخلافه مرة بعد أخرى، فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وكان ذلك في محرم سنة (٣٤٨هـ).

إنَّما أجاب معز الدولة إلى الصلح؛ لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج، واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة، فاضطر بسبب ذلك الانحدار وأجاب إلى الصلح وانحدر إلى بغداد وعاد ناصر الدولة إلى الموصل. ومع كل هذا، لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة. وكان ذلك سبباً فيما يأتي ذكره من الضعف أمام الروم.

لم يكن هذا وحده الذي يشغل معز الدولة، بل كان له في الجنوب أيضاً مشاغل كبرى، فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدي أميراً عليها باسم معز الدولة، ولكنه نفسه كانت تطمع للاستقلال بها، وألا يرسل إلى معز الدولة خراجاً. فكان معز الدولة يرسل إليه الجيوش والبريدي يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين.

وفي سنة (٣٢٦هـ): عزم معز الدولة أن يسير إلى البريدي، فسار إليه سالكاً البرية، فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه مسيره إلى البرية بغير إذنهم، فلم يجبهم على كتابهم، وقال: مَن هؤلاء حتى يستأمروا؟ ولما وصل إلى الدرهمية استأمن إليه كثير من عسكر البريدي وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة.

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم، أن جاءوا إلى البصرة سنة (٣٤١هـ)، ومعهم أمير عمان من البحر، ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبي وزير

معز الدولة.

وفوق هذا، فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهي قوة عمران بن شاهين وكان في أول الأمر جابياً فجبا جبـايات ثم هرب إلى البطيحة وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكـانت قديماً قرى متصلـة وأرضاً عامرة، فاتفق في أيـام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفـرطة وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فـعجز عن سدها فتـبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها. فلما نقص الماء وأراد العمارة، أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيـئاً، ثم جاء الإسلام فاشتغلوا بالحروب والجـلاء. ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعـمارة الأرضين، فلما ألـقت الحروب أوزارها واستـقرت الدولة الإسلامـية في قرارها، استـفحل أمر البطائح وفسدت مـواضع البثوق وتغلب الماء على الـنواحي ودخلها العمال بالـسفن فرأوا فيها مواضـع عالية لم يصل الماء إليهـا، فبنوا فيها قرى وسـكنها قوم وزرعوها الأرز. جاء عمران إلى هذه البطائح خـوفاً من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصـيد من السمك وطيور الماء، ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الـصيادين وجماعة من اللصوص فقوي بهم وحمى جانبه مـن السلطان، فلما خاف أن يـقبض استأمن إلى أبي الـقاسم البريدي فقلـده حماية الجامدة ونواحي البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كـثر أصحابه وقوي واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة، وغلب على تلك النواحي. فلما اشتدَّ أمره، سيّر معز الدولة جيشاً لمحاربـته قائده وزيره أبو جعفر الصيمري فانتصر أبـو جعفر انتصاراً باهراً وكاد يأخذ عمران لولا أن شـغل معز الدولة بوفاة أخيه الأكبر عـماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصـد شيراز لإصلاحها ففارق البـطيحة وكان ذلك منفساً عن عـمران فزاد قوة وجرأة فأنفذ إليـه معز الدولة جيشاً ثانيـاً، فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغـنم عمران ما كان فيـه من السلاح، فقوى وطـمع أصحابه في السلـطان فصاروا إذا اجتاز بـهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فإن أعطاهم، وإلا ضربوه. وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبي بالمسير إلى واسط وأمده بالجيوش فزحف إلى الـبطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى المضـايق التي لا يعرفها إلا هو وأصحابه فـهجم عليهم المهلبي. وكـان عمران قد جعل الكمناء فـي تلك المضايق، فلما تقدم المهلبي خرج عليه وعلى أصحابه الكـمناء ووضعوا فيهم السلاح، فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبـي نفسه في الماء فنجا سبـاحةً وأسر عمران القواد والأكابر فـاضطر معز الدولة إلى مصالحتـه وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلـق عمران من في أسره

من أصحاب معـز الدولة، وقلده معز الدولة البطائـح، فقوي واستفحل أمره، وقـد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة (٣٢٩) إلى سنة (٣٦٩هـ)، أي: أربعين سنة كان فيـها شجـاً في حلق بني بويـه لا يقدرون منه عـلى شيء، وانتقل المـلك منه إلى أعـقابه ومواليهم إلى سنة (٤٠٨هـ)، وهذا ثبتهم:

١ ـ عمران بن شاهين .... (٣٢٩ ـ ٣٦٩ هـ)
٢ ـ الحسن بن عمران .... (٣٦٩ ـ ٣٧٢ هـ)
٣ ـ أبو الفرج بن عمران .... (٣٧٢ ـ ٣٧٣ هـ)
٤ ـ أبو المعالي بن الحسن بن عمران .... (٣٧٣ ـ ٣٧٣ هـ)
٥ ـ المظفر بن علي وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب .... (٣٧٣ ـ ٣٧٦ هـ)
٦ ـ مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر ابن أخت المظفر .... (٣٧٦ ـ ٤٠٨ هـ)
٧ ـ أبو الحسن بن مهذب الدولة .... (٤٠٨ ـ ٤٠٨ هـ)
٨ ـ عبد الله بن نسي بالتغلب .... (٤٠٨ ـ ٤٠٨ هـ)

ثم صارت البطيحة متغلباً لكثير مـن الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد.

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا شراً كله، من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان. ولما أحسّ بقرب منيـته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كـل ما يفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمـه؛ لأنه أكبر منه سنّاً وأقوم بالسياسة. ثم أدركته منيته في (١٣) ربيع الآخر سنة (٣٥٦هـ).

ومما حصل مـن حوادث أهل بيته فـي عهد وفاة عمـه عماد الدولة علي بـن بويه سنة (٣٣٨هـ) بإصطخـر، ولما لم يكن له ولد ذكر، طـلب من أخيه ركن الدولة أن يـرسل إليه ابنه فناخسرو الملقـب عضد الدولة، فأجابه. فولاه عهده، ولما توفي قـام عضد الدولة بأمر فارس من بعده، وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن.

● **ثانياً: عز الدولة بختيار:**

وهو ابن معز الدولة أحـمد بن بويه ولي العراق، بعد وفاة أبيه. واسـتمر في سلطانه إلى أن خلعه ابـن عمه عضد الدولة سنـة (٣٦٧هـ)، فكانت مدته (١١) سنة، قـضى منها سبع سنين في خلافة الـفضل المطيع. وكانت البلاد في سلطانه أسوأ حـالاً منها في سلطان أبيه، فإنه اشتغل باللهو واللعب وعشـرة النساء، والمغنين وشرع في إيحاش كاتبي أبيه أبي

الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس، مع أن أباه أوصاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد، فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها إلى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك، ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من اغتياله؛ لاحتياطه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار بإعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم إلى ما طلبوا وفعل الأتراك أيضاً مثل فعلهم. وفي أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر في الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف ومائتي ألف درهم كل سنة، وكذلك مات سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب، وقام مقامه ابنه أبو المعالي شريف. ومات كافور الأخشيدي صاحب مصر سنة (٣٥٦هـ)، وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين. ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الري يريد استردادها منه وقام أمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير سنة (٣٥٧هـ)، ومات أيضاً نقفور الذي ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال.

●● حال الثغور الإسلامية في عهد المطيع:

كانت الثغور الإسلامية لذلك العهد، في حوزة سيف الدولة علي بن حمدان الذي كان متغلباً على حلب و العواصم وديار بكر، فكان هو الذي يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها. وكان قد ولي هذه الثغور مولاه نصراً فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تمتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره.

وفي سنة (٣٣٧هـ): سار سيف الدولة بنفسه إلى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا، فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس. وفي السنة التي تليها دخل غازياً، فكان له النصر أولاً ولكنه توغل في البلاد. فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كان معه من الجند أسراً وقتلاً واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير.

وفي سنة (٣٤١هـ) : ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وخربوا المساجد.

وفي سنة (٣٤٣هـ): غزا سيف الدولة البلاد الرومية، وكان له بها نصر عظيم، وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق. وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم

والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث في شعبان فاشتدَّ القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين، فانهزم الروم، وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم، وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم: الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده.

وفي سنة (٣٤٥هـ): سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جيوشه حتى وصل إلى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنه فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً ثم عاد إلى حلب، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا إلى ميافارقين بديار وبيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا في البحر إلى طرسوس فأوقعوها بأهلها وقتلوا منهم (١٨٠٠) رجل، وأحرقوا القرى التي حولها. ثم غزوها مرة ثانية سنة (٣٤٧هـ)، وغزوا الرها ففعلوا بها الأفاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلماً.

وفي سنة (٣٤٩هـ): سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جمع عظيم، فأثر فيها آثاراً شديدة وفتح عدة حصون، وبلغ إلى خرشنة. ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق، فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك، فلا تقدر على العودة منه. والرأي: أن ترجع معنا، فلم يقبل منهم، وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً؛ لئلا يُقال: إنه أصاب برأي غيره، وعاد من الدرب الذي دخل منه، فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسراً، وتخلّص هو في (٣٠٠) رجل بعد جهد وهذا من سوء رأي المستبدين.

وفي سنة (٣٥٠هـ): سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيراً منهم وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات.

وفي سنة (٣٥١هـ): غزا الدمستق عين زربة وهي من أحصن مدن الثغور، فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخاً ولا صبياً. وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا في الطرقات، وفتح حول عين زربة (٥٤) حصناً للمسلمين، بعضها بالسيف وبعضها بالأمان. وقد حصل أن حصناً من هذه الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا (٤٠٠) رجل، وقتل النساء والصبيان

ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق، ولما أدركه الصوم، انصرف على أن يعود بعد العيد، وخلف جيشه بقيسارية وكان صاحب طرسوس قد خرج في (٤٠٠٠) رجل فأوقع بهم الدمستق، فقتل أكثرهم. وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة، فلما رأوا ما أصابهم من الوهن، أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفي هذه السنة، استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة مُلك سيف الدولة، فخرج عنها سيف الدولة منهزماً بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التي كانت بظاهر حلب وسبي من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصبية وقتل أكثر من ذلك. ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق بإحراق الباقي، وأحرق المساجد، وأقام بحلب تسعة أيام أراد الانصراف عنها فانصرف عازماً على العودة. وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحياناً بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر.

وفي سنة (٣٥٣هـ): حصر الدمستق مدينة المصيصة، ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها، فأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة، ثم إن إنساناً وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد، فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلا الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء، وعاد أكثرهم إلى بلادهم. وبعد تراجع الأسعار، عاد ملك الروم إلى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة، وقاوم الطرسوسيون مقاومة يُحمدون عليها، فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره، حتى اشتد الغلاء على الروم، وكثر بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل.

وفي سنة (٣٥٤هـ): ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف في أهلها، فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم، وكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان، ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا براً وبحراً وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع إصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصّر بعضهم. ومن غرائب العقول أن يجري هذا كله بثغور الإسلام،

والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم.

وفي سنة (٣٥٨هـ): دخل ملك الروم الشام، فلم يمنعه أحد، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها، ثم قصد حمص، وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخريباً وملك ثمانية عشر منبرا ، فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام في بلاد الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحياناً وأتاه جماعة منهم وتنصَّرُوا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم، فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة في قلوب المسلمين. وقد عاد ملك الروم ذلك ومعه من السبي مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان. فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه.

وكانت هذه الحوادث الجلى؛ سبباً لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الإسلامية، فتطوع منهم عشرون ألفاً عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد إسماعيل بن القفال الشاشي أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر. ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر إلى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة ركن الدولة وهو ديلمي يكرهه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا، فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم.

وفي سنة (٣٥٩هـ): ملك الروم مدينة أنطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها، وأخذوا منها سبياً يزيد على عشرين ألفاً كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاءون. ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه، فلما سمع بخبر الروم، فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم. أما هؤلاء فجاءوا وحصروا البلد، فتحصّن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد، ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك.

وفي سنة (٣٦١هـ): أغار ملك الروم على الرُّهَا ونواحيها، وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وحرقوا وخربوا البلاد، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر، ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفعه ولكنه حمل إليه مالاً كفه به عن نفسه، فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظم ذلك الناس

وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم أنه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه، فمنعوا من ذلك، وغلقت الأبواب. وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران شاهين ـ صاحب البطيحة ـ وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة، ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة، وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو، فأجابه بإظهار السرور وإعداد ما طلب منه، ثم أنفذ بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً، فقال المطيع: إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إلي الأمور، وأما إذا كانت حالي هذه، فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة. فإن شئتم أن أعتزل فعلت. وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة، فبذل المطيع (٤٠٠) ألف درهم. فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك. وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم، أن الخليفة قد صودر، فلما قبض بختيار المال، صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو.

وفي سنة (٣٦٢هـ):: كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان. وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد، فاستعدَّ له أبو تغلب، وأرسل أخاه هبة الله فواقع الدمستق في مضيق لا تجول فيه الخيل. والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة (٣٦٣هـ)، فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له، فلم ينفعه ذلك ومات.

هذه كانت الحال في خلافة المطيع. استرد الروم فيها جميع الثغور الإسلامية الكبرى، وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام. وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضاً، وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون!

ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث: انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها، وذلك سنة (٣٦١هـ) في عهد الخليفة المعز لدين الله معد الفاطمي.

●● موت المطيع:

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر. وقد فلج، فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل، فلم يجد من الامتثال بداً، فخلع نفسه في منتصف ذي القعدة سنة (٣٦٣هـ).

* * *

٢٤ ــ الطائع

هو: أبو الفـضل عبد الكريم الطـائع لله بن المطيع بن المقـتدر بن المعتضـد، ولد سنة (٣١٧هـ)، وبُويع له بالخـلافة بعد خلع أبيـه المطيع في (١٨) أغسطس (٩٧٤م)، واسـتمر خليفة إلى أن خـلع في (٢١) رجب سنة (٣٨١هـ) ـ أكتوبر سنة (٩٩١هــ)، فكانت مدته (١٧) سنة وثمانية أشهر وستة أيام.

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بني بويه، وهم:

أولاً: عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى سنة (٣٦٧هـ).

ثانياً: عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى سنة (٣٧٢هـ).

ثالثاً: صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى سنة (٣٧٦هـ).

رابعاً: شرف الدولة أبو الفوارس سيرزل بن عضد الدولة إلى سنة (٣٧٩هـ).

خامساً: بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة.

ويعـاصره في بلاد الأندلـس: الحكم بن عـبد الرحـمن الناصـر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ)، وهشام بن الحكم (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ)، وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر.

وبإفريقية وصقلية: يوسف بن بلكين بن زيـري الصنهاجي نيابة عن الفاطميين إلى سنة (٣٧٣هـ)، وخلفه ابنه المنصور يوسف إلى سنة (٣٨٦هـ).

وبمصر والشام والحجاز: المعز لدين الله مـعد الفاطمي إلى سنة (٣٦٥هـ)، وخلفه ابن العزيز بالله إلى سنة (٣٨٦هـ).

وباليمن من آل زياد: أبـو الجيش إسحاق بن إبراهيم إلى سنـة (٣٧١هـ)، ثم عبد الله ابن إسحاق إلى سنة (٣٩٠هـ).

وبصنعاء مـن آل يعفر: عبد الله بـن قحطان إلى سنة (٣٨٧هـ)، وهو آخـر أمراء هذه الدولة.

وبحلب: سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى سنة (٣٨١هـ).

وبالموصل: عدة الدولة أبو تغلب الغضنفـر بن ناصـر الدولـة إلى سـنـة (٣٦٩هـ)،

ثم أبو طامر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى سنة (٣٨٠هـ)، وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل، وقام على أثرها الدولة العقيلية. وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي أمير بني عقيل.

وفي ديار بكر، ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بني حمدان، وأول هذه الدولة: أبو علي الحسين بن مروان الذي ابتدأ ملكه سنة (٣٨٠هـ).

وبخراسان وما وراء النهر: الدولة السامانية، وأميرها: نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ).

وبجرجان: الدولة الزيادية، والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى سنة (٣٦٦هـ)، وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة (٤٠٣هـ).

وقد ابتدأت في أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزلة، وجدت على أطلال الدولة السامانية، وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التي غربي نهر جيحون. وكانت دولة الأتراك الإيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والري والجبال والعراق، فهي بيد بني بويه، يتناوبونها كما سيأتي توضيحه.

ويعاصر الطائع بفرنسا: لونار إلى سنة (٩٨٦م)، ثم لويز الخامس الملقب بـ «الكسلان» إلى سنة (٩٢٧م)، ثم هو في كابات أول الأسرة الكاباسيانية إلى سنة (٩٩٦م).

وباستريا: أول ملك من جماعة المارغرف وهوليوبولد الأول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ ـ ٩٩٤م).

ولي الطائع، وأمر بختيار مضطرب؛ لأن الأتراك ـ وفي مقدمتهم سبكتكين ـ قد تباعد ما بينهم وبينه، وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين؛ لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذي كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة، سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة، وظهر أهل السنة عليهم. فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة، يسألهما أن يساعداه على الأتراك، فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد. وأمّا عضد الدولة، فكان ميَّالاً إلى ملك العراق، فتربص ببختيار الدوائر. كرر إليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه، فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار ما يرجوه، سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد، فتغلب على عساكر الأتراك في (١٤) جمادى الأولى سنة (٣٦٤هـ)، ودخل بغداد ظافراً وكان يريد

القبض على بختيار، فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالأموال، ففعلوا. ولم يكن مع بختيار ما يسكنهم به. وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ في معاملتهم، ففعل ذلك. فاستمر هذا الحال أياماً وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته إليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة وعجزه عنها، ووعد الجنود بالإحسان إليهم. وأظهر الخليفة سروره مما تم؛ لأنه كان منافياً لبختيار. وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك، وأمر بعمارة دار الخلافة، والإكثار من الآلات، وعمارة ما يتعلق بالخليفة، وحماية إقطاعه.

بلغ ذلك كله ركن الدولة، فاستاء منه جدًا. كاتبه محمد بذلك ـ محمد بن بقية وزير بختيار ـ الذي استاء أيضاً مما جرى، ونافر عضد الدولة، وجمع الجيوش لحربه، فأرسل إليه ركن الدولة يقويه ما هو بسبيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لإخراج عضد الدولة عنه، فكان ذلك سبباً لاضطراب الأمر على عضد الدولة، ولم يقبل في ذلك قول قائل؛ لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حبًا شديداً، ولما وجد ذلك عضد الدولة، لم يسعه إلا إعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس.

لم يطل الأمر إلا بمقدار ما توفي ركن الدولة سنة (٣٦٦هـ)، فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه، بعهد منه. وما عتم أن تجهّز إلى بغداد وأرسل بختيار يطلب منه الطاعة، وأن يسيره عن العراق إلى أي جهة شاء، وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح، فأجاب بختيار إلى ذلك. وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقية، ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها، ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد، وضرب على بابه ثلاث نوب، ولم تجر بذلك عادة من تقدّمه. وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله، ففعل به ذلك، وصُلبَ على رأس الجسر في شوال سنة (٣٦٧هـ)، وهو الذي رثاه أبو الحسين الأنباري بقصيدته المشهور التي أولّها:

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معهما من ملك أبيه ومحمد، ثم سار نحو الموصل، فملكها وأقام بها مطمئناً، وأزال عنها الدولة الحمدانية، وبث سراياه في طلب أبي تغلب الحمداني، فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم، وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة، ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة، وجعل باقيها في يد سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب، وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة، وصار له

العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والري، ثم دخلت في حوزته جرجان سنة (٣٧١هـ)، أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير.

لم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً، وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة والإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي، محبا للفضائل، واهباً باذلاً في موضع العطاء، مانعاً في مواضع الحزم، ناظراً في عواقب الأمور. وهو الذي بنى على مدينة رسول الله ﷺ سوراً، إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللهو واللعب، ومن شعره:

ليس شرب الكاس إلا في المطر	وغناء من جوار في السحر
غنيات سالبات للنهى	ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة ابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير.

ومن فضله: أنه كان لا يعول في أموره إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به. حكي عنه: أنه مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال له: ليس هذا من أشغالك، إنَّما الذي يتعلق بك الخطاب في قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأمَّا الشهادة وقبولها، فهي إلى القاضي وليس لنا ولا الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبِرّ في سائر بلاده، ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. وأما اهتمامه بالعلم، فكثير. ويذكر ذلك في تاريخ العلوم في الدول الإسلامية.

ومما يعد من سيئاته: أنه أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة. ومنع من عمل الثلج والقز، وجعل ذلك متجراً خاصاً، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق.

توفي عضد الدولة في شوال (٣٧٢هـ).

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبي كاليجار المرزبان، الملقب بـ «صمصام الدولة». وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات، فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس، وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان.

مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق، واضطراب لاحق من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه، فإنه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشاً كانت عاقبته الهزيمة.

وخرجت عن يده بلاد الموصل. استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية، وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيرا بثغور ديار بكر، وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس، فلما ملك عضد الدولة، حضر عنده ثم فاته لما تخوّف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوي ملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة، ووصل بعد أصحابه إلى نصيبين، فاستولى عليها، فجهز إليه صمصام الدولة العساكر، فانهزمت. وقوي أمر باذ وغلب جيوش الديلم، ثم سار إلى الموصل فملكها، وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد، وإزالة الديلم عنها، فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيماً مستوفي العدة، فليقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة، فخرج منها، ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين.

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل؛ سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهَّز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق، فسار بجيشه سنة (٣٧٥هـ)، فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة، ثم سار إلى البصرة فملكها. بلغ الخبر صمصام الدولة، فراسله في الصلح، فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق بعد صمصام الدولة، ويكون هذا نائباً عنه. فصلح الحال واستقام، وخطب لشرف الدولة بالعراق، وسيرت إليه الخلع من الطائع لله. فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه، عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها، ونفذ تلك العزيمة، فلما وصل واسط ملكها، فاتسع الخرق على صمصام الدولة، وشغب عليه الجند، فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته، فسار إليه، فقبض عليه شرف الدولة، وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة (٣٧٦هـ)، وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق، ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

ومن أحداث هذا البيت: في عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد.

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة بسنتين وثمانية أشهر، وقد ابتدأ

عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد؛ أدى إلى قتال بينهم. وقد بذل شرف الدولة جهـده حتى أزال من بينهم الخصـام. ومن فضائل شرف الدولة: أنـه منع الناس من السعايات، ولم يقبلها. فأمن الناس وسكنوا.

وكانت وفاة شرف الدولة في جمادى الآخرة سنة (٣٧٩هـ).

تولى العراق بعده، أخوه بهاء الدولة أبو نصر. ولأول توليه، تجددت الاضطرابات بين الترك والديلـم، وأدت إلى قتال دام خمسـة أيام، وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك، فـاشتد الأمر على الديلم. ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين، فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك، ومحاولتهم سلبه منه، ولكنهم أخفقوا.

وفي سنة (٣٨١هـ): قبض بهاء الدولة على الطائع لله؛ وذلك أن الأموال قلَّت عنده، فشغب عليـه الجند، فأطمعه وزيره في أموال الخـليفة وحسن له القبض عـليه، فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضـور ليجدد العهد به، فأذن له في ذلك، وجـلس له كما جرت العادة، فـدخل إليه بـهاء الدولة ومـعه عدد كثـير. فلمـا دخل قبل الأرض وأجـلس على كرسي، فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل الخليـفة، فجذبه فأنزل عن سريره. والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويستغيث، فلا يلتفت إليه. وأخذ ما في داره من الذخائر. ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضي في ذلك:

من بعـد ما كـان رب الملك مبـتسمـاً ... إلـى دنوه فـي الـنجـوى ويـدنـيـنـي
أمسيت أرحم مـن أصبـحت أغبـطه ... لـقـد تقــارب بين الـعـز والـهـون
ومـنظـر كـان بالـسـراء يضـحـكنـي ... يا قـرب مـا عـاد بالضـراء يبـكيـني
هـيـهـات أغـتـر بـالسـلطـان ثانيـة ... قـد ضـل ولاج أبـواب الســلاطـين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة، أشهد عليه بالخلع.

❊ ❊ ❊

٢٥ ـ القادر

هو: أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد، وأمه أم ولد اسمها دمنة، بُويع بالخلافة في (١٢) رمضان سنة (٣٨١هـ) ـ (٣) أكتوبر سنة (٩٩١م). واستمر خليفة إلى أن توفي في غاية ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ) ـ (١٨) ديسمبر سنة (١٠٣١م)، فكانت مدته (٤١) سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً.

كان أبو العباس، لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر، جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة، وطال الأمر بينهما، ثم إن الطائع مرض مرضاً أشفى منه ثم أبل، فسعت إليه بأخيها وقالت له: إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك، فتغيَّر رأيه فيه وأرسل في القبض عليه، فلما وصلت إليه رسل الطائع، خرج عن داره واستتر، ثم سار إلى البطيحة، فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر صاحب البطيحة، فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ في خدمته، وكان ذلك في سنة (٣٧٩هـ)، فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع، فذكر من يصلح للخلافة، فأجمع رأيه ورأي مستشاريه على أبي العباس، فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة. وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة، فقيل على المنبر: (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله)، ولم يذكروا اسمه. ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله، انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام، وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيَّعَه، فسار القادر بالله إلى بغداد، فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله، وساروا في خدمته، فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان، وبايعه بهاء الدولة والناس، وخطب له ثالث عشر رمضان.

والقادر، هو ثالث خليفة عباسي لم يكن أبوه خليفة.

●● معاصرو القادر من الملوك:

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بـ «المؤيد» إلى سنة (٣٩٩هـ)، ثم خلفه محمد المهدي بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إلى سنة (٤٠٣هـ)، وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فأخذ منه قرطبة، وكانت بينهما خطوب إلى أن قتل المهدي، وانتهت مدة المستعين سنة (٤٠٨هـ)، ثم كانت البلاد الأندلسية ميداناً للنزاع بين أعقاب الأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبد الله، فكانت

الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في المشرق ويزيد عليه.

وكان الأمير بإفريقية من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية: المنصور بن يوسف بلكين إلى سنة (٣٨٦هـ)، ثم ابنه باديس إلى سنة (٤٠٦هـ)، ثم المعز بن باديس إلى سنة (٤٥٣هـ)، وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية: العزيز بالله نزال إلى سنة (٣٧٦هـ)، ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور إلى سنة (٤١١هـ)، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٤٢٧هـ).

وفي عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على أطلال الدولة الزيادية، وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة (٤١٢هـ)، وهو مولى من موالي آل زياد. وأصله عبد حبشي، سَمَت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن، وعاد إليها وقد استمر ملكها فيه وفي أعقابه إلى سنة (٥٥٤هـ)، وهذا ثبتهم:

١ ـ المؤيد نجاح .... (٤١٢ ـ ٤٥٢ هـ)

* فترة على الداعي الصليحي .... (٤٥٢ ـ ٤٧٣ هـ)

٢ ـ سعيد الأحوال بن نجاح .... (٤٧٣ ـ ٤٨٢ هـ)

٣ ـ جياش بن نجاح .... (٤٨٢ ـ ٤٩٨ هـ)

٤ ـ فاتك بن جياش .... (٤٩٨ ـ ٥٠٣ هـ)

٥ ـ منصور بن فاتك .... (٥٠٣ ـ ٥١٧ هـ)

٦ ـ فاتك بن منصور .... (٥١٧ ـ ٥٣١ هـ)

٧ ـ فاتك بن محمد بن فاتك .... (٥٣١ ـ ٥٥٤ هـ)

وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية، وسيأتي حديثها إذ ذاك.

أمَّا الجزيرة الفراتية وما إليها من حوض الفرات، فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات، وهي: ديار ربيعة، وحاضرتها الموصل. وديار بكر، وحاضرتها آمد. وديار مضر، وحاضرتها الرقة.

ففي عهد القادر، ظهرت الدولة العقلية التي أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد العقيلي بالموصل، ولم يكن له تمام الاستقلال، بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمي، إلا أن النفوذ الفعلي كان لأبي الذواد، ولم يزل كذلك حتى توفي سنة (٣٨٦هـ) فخلفه أخوه حسام الدولة المسَيب بن المقلد. وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها إلى أن قتل سنة (٣٩١هـ)، فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد، ومن أهم حوادثه السياسية: أنه خطب للحاكم بأمر الله

العلوي صاحب مصر بأعماله كلهـا وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، وغيرها. وكان ابتداء الخطبة بالموصل: (الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب، واطـلع بنوره شمس الحق مـن العرب). فأرسل الـقادر بالله القاضي أبـا بكر بن الباقلاني شـيخ الأشعرية ببغداد إلى بهـاء الدولة يعرفه ذلك، فأكرم بهـاء الدولة القاضي، وكتب إلى نائبه ببغـداد يأمره أن يسير لحرب قرواش، فسار عميـد الجيوش لحربه. ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله.

وقد اسـتمـرت هذه الدولة العـربية بالمـوصل إلى سنة (٤٨٩هـ)، وانتهت عـلى يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية، وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ حسام الدولة المقلد بن المسيب .... (٣٨٦ ـ ٣٩١ هـ)
٢ ـ معتمد الدولة قرواش بن المقلد .... (٣٩١ ـ ٤٤٢ هـ)
٣ ـ زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد .... (٤٤٢ ـ ٤٤٣ هـ)
٤ ـ علم الدولة أبو المعالي قرواش بن بدران بن المقلد .... (٤٤٣ ـ ٤٥٣ هـ)
٥ ـ شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش .... (٤٥٣ ـ ٤٧٨ هـ)
٦ ـ إبراهيم بن قرواش .... (٤٧٨ ـ ٤٨٦ هـ)
٧ ـ علي بن مسلم بن قرواش .... (٤٨٦ ـ ٤٨٩ هـ)

وفي ديار بكر، ظهرت دولـة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسهـا أبي علي الحسين ابن مروان، قام بالأمر سـنة (٣٨٠هـ)، بعد خاله باذ الذي قدمنا حديـثه. وضبط ديار بكر أحسن ضـبط، وأحسن إلـى أهلها، وألان جـانبه لهم، ثـم تزوج ست الناس بنـت سيف الدولة، ولم يكن ملكاً إلى أن قُتل سنة (٣٨٧هـ)، فخلعه أخوه ممهد الدولة أبو منصور بن مروان إلى أن قُتل سنة (٤٠٢هـ)، فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان، وهو واسطة عـقد آل مروان، فـإن أيامه طالت وأحـسن السيرة جـداً، وكان مقـصوداً من العلماء في كافة الأقطار، فكثروا ببلاده. وممـن قصده: أبو عبد الله الكازروني. وعنه انتشر مذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ بديار بكر. وقصده الشعراء، فأجزل مواهبهم، ويبقى كذلك إلى سنة (٤٥٣هـ)، وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة، وولي ابنه نظام الدولة نصر إلى سنة (٤٧٢هـ)، ثم منصور بـن نصر إلى سنة (٤٨٩هـ)، وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها.

أما ديار مصر، فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذي كان والياً على دمشق للعزيز بالله الفاطمـي خليفة مصر وفي سـنة (٣٨٧هـ) : عزله عنها، فـتوجه إلى الرقة.

فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها، ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق في الانضمام إليه، وكاتب أيضاً باذ الكردي والمتغلب على ديار بكر، وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة، صاحب حلب، بأن يعود إلى طاعته ويعطي مدينة حمص كما كانت له، فلم يجبه واحد منهم إلى شيء، فبقي بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه، وحينئذ أغرى العزيز بالله نزاراً صاحب مصر على قصد حلب، فأجابه وأرسل إليه العساكر تتصرف بأمره، ولكنه لم ينجح؛ لأن سعد الدولة استعان عليه بوالي إنطاكية الرومي وبالعرب الذين مع بكجور، فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله، ثم سار سعد الدولة إلى الرقة، فاستولى عليها من وزير بكجور، وأخذ أولاد بكجور وأمواله، ثم إن سعد الدولة هلك بعقب ذلك، فأرسل أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبون إليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أميراً تسلَّمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة، ولم تمكث الحال على ذلك كثيراً، فإن البلاد انتقلت إلى حوزة العلويين من أصحاب مصر وصاحب يخطب لهم بالرقة والرحبة، إلا أن سلطانهم كان اسمياً والنفوذ إلى رؤساء القبائل المضرية، فكان فيها أولاد أبو علي بن ثمال الخفاجي، ثم استولى عليها عيسى بن خلاط العقيلي، ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابي، وكان محسناً للرعية، ويدعو للعلويين.

أما حلب: فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، وكان قد عصى عليه بكجور الذي تقدم ذكره، وهو أحد مماليك أبيه، وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوي، ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا، وتسبب عن ذلك: أن سعد الدولة أراد أن يأخذ دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة (٣٨٢هـ)، وعهد لابنه أبي الفضائل وأوصى به لؤلؤاً أحد مماليك أبيه سيف الدولة، فلما توفي سعد الدولة، قام ابنه مقامه، وأخذ له لؤلؤ العهد على الأجناد.

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب، فسير إليها جيشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه. ولما كانت عساكره كثيرة، ولا قِبَل للؤلؤ بمقاومتها، استنجد بملك الروم بسيل، فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل، فسار إليه بحلب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي. ولما سمع منجوتكين الخبر، سار إلى الروم ليقابلهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، وعبر إليهم العاصي وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار إلى أنطاكية، فنهب بلدهم وقراها وأحرقها. وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب، فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقي؛ إضراراً بعساكر مصر. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها، فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم مالاً ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة، بلعة تعذر

الأقوات، ففعلوا ذلك. وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد إلى دمشق، ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله، وكتب بإعادة الكرة على حلب، وأرسل الأقوات من مصر إلى طرابلس بحراً، ومنها إلى العسكر. فنازل المصريون حلب وأقاموا عليه ثلاثة عشر شهراً، فقلّت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم متعضداً به، وقال: متى أُخذت حلب، أُخذت أنطاكية، وعظم عليك الخطب، فجاء ملك الروم منجداً له، فلما علم منجوتكين بقرب وروده، سار عن حلب، فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج إليه أبو الفضائل، ولؤلو، ثم سار بسيل إلى الشام، ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه، وأقام عليها نيفاً وأربعين ليلة، ولما أيس منها عاد إلى بلاده. ولما علم العزيز بتلك الأخبار، عَظُم الأمر عليه، ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم، فحال موته دون ذلك.

لم يزل الأمر لأبي الفضائل حتى سنة (٤٠٢هـ)، حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابي، وكان السلطان الحقيقي في حلب للؤلؤ، وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوي بمقتضى اتفاق عُقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدِّمة. غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيراً وكان صالحاً أطلقه مقابل مائتي ألف دينار ومائة ثوب، وإطلاق كل أسير عنده من بني كلاب. ثم إن غلاماً لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة، غدر به، وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه، فخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكية، فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلها من قِبَله حتى صار بيد إنسان من الحمدانية، يُعرف بـ «عزيز الملك»، قدمه الحاكم واصطنعه وولاّه حلب، ولما مات الحاكم وولي الظاهر، عصى عليه، فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاً له على قتله، فقتله.

وفي سنة (٤١٤هـ): اتفق ثلاثة من أمراء العرب، وهم: حسان أمير طيء، وصالح ابن مرداس أمير بني كلاب، وسنان بن عليان، على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ابن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحسان، ودمشق لسنان. فقصد صالح حلب، فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحاً؛ لإحسانه إليهم، ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم، فَمَلَكَ من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين. **وفي سنة (٤٢٠هـ):** جهَّز الظاهر صاحب مصر جيشاً سيَّره إلى الشام، لقتال صالح وحسان ـ وكان مقدم الجيش أنوشتكين البربري والالتقاء عند طبرية، فقتل في الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح، فجاء إلى حلب، وملكها. وكان يلقب بـ «شبل الدولة»، وقد

استمرت الدولة المرداسية بحلب إلى سنة (٤٧٢هـ)، **وهذا ثبت ملوكها:**

١ ـ صالح بن مرداس .... (٤١٤ ـ ٤٢٠ هـ)
٢ ـ شبل الدولة أبو كامل نصر .... (٤٢٠ ـ ٤٢٩ هـ)
* الفاطميون .... (٤٢٩ ـ ٤٣٤ هـ)
* معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح .... (٤٣٤ ـ ٤٤٩ هـ)
* الفاطميون .... (٤٤٩ ـ ٤٥٢ هـ)
* رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة .... (٤٥٢ ـ ٤٥٣ هـ)
* معز الدولة (ثانياً) .... (٤٥٣ ـ ٤٥٤ هـ)
* أبو ذؤابة عطية بن صالح .... (٤٥٤ ـ ٤٥٤ هـ)
* رشيد الدولة (ثانية) .... (٤٥٤ ـ ٤٦٨ هـ)
* جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة .... (٤٦٨ ـ ٤٦٨ هـ)
* أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة .... (٤٦٨ ـ ٤٨٢ هـ)

وهذا آخرهم، وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التي تقدَّم ذكرها.

●● في المشرق:

كانت المملكة السامانية بما وراد النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها. كان أميرها نوح بن منصور، وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون ابن سليمان بن أيلك خان المعروف بـ «غراخان»، وكان دولته جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف، ففي سنة (٣٨٣هـ)، غزا بغراخان في بخارى بممالأة أبي الحسن سمجور أمير خراسان لنوح. وكان القصد: أن يملك الأول ما وراء النهر كله، والثاني: إقليم خراسان. فسار بغراخان نحو بخارى، واستولى على بلادها شيئاً بعد شيء، ثم نازل بخارى، فاختفى نوح وملكها بغراخان ونزلها وخرج منها نوح مستخفياً، فعبَر النهر إلى آمد، وأقام بها ولحق به أصحابه، يريد إعادة الكرَّة على بخارى، وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل، اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده. وبينما هو سائر، أدركه أجله، ولما سمع نوح بذلك، عاد إلى دار ملكه، وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خان، ثم مات بعقب ذلك، نوح سنة (٣٨٧هـ)، وخلفه ابنه منصور، وبايعه الأمراء والقواد.

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح، سار إلى سمرقند وسيَّر الجنود لأخذ بخارى، يقدمها فائق أحد القواد السامانية، قبلاً فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح، أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق، فاستمرت الحال ذلك إلى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد

الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه، وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير. وأعقب ذلك موت فائق، وهو مدبر الأمر فارتبك أمرهم، وكان نجم الدولة السبكتيكينية قد بزغ بخراسان أيلك خان إلى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالاة والحمية له فظنوه صادقاً ولم يحترسوا منه وخرج إليه بكتوزون وبقية الأمراء. فلما اجتمعوا، قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذي الحجة، سنة (٣٨٩هـ)، فلم يدر عبد الملك ما يصنع، فاختفى فنزل أيلك خان دار الإمارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه بافكند، فمات بها. وهو آخر ملوك الدولة السامانية. وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس، وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل في حوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر. وكانت هذه الدولة العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الأيكلخانية، فأخذت منهم ولايات ما وراء النهر، وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان.

●● الدولة السبكتكينية:

من ضمن أعمال الدولة السامانية: غزنة، وهي مدينة عظيمة، وولاية واسعة، طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند، ويلفظها الخاصة: غزنين، وكان صاحب جيشها: إسحاق بن البتكين، وكان ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده، وعليه مدار أمره. قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه إسحاق، فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه إلى غزنة، فلم يلبث إسحاق أن توفي فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وخلال الخير فيه، فوليهم وأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم سياسة حسنة، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال، وكان يدخر من إقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم في كل أسبوع مرتين، وكان جنده يطيعونه طاعة تامة، فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد، ثم استولى على مدينة بست وقصدار، ولما رأى ملك الهند جيبال ما دهاه، وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده، فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه، فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه، وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه، واستقر الأمر على ذلك، ولما أبعد ملك الهند، ورأى نفسه في مأمن، خَاسَ بعده فسار سبكتكين نحوه حتى وردلفان، وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام. ولما علم جيبال، حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة،

فقوي سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج.

وفي سنة (٣٨٤هـ): لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية، رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه، فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال، ويأمره بالمسير إليه؛ لينجده، وولاه خراسان، فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها. ولما بلغ قائدي نوح الخبر وهما فائق وأبو علي بن سيمجور ، راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكراً، فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكراً كثيراً وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحي هراة، فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التي انهزم إليها أبو علي وفائق، فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان، فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة، ولقب أباه ناصر الدولة، فأحسن السيرة. وأقام محمود بنيسابور، وعاد نوح إلى بخارى، وسبكتكين إلى هراة.

لما علم أبو علي بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور، طمع في استردادها، فقدم إليها ومعه فائق، فخرج إليها محمود وقاتلهما. ولما كانت رجاله قليلة، لم تمكنه المقاومة، فانهزم عنهما قاصداً أباه. فلما استقرَّ هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممداً لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبي علي بنواحي طوس، فانهزم أبو علي هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين.

وفي سنة (٣٨٧هـ): توفي سبكتكين بعد بلخ وغزنة، ودفن بغزنة بعد مُلك دام عشرين سنة، وكان عادلاً خيراً كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحُسن ووفاء، وعهد بالملك من بعده لابنه إسماعيل. وكان أصغر من أخيه محمود، فاستضعف الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له: إن أباك إنَّما عهد إليك لبعدي عنه، وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير، ويطلب منه الوفاق وإنفاذ ما يخصه من تركة أبيه، فلم يفعل. وكان ذلك داعياً إلى أن محموداً قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة، ولما تم له أمر غزنة، واستقام له الملك، عاد إلى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين، وواسط عقدهم، لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة. وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية، انتهت بالنصر والتمكين له في خراسان، فأزال عنها اسم السامانية، وخطب للقادر بالله سنة (٣٨٩هـ)، وجعل أخاه نصراً قائداً لجند نيسابور، وسار هو إلى بلخ، فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته.

كان عهد محمود، عهد ارتفاع وقوة، فوسّع أملاكه، فقد كانت في الأصل بلاد

غزنة، ثم ضم بلاد الغور، وهي جبال ووديان بين هراة وغزنة، وأكبر ما فيها قلعة يُقال لها: فيروزكوه. ثم أدخل جزءًا عظيماً من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمير. فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند، وقد عبر نهر الكنج في فتوحاته. ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والري والجبال، ودانت له ملوك طبرستان وجرجان، ولم يزل في عزّه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة (٤٢١هـ). عهد بالملك من بعده لابنه محمد، وكان أصغر من مسعود، ولُقِّبَ بجلال الدولة، إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود، فسار إليه، وأخذ الملك منه. وتوفي القادر بالله والملك في آل سبكتكين لمسعود بن سبكتكين. وقد استمرت الدولة في أعقاب هذا البيت إلى سنة (٥٨٢هـ)، وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ سبكتكين .... (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ)
٢ ـ إسماعيل بن سبكتكين .... (٣٨٧ ـ ٣٨٨هـ)
٣ ـ يمين الدولة محمود بن سبكتكين .... (٣٨٨ ـ ٤٢١هـ)
٤ ـ جلال الدولة محمد بن محمود .... (٤٢١ ـ ٤٢١هـ)
٥ ـ ناصر دين الله مسعود .... (٤٢١ ـ ٤٣٢هـ)
٦ ـ شهاب الدولة مودود بن مسعود .... (٤٣٢ ـ ٤٤٠هـ)
٧ ـ مسعود بن مودود .... (٤٤٠ ـ ٤٤٠هـ)
٨ ـ بهاء الدولة أبو الحسن علي بن مسعود بن محمود .... (٤٤٠ ـ ٤٤٠هـ)
٩ ـ عز الدولة عبد الرشيد بن محمود .... (٤٤٠ ـ ٤٤٤هـ)
١٠ ـ جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود .... (٤٤٤ ـ ٤٥١هـ)
١١ ـ ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد .... (٤٥١ ـ ٤٩٢هـ)
١٢ ـ علاء الدولة مسعود بن إبراهيم .... (٤٩٢ ـ ٥٠٨هـ)
١٣ ـ كمال الدولة شيرزاد بن مسعود .... (٥٠٨ ـ ٥٠٩هـ)
١٤ ـ سلطان الدولة أرسلان بن مسعود .... (٥٠٩ ـ ٥١٢هـ)
١٥ ـ يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود .... (٥١٢ ـ ٥٤٧هـ)
١٦ ـ معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه .... (٥٤٧ ـ ٥٥٥هـ)
١٧ ـ تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه .... (٥٥٥ ـ ٥٨٢هـ)

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية.

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة

(٤٠٣هـ)، ثم فلك المعالي منوجهر بن بستون بن وشمكير إلى سنة (٤٢٠هـ)، ثم أنوشروان بن قابوس إلى سنة (٤٣٤هـ)، وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية.

أمَّا السلطان ببلاد العراق، **فكان لأربعة ملوك من آل بويه** يتلو أحدهم الآخر.

الأول: بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة، وهو الذي ولى القادر الخلافة، وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه، وآذن البيت كله بالانحلال. وكانت وفاته سنة (٤٠٣هـ)، وكان في سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان.

الثاني: سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة، ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه، بل كان عهد ضعف واستكانة. فإن جنده ما كانوا يطيعونه، وكثيراً ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها، وكان ذلك سبباً لقيام أخيه، وهو:

الثالث: شرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة. قام على أخيه، وانتزع منه ملك العراق، فخطب له ببغداد في آخر المحرم سنة (٤١٢هـ)، ونفي سلطان الدولة عن العراق، فذهب إلى بلاد فارس، وضبطها، ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق، ولسلطان الدولة فارس وكرمان، إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل، فإنه توفي سنة (٤١٥هـ) بشيراز، وخلفه ابنه أبو كاليجار. وفي ربيع الأول سنة (٤١٦هـ)، توفي شرف الدولة. وكان كثير الخير قليل الشر، عادلاً، حسن السير.

الرابع: جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة، خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه، وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها، وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها، وإنَّما بلغ واسطاً وأقام بها، ثم عاد إلى البصرة، فقطعت خطبته لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة الذي كان صاحب الأهواز، وكان بها وراسله الجند في ذلك فوعدهم أن يجيء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد؛ لعدم السلطان. وكثر شر الأتراك بها، ولما رأى ذلك عقلاء القواد، راسلوا جلال الدولة ليصعد إليهم فيملك أمرهم، وخطبوا باسمه في جمادى الأولى سنة (٤١٨هـ)، فما عتم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته، فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه. وكان ينازعه أخوه أبو كاليجار. وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع.

لم يكن للخليفة القادر بالله شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين ابن بويه، إلا أن ضعف بيت الملك أحيا له شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك، فقد كان حليماً كريماً خيراً يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله، وكان حسن الاعتقاد. صنف كتاباً على مذهب أهل السنة والجماعة، وكان يخرج من داره في زي العامة، ويزور قبور الصالحين. وإذا وصل إليه حال، أمر فيه بالحق.

وكان في زمنه أحداث عظام في جميع الأصقاع الإسلامية؛ من قيام دول وإبادة أخرى، وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه، إلا ما كان من البلاد التي تحت يد الدولة المضرية، فإنها كانت تخطب باسم أئمتها. ومع ذلك، فإن المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان، دعا باسم القادر على منابر بلاده.

●● وفاة القادر بالله:

توفي القادر بالله في ذي الحجة سنة (٤٣٢هـ)، وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر، وخلافته (٤١) سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوماً.

❊ ❊ ❊

٢٦ ـ القائم

هو: أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله. ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه، وكانت بيعته في ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ)ـ نوفمبر سنة (١٠٣١م)، وبقي خليفة إلى (٣) شعبان سنة (٤٦٧هـ) ـ (٣) أبريل سنة (١٠٧٥م)، فكانت مدته (٤٤) سنة و(٢٥) يوماً.

كان سلطان العراق لأول عهد جلال الدولة بن بهاء الدولة، ولم يكن أمره في سلطانه على سداد؛ لكثرة شغب الغلمان والأتراك عليه، طالبين مرتباتهم التي لم يكن يقدر على أدائها في أوقاتها؛ لقلة الوارد عليه، فلم تجيء سنة (٤٢٦هـ) إلا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعاً ببغداد، حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذ دوابهم فعادوا إلى قراح الخليفة فنهبوا شيئاً من ثمرته وقالوا للعمال فيه: أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا، فسمع الخليفة الحال فعظم عليه. ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه. واجتهد في تسليم الجند إلى نائب الخليفة، فلم يمكنه ذلك، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى، فلما رأى ذلك جلال الدولة، سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم

إلى دار الخلافة، ففعلوا. فلما وصلوا إليها، أطلقوا عظم أمر الغيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً، ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم. وانتشر العرب في البلاد فنهبوا النواحي، وقطعوا الطريق، وبلغوا أطراف بغداد، حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر.

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة، كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطاً في أمر الصلح. ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته، سأل الخليفة القائم سنة (٤٢٢هـ) أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك، فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين في مثل ذلك، فأفتى بالجواز، القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصيرفي، والقاضي ابن البيضاوي، وأبو القاسم الكرخي، وامتنع من الفتيا أبو الحسن الماوردي، وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات، فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة، وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم، فلما أفتى بهذه الفتيا، انقطع ولزم بيته خائفاً، وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم النحر، فاستدعاه جلال الدولة، فحضر خائفاً فأدخله وحده، وقال له: قد علم كل أحد أنك من أكثرالفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منّا، قد خالفتهم فيما خالف هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة واتباع الحق. وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم، وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحب، فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف، وهكذا يفعل بالإنسان قول الحق، حسبما يعتقد لا يخشى في ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان.

قضى جلال الدولة حياته في منازعات بينه وبين جنوده، وبينه وبين أبي كاليجار إلى أن توفي سنة (٤٣٥هـ) بعد ملك مدته (١٦) سنة و(١١) شهراً. قال ابن الأثير: ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه، ودوام ملكه إلى هذه الغاية، علم أن الله على كل شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان يزور الصالحين ويقرب منهم، وزار مرة مشهدي علي والحسين - عليهما السلام - وكان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ؛ يفعل ذلك تديّناً.

استقر في الملك بعده، منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزباني بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة. ولقبه الخليفة محيي الدين، ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيراً ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد

وكانت وفاة أبي كاليجار سنة (٤٤٠هـ).

بُويع بالسلطان بعده، ابنه أبو نصر خسرو فيروز، وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم، فلم يجب إلى ذلك، وقال: لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى، فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه، فكان ما أراد. واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة. وقد استمر سلطاناً حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان، وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادتها فساداً وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة، فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفريقين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة؛ لضعفه، ولا السلطان؛ لأنه كان يعين طائفته. ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم، وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعو إلى وقوف بعضهم متحاربين.

وعلى الجملة، فإن البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم. وأجمل هذه المدة، عهد عضد الدولة فاخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق.

❊ ❊❊

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبير عشيرة السلاجقة. تُنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق. وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة، إلى قوله يرجعون، وعن أمره يصدرون، وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم، فلما كبر، ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم، فقرَّبه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسي)، وكانت امرأته تخوفه من سلجوق؛ لِمَا ترى من طاعة الناس له، فأغرته قتله، وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزّاً إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك)، وصار يشن الغارة على بلاد الترك.

في تلك الأوقات، قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهاون بن أيلك خان، وقد استولى هارون على بعض بلاد. فرأى أن يضرب الحديد بالحديد، فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه أرسلان في جمع من أصحابه فقوي بهم الساماني، واسترد من خصمه ما أخذه. وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية.

لم يزل سلجوق بجند حتى توفي له ثلاثة من الأولاد، هم: أرسلان، وميكائيل، وموسى. فأما ميكائيل، فغزا غزوة في بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده، وهم: بيغوا وطغرلبك محمد وجغرى بك داوود فأطاعتهم عشيرتهم.

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخاً منها. فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم، فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان، وأقاموا في بلاده. ولمزيد حرصهم على أنفسهم، اتفق طغرلبك وداوود أنهما لا يجتمعا عند بغراخان حذراً من مكر يمكره بهم، وكأن بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده، فلم ينجح، فقبض على طغرلبك وأسره، فثار داوود في عشائره ليخلص أخاه، فأنفذ إليه بغراخان عسكراً فانهزم ذلك العسكر، وخلص طغرلبك من الأسر وانصرف إلى جند.

لما انقرضت دولة السامانية سنة (٣٨٩هـ)، وملك أيلك خان عظم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر، وكان علي تكين أحد قواد السامانية، في حبس أرسلان خان، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما أيلك فهزماه وبقيا ببخارى.

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلا ما وراد النهر، هرب علي تكين من بخارى. وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته، فإنهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود، فرأى من قوتهم ما هاله، وأراده أن يستعمل معهم الحيلة، فكاتب أرسلان واستماله ورغَّبه، فورده عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه في قلعة ونهب حركاته، ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرَّقهم في بلاد خراسان، فلما تطمأنوا بها من جور العمال عليهم، فسار منهم أهل ألفي خركاه، فلحقوا بأصبهان، ومنها إلى أذربيجان، ودخلوا مراغة سنة (٤٢٩هـ)، وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة، فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء.

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين، فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم. رأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك، فافترقوا فرقتين؛ فطائفة سارت إلى الري، ومقدمهم بوقا. وطائفة سارت إلى همذان، ومقدمهم منصور وكوكتاش.

أما الذين ذهبوا إلى الري، فإنهم استولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشاً وسبوا النساء، وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم إلى الجامع، وتفرق الناس كل مذهب ومهرب، وكان السعيد من نجا بنفسه. وكادوا يستأصلون أهل الري.

وأمَّا الذين ساروا إلى همذان، فإنهم ملكوها أيضاً من يد بني بويه سنة (٤٢٠هـ)، ولما دخلوها، نهبوها نهباً منكراً لم يفعلوه بغيرها من البلدان، غيظاً منهم وحنقاً عليهم، حيث قاتلوهم أولاً، وأخذوا الحرم وضربت سراياهم إلى أسداذبان وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد.

ولم يزالوا على هذا الإفساد والتخريب، حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم ينال أخو طغرلبك إلى الري، فلما علموا بمسيره، جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان، فلم يمكنهم القيام بها؛ لِمَا فعلوه بها أولاً، ولأن إبراهيم ينال وراءهم، وكانوا يخافونه؛ لأنهم كانوا له ولأخيه طَغرلبك رعية، فساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان، فأخربوا ونهبوا أعمالها، إلى أن بذل لهم سليمان مالاً ليفارقوا عمله. إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية، فانهزم عنهم لما حاربوه، فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش إلى مدينة السن، وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد، يعرفه الحال، ويطلب النجدة، واستنجد أيضاً دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب الأكراد.

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة؛ من الفتك، وهتك الحريم، ونهب الأموال. ولما اشتد الأمر على أهل الموصل، ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيراً، فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم، ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف في أهلها وأسروا كثيراً ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون وينهبون.

لما طال مقامهم بتلك البلاد، كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرلبك يشكون ما حل بالبلاد من تلك الفئة.

بقي قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار إلى الموصل، وبلغ الخبر الغز فهيئوا للحرب. فاجتمعت القوتان على نهر العجاج، وكان النصر أولاً للغز، ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة، وأخذهم السيف وتفرَّقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وحركاتهم، وكفى الله أهل الموصل شرهم، وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم عاد منهم فقصدوا ديار بكر، وصاروا يعيثون فساداً، ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم. ويسمي التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية، وهي بقايا من كان مع أرسلان بن سلجوق.

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق، فإنهم أقلعوا بنواحي بخارى ـ كما قدَّمنا ـ فغص بمكانهم أمير بخارى عليَ تكين فأعمل الحيلة في الظفر بهم، فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق ومنَّاه الإحسان، وفوَّض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين في

ولايته، ولقبه بالأمير اينانج بيغو، وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابني عمه طغرلبك وداوود، وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض، فلم تجز هذه الحيلة على يوسف، فلم يكن من علي تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم على ابني عمه فجمعا قومهما للأخذ بثأره، وجمع علي تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه، ثم احتشد علي تكين مرة ثانية، وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر، نحو خراسان. فكتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه، فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة (٤٢٦هـ)، واطمأنوا إلى خوارزم شاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعاً، فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناً له على من يعاديه، فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا، فأوقع السلاجقة بجيش مسعود، ولما بلغه ذلك، ندم على رده طاعتهم وعلم أن هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره، فأرسل إليه يتهددهم ويتوعدهم فكتب إليه طغرلبك هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فلما ورد الكتاب على مسعود، كتب ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطئ جيحون، وينهاهم عن الشر والفساد، وأقطع داهستان لداوود - وداهستان: مدينة عند مازندان بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان -. وأقطع نسا لطغرلبك، وأقطع فراوة لبيغو - وفراوة: بلدة مما يلي خوارزم - بناها عبد الله بن طاهر.

استخف السلاجقة برسل مسعود؛ لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم، ومسعود قد شغل عنهم بنفسه، وأعرض عن خراسان والسلاجقة، فاجتمع وزراؤه وقالوا له: إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً، ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة، فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده، وكان داوود قد استولى على مرو وأحسن السيرة في أهلها، وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة (٤٢٨هـ)، ولقب في الخطبة بملك الملوك.

جاءت الجنود المسعودية، فالتقت بجند داوود عند باب مرو، فلم يثبت العسكر المسعودي، وانهزم أقبح هزيمة، وسار أخزى سير إلى هراة، فتبعهم داوود إلى طوس.

---

(١) آل عمران: ٢٦.

وكانت هذه الواقعة هي التي ملك السلاجقة بعدها خراسان، ودخلوا قصبات البلاد، فدخل طغرلبك نيسابور، وخطب له بها في شعبان، ولقِّبَ بالسلطان المعظم، وفرَّقوا النواب في النواحي.

علم ذلك مسعود، فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة في جيوش عظيمة، حتى وصل بلخ. ومنها سار في أول رمضان سنة (٤٢٩هـ)، واستعد له السلاجقة، فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود، فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس، وغنم السلاجقة من هذا العسكر ما لا يدخل تحت الإحصاء، فقسَّمه داوود على عسكره وآثرهم على نفسه.

بعد تلك الواقعة، عاد طغرلبك إلى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة (٤٣١هـ)، وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا في شدة من الفوضى، ثم ملك داوود بلخ. وفي سنة (٤٣٣هـ)، ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير. وفي سنة (٤٣٤هـ) ملك خوارزم.

لما تم له ذلك، سار يريد الري وبلاد الجبل، وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال، واستولى على الري، فلما سمع بقدومه سار إليه، وسلمه إياها وجميع ما ملك من بلاد الجبل، فأمر طغرلبك بعمارة الري وكانت قد خَرِبَت، ثم سار إلى قزوين فملكها صلحاً، وملك أيضاً همذان.

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الإسلامية، وهي: خوارزم، وخراسان، وبلاد الري. ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية. أهَمَّ ذلك الملك، أبا كاليجار صاحب العراق، ولم يجد في نفسه قدرة على صدّ ذلك السيل، فأرسل إلى طغرلبك في الصلح، فأجابه إليه، واصطلحا وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم ينال، يأمره بالكف عما وراء ما بيده. واستقرَّ الحال على أن يتزوج طغرلبك. وتم هذا في ربيع الأول سنة (٤٣٩هـ).

وفي سنة (٤٤١هـ):خطب لطغرلبك بديار بكر. خطب له بها نصر الدولة بن مروان صاحبها.

وفي سنة (٤٤٢هـ):استولى على أصبهان، ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة، فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ دهائنهم، ثم سار إلى أرمينية وقصد ملاذجرد وهي للروم فحصرها وأخرب ما حولها، وأثر في بلاد الروم آثار

عظيمة. وبلغ في غزوته هذه إلى أرزن الروم (ارضروم)، ولما هجم عليه الشتاء، عاد إلى أذربيجان، ثم توجه إلى الري، فأقام بها إلى سنة (٤٤٧هـ).

في هذا الوقت، كانت الأحوال سيئة في بغداد، فإن آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم، فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارىء ولا من عياريها ولصوصها. فأعدوا الجمهور لقبول ما يغيّر هذه الحال. ومما زاد الحال فساداً، ما كان من أمر أبي الحارث أرسلان المعروف بـ «البساسيري» وهو غلام تركي من مماليك بهاء الدولة، فإنه أراد أن يزيل الخلافة عن بني العباس، وكاتب الخليفة المستنصر العلوي بمصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد. والخليفة العباسي عنده، علم ذلك. فكتب إلى السلطان طغرلبك مستنجداً مستغيثاً ـ وكانت هذه أمنيته ـ فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها، فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات، فعظم الإرجاف ببغداد وقت أعضاد الناس. وصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان، فأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ في إظهار العبودية والطاعة إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان، فاتفق من بغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة. وفعلاً تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد، فخطب له في يوم الجمعة (٢٢) محرم سنة (٤٤٨هـ)، ودخلها طغرلبك في الخامس والعشرين منه، وقبض على آخر سلاطين بني بويه، وهو الملك الرحيم، وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهي دولة السلاجقة.

هذه العشيرة، استولت على جل ما ملكه المسلمون، وقد انقسمت إلى خمسة بيوت:

الأول: السلاجقة العظمى، وهي التي كانت تملك خراسان والري والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز.

الثاني: سلاجقة كرمان.

الثالث: سلاجقة العراق.

الرابع: سلاجقة سوريا.

الخامس: سلاجقة الروم.

أمَّا السلاجقة الكبرى: فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبو طالب طغرلبك، وحياتها

(٩٣) سنة، من سنة (٤٢٩هـ / ١٠٣٩م) إلى سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٧م)، وهذا ثبتها:

١ ـ ركن الدين أبو طالب طغرلبك .... (٤٢٩ ـ ٤٥٥هـ)
٢ ـ عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان .... (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ)
٣ ـ عضد الدين أبو الفتح ملكشاه .... (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ)
٤ ـ ناصر الدين محمود .... (٤٨٥ ـ ٤٨٧هـ)
٥ ـ ركن الدين أبو المظفر بركيا روق .... (٤٨٧ ـ ٤٩٨هـ)
٦ ـ ركن الدين ملكشاه الثاني .... (٤٩٨ ـ ٤٩٨هـ)
٧ ـ غياث الدين أبو شجاع محمد .... (٤٩٨ ـ ٥١١هـ)
٨ ـ معز الدين أبوالحارث سنجر .... (٥١١ ـ ٥٢٢هـ)

وأمَّا سلاجقة كرمان: فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق، وهو أخو ألب أرسلان، ومدة ملكهم (١٥٠) سنة، من سنة (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م) إلى سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٨م)، وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ عماد الدين قرا أرسلان قاروت بك .... (٤٣٣ ـ ٤٥٦هـ)
٢ ـ كرمان شاه .... (٤٥٦ ـ ٤٦٧هـ)
٣ ـ حسين .... (٤٦٧ ـ ٤٦٧هـ)
٤ ـ ركن الدين سلطان شاه .... (٤٦٧ ـ ٤٧٧هـ)
٥ ـ توران شاه .... (٤٧٧ ـ ٤٩٠هـ)
٦ ـ أران شاه .... (٤٩٠ ـ ٤٩٤هـ)
٧ ـ أرسلان شاه .... (٤٩٤ ـ ٥٣٦هـ)
٨ ـ مغيث الدين محمد الأول .... (٥٣٦ ـ ٥٥١هـ)
٩ ـ محيي الدين طغريل شاه بهرام شاه .... (٥٥١ ـ ٥٦٣هـ)
* أرسلان شاه الثاني
* طرخان شاه
* محمد الثاني .... (٥٦٣ ـ ٥٦٣هـ)

وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان.

وأمَّا سلاجقة العراق وكردستان: فقد ابتدأت دولتهم سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م)؛ أي: من

عهد وفاة غياث الدين أبي شجاع محمد، سابع ملوك السلاجقة، وانتهت سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، فبقيت (٧٩) سنة، وانقرضت على أيدي شاهات خوارزم، وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ مغيث الدين محمود .... (٥١١ ـ ٥٢٥هـ)

٢ ـ غياث الدين داوود .... (٥٢٥ ـ ٥٢٦هـ)

٣ ـ طغريل الأول .... (٥٢٦ ـ ٥٢٧هـ)

٤ ـ غياث الدين مسعود .... (٥٢٧ ـ ٥٤٧هـ)

٥ ـ معين الدين ملك شاه .... (٥٤٧ ـ ٥٤٨هـ)

٦ ـ محمد .... (٥٤٨ ـ ٥٥٤هـ)

٧ ـ سليمان شاه .... (٥٥٤ ـ ٥٥٦هـ)

٨ ـ أرسلان شاه .... (٥٥٦ ـ ٥٧٣هـ)

٩ ـ طغريل الثاني .... (٥٧٣ ـ ٥٩٠هـ)

وأمَّا سلاجقة سوريا: فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق. وقد ابتدأت دولتهم سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)؛ أي: في أول عهد ركن الدين بركيا روق خامس ملوك السلاجقة العظمى، وانتهت سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م)، فكانت حياتها (٢٤) سنة، وانتهت على أيد الدولتين النورية والأرتقية، وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ تتش بن ألب أرسلان .... (٤٧٧ ـ ٤٨٨هـ)

٢ ـ رضوان بن تتش .... (٤٨٨ ـ ٤٨٨هـ)

٣ ـ تقاق بن تتش في دمشق .... (٤٨٨ ـ ٥٠٧هـ)

٤ ـ ألب أرسلان أخرص بن رضوان .... (٥٠٧ ـ ٥٠٨هـ)

٥ ـ سلطان شاه بن رضوان .... (٥٠٨ ـ ٥١١هـ)

وأمَّا السلاجقة الروم ملوك قونية وأقصرا: فكانوا من بيت قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق. وقد ابتدأت دولتهم سنة (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) في عهد جلال الدين أبي الفتح ملك شاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى، وانتهت سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، فمدة حياتها (٢٣٠) سنة، فهي أطول دول السلاجقة حياة. وقد انتهت دولتهم على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول، وهذا ثبت ملوكها

١ ـ سليمان بن قطلمش .... (٤٧٠ ـ ٤٧٥هـ)

٢ ـ قليج أرسلان داوود بن سليمان .... (٤٧٥ ـ ٥٠٠هـ)

٣ ـ ملك شاه بن قليج أرسلان .... (٥٠٠ ـ ٥١٠هـ)
٤ ـ مسعود بن قليج أرسلان .... (٥١٠ ـ ٥٥١هـ)
٥ ـ عز الدين قليج أرسلان بن ملك شاه .... (٥٥١ ـ ٥٨٤هـ)
٦ ـ قطب الدين ملك شاه بن قليج أرسلان .... (٥٨٤ ـ ٥٨٨هـ)
٧ ـ غياث الدين كيسخرو بن قليج أرسلان .... (٥٨٨ ـ ٥٩٧هـ)
٨ ـ ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان .... (٥٩٧ ـ ٦٠٠هـ)
٩ ـ قليج أرسلان بن سليمان .... (٦٠٠ ـ ٦٠١هـ)
* غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ثانياً .... (٦٠١ ـ ٦٠٧هـ)
١٠ ـ عز الدين كيقاوس بن ملك شاه .... (٦٠٧ ـ ٦١٦هـ)
١١ ـ علاء الدين كيقباذ بن ملك شاه .... (٦١٦ ـ ٤٩٨هـ)
١٢ ـ غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ .... (٦٣٤ ـ ٥١١هـ)
١٣ ـ عز الدين كيقاوس بن كيخسرو .... (٦٤٣ ـ ٦٥٥هـ)
١٤ ـ ركن الدين قليج أرسلان بن كيسخرو .... (٦٥٥ ـ ٦٦٦هـ)
١٥ ـ غياث الدين بن كيخسرو بن قليج أرسلان .... (٦٦٦ ـ ٦٨٢هـ)
١٦ ـ غياث الدين مسعود بن كيقاوس .... (٦٨٢ ـ ٦٩١هـ)
١٧ ـ علاء الدين كيقباذ .... (٦٩١ ـ ٧٠٠هـ)

الذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين (٤٤٧هـ) ـ إلى سنة (٥٩٠هـ)؛ أي: (١٤٣) سنة.

استخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية، تسعة خلفاء؛ وهم:
٢٦ ـ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر.
٢٧ ـ عبد الله المقتدي بالله بن محمد بن القائم.
٢٨ ـ أحمد المستظهر بن المقتدي.
٢٩ ـ الفضل المسترشد بن المستظهر.
٣٠ ـ المنصور بن راشد بن المسترشد.
٣١ ـ محمد المقتفي بن المستظهر.
٣٢ ـ يوسف المستنجد بن المقتفي.

٣٣ ـ الحسن المستضيء بن المستنجد.
٣٤ ـ أحمد الناصر بن المستضيء.

وأولهم: القائم بأمر الله:

هو الذي في عهده انتهى العصر البويهي، وابتدأ مُلك السلجوق، وآخرهم الناصر لدين الله هو الذي انتهى في عصره مُلك السلاجقة.

مَلَك السلطان طغرلبك بغداد وتقرَّب من الخليفة تقرَّباً عظيماً، حتى إن الخليفة تزوج أرسلان خاتون واسمها خديجة بنت داوود، أخي طغرلبك. وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة. ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحدّ، بل إن السلطان طغرلبك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسي - وهو أمر لم تجر به العادة -، فأرسل سنة (٤٥٣هـ)، يخطب بنت الخليفة، فانزعج الخليفة من هذا الطلب، وأرسل إلى السلطان رسولاً أمره أن يستعفى من الإجابة، فإن أعفى، وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان (٣٠٠٠٠٠) دينار، ويسلم واسط وأعمالها، فلما وصل الرسول، قال له عميد الملك الكندري وزير طغرلبك: لا يحسن أن يرد السلطان، وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضاً بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما طلب منه، ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الإجابة وطالع السلطان فَسُرَّ به، وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية، وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك، وأمر الوزير أن يسير إلى بغداد لإتمام ذلك، فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعاً ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود، فتكلم، وقال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضي إلى فساد، ولما رأى الخليفة شدة الأمر، أذن في العقد وكّل فيه عميد الملك فجرى العقد في شعبان سنة (٤٥٤هـ) بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد لزوجته ولوالدتها وغيرهم، وجعل يعقوباً وما كان بالعراق لخاتون زوجة السلطان التي توفيت للسيدة ابنة الخليفة. ولما تم ذلك، حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك، وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة، فنقلت إلى دار المملكة في منتصف صفر سنة (٤٥٥هـ)، وجلست على سرير

مبلس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها وبقي كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور.

●● الحادث العظيم ببغداد:

في السنة التي تلي حكم السلاجقة ببغداد وهي سنة (٤٤٨هـ)، كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيري ومعه نورالدولة دبيس بن مزيد الأسدي، وبين قريش ابن بدران العقيلي ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك، انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل فيها الخليفة، فسار عنها بجيوشه، فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال، ثم عاد إلى بغداد في أوائل سنة (٤٤٩هـ)، وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد، وقد بالغ طغرلبك في احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم، وقلد سيفاً محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بـ «ملك المشرق والمغرب»، فقبّل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينيه تبركاً. نعم ما فعل من ذلك التعظيم والإجلال تديناً.

وفي سنة (٤٥٠هـ): ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل، ويقال: إن المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك، فأهم ذلك السلطان وسار وراءه إلى همذان. في ذلك الوقت، عاد البساسيري بقوته، وكان المصريون يساعدونه ويمدونه. ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل بغداد في ثامن ذي القعدة سنة (٤٥٠هـ)، واستولى عليها؛ لأنه ليس بها جند يحميها، وطخب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوي صاحب مصر، وأذن بخير العمل. وكانت العامة قد مالت إليه. أمَّا الشيعة، فلاتحاد المذهب. وأمَّا أهل السنة، فَلِمَا فعل بهم الأتراك.

أمَّا الخليفة القائم، فإنه خرج من قصره في ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي، استذم منه بذمام الله وذمام رسوله ﷺ وذمام العربية. فأعطاه ذلك، ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة، ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة، وبيده السيف، وعلى رأسه اللواء. وأنزله في خيمة، ثم سلمه إلى ابن عمه مهاريش بن المجلي، وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هودج وسار به إلى حديثة عانة، فتركه بها آمناً مطمئناً في ذمام العربية الذي يرى الخيانة عاراً.

أما البساسيري، فإنه سار ببغداد سيرة ملك، ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التي أُرسلت إليه من مصر، ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة، وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل علي.

أمَّا السلطان، فإنه استنجد بأولاد أخيه أرسلان وياقوتي وقاروت بك، فجاؤوه بالعساكر يتلو بعضها بعضاً، فلقي بهم أخاه إبراهيم ينال، بالقرب من الري. فتغلب عليه وأسره، ثم أمر به فخنق بوتر قوسه في تاسع جمادى الآخر سنة (٤٥١هـ). ولما تم له ذلك، عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته، ولما قارب بغداد، أدرك البساسيري أنه لا قِبَل له بمقاومته، فرحل عن بغداد، وكان دخوله إليها سادس ذي القعدة سنة (٤٥٠هـ)، وخروجه منها سادس ذي القعدة سنة (٤٥١هـ). وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد، المعروف بـ «ابن فورك»، إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة، ويخبره أنه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة، وإحضاره. فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له: أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك؛ ليكف بلاء الغزو عنا. والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك، فارحل أنت وأهلك إلى البرية، فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد. فأبى ذلك مهارش، وقال: إن الخليفة قد استحلفني بعهود ومواثيق لا مخلص منها. وسار بالخليفة إلى العراق، وقد لقيهما ابن فورك بتل عُكبرا، فساروا معاً حتى وصلوا إلى النهروان في (٢٤) ذي القعدة. فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة، فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهنَّأه بالسلامة، وأظهر الفرح بسلامته، واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم، وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية، فقلَّده الخليفة بيده سيفاً، وقال: لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه. وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء، فخدموا وانصرفوا، ثم ساروا جميعاً إلى بغداد، وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذي القعدة سنة (٤٥١هـ).

ثم أنفذ السلطان جيشاً لملاحقة البساسيري، الذي توجه سمت الشام وسار السلطان في أثرهم، فقابلته الطلائع ببعض الطريق، فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد. وكان البساسيري هذا، مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة الديلمي، تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور، وكنيته: أبو الحارث ـ وهو منسوب إلى بسا، مدينة بفارس ـ كان سيده الأول منها.

وبعد أن تم ما أراده، عاد إلى الري التي جُعلت دار ملكه، وكان له ببغداد محافظ

يسمى الشحنة.

وفي سنة (٤٥٥هـ): عاد إلى بغداد ليبني بابنة الخليفة ـ التي ذكرنا فيما مضى حديثها ـ ثم عاد إلى الري، وبها كانت وفاته في يوم الجمعة (٨) رمضان سنة (٤٥٥هـ).

ولما توفي، أراد عميد الملك أن يقيم في الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داوود، ولكن لم يتهيَّأ له ما أراد، وتم الأمر للسلطان.

وثانيهم: عضد الدولة أبي شجاع ألب أرسلان محمد بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق.

وقد عارضه في الملك ابن عم أبيه قتلمش بن إسرائيل، فقتل دون مراده. استعان ألب أرسلان في إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك ـ وسيأتي التعريف به، وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه ـ.

كان ألب أرسلان، بعيد الهمة، ثاقب العزم، ميمون النقيبة إلى بره بالرعية، وإرادته خيرهم. وكان إذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان، ويقول: آثارنا هذه تدل على علو همّتنا ووفور نعمتنا. وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية، فقد أقبل لأول عهده سنة (٤٦٢هـ) ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها، فأساء ذلك ألب أرسلان ـ ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكر ـ فأغذ السير إلى أذربيجان؛ لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة، ولما قارب خِلاط، أرسل إليها بعشرين ألف فارس، فوقف في أوجههم مقدم عسكر خِلاط، وانتصف منهم، وذلك في رابع ذي القعدة سنة (٤٦٣هـ). ثم تلاحق عسكر الرومَ ونزل على خِلاط محاصراً ونزل على ملاذكرد فسلمت حاميتها. حصل ذلك والعسكر السلطاني مجد في سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده، بل قال: أنا أحتسب عند الله نفسي بالشهادة. وكان وصول السلطان في اليوم الذي سلمت فيه حامية ملاذكرد. وكان نزول عسكره في يوم الخميس (٦) ذي القعدة، والروم بين خلاط وملاذكرد. فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له: إن كنت ترغب في الهدنة أتممْنا ما تريد، وإلا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا. فظنَّ ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور، فقال للرسول: سوف أجيب عن هذا بالري، فكان ذلك مما ألهب النفوس الإسلامية وزادها حمية. وقال إمام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي للسلطان: إنك تقاتل عن دين الله الذي وعد بإظهاره، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، والناس يدعون لك على المنابر. فلما أصبحوا يوم الجمعة، وكادت الشمس تزول، تهيَّأ السلطان وعبَّأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب؛ لأنه قسمهم أربع فرق، كل فرقة أقامها في نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء

جند العدو، ثم أشعل نار الحرب بهمَّته العالية، واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم، وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أُخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم. قالوا: وكان من الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة، منهم منجنيق له ثمانية أسهم، ويمد فيه ألف ومائتا رجل، ويحمله مائة عجلة يرمي حجراً وزنه ـ بالرطل الكبير الخِلاطي ـ قنطار، وكثر عدد الأسرى من الروم، وكذلك الغنائم ـ حتى سقطت قيم الدوابِّ والكراع والسلاح والمتاح، فبيعت (١٢) خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار.

وعاد السلطان مؤيداً ظافراً بعد هذه الواقعة التي لم تقم للروم بعدها قائمة في نواحي أرمينية.

وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة، لا للسيف وحده، بل للعلم أيضاً. فإنَّ نظام الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد. وقد تم بناؤها سنة (٤٥٨هـ)، ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق، بل وبغيرها، ـ وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ـ. ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفي المملكة ببغداد، بنى على ضريح أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ بباب الطاق، مشهداً ومدرسة لأصحابه، وكُتب على تلك القبة:

ألم تر هذا العلم كان مشتتاً   فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة   فأنشرها فضل العميد أبي سعد

وفي سنة (٤٦٥هـ): توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك، فعبر نهر جيحون، ولكن المشيئة سابقته فسبقته. حكي عنه أنه قال ـ وهو يقرب من الموت ـ: ما كنت قطّ في وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكَّلت على الله، وطلبت منه النصر. وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تل عال فرأيت عسكري، فقلت: أين من له قدر بمصارعتي ومعارضتي، وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين. فكان ما أراد الله. وكانت وفاته في (٦) ربيع الأول، سنة (٤٦٥هـ).

ولي السلطنة بعده، ولي عهده: السلطان جلال الدولة أو الفتح ملكشاه.

ولأوائل حكمه، توفي الخليفة القائم بأمر الله ، ثالث عشر شعبان، سنة (٤٦٧هـ)، فقام بالأمر بعده: ولي عهده حفيده.

* * *

٢٧ ــ المقتدي بأمر الله

هو: أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة، أبي العباس محمد بن القائم. ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه، فإنَّ الذخيرة توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره. فأيقن الناس بانقراض نسله، وانقراض الخلافة من البيت القادري إلى غيره. ولم يشكُّوا في اختلاف الأحوال بعد القائم؛ لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد ويجرون مجرى السوقة، فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم، لم يكن له قبول ولا هيبة. فقدَّر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمينية اسمها أرجوان، وكان يلم بها. فلما توفي ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر، وذلك الولد هو: عبد الله؛ الذي ولاه جده العهد بعده، لما بلغ الحلم. وقد بُويع بعد وفاة جده، واستمر خليفة إلى أن توفي فجأة في يوم السبت الخامس عشر من محرم سنة (٤٨٧هـ). فكانت خلافته (١٩) سنة وثمانية أشهر غير يومين، وهو من خيرة بني العباس. كان قوي النفس، عظيم الهمَّة، أصلح كثيراً من الأحوال الأدبية ببغداد، فأمر بنفي المغنيات والمفسدات منها، ووقع الهرادي والأبراج التي للطيور، ومنع من اللعب بها، لأجل الاطلاع على حرم الناس، ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين، ولذلك أصلح كثيراً من الماديات، فعمرت في بغداد عدة محال في خلافته، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجمي فيغسله هناك. وكانت أيامه كثيرة الخير، واسعة الرزق، وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله، وكان سلطان السلاجقة في عهد ملكشاه ـ الذي ذكرنا قيامه ـ بعد أبيه ألب أرسلان.

وكان ملكشاه سلطاناً عدلاً ذا فضل وإنصاف، شجاعاً مقدماً، صائب الرأي والتدبير. أيامه في دولة السلاجقة واسطة عقدها، وكان ميمون النقيبة، لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه. ولما توجه إلى الشام وأنطاكية، بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تُحمل إلى خزانته، ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين، ثم عاد إلى الري. وقصد سمرقند، فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار في ركابه إلى موضع سرير ملكه، ثم مَنَّ عليه وأعاده إلى ملكه. وتوجه في السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء

بالمشرق والمغرب. وهذه السعادة كلها، إنَّما تيسَّرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق رضي أمير المؤمنين الطوسي، وكان معدوداً من العلماء الأجواد، وكان محباً للعلم، مجلسه دائما معمور بالقرَّاء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار والبلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما. وكان يقول: إني لست من أهل هذا الشأن، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ. وكان إذا سمع المؤذن، أمسك عن كل ما هو فيه، وتجنبه. فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وأسقط في زمنه كثيراً من المكوس والضرائب، وهو الذي أزال لعن الأشعرية من المنابر، وكان سلفه عميد الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك التقديم بلعن الرافضة، فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع. فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم، مثل: إمام الحرمين، وأبي القاسم القشيري، وغيرهما. فلما ولي نظام الملك، أزال ذلك جميعه، وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

ومن طريف الأخبار: أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري، يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه، فقيل له ذلك، فقال: إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليَّ يقولون لي أنت كذا وكذا، يثنون بما ليس فيَّ فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً. وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه. وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد في أمرها.

وعلى الجملة، فكان غرة في جبين آل سلجوق.

ومن حسناته: حجة الإسلام الإمام الغزالي، فهو قرينه في الطلب، ازدانت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس، وكان مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته، وهما: كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء، وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والدهاء والجود، ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة، لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً، بل ما زالوا في سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته، فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصي على الوزير ما يفوه به، وكان مضمون الرسالة: إنك استوليت على ملكي

وقسّمت مماليكي على أولادك وأصهارك، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك؟ فكان جوابه عن تلك الرسالة: قولوا للسلطان: إن دواتي مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رُفع، ومتى سلبتها سُلب. فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان، وكان بعد ذلك أنَّ أحد الملاَّحة اعتدى على نظام الملك، فقتله، وذلك سنة (٤٨٥هـ).

ومن غرائب المصادفات: أن السلطان لم يعش بعده إلا (٣٣) يوماً، وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي، ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً، فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام. ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن. وحملت إليه الروم الجزية، ولم يفته مطلب. وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد. أسقط المكوس والمؤن من جيمع البلاد، وعمر الطرق والقناطر والمرابط التي في المفاوز وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد، وعمل المصانع بطرق مكة، وبنى البلد بأصبهان.

وكأن للسلطان ملكشاه أربعة بنين، هم: بركياروق، ومحمد، وسنجر، ومحمود. وكان محمود طفلاً،وأمه تركان خاتون، فطلبت من الخليفة المقتدي أن يعين ولدها للسلطنة، فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها، إلا أن جنود نظام الملك، ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان، فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه، وكانت وفاته في (١٥) محرم، سنة (٤٨٧هـ).

●● وفاة المقتدي:

في منتصف المحرم سنة (٤٨٧هـ)، توفي المقتدي بالله فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق، فقرأه وعَلِمَ ما فيه، ولم يمضه.

❊ ❊ ❊

٢٨ ــ المستظهر بالله

بُويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله، واستمر خليفة إلى أن توفي في (١١) ربيع الآخر، سنة (٥١٢هـ)، فكانت خلافته (٢٤) سنة وثلاثة أشهر و(١١) يوماً، وكانت سنّه حين توفي (٤١) سنة وستة أشهر وستة أيام.

●● حال الممالك الإسلامية في عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين، والقائم بأمرهم: يوسف بن تاشفين إلى سنة (٤٨٠هـ)، ثم من بعده ابنه علي إلى سنة (٥٣٧هـ).

وبإفريقية من آل زيرى: تميم بن المعز بن باديس إلى سنة (٥٠١هـ)، ثم يحيى بن تميم إلى سنة (٥٠٩هـ)، ثم علي بن يحيى إلى سنة (٥١٥هـ).

وبمصر من الفاطميين: المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى سنة (٤٩٥هـ)، ثم الآمر بأحكام الله علي المنصور بن المستعلي إلى سنة (٥٢٤هـ).

وبزبيد من الدولة النجاحية: الأمير جيش بن نجاح سنة (٤٩٨هـ)، ثم فاتك بن جيش إلى سنة (٥٠٣هـ)، ثم منصور بن فاتك إلى سنة (٥١٧هـ).

وبصنعاء ومهرة: ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من سنة (٤٩٢) إلى سنة (٥٠٢هـ)، ثم عبد الله بن حاتم إلى سنة (٥٠٤هـ)، ثم معن بن حاتم إلى سنة (٥١٠هـ)، ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا، فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر بالله من خيار بني العباس، ليّن الجانب، كريم الأخلاق، يحب الاصطناع ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات، مشكور المساعي، لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض، وكانت أيامه أيام سرور لرعيته، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد، بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه، وكان حسن الخط، جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد، وله شعر رقيق، فمن ذلك قوله:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا   لما مددت إلى رسم الوداع يداً

وكيف نسلك نهج الاصطبار وقد أرى طرائق في مهوى الهوى قدداً
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي من بعد هذا فلا عاينته أبداً

تولى ملك العراق في خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق. أولهما: السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه. ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين بن نظام الملك، ولم يكن فيه شيء من كفاية أبيه. وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب الطغراء، وتولى ديوان الاستيفاء الأستاذ علي بن أبي علي القمي، وكانوا جميعاً سواسية في النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة. والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك في شرابه. وقد ذهب الجميع إلى بغداد واختاروا المقام فيها لاَهين بمغانيها وغوانيها. وكان ذلك مجرئاً عم السلطان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يكون طالباً السلطنة لنفسه، فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان، ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعدّ تتش للأمر عدته، فعاد سنة (٤٨٧هـ) بجنوده التي أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان، ثم أرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له، فأُجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لمّ بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه في موضع قريب من الري، فكانت الهزيمة على جند تتش. وأما هو فثبت حتى قُتل، وذلك سنة (٤٨٧هـ)، واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل، وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد الله بن نظام الملك الذي استوزر بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه، وكان وحيداً في بلاغة النظم والنثر. ولما هيَّأ السلطان بالفتح قال له: كل هذا ببركتك ويُمْن نقيبتك. إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن، لم تطل. فإن أمّ السلطان كانت متداخلة تداخلاً كثيراً في سياسة دولة ابنها فتغيّر قلبها على الوزير. ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر، أرسل وبذل أموالاً جزيلة في الوزارة، فأُجيب إليها، وعزل أخوه، واعتقل. فاحتال حتى خلص من اعتقاله، وتوجه إلى محمد بن ملكشاه الذي كان ملكاً على أران ومقره مدينة جنزة، فقبّله محمد واصطفاه واستشاره في مهماته، ثم سلم إليه وزارته، فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران في شرذمة يسيرة حتى وصل إلى دار الملك أصفهان، فلم تستعص عليه فملكها واستمال إليه العساكر، فمالوا إليه.

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه في وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين، بل على البيت السلجوقي كله، بل على الإسلام جميعاً، فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة (٤٩٢) حتى سنة (٤٩٧هـ) خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند، حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال. والإفرنج تحرَّكُوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس ـ كما زعموا ـ وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون.

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما، وعم الفساد، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم، وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين. وكان السلطان محمد بأذربيجان، والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت. وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد. وأمَّا البصرة، فكان يخطب فيها لهما جميعاً. وأما خراسان، فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له في جميعها وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر، ولأخيه السلطان محمد. فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح، فسارا إليه ورغباه في الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام في أطراف الأرض. فأجاب إلى ذلك، واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمداً في السبل، وألا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له، وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء، وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهي الحلة، وما إليها. وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلاف والشغب، ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح، فإنه توفي في ثاني ربيع الآخر سنة (٤٩٧هـ).

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه، إلا أن أمره لم يتم فإن عمه محمداً ما عتم أن قَدِمَ إلى بغداد بجيوشه الوافرة، فلم يكن أمامه من يقدر على رده، وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب؛ ليقوم بما يجب عليه لمولاه، ولكن الله حسن

الصلح والاتفاق فتم ذلك، وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع، ثم عاد إلى دست ـ ملكه بأصفهان ـ.

ولم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته، وقد كانت الأعمال الكبرى في دولة آل سلجوق، هي:

١ ـ الوزارة.

٢ ـ استيفاء المملكة، ويقال لصاحبها: المستوفي.

٣ ـ الطغراء، وهو رياسة الديوان، ومن جملته: ديوان الرسائل والإنشاء.

٤ ـ الإشراف وعرض الجيش.

قال بعض الكتّاب في حق السلطان محمد: قد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخيّر كلاب الصيد وفهوده، وإنّما يقتني منها ما يراه موافقاً لمقصوده، فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله، فما باله لا يتخيّر لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه زاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم؟! لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار، فإنهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمته. ولعدم حُسن الاختيار، كثر الاضطراب والتغيير. واستمر ملك محمد هذا إلى سنة (٥١١هـ)، حيث توفي في (٢٤) ذي الحجة وعُمره إذ ذاك (٢٧) سنة، وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً. وقد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يعرف منه فعل قبيح. وعلم الأمراء سيرته، فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين، أبوالقاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين، وخطب له ببغداد في (١٣) محرم سنة (٥١٢هـ).

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلاً بعد وفاة محمد ملكشاه، فإنه توفي (١٦) من ربيع الآخر، فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم إلا أقل من أربعة أشهر.

كان في حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب.

فأمّا في الشرق: فظهور الباطنية وعيثهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها.

وأمّا في الغرب: فأغارت الفرنج على البلاد الإسلامية، وبدأت الحروب الصليبية.

ولا بد أن نشير إلى كل من الحادثتين بكلمة؛ لنبيّن كيف كان ابتداؤهما. فإن استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية؛ لأن الحادثين يتعلقان بها. فالباطنية أنصارهم.

* * *

الباطنية

لما نجح الفاطميون في إقامة دولتهم بالمغرب، ثم بمصر. واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحي الفرات، دار في خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم. وكانت الطريقة التي جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار، فيدعون الناس إليهم سراً ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة مهروا في إبداعها.

وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن، عليها رجل كبير يُعرف بداعي الدعاة، ودرجته تلي قاضي القضاة، وكان الدعاة يحصلون على أسرارالدعوة بمصر، ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاماً مسنوناً.

ومن البلاد التي اهتم الفاطميون بها، وأرسلوا دعاتهم إليها: البلاد الفارسية، وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه، وسبب هذا الرواج: أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار، وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم، أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد، فلم تكن تخفى عنهم الأخبار، فلما تولى السلطان ألب أرسلان، فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر، فأجابه: لا حاجة إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر خبراً وكان له غرض، أخرج الصديق في صورة العدو، والعدو في صورة الصديق. ومن أجل ذلك، أسقط السلطان هذا الرسم. فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً.

وأول ما عرف من أمرهم: أنه اجتمع منهم (١٨) رجلاً بمدينة ساوة، وهي مدينة بين الري وهمذان، فصلُّوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم، فهذا أول اجتماع كان لهم. ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان، فلم يجبهم إلى دعوتهم، فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه، فهو أول قتيل لهم، وأول دم أراقوه. فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير، فأمر بأخذ من يُتهم بقتله، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقُتِل، ومثّل به، فهو أول قتيل منهم.

ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك، أمروا واحداً منهم فقتله، وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم، وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به. وأول موضع غَلَبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهي بين نيسابور وأصبهان، وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده

وقووا به فاجتازت به قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركماني، فوصل إلى قاين وأخبر بالخبر، فتسارع أهلها إلى جهادهم، فلم يقدروا عليهم، ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه، فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ـ ولا سيما بأصبهان ـ واستولوا على قلعة أصبهان وهي قلعة بناها السلطان ملكشاه.

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد، هو: أحمد بن عبد الملك بن عطاش، فقدموه عليهم وألبسوه تاجاً ـ وجمعوا له ـ الأموال، ثم ظهر منهم الرئيس الثاني، وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش، ثم رحل إلى مصر، فلقي بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية، وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم، ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة ألموت وتحصَّن بها، وهي من نواحي قزوين في موضع حصين. ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفي، فلما بلغه الخبر، بعث إلى تلك القلعة عسكراً، فحصروا فيها ابن الصباح، وأخذوا عليه الطرق، ولما ضاق ذرعاً بالحصر، أرسل من قتل نظام الملك، فلما قُتِل رجع العسكر عنها.

ودخل في حوزتهم أيضاً بعض قهستان وطبس، وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر، وغير ذلك من القلاع التي جعلوها حصوناً لهم ومعاقل. تمكّنت أقدامهم بالبلاد الفارسية، وصار يحسب لهم حساب، وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأماني الجميلة التي يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس، فيأتون بالعجب العجاب. وقد صارت الناس فيهم فرقتين، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة. فمن عاداهم خاف من فتكهم، ومن سالمهم نسبه الناس إلى الارتكاس في عقيدتهم. وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين. ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرآء السقم، وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً؛ لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد، وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاروت بك، فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم، فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التي هي مدينة كرمان، واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه بن كرمنشاه بن قاروت بك. ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس في كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا

ومظاهرها الكاذبة، فلما رأوا جد السلطان في إبادة القوم، سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد؛ لِمَا بينهما من العداوة، ولم يبق للناس في هذا المصاب رأي ولا تدبير.

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم دخول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر، وكان أكثر من قتلوا ممن هو في طاعة السلطان محمد أخي بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه، واتهموه بالميل إليهم. فلما ظفر السلطان بركياروق وهُزم أخاه محمد انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسراً، بل يلبس تحت ثيابه درعاً واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية، وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم،حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد ، يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون : ياباطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها، فأذن السلطان في قتلهم والفتك بهم، وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم، ولم يفلت منهم إلا من لم يُعْرَف، وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم.

ومن الغريب، أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسي مدرس النظامية، ورفيق الغزالي في الطلب والتلمذة لإمام الحرمين، فأمر السلطان محمد فقبض عليه، فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرة في العلم، فأطلق.

وفي سنة (٤٩٤هـ): جمع الأمير بزغش ـ وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر ـ جموعاً كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الإسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم أكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق، فخرب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك، ثم عاد إليهم سنة (٤٩٧هـ)، بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة، ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم، فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح، ونعوه على سنجر. ثم توفي بزغش بعد عوده من هذه الغزاة.

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعياً إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك.

ومن جملة أعمالهم الخبثة، أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند والشام وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى جوار الري، فأتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً.

وفي سنة (٥٠٠هـ): رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة، فإن أمره استفحل بالقلعة التي ملكها بجوار أصبهان، وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله. فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى، فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم، ونسي أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم، والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم. فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم؛ لأنَّ الأذى بها أكثر. وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلاً يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه، واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للدخول التي يطالبونهم بها، وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ، ورتب الأمراء لقتالهم، فكان يقاتلهم كل يوم أمير، فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم، وتعذرت عندهم الأقوات. ولما اشتد الأمر عليهم، كتبوا فتوى فيها: (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وإنَّما يخالفون الإمام، هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى؟). فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم. فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن السمجاني ـ وهو من شيوخ الشافعية ـ فقال بمحضر من الناس: يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين، فإنهم يُقال لهم: أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع، أتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون: نعم، وحينئذٍ تباح دماؤهم بالإجماع. وطالت المناظرة في ذلك.

ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصاً من العلماء، منهم: القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره، فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا، وإنَّما كان قصدهم: التعلل والمطاولة، فلجَّ حينئذ السلطان في حصرهم، فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يُعطواْ عنها قلعة خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان، وقالوا: إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة، فلا بد من مكان نحتمي فيه، فأشير على السلطان بإجابتهم إلى

ما طلبوا. فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خلنجان ويسلموا قعلتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح، وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم، وأن من أتاه منهم رده إليهم. فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقاتة ما يكفيهم يوماً بيوم، فأُجيبوا. وكان قصدهم المطاولة انتظاراً لفتق أو حادث يتجدد. ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه، فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم، فوثبوا عليه فجرحوه وسَلَم منهم. وحينئذ أمر السلطان بإخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسلّ السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان، وهي لهم. وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس، وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة ألموت، فأُجيبوا إلى ذلك، فنزل جماعة إلى الناظر وإلى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها، ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم، فلم يسلم السن الذي بقي بيده وبان للسلطان منه الغدر، فقرر الزحف عليه، فزحف الناس كافة عليه، وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل، فظهر منهم صبر عظيم جداً وشجاعة زائدة، وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم، فدله على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام، فقال: اصعدوا من هنا. فقيل: إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال، فقال: إن الذي ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين رجلاً، فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من خرجوا معهم. وأما ابن عطاش، فأخذ أسيراً، فترك أسبوعاً، ثم قتل هو وولده، ومثّل بهما وحملت رؤوسهما إلى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت، وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة.

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته، كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة ألموت وما معها، فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم، فجعل قصدهم دأبه، وكانت أيام ابن الصباح قد طالت، وله منذ ملك قلعة ألموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة. وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم، فسير إليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً. ولما أعضل داؤه، ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آبة وساوة وغيرهما. فملك منهم عدة قلاع. وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها إلى ألموت،ولما تهيّأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه،سار إلى قلعة ألموت

فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم، مع جودة رأي وشجاعة، فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها، فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار، وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال، فضاق الأمر على الباطنية، وعدمت عندهم الأقوات وغيرها. فلما اشتد عليهم الأمر، أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا، فلم يجابوا إلى ذلك وأعداهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً، وكان ابن الصباح يجري على كل رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات، فلما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد الذي لا مزيد عليه، بلغهم موت السلطان محمد، فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصرة لهم بعدهم بيوم، فعزموا على الرحيل، فقال لهم شيركير: إن رحلنا عنهم وشاع الأمر، نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر. والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها، وإن لم يمكن المقام، ولا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله؛ لئلا يأخذه العدو. فلما سمعوا قوله، أجابوه، ولكنهم لما أمسوا، رحلوا من غير مشاورة، فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم.

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه. وسنذكر بعد خاتمة أمرهم.

•• خطر المغرب:

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية، كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية. وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحاً وافياً، فإنها حوادث أجيال؛ إذ قد استمر أمرها من سنة (٤٩٠) إلى سنة (٦٩٠هـ)؛ أي: قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الإسلامية: الفاطمية بمصر، ودولة السلاجقة ودول الاتابكية التي تفرعت عن السلاجقة، ودول الأيوبية، ودولة المماليك البحرية بمصر. ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق، نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم.

امتد سلطان السلاجقة إلى بلاد الروم (أرمينية والأناضول)، وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما إليها. وأخذا بمخنق الروم فقصدوا كل حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقي لهم من الأملاك في آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قليج أرسلان داوود بن قلتمش (٤٨٥ـ ٥٠٠هـ).

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق، وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب أرسلان، وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك.

وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ ـ ٤٩٥).

كان بيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني فاستمر في حوزته إلى سنة (٤٨٩هـ)، وهي السنة التي سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء المغتصبين.

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب في السبب الذي حدا بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة، فقال فريق منهم: إن هذه الحملة كانت في الأصل موجهة إلى شمال إفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ ـ ٥٠١هـ)، وكان رجار الصقلي قد قام في عهده واستولى على صقلية وحارب تميماً في عقر داره حروباً كانت بينهما سجالاً، ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه؛ لأنه قال: إذا وصلوا إليَّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي. أيضاً فإن فتحوا البلاد التي كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم. ويقول تميم: غدرت ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها. ومن أجل ذلك: أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس؛ لأن الجهاد في تخليصه أعظم أثراً وأبقى فخراً.

وقال فريق آخر: إن أصحاب مصر من العلويين، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، وقد دخل بعضهم فعلاً إلى بلاد مصر، لما رأوا ذلك، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين.

وقال فريق من غيرهم: إن ملك الروم هو الذي دعا الفرنج إلى ذلك، لما خاف على دولته من السلاجقة، فإنهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل.

والذي عليه جمهور المؤرخين: أن الغيرة الدينية التي أثارها في أوروبا بطرس الراهب

بمساعدة البابا أوربانس الثاني هي التي هاجت أنفس الإفرنج لهذه الإغارة.

وكل هذه الأسباب، لا يبعدها العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضاً والإفرنج يميلون إلى جعلها حرباً دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية في ذلك العصر.

زار بطرس الراهب البيت المقدس، فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذي فيه آثار المسيح ـ ﷺ ـ فعاد إلى أوروبا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعاً واستعان بسلطان البابا أوربانس الثاني الذي كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا في أوروبا فأعانه وعقد المؤتمرات؛ لبث الحمية الدينية في قلوب المسيحيين، فنجح في ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع في هذه الحرب، فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها في (٢٥) أغسطس سنة (١٠٩٦م) ـ (٤٨٩هـ). يقدمها بطرس الراهب وغيره، إلا أن هذه الحملة لم تنجح في مسيرها؛ لأنها لم تكن ذات نظام عسكري، فعاثت في الأرض فساداً، فقاومها البلغاريون والهونفريون وأفنوا كثيراً منها. والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج أرسلان عند قونية، فلم ينج منهم أحد.

وهذه هي الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى، قامت على أثرها حملة أخرى، وهي الحملة الثانية يقدمها غودا فرودي بوليون دوق دي لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد، وجيش ثالث يقدمه يوهيمند أمير تارنت الإيطالي.

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس، ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التي كانت من أعمال قليج أرسلان وعددهم عظيم جداً، فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون؛ لكثرة عددهم، ثم حصروا قونية نحو خمسين يوماً. وفي نهايته سلمت حامية هذه المدينة، لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذي أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية، وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً في مسيره، ففني كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد في العلو والرفعة. وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك.

صار القوم إلى أنطاكية، وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحياطه ما لم يشاهد من غيره،

فهلك أكثر الفرنج. وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذي بذل له الإفرنج مالاً وأقطاعاً، وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التي كانت للروم لا نطلب سواها، وإنّما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. وقد كان ما أرادوا. سار الإفرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها.

كان البيت المقدس في تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون، فإنهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية، أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالي، فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركماني واستناب فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة وهو الذي تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها. حصروا بيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة. وأخيراً استولوا عليه في يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة (٤٩٢هـ)، ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع، بل أساؤوا معاملة أهله وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه.

ولما تم للإفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس، انتخبوا القائد غودافر ليكون ملكاً هناك، ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك، بل بحامي قبر المسيح. وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم.

وضع غودافر قانوناً بإدارة مملكته الجديدة، إلا أن زمنه لم يطل، فإنه توفي في (١٨) يوليو سنة (١١٠٠م)، فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافر، وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودين دي بورغ ملكاً على الرها وسار هو إلى حاضرة ملكه وهو المعروف في التواريخ العربية باسم بردويل.

هكذا وجدت مملكة إفرنجية في وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هي تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين؛ المصريون يناوشونهم من الجنوب، والأتراك من الشرق. ولم تكن المملكة الإفرنجية واحدة في البلاد التي استولوا عليها، بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وأنطاكية والرها وغير ذلك، إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس. وسنتكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الإفرنج.

* * *

٢٩ ـ المسترشد بالله

هو: أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر. ولاه أبوه بالعهد، فبُويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده (١٦) ربيع الآخر سنة (٥١٣هـ) ـ (٧) أغسطس سنة (١١١٨م). واستمر خليفة إلى أن قتل في يوم الأحد (١٧) ذي القعدة سنة (٥٢٩هـ)ـ (٣٠) أغسطس سنة (١١٣٥م).

كان سلطان العراق لأول عهده هو: السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه. وكان السلطان سنجر بن ملكشاه في ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقي وعظيمه. فلما توفي أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الخطباء يذكرون السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك. وكان يلقب ناصر الدين، فلما توفي أخوه تلقّب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محمود أرسل إلى عمه سنجر وفداً معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندان فغاظه هذا الطلب وقال: إن ولد أخي صبي وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الري بالقرب من ساوة. وكان العسكر المحمودي قد استهان بالعسكر السنجرى لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم. ولما حصل اللقاء، انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوي على شيء.

أما سنجر، فكان واقفاً في القلب وأمامه السلطان محمود، وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم، فقال: إما النصر، وإما القتل. وأمَّا الهزيمة فلا. وهجم بفيلته على قلب محمود هجوماً شديداً فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود. ولما تم النصر لسنجر، أرسل من رد المنهزمين من جنده. ورد الخبر إلى بغداد في عشرة أيام، فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر، ففعل. أما محمود، فإنه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه.

وأمَّا سنجر، فسار إلى همذان، وهناك راسل ابن أخيه في الصلح، وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول: قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت

ما لأحد قدر عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم. فأجاب إلى قولها. وبعد مطاولات تقرر الصلح. وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ في إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة، فقبلها ظاهراً ورده باطناً. ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع عماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولي عهده ورد عليه جميع ما أخذ منه سوى الري.

ولم يكد السلطان محمود ينتهي من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان، وذلك سنة (٥١٤هـ). وقد أجج الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الإفرنجية التي صارت شوكة في جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني وهو الذي حسن لمسعود أن يقوم مطالباً بالمملكة. ولما بلغ ذلك محموداً، كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم بالإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته، فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النواب الخمس، ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه، فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبلت الجنود المحمودية بلاءً حسناً فانهزم عسكر مسعود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمي جنودهم، ومنهم: الوزير أبو إسماعيل الطغرائي، فأمر السلطان بقتله، وقال: قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده، وكان حسن الكتابة والشعر.

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الأمان فاستقبله استقبالاً عظيماً ووفى له بما بذله وخلطه بنفسه في كل أفعاله، فعُدَّ ذلك من مكارم محمود. ولا عجب فقد علمه سنجر.

كان الخليفة المسترشد بالله في هذا العصر قد استرد شيئاً من نشاط العباسيين، وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه، وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الْحِلَّة، ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل، ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فإنهم يتخوفون عاقبته ويرون مه خطراً على نفوذهم. ومما يدل على أن ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه، أن شحنة بغداد برنقش الذكوي حصل بينه وبين نواب الخلافة نفرة فتهدده الخليفة، فخاف فسار عن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد

العراق ودخول بغداد، ازداد قوة وجمعاً ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده. فأثر ذلك الكلام في نفس السلطان، وتوجه نحو العراق فأرسل إلى الخليفة يعرّفه بالبلاد وما عليه أهلها من الضعف والوهن، وأن الغلاء قد اشتدّ بالناس؛ لعدم الغلات والأقوات؛ لهرب الأكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالاً كثيراً، فكان هذا مما زاد في إغراء السلطان حتى قصد بغداد، فسار مجداً، ولما بلغ الخليفة الخبر، أظهر الغضب والنزوح عن بغداد، واستعد لذلك إن جاء السلطان، فأثر ذلك في أنفس العامة تأثيراً عظيماً حتى أكثروا البكاء والضجيج. ولما أعلم السلطان بذلك، أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره، فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد، فلم يلتفت السلطان إلى قوله، واستمر قاصداً بغداد.

أمّا الخليفة، فاستعد لمقابلته بالقوة، وكان معه كثير من العامة والجند، يدافعون عنه تدينا. وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول سنة (٥٢١هـ)، وكان مع كلٍ جمع عظيم. ولما رأى المسترشد بالله ذلك، جنح إلى الصلح الذي طلبه السلطان محمود، فتم ذلك. وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد، فلم يفعل. وقال: لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا. وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة (٥٢١هـ)، ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة.

وفي سنة (٥٢٤هـ): ملك السلطان محمود قلعة ألموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح.

وفي سنة (٥٢٥هـ): توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وكان حليماً كريماً عاقلاً، يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا، عفيفاً عنها، كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها.

لما توفي خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل وأذربيجان، إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، فكان الظفر لمسعود، وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد، إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر، فأقبل من خراسان قاصداً دفع مسعود عن السلطنة وسار إليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفلّ جيشه وتحكّم سنجر فيما بقي، ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده، فردّه إليه، فلما حضر عنده قبّله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته، ولم يعده إلى السلطنة، بل رده إلى كنجه. وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له في

جميع البلاد، ثم عاد إلى نيسابور. فلما رأى ذلك مسعود، خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانياً بما جمعه من الجيوش، فدخلها فقابله الخليفة بالإكرام ووعده أن يرسل معه جيشاً لمحاربة طغرل وقد وفّى بما وعد، فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقرّ الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه).

كان هذا الخلاف بين البيت السلجوقي مقوياً للمسترشد، فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذي يجب أن يُطاع لا بالقوة المعنوية وحدها، بل بقوة السيف أيضاً. فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته. وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة، إلا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء. فإن العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الأحوال. ولذلك لما التقى الطرفان، انحاز كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود، فانهزم جند الخليفة، أما هو فبقي ثابتاً حتى أسر. ولما بلغ ذلك الخبر بغداد، قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن.

أمَّا الخليفة فقد جعله السلطان في خيمة ووكل به من يحفظه، وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة، وألا يعود إلى جمع العساكر، وألا يخرج من داره، فأُجيب إلى ذلك. ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد، إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثّلوا به، وكان ذلك في يوم الأحد (١٧) ذي القعدة على باب مدينة مراغة، وكان المسترشد شهماً شجاعاً كثير الإقدام بعيد الهمة، وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط.

قال ابن الأثير: ولقد رأيت خطه في غاية الجودة، ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه. ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته، فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد.

❊ ❊ ❊

٣٠ ـ الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله، ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله. وكان ولي العهد. فلما مات أبوه، جددت له البيعة في (٢٧) من ذي القعدة. وكتب له السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له، وحضر بيعته (٢١) رجلاً من أولاد الخلفاء.

ولم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظاً من أبيه معه، بل حاول الراشد أن يثأر لأبيه ويخل سلطنة مسعود، فاتفق مع داود ابن السلطان محمود أخي مسعود، ومع كثير من أمراء الأطراف، على مقاومة مسعود وخلعه. ولما سمع بذلك مسعود، أقبل مسرعاً صوب بغداد. ولما وصلها، حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها، ولكن سرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين حالفوا الخليفة وتفرَّقُوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأناً عماد الدين زنكي صاحب الموصل. و لما رأى الخليفة ذلك، بارح بغداد في رفقة عماد الدين، ولما رأى مسعود ذلك، دخل بغداد ظافراً. وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التي حلف الراشد بالله لمسعود، وفيها بخط يده: إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعت نفسي من الأمر. فأفتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته (١١) شهراً و(١١) يوماً.

* * *

٣١ ـ المقتفي لأمـــر الله

هو: أبو عبد الله الحسين المقتفي لأمر الله بن المستظهر، اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة، وكانت بيعته في ثامن ذي الحجة سنة (٥٣٠هـ) ـ (٧) سبتمبر سنة (١١٣٦م)، واستمر في الخلافة إلى أن توفي ثاني ربيع الأول سنة (٥٥٥هـ) ـ (١٢) مارس سنة (١١٦٠م)،فكانت خلافته (٢٤) سنة، وثلاثة أشهر، و(١٦) يوماً. وكان عمره إذ توفي (٦٦) سنة.

ولما بايع السلطان المقتفي، صاهره فزوّجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار، وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده. وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه

الخلافة، فاتحد مع الملك داوود ابن السلطان محمود ولكنه - مع ما بذله من المجهود العظيم - لم ينجح. فقد ائتمر به جماعة من الباطنية، فسقوه الردى بنواحي أصفهان.

استمر السلطان مسعود في سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفي سنة (٥٤٧هـ) بهمذان، وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك، وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي، فلم تقم له بعده راية يعتد بها، ولا يلتفت إليها. وكان - رحمه الله - حسن الأخلاق، كثير المزاح، والتبسط مع الناس، وكان كريماً عفيفاً عن أموال الرعية، حسن السيرة فيهم. من أصلح السلاطين سيرة، وألينهم عريكة، سهل الأخلاق. وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده، لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود.

أمَّا الخليفة، فإنه لما بلغه وفاة مسعود، طرد شحنة السلجوقية بها، وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد، وأخذ كل ما لهم فيها، وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان، وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية؛ الْحِلَّة وواسط وغيرها، وخرج بنفسه ليقوي جنده.

أصبح ذلك الملك العظيم الذي أسسه طغريل بك وإخوته، ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهباً تقاسمته دول شتى تُعرف بالدولة الأتابكية، وها نحن أولاء نقتص حديثها.

❋ ❋ ❋

الأتابكية

من الدول التركية التي زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدول الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقي.

وأتابك كلمة تركية معناها: مربي الملك. فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز، أطلقوا عليه هذا اللقب، واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام.

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك في بعض الأقاليم الإسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضاً إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب، بل بلقب شاهات.

وسنسوق أخبارها بالإجمال حسب ترتيب ظهورها.

١ ـ شاهات خوارزم

ينسبون إلى محمد بن أنوشتكين، وكان أبوه أنوشتكين مملوكاً لأمير من أمراء السلجوقيين، اسمه: بلكباك. اشتراه من رجل من غرشستان، فقيل له: أنوشتكين غرشمه، فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف. وكان مقدماً مرجوعاً إليه. ولد له ولد سماه «محمد»، وهو باني هذا البيت. علّمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدّم بنفسه بالعناية الإلـهية فولاه الأمير حبشي قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها، وقرب أهل العلم و الدين فازداد ذكره حسناً ومحلة علواً.

ولما ملك السلطان سنجر خراسان، أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وعمالها، فظهرت كفايته وشهامته، فعظم سنجر محله وقدره.

ولم يزل على جلالة القدر والكفاية، إلى أن توفي سنة (٥٢١هـ)، فولي بعده ابنه أتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة، فزاده تقدّماً وعلواً، ورسخت أقدام هذا البيت في الملك. وقد استمر إلى سنة (٦٢٨هـ)، حيث زال على أيدي التتر الذين هاجموا البلاد الإسلامية بزعامة جنكيزخان ـ كما سيأتي توضيحه ـ. وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية:

١ ـ سبكتكين .... (٤٧٠ ـ ٤٩٠هـ)
٢ ـ قطب الدين محمد بن أنوشتكين .... (٤٩٠ ـ ٥٢١هـ)
٣ ـ أتسز بن محمد .... (٥٢١ ـ ٥٥١هـ)
٤ ـ أرسلان بن أتسز .... (٥٥١ ـ ٥٥٨هـ)
٥ ـ سلطان شاه محمود بن أرسلان .... (٥٥٨ ـ ٥٦٨هـ)
٦ ـ تكش بن أرسلان .... (٥٦٨ ـ ٥٩٦هـ)
٧ ـ علاء الدين محمد بن تكش .... (٥٩٦ ـ ٦١٧هـ)
٨ ـ جلال الدين منكبرتي بن محمد .... (٦١٧ ـ ٦٢٨هـ)

وعلى يد هذه الدولة، انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الري والجبل وما وراء النهر.

٢ ــ الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب التركماني، وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي، وقائد من قوّاده.

وأول من أسس هذا البيت، معين الدولة سقمان بن أرتق. استولى على حصن كيفا سنة (٤٩٥هـ)، من يد الأمير موسى التركماني في عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه، ثم ضمَّ إليها ماردين.

وفي سنة (٦٠٢هـ)، انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتين.

إحداهما: بالحصن، والثانية: بماردين.

فأمَّا مملكة الحصن، فاستمرت إلى سنة (٦٢٠هـ)، وانتهت على أيدي الأيوبيين. وأمَّا مملكة ماردين، فاستمرت إلى سنة (٨١١هـ)؛ أي: بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة، وانتهت على يد قره قيونلي، **وهذه أسماء ملوك الحصن:**

١ ـ معين الدولة سقمان بن أرتق .... (٤٩٥ ـ ٤٩٨هـ)

٢ ـ إبراهيم بن سقمان .... (٤٩٨ ـ ٥٠٢هـ)

٣ ـ ركن الدين داود بن سقمان .... (٥٠٢ ـ ٥٤٣هـ)

٤ ـ قمر الدين قره أرسلان بن داوود .... (٥٤٣ ـ ٥٧٠هـ)

٥ ـ نور الدين محمد بن أرسلان .... (٥٧٠ ـ ٥٨١هـ)

٦ ـ قطب الدين سقمان بن محمد .... (٥٨١ ـ ٥٩٧هـ)

٧ ـ ناصر الدين محمد بن محمد .... (٥٩٧ـ ٦١٩هـ)

٨ ـ ركن الدين مودود بن محمود .... (٦١٩ ـ ٦٢٠هـ)

وهذه سماء ملوك ماردين:

١ ـ نجم الدين غازي بن أرتق .... (٥٠٢ ـ ٥١٦هـ)

٢ ـ حسام الدين تيمور تاش بن غازي .... (٥١٦ ـ ٥٤٧هـ)

٣ ـ نجم الدين ألبي بن تيمور تاش .... (٥٤٧ ـ ٥٧٢هـ)

٤ ـ قطب الدين غازي بن ألبي .... (٥٧٢ ـ ٥٨٠هـ)

٥ ـ حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازي .... (٥٨٢ ـ ٥٩٧هـ)
٦ ـ ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازي .... (٥٩٧ ـ ٦٣٧هـ)
٧ ـ نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان .... (٦٣٧ ـ ٦٥٨هـ)
٨ ـ قره أرسلان بن غازي .... (٦٥٨ ـ ٦٦١هـ)
٩ ـ شمس الدين داوود بن قره أرسلان .... (٦٦١ ـ ٦٩٣هـ)
١٠ ـ نجم الدين غازي بن قره أرسلان .... (٦٩٣ ـ ٧١٢هـ)
١١ ـ شمس الدين صالح بن غازي .... (٧١٢ ـ ٧٦٥هـ)
١٢ ـ المنصور أحمد بن صالح .... (٧٦٥ ـ ٧٦٩هـ)
١٣ ـ الصالح محمود بن أحمد .... (٧٦٩ ـ ٧٦٩هـ)
١٤ ـ المظفر داوود بن صالح. .... (٧٦٩ ـ ٧٧٨هـ)
١٥ ـ الظاهر مجد الدين عيسى بن داوود .... (٧٧٨ ـ ٨٠٩هـ)
١٦ ـ صالح بن داوود .... (٨٠٩ ـ ٨١١هـ)

وصالح هذا، آخر ملك من موالي السلجوقيين.

٣ ـ أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة (٤٩٧هـ)، وأول ملوكها: سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين، وأصله مملوك للملك تتش بن ألب أرسلان أول سلاجقة سوريا، ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم، وكان أتابك ولده دقاق. وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره، فلما توفي دقاق سنة (٤٩٨هـ)، خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل، وله من العمر (١٢) سنة. وأشار عليه أن يقصد الرحبة، فقصدها، فملكها. ولما عاد منها، منعه طغتكين من دخوله دمشق، وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق.

وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الإفرنج في القدس، فلم ينجح. واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل، فسرُّوا به سروراً كثيراً. وقد استمر الملك في عقبه (٥٢) سنة، وانتهى على يد آل زنكي (٥٤٩هـ).

وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ سيف الإسلام ظهير الدين طغكتين (٤٩٧ ـ ٥٢٢هـ)
٢ ـ تاج الملوك بورى (٥٢٢ ـ ٥٢٦هـ)
٣ ـ شمس الملوك إسماعيل (٥٢٦ ـ ٥٢٩هـ)
٤ ـ شهاب الدين محمود (٥٢٩ ـ ٥٣٣هـ)
٥ ـ جمال الدين محمود (٥٣٣ ـ ٥٣٤هـ)
٦ ـ مجير الدين أبق (٥٣٤ ـ ٥٤٩هـ)

٤ ــ أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٢١هـ)، وتُنسب إلى عماد الدين زنكي بن آق سنقر. وكان آق سنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان معدوداً من كبارالقواد. جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش. ولما ملك حلب استنابه فيها، ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملكشاه. وسار في خدمته وكان تتش يمني نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطوا عليها، فأرسل بركياروق إليه الجنود عليهم آق سنقر، فالتقى الفريقان عند نهر سبعين، قريباً من تل السلطان، بينه وبين حلب ستة فراسخ، واقتتلوا. فانهزم مَن مع آق سنقر، وثبت هو فأُسر ثم قتل صبراً، وكان أحس الأمراء سياسة وحفظاً لرعيته.

وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكي في كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لِمَا لأبيه من الأيدي البيضاء في حفظ بيتهم، ولأنه قتل في الدفاع عنهم، فنشأ نشأة عالية ذا همة، مقداماً. وكانوا يستعينون به في مهماتهم، فيكفيهم إياها. وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى ولاَّه السلطان محمود مدينة الموصل سنة (٥٢١هـ)؛ ليقوم بحفظها، وإصلاح شأنها، وجعله أتابك ولده فروخ شاه، المعروف بالخفاجي ليربيه.

أظهر زنكي في ولايته كفاية وقوة وصلاحاً، وكان له في جهاد الصليبيين همَّة لا تزال تُذكر له، وهو رأس الأتابكية من بيت زنكي. وقد انقسمت إلى أربعة دول.

● **الأولى: أتابكية الموصل.**

وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ أتابك عماد الدين زنكي (٥٢١ ـ ٥٤١هـ)
٢ ـ سيف الدين غازي بن زنكي (٥٤١ ـ ٥٤٤هـ)

٣ ـ قطب الدين مودود بن زنكي .... (٥٤٤ ـ ٥٦٥هـ)
٤ ـ سيف الدين غازي بن مودود .... (٥٦٥ ـ ٥٧٦هـ)
٥ ـ عز الدين مسعود بن مودود .... (٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ)
٦ ـ نور الدين أرسلانشاه بن مسعود .... (٥٨٩ ـ ٦٠٧هـ)
٧ ـ عز الدين مسعود بن أرسلانشاه .... (٥٨١ ـ ٦١٥هـ)
٨ ـ نور الدين أرسلانشاه بن مسعود .... (٦١٥ ـ ٦١٦هـ)
٩ ـ نصير الدين محمود بن مسعود .... (٦١٦ ـ ٦٣١هـ)
١٠ ـ بدر الدين لؤلؤ .... (٦٣١ ـ ٦٥٧هـ)
١١ ـ إسماعيل بن لؤلؤ .... (٦٥٧ ـ ٦٦٠هـ)

وبدر الدين لؤلؤ، من هذا البيت، بل هو مولاهم. استقل بأمر المُلك بعد سيده نصير الدين محمود. وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول.

٥ ـ أتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٤١هـ)، وهي السنة التي قُتِلَ فيها عماد الدين زنكي، فإن مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل، ومحمود نور الدين الذي ملك حلب. وانتهت سنة (٥٧٧هـ) على أيدي الأيوبيين، ولم يكن منها إلا ملكان:

أحدهما: محمود نور الدين بن زنكي.

والثاني: الصالح إسماعيل بن محمود.

ومحمود نور الدين هذا، هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب. والرجلان كلاهما له القَدَم الثابتة في جهاد الصليبيين.

٦ ـ أتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٦٦هـ) بعد وفاة قطب الدين مودود، صاحب الموصل. فإن بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي بن مودود، الذي كان ولي عهد أبيه، وهو أصغر الأخوين، وهذا ملك الموصل. والثاني: عماد الدين زنكي بن مودود، وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود. وانتهت هذه الدولة سنة (٦١٧هـ) على أيدي الأيوبيين.

وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ عماد الدين زنكي بن مودود .... (٥٦٦ ـ ٥٩٤هـ)

٢ ـ قطب الدين محمد بن زنكي .... (٥٩٤ ـ ٦١٦هـ)

٣ ـ عماد الدين شاهنشاه .... (٦١٦ ـ ٦١٦هـ)

٤ ـ عمر .... (٦١٦ ـ ٦١٧هـ)

٧ ـ أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٧٦هـ) بعد وفاة سيف الدين غازي بن مودود، صاحب الموصل. فإن بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود، وهو الأكبر. وهذا ملك الموصل. والثاني: سنجر شاه بن مسعود، وهذا ملك جزيرة ابن عمر.

وقد بقيت في يد أولاده إلى سنة (٦٤٥هـ)، حيث أخذها الأيوبيين والذين تولوها، وهم:

١ ـ معز الدين سنجرشاه .... (٥٧٦ ـ ٦٠٥هـ)

٢ ـ معز الدين محمود بن سنجرشاه .... (٦٠٥ ـ ٦٤٨هـ)

٣ ـ مسعود بن محمود .... (٦٤٨ ـ ٦٤٨هـ)

٨ ـ أتابكية إربـــل

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٣٩هـ)، أسسها زين الدين علي كجك بن بكتكين وهو مملوك تركماني لعماد الدين زنكي، جعله أتابك ولده قطب الدين مودود. وقد فتح بلاداً كثيرةً في بدء الدولة الزنكية، كان بيده مهنا سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهرزور وغيرها. واستمر كذلك إلى سنة (٥٦٣هـ)، وقبل أن يموت، سلم جميع ما بيده إلى قطب الدين مودود، ولم يبق له سوى إربل، فسار عن الموصل، وأقام بها.

وفي هذه السنة، توفي فوليّ بدله ابنه زين الدين أبو المظفر يوسف، وهو الصغير، تعصب له مجاهد الدين قايماز. وكان أخوه الأكبر مظفر الدين كوكبوري، فحاول أن يكون بدل أبيه، فلم يحصل على بغيته، فسار إلى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود فأقطعه حران، فأقام بها مدة، ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين يوسف، فحظي

عنده وتمكّن منه، وزاد صلاح الدين في أقطاعه الرها، وزوّجه أخته. وقد حضر معه كثيراً من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة. فلما توفي أخوه يوسف سنة (٦٨٣هـ)، ردّه صلاح الدين إلى ملكه بإربل، فاستقر فيه إلى أن مات سنة (٦٣٠هـ)، وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسي، فبقيت بأيدي العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا.

٩ ــ أتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٣٦هـ)، ومؤسسها هو الأمير إيلدكز، وكان مملوكاً للكمال السميري وزير السلطان محمود السلجوقي، فلما قُتِلَ الكمال، سار إيلدكز إلى السلطان محمود. ولما ولي السلطان مسعود السلطنة، ولاه أرانية فمضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره.

ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها، وأصفهان والري وما إليهما من البلاد. وخطب بالسلطة لأرسلانشاه بن طغرل بك وهو ربيبه. وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع. واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران. ولم يكن للسلطان أرسلان شاه معه حكم، إنّما كانت له جراية تصل إليه. وكان إيلدكز عاقلاً حسن السيرة، يجلس بنفسه للرعية، ويسمع شكواهم، وينصف بعضهم من بعض.

وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

١ ـ شمس الدين إيلدكز .... (٥٣١ ـ ٥٦٨هـ)

٢ ـ محمد البلهوان جهان بن إيلدكز .... (٥٦٨ ـ ٥٨١هـ)

٣ ـ قزيل أرسلان عثمان بن إيلدكز .... (٥٨١ ـ ٥٨٧هـ)

٤ ـ أبو بكر بن محمد .... (٥٨٧ ـ ٦٠٧هـ)

٥ ـ مظفر الدين أزبك بن محمد .... (٦٠٧ ـ ٦٢٢هـ)

وقد انتهت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

١٠ ــ أتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة (٥٤٣هـ)، وتُنسب إلى سلغر؛ أحد قواد التركمان في عهد السلاجقة، وكانت نهايتها سنة (٦٨٦هـ) على أيدي المغول.

وهذا ثبت ملوكها

١ ـ سنقر بن سلغر (٥٤٣ ـ ٥٥٧هـ)
٢ ـ زنكي بن سنقر (٥٥٧ ـ ٥٨١هـ)
٣ ـ دكلا بن زنكي (٥٨١ ـ ٥٩١هـ)
٤ ـ سعد بن زنكي (٥٩١ ـ ٦٢٣هـ)
٥ ـ أبو بكر بن سعد (٦٢٣ ـ ٦٥٨هـ)
٦ ـ محمد بن سعد (٦٥٨ ـ ٦٦٠هـ)
٧ ـ محمد شاه بن محمد (٦٦٠ ـ ٦٦٠هـ)
٨ ـ سلجوقشاه بن سلغر بن سعد (٦٦٠ ـ ٦٦٠هـ)
٩ ـ أبيش بن سعد بن أبي بكر (٦٦٠ ـ ٦٨٦هـ)

١١ ــ أتابكية لورستان (الهزارسبية)

ابتدأت هذه الدولة سنة (٥٤٣هـ)، وهي من فروع الدولة السلغرية أتابكية فارس، أسسها أبو طاهر، أحد قوادهم.

وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ أبو طاهر بن محمد (٥٤٣ ـ ٦٠٠هـ)
٢ ـ نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر (٦٠٠ ـ ٦٥٠هـ)
٣ ـ دكلا بن هزارسب (٦٥٠ ـ ٦٥٧هـ)
٤ ـ شمس الدين ألف أرغو بن هزارسب (٦٥٧ ـ ٦٧٣هـ)
٥ ـ يوسف شاه الأول بن ألب أرغو (٦٧٣ ـ ٦٨٧هـ)
٦ ـ أفراسياب الأول بن يوسف (٦٨٧ ـ ٦٩٦هـ)
٧ ـ نصرة الدين أحمد بن ألب أرغو (٦٩٦ ـ ٧٣٣هـ)
٨ ـ ركن الدين يوسف شاه الثاني بن أحمد (٧٣٣ ـ ٧٤٠هـ)
٩ ـ مظفر الدين أفداسياب الثاني بن يوسف شاه (٧٤٠ ـ ٧٥٦هـ)
١٠ ـ شمس الدين هوشانج بن أفرسياب الثاني (٧٥٦ ـ ٧٨٠هـ)
١١ ـ أحمد (٧٨٠ ـ ٨١٥هـ)
١٢ ـ أبو سعيد (٨١٥ ـ ٨٢٠هـ)

١٣ ـ حسين .... (٨٢٥ ـ ٨٢٧هـ)

١٤ ـ غياث الدين .... (٨٢٧ ـ ٨٢٧هـ)

وقد انتهت هذه الدولة على أيدي الدولة التيمورية.

شاهات أرمينية

ابتدأت دولتهم سنة (٥٨٣هـ)، ومؤسسها هو الأمير سقمان القطبي بمدينة خلاَط، وكان مملوكاً لقطب الدين إسماعيل السلجوقي صاحب مدينة من أذربيجان، ومن ثَم قيل له: القطبي. نشأ شهماً كافياً، وكانت خلاط لبني مروان، وظلموا. واشتهر عدل سقمان، فاتفق أهل خلاط وكاتبوه، فجاء وفتحوها له، وسلموها إليه.

وهذه أسماء الملوك من هذا البيت:

١ ـ سقمان القطبي .... (٤٩٣ ـ ٥٠٦هـ)

٢ ـ ظهير الدين إبراهيم شاه أومن .... (٥٠٦ ـ ٥٢١هـ)

٣ ـ أحمد .... (٥٢١ ـ ٥٢٢هـ)

٤ ـ ناصر الدين سقمان .... (٥٢٢ ـ ٥٧٩هـ)

٥ ـ سيف الدين بكتيمور (كان مملوكاً لهم وهو صاحب ميافارقين) ..... (٥٧٩ ـ ٥٨٩هـ)

٦ ـ بدر الدين أق سنقر .... (٥٨٩ ـ ٥٩٤هـ)

(اسمه هزار ديناري وهو مملوك أق سنقر وزوج ابنته)

٧ ـ المنصور محمد بن بكتيمور .... (٥٩٤ ـ ٦٠٣هـ)

٨ ـ عز الدين بلبان .... (٦٠٣ ـ ٦٠٤هـ)

وقد انتهت دولتهم على أيدي الأيوبيين.

الدولة الغورية

مما يضاف إلى الدول التي حدثت في هذا العهد، الدولة الغورية. وهي دولة قامت على أطلال الدولة السبكتكينية. تُنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها، وهو الغور. وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة. وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة. وأكبر ما فيها، قلعة يُقال لها: فيروزكوه. قام بهذه البلاد آل سام من سنة (٥٤٣هـ) وملكوه ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند، ولم يزل ملكهم قائماً إلى

سنة (٦١٢هـ).

وأول من قام من هذا البيت، قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور، وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة، فعظم شأنه بهذه المصاهرة، وعلت همته، فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم، فقتله، فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين، فقوي أمره وتمكّن في ملكه فجمع عسكراً كثيراً وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه، فلما وصل غزنة، ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند، فجمع جموعاً كثيرة وعاد إلى غزنة وهو وأهلها معه، فخرج سوري إلى لقائه، فلما تصاف العسكران، أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة (٥٤٤هـ)، وكان سوري أحد الأجواد، له الكرم الغزير والمروءة العظيمة.

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن، ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة (٥٥٠هـ)، وملكها، وأخرج عنها بهرامشاه، واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمداً، وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم، وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية.

ومات علاء الدين سنة (٥٥٦هـ)، فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام ابن الحسين، وكان عضده الأقوى أخوه شهاب الدين. وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والأفغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة (٥٨٢هـ)، بعد أن ملكوا (٢١٣) سنة تقريباً.

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم، خطب لغياث الدين، وتلقَّب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين.

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها. قد بلغا منها ما لم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلي كرسي الممالك التي فتحها من بلاد الهند وأقطعها مملوكه قطب الدين أيبك. وقطب الدين هذا، هو مؤسس بيت سلاطين دهلي الذين استمر ملكهم من سنة (٦٠٢هـ) ـ وهي السنة التي توفي فيها شهاب الدين الغوري ـ إلى سنة (٦٨٦هـ).

وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ أيبك قطب الدين .... (٦٠٢ ـ ٦٠٧هـ)

٢ ـ أرم شاه .... (٦٠٧ ـ ٦٠٨هـ)

٣ ـ التمش شمس الدين .... (٦٠٨ ـ ٦٣٣هـ)
٤ ـ فيروزشاه الأول ركن الدين .... (٦٣٣ ـ ٦٣٤هـ)
٥ ـ رضيا .... (٦٣٤ ـ ٦٣٨هـ)
٦ ـ بهرام شاه معز الدين .... (٦٣٨ ـ ٦٣٩هـ)
٧ ـ مسعود شاه علاء الدين .... (٦٣٩ ـ ٦٤٤هـ)
٨ ـ محمود شاه الأول نصر الدين .... (٦٤٤ ـ ٦٦٤هـ)
٩ ـ بلبن غياث الدين .... (٦٦٤ ـ ٦٨٦هـ)
١٠ ـ كيقباذ معز الدين .... (٦٨٦ ـ ٦٨٦هـ)

وغياث الدين الغوري وأخوه شهاب الدين، معدودان من ملوك الهند العظام. والدولة الغورية، هي ثاني مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية.

وفي عهد المقتفي، حصلت الحرب الصليبية الثانية، وسببها: أن الإفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ما هالهم. فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم، فقرروا طلب الإغاثة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث، وأرسلوا لذلك رسلاً أقامت عبارتهم الشديدة البابا وأقعدته وحرّكت من نفسه الغيرة، وخشي أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه، فأرسل دعاته إلى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية، وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدي المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث، فأجاب الداعية أيضاً. وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية.

وقد وصل إلى القسطنطينية أولاً الملك كونراد الثالث بجيشه، وكان ملكها عمانويل اليكسيوس الأول، وكان يخاف من الصليبيين على مملكته، فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه.

ذهب الألمان أولاً مجتازين بلاد قرنية بلاد السلاجقة، فلقيهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيراً حتى قابل الجيوش الفرنسية، فسار معهم بفلول جيشه، حتى وصلوا إلى القدس، بعد أن ذاقوا من العذاب ألوناً، وذلك سنة (٥٤٢هـ). وبعد أن زاروا المدينة المقدسة، قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها، وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية، وهو: مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين. والأمر في دولته لمولاه معين الدين أنز.

سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود إفرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة (٥٤٣هـ)، وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجلدين في ردهم وأبلوا بلاءً حسناً. وكان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازي صاحب الموصل، فأجاب الداعي وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حمص. ولما علم الصليبيون بذلك، خافوا أن يقعوا بين نارين، فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثراً. وفي سنة (٥٤٩هـ)، استولى محمود نور الدين على دمشق.

هذه هي الدول التي ورثت مُلْك السلاجقة العظيم.

نعود الآن، إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود.

قلنا: إنه كان عَهِدَ إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلاً، ولكن أحد قواد أبيه المعروف بـ «خاص بك» أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فسار الملك محمد إليه، فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ في خدمته، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار. ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله، فقتله محمد، ولم ينتطح في قتله عنزان، واستقر محمد في السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق، فامتنع من إجابته إلى ذلك. فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووصل إليها في ذي الحجة سنة (٥٥١هـ).

وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد، وفرقا السلاح على الجند والعامة، ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب، واشتدَّ الحصار على أهل بغداد؛ لانقطاع المواد عنهم. وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمد لا يناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين، ففتروا وقصروا. وبينما هم على تلك الحال، ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود و معه إيلدكز صاحب بلاد أران، والملك أرسلان بن طغرل، قد دخلوا همذان واستولوا عليها، وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد أموالهم، فلما سمع ذلك محمد جدّ في القتال، لعله يبلغ مناه، فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همذان في أواخر ربيع الأول سنة (٥٥٢هـ)، ولما قارب همذان، خرج منها خصومه خائبين خائفين.

استقرَّ محمد في دار ملكه بأصفهان، وصار العراق للخليفة، لا يشركه فيه أحد. وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفي في زمنين متقاربين. أمَّا محمد: فإنه توفي بهمذان سنة (٥٥٤هـ). وقد اختلف قواده بعد موته اختلافاً كثيراً؛ فطائفة طلبوا أخاه

ملكشاه. وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وهم الأكثر. وطائفة طلبوا أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وأخيراً تم الأمر لأرسلان بن طغرل بواسطة المقدم إيلدكز وكان هذا السلطان ربيبه.

أمَّا الخليفة المقتفي لأمر الله، فإنَّهُ توفي ثاني ربيع الأول سنة (٥٥٥هـ)، وهو أول من استبدَّ بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكَّن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن، إلا أن يكون المعتضد، وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في البلاد، حتى كان لا يفوته منها شيء، وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكبير.

❊ ❊ ❊

٣٢ ــ المستنجد بالله

هو: أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله، وأمه أم ولد اسمها طاووس رومية، ولد سنة (٥٥٥هـ)، وبُويع بالخلافة عقب وفاة والده. واستمر خليفة إلى أن مات في تاسع ربيع الآخر سنة (٥٦٦هـ). فكانت خلافته (١١) سنة وشهراً وأسبوعاً.

المستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين. ومن مآثره: أنه لما ولي، أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس. فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر إليَّ إنساناً آخر مثله؛ لأكف شرّه عن الناس ولم يطلقه،ورد كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً.

ومن أعماله: أنه حلَّ المقاطعات وأعادها إلى الخراج ـ وهذا عمل حسن ـ، إلا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به، ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه. وهو صلاح للجمهور.

وكان ملك السلاجقة لعهده: أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه. ولم يكن له شيء من السلطان في بلاد العراق نفسها، بل استبدَّ الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه.

❊ ❊ ❊

٣٣ ـ المستضيء بالله

هو: أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله، وأمه أم ولد أرمنية تُدعى غضة. بُويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه. وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله، وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين. فعاش حميداً ومات سعيداً. وكانت وفاته ثاني ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ).

وفي عهده: انقرضت الدولة الفاطمية بمصر، وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدم صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب الذي ظهر في كنف محمود نور الدين الشهيد. وكان ذلك في محرم سنة (٥٦٧هـ)، حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذاك في تاريخ مصر والذي خطب له من العباسيين هو المستضيء بالله

وفي عهده توفي خوارزمشاه إيل أرسلان بن أتسز، وملك بعده ابنه سلطانشاه بتدبير أمه، ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش، جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك.

وفي عهده توفي الرجل العظيم ذو القدم الثابتة في فعال الخير وفي جهاد الإفرنج وهو محمود نور الدين بن زنكي، وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا. وقد طبق ذكره الأرض؛ بحسن سيرته، وعدله. قال ابن الأثير في تاريخه: «وقد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرّيًا منه للعدل». وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة.

❊ ❊ ❊

٣٤ ـ الناصر لدين الله

هو: أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستنجد، وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد. بُويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء في (٢) ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ)ـ (٣٠) مارس سنة (١١٨٠م)، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في آخر ليلة من رمضان سنة (٦٢٢هـ)ـ (٦) أكتوبر سنة (١٢٢٥م)، فكانت خلافته (٤٦) سنة وعشرة أشهر و(٢٨) يوماً. وهو أطول خلفاء بني العباس مدة. ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر

بالله معه. فإنه ولي (٦٠) سنة. ولا من خلفاء بني أمية بالأندلس، إلا عبد الرحمن الناصر فإنه ولي (٥٠) سنة.

●● حال الممالك الإسلامية لعهده:

كان في الأندلس وشمال إفريقيا دولة الموحدين. وفي عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش؛ أسسها عبد الحق المريني سنة (٥٩١هـ)، وهو من أعقاب الموحدين.

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا: الدولة الأيوبية؛ التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٦٤هـ).

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية.

وكان بقونية: دول سلاجقة الروم.

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة: السلطان طغريل الثاني، وهو آخر سلاجقة العراق.

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها: الدولة الخوارزمشاهية. والقائم بالأمر منهم: السلطان تكش بن إيل أرسلان إلى سنة (٥٩٦هـ)، ثم علاء الدين محمد إلى سنة (٦١٧هـ)، ثم جلال الدين منكبرتي إلى سنة (٦٢٨هـ)، وهو آخرهم.

وكان بالغور والأفغان والهند: الدولة الغورية.

في عهد الناصر لدين الله، انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة (٥٩٠هـ)، بقتل طغريل بن ألب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذي اتسع ملكه جدًّا، فصار ملكه ممتداً من أقاصي بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة. ولكن ملكه لم يكن بالري ثابتاً. فإن الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها، فأرسل إليها جنداً مع وزيره، فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه، لكن ذلك لم يطل، فإن خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم. وفي سنة (٥٩٦هـ) توفي وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعاً.

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه، أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد، فيخطب له بدل السلاجقة، فأبى الخليفة ذلك عليه. فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده، فاستحكمت حلقات الفساد. وهذا الذي جعل كثيراً من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر إنَّما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس ببعيد كان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته، وقد اعتادوا ذلك من قبل.

الحادث العظيم في البلاد الإسلامية

•• إغارة المغول والتتار:

من أكبر الحوادث في التاريخ الإسلامي، خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الإسلامية، واستيلاؤهم على معظمها في آسيا وشرق أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يد جنكيزخان المغولي وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمي.

التتر: شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها. وهو مرادف للترك عند الإفرنج، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا. ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم. وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو اسكوتيا. ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون: ألنجه خان أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة، ولد له ولدان توأمان هما: تتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر في الأمة العربية.

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد إيلخان ملك المغول وسونج خان ملك التتر. وجرَّ هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل إيلخان ملك المغول، وصارت السيادة من ذلك الوقت للتتر، فاستعبدوا المغول مدة طويلة إلى أن جمع المغول جموعهم واتحدوا، فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم، فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغول وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكي بهادرخان والد جنكيز.

وولد جنكيزخان سنة (٥٤٩هـ)، وكان اسمه في صغره: تموجين. توفي أبوه وسنّه (١٣) سنة، ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغول تموجين فتفرَّقُوا عنه، وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادي الحروب بينهم.

لما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التي لا تساويها عزيمة، اجتهد في أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحاً عظيماً وعادت قبائل المغول إلى الانضمام إليه، وكثر جموعه وعظم أمره، فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً، بعد حروب شديدة. ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله. وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ولما لم يبق له معارض، فكر في ترقية هذا المجتمع العظيم، بوضع قانون يكون لهم

ديناً يسيرون على مقتضاه، فوضع لهم الياساق أو الياسة وهي كتابهم الذي إليه يرجعون في معاملاتهم وأحكامهم، وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين، لا يستجيزون أن يخلُّوا بشيء منها.

ومما شرعه فيها: أن من زنى يقتل، لا فرق بين محصن وغيره، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر، قُتِل. ومن بال في الماء أو على الرماد، قُتل. ومن أعطى بضاعة فخسر فيها، فإنه يقتل بعد الثالثة. ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم، قُتل. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده، قُتِل. وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. وأن مَن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين، ذُبِح. ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال، وكان وراءه واحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله، قُتِل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير. ومن يتناوله أسير. وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله. وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد ناراً ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه. وإن من مرَّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم، وليس لأحد منهم منعه. وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكن يتناول الماء بشيء يغترفه به. ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى. ومنع أن يقال لشيء: إنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس. وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب. ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنَّما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط. وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط، فمن وجده قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه، عاقبه. وألزم نساء المعسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات. وشرع أن

أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليك الملك أخس من عنده حتى يعاقبه، فإنه يلقى بنفسه بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه. وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك، قُتِل. ومن تغير عن موضعه الذي يُرسم له بغير إذن، قُتِل. وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة.

* تنبيه: كان من هذه السياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. روى المقريزي في خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها، ومنه نقلنا ما ذكرنا.

●● خروج المغول إلى البلاد الإسلامية:

قد أكثر المؤرخون في ذكر الأسباب التي دعت جنكيزخان وقومه للخروج إلى البلاد الإسلامية.

فقال بعضهم: إن خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها، أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيزخان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه. وقد سبق لخلفاء بني العباس أن فعلوا ذلك مراراً فهم الذين راسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين، وتحكمهم فيهم.

وهم الذين راسلوا طغرلبك شاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين.

وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة. ولكن الفرق أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين. وأمَّا المغول: فكانوا كفاراً ولا نبدي هذا الفرق استبعاداً للمكاتبة؛ لأن ذلك الملك لا يبالي بما يفعل لتخليص ملكه، ولم يكن الخليفة يبغي إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله. كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان؛ لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف، وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور، ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيزخان كالحمامة تجفل من صقرها.

وهذا السبب ـ وإن كان مطمعاً لجنكيزخان في البلاد الإسلامية ـ ولكنه كان يتطلب سبباً آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه، فيُقال: إنه في سنة (٦١٢هـ)، أرسل رسلاً إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده

لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر، وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار، فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه، أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيزخان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الأمر على سداد مدة، والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين.

وفي سنة (٦١٥هـ): سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهي بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل سيحون (سرداري) وبها وال كان من قبله، فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء (٤٠٠) نفس، ومعهم أموال جسيمة، طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم، فأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا في زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم.

فسارع ذلك الوالي المشؤوم إلى ذلك، وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال، فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها. فلما بلغ علم ذلك جنكيزخان، أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبر بصورة الحال ويطلب منه غايرخان ذلك الوالي ليقتص منه، فلم يكن من الأحمق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول. فلما بلغ ذلك جنكيزخان استشاط غضباً وصمم على قصده وحربه.

وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة، وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه، فلقي هناك جموعاً قليلة متخلفة في النساء والصبيان؛ لأن جنكيزخان كان غائباً بجنده في داخل بلاده، فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدد القليل، فعلم أنه له يوماً ضروساً إذا تحرك عليه جنكيزخان ـ وهو لا بد فاعل ـ. فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التي على حدود بلاده أن يجلوا عنها؛ خوفاً عليهم من التتر، وكانت من جنان الدنيا. فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل إلي عدوه ثم عاد.

أمَّا جنكيزخان، فإنه جمع عساكره الجرارة التي تفوق عد العادين وعبر نهر سيحون، وليس أمامه من يناوشه قتالاً أو يشغله عن قصده. وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفاً من الجنود الخوارزمية، فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر، فتركوا المدينة من غير حام، فأرسل أهلها القاضي بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيزخان ودخل هو وجنده البلد في رابع ذي الحجة سنة (٦١٦هـ)، وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم:

أريد منكم أمتعة التجار التي باعكم إياها خوارزمشاه، فإنها لي، ومن أصحابي أُخذت، وهي عندكم . فأحضر كل من كان عنده شيء منها ما عنده، ثم أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا منها مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب وقتلوا من وجدوا فيه، ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم. وأصبحت بخارى - تلك المدينة العظيمة - خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، ثم رحلوا نحو سمرقند وهي قصبة ما وراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشي قُتِل.

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه، فحاموا عن اللقاء؛ لمَا دخل قلبهم من الرعب والخور. أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة، فقاتلهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد، واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد، ورجع عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظيمهم. ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة، ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك. فقال الجند: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا؛ لأن الكل أتراك، فطلبوا الأمان فأمنوا، وفتحت البلد فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم، فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها؛ وإذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم. وفي اليوم الرابع نادوا في البلد أن لا يتأخر بها أحد، ومن تأخر قتلوه. وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى. وكان ذلك في المحرم سنة (٦١٧هـ).

ولماتم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفا من أشداء جنوده، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أين كان لو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه. فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيماً بغربيه يستعد وقد ملئ قلبه رعباً، فلما علم بقدوم التتر عليه، لم ير إلا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال، ورحل لا يلوي على شيء وقصد مدينة نيسابور، فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى مازندان والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور، فكان كلما رحل عن منزله نزلوها فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن، وصل التتر فأيسوا من اللحاق به، فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة؛ لأنهم ساروا إلى غرب خراسان، وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية، التي قصدت البلاد الإسلامية بالتخريب والإفساد قبل أن

ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد. ولما أيس التتر من اللحاق به، ساروا إلى مازندان فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الري وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار من المفسدين من يريد النهب والشر ـ وهم كثيرون ـ فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها، فملكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا ينهبون في طريقهم كل قرية مرُّوا عليها. ثم ساروا إلى همذان فطلب صاحبها الأمان، فأمنوه هو ومن معه، ثم وصلوا إلى قزوين فدخلوها عنوة، ويقال: إن من قتل من أهلها يبلغون أربعون ألفاً. ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهاراً لا يفيق، وإنَّما أرسل إليهم وصالحهم، فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتقوا فيه، فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في طريقهم إلى بلاد الكرك فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا، فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم في دفع التتر. وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب خلاط وديار الجزيرة، يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعاً أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك، بل ساروا نحو الكرج وانضاف إليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع إليه خلق كثير، وأرسل التتر في الانضمام إليهم، فأجابوا إلى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعاً حتى وصلوا تفليس، فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها، لكن ذلك لم يجدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم التتر من كل جانب، فقتل منهم ما لا يحصى وكانت الوقعة في ذي القعدة سنة (٦١٧هـ).

ولما دخلت سنة (٦١٨هـ): كروا راجعين إلى مدينة مراغة، فملكوها عنوة ووضعوا السيف في أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم، وما لا يصلح. أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين إربل، لكنهم هابوا الهجوم عليها؛ لخوفهم أن تجتمع الجنود عليهم من العراق وغيرها. فعادوا إلى همذان وساروا إلى أذربيجان ومنها ساروا إلى دربند شروان، فاستولوا على مدينة شماخي عنوة وخرجوا من الدربند إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلاً وسبيا والذي لقي حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والأسر، فتفرَّقُوا أيدي سبا في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية، فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم قصد التتر بعد ذلك، بلاد الروس. فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يداً واحدة ضد التتر. ومع هذا، فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم، ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر سنة (٦٢٠هـ)، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم، كمنوا لهم في عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم، فقتل منهم كثير.

هذه أخبار طائفة صغير من طوائف التتر وما فعلته.

أما جنكيزخان: فإنه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه، أقام بسمرقند. وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم وتسلموا البلد سنة (٦١٧هـ)، ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل، بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئاً بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة. ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر.

وأرسل جيشاً آخر، وجهته الشمال. ليملك دشت القفجاق، وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من إضعاف القوى التي كانت بهاتيك البلاد، على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها، بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم، فسهل على الجيش الجنكيزي أن يستولي على الدشت كله في أسرع ما يمكن.

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقاً من بلاد الصين، وتنتهي غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس، وجنوباً ببلاد الهند، وشمالاً بالبحر الشمالي. كل ذلك، تم له في مدة قصيرة!

ولما أحسّ بقرب منيته، قسّم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة، وهم: جوجي وجغطاي وتولي وأوكداي.

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي: لولده الأكبر جوجي.

وجعل بلاد أيغور والتركستان وما وراء النهر بأسره: لولده الثاني جغطاي.

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم: لولده الثالث تولي خان.

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقي: لولده الرابع أوكداي. وجعله ولي عهده من بعده ويصير قا آناً على الكل أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين، وأمر الباقين بمتابعته، وكذا كل من يصير قا آناً من ذريته يجب على الباقين طاعته، ومن أتباعه. ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفيء إلى يساق جنكيزخان.

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان، ولولا ما حصل من الخلاف بعده؛ لتم كل ما توقعه.

وفي سنة (٦٢٤هـ): أدركته منيته. وكان الخليفة العباسي حين وفاته: المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر.

وجد من آل جنيكزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتمت الفتح حتى تهيَّأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءًا من أوروبا.

وبيت تولى هو الذي كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد، وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم. وسنذكر ذلك في حينه.

حصلت هذه الحوادث الكبرى، وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم. فقد كان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً. فخرب في أيامه العراق، وتفرَّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم. وكان كثيراً ما يفعل الأشياء، ثم ينقضها. وجعل جلّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة. فبطلت الفتوة في البلاد جميعاً إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة. وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه.

هذه كانت مشاغله العجيبة، والتتر يمعنون في بلاد المسلمين قتلاً وأسراً وتخريباً. ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بـ «الفخري» ثناءً جمًّا ومن ضمن ما وصفه به: أنه كان يرى رأي الإمامية. والظاهر: أن هذا هو الذي حببه إلى المؤرخ المذكور.

بقي الناصر في أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة. وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً. وفي آخر الأمر، أصابته دوزنطاريا عشرين يوماً وكانت بها منيّته.

* * *

٣٥ ــ الظاهر بأمر الله

هو: أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله الناصر. بُويع بالخلافة عقب موت أبيه، وكان ولي عهده،واستمر خليفة إلى (١٤) رجب سنة (٦٢٣هـ)، فكانت خلافته تسعة أشهر و(١٤) يوماً.

لما ولي، أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين. قال ابن الأثير: فلو قيل: إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله، لكان القائل صادقاً. فإنه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً. وأطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يسقط جميع ما جدده أبوه ـ وكان كثيراً لا يحصى ـ.

ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد، حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخرج الأول لا يفي دخل الباقي بالخراج، فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة. وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء.

ومن أعماله: أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]. قد بلغنا كذا وكذا، فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى، فكتب بعض النواب إليه يقول: إن هذا مبلغ كبير. وقد حسبناه فوجدناه في السنة الماضية (٣٥) ألف دينار، فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول: لو أنه (٣٥٠٠٠٠) دينار يطلق. وكذلك أيضا فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة. وتقدم إلى القاضي كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن.

ومنها: أن العادة كانت في بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة في الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع الأصدقاء ببعض كل نزهة أو سماع أو غير ذلك. ويكتب

---

(١) المطففين: ١ ـ ٥.

ما سوى ذلك من كبير وصغير، فكان الناس من هذا في حرج عظيم. فلما ولي الظاهر، أتته المطالعات على العادة، فأمر بقطعها، وقال: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم، فلا يكتب أحد لنا لا ما يتعلق بمصالح دولتنا، فقيل له: إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرّها. قال: إنا ندعو الله أن يصلحهم.

ومنها: أنه لما ولي الخلافة، وصل صاحب الديوان من واسط ـ وكان قد سار إليها أيام الناصر لتحصيل الأموال ـ فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار، وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الأمر في حمله. فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه، فلا حاجة لنا إليه، فأُعيد عليهم.

ومنها: أنه أخرج كل من كان في السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع، وليس له مال.

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية، فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسيا. وقبل وفاته، أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطه عن أرباب الدولة، وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يُقال: برز مرسوم أو نفذ مثال، ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فَعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال.

وقد قرئ التوقيع، فإذا في أوله بعد البسملة: (اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً، وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستداراً كالأغراض التي انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون. والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلاّ هلكتم، والسلام).

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلاً، فإنه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته.

❊ ❊ ❊

٣٦ ـ المستنصر بالله

هو: أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر. بُويع بالخلافة يوم وفاة والده (١٤) رجب سنة (٦٢٣هـ) ـ (١١) يولية سنة (١٢٢٦م)، واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشرين خلون من جمادى الآخرة سنة (٦٤٠هـ) ـ (٥) ديسمبر سنة (١٢٤٣م)، فكانت خلافته (١٧) سنة، إلا شهراً.

كان المستنصر شهماً جواداً يباري الريح كرماً وجوداً، وله الآثار الجليلة في بغداد:

منها : وهي أعظمها ـ : المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة، وكان يقول: إني أخاف ألا يثيبني الله على ما أهبه وأعطيه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب.

ولما ولي، سلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه، وأمر فنُودي ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته.

وفي عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيزخان سنة (٦٢٤هـ)، وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها: ابنه تولي خان، فوسع ملكه إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً؛ لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير ـ تعليقاً على هذه الحال ـ : (فما نرى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو). قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2].

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال، سنة (٦٢٨هـ)، قتل شريداً طريداً لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه، وبهلاكه تم للمغول مُلك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق، ولم يتهيَّأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما

(١) آل عمران: ٩٢.
(٢) الأنفال: ٢٥.

بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض، عن عدوهم لاهون غافلون.

صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن لآن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني.

* * *

٣٧ ــ المستعصم

هو: أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء ابن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهتدي بن المنصور، ففي آبائه سبعة عشر خليفة.

بُويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في عاشر جمادى الآخر سنة (٦٤٠هـ) ـ (٦) ديسمبر سنة (١٢٤٢م)، ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدي هولاكوخان في (٢٠) محرم سنة (٦٥٦هـ) ـ (٢٧) يناير سنة (١٢٥٨م). وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا: كان المعتصم رجلاً خيّراً متدينا لين الجانب، سهل العريكة، عفيف اللسان والفرج، حمل كتاب الله تعالى، وكتب خطا مليحاً، وكان سهل الأخلاق، وكان خفيف الوطأة، إلا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعا فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثر بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهّال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي، فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال، وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء.

●● حال التتر:

قلنا فيما تقدَّم، إن جنكيزخان لما حانت منيته قسّم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده، ومنهم: تولي خان؛ الذي جعل له خراسان، وما يؤهل أخذه من ديار العراقين إلى منتهى حوافر خيولهم. وقد استمر تولي في مملكته الجديدة يتوسع في الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفي سنة (٦٥٤هـ) في عهد المعتصم بالله، وكانت حدود بلاده تنتهي عند بلاد العراق، فخلفه في الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيزخان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون: إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في

نزاع مستمر، وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد، رائدها الجهل والغفلة عن المصالح. وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة، فكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد فيه مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة؛ لأنهم عماد بيتهم. والشيعة يريدون خروج الأمر منهم. وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة، فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم، وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم، فيقال: إن الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية، ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده، فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته. وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكد هذه التهمة، وهو رسالة أرسلها ابن العلقمي إلى وزير إربل. منها: أنه قد نهب الكرخ المكرم، وقد ديس البساط النبوي المعظم، وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية، وقد حسن التمثّل بقول شخص من غزية:

أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلَّة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم أمراً، فصبر جميل:

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم تطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

ومنها:

وزير رضي من حكمه وانتقامه ... بطي رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهي حمامة ... وليس لها نهي يطاع ولا أمر

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

ووديعة من أسر آل محمد ... أودعتها إن كنت من أمنائها
فإذا رأيت الكوكبين تقارنا ... في الجدي عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثار آل محمد ... وطلابها بالترك من أعدائها

وكُن لما أقول بالمرصاد وتأوّل أول النجم واحرص والله أعلم.

---

(١) النمل: ٣٧.

وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي، قال في تاريخه: (وقد نسبه الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة. فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة، سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه) ا هـ. والله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج.

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد في منتصف محرم سنة (٦٥٦هـ)، نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف، واكتفى بإقفال الأبواب، فجد المغول في القتال، حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام، وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك، استأذن أن يخرج إلى هولاكو، فأمر هولاكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد، وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة، التي كانت حاضرة الإسلام كله، ثم تقدم بإحضار الخليفة فأحضره ومَثُلَ بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبأة في أطباق ففرّق هولاكو ذلك على امرأته.

وفي رابع عشر صفر سنة (٦٥٦هـ): رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة، وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان، وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى.

وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد، بعد أن مكثت مشرقة (٥٢٤هـ) سنة، واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حلّ بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد ـ دار الخلافة وعاصمة الملك ـ : فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية، فقد قُتل معظم أهلها. وقيل: منهم من نجا وقد استبقى المغولي جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد، بعد أن أفنى أكثر أهلها. قوم جاؤوا مع هولاكوا ومن أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين!!!

❊ ❊ ❊

حال الدولة الإسلامية
عند سقوط الدولة العباسية

١ ـ كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية: دولة بني نصر، والقائم بالأمر منها مؤسسها: محمد الغالب بالله بن نصر (٦٢٩ ـ ٦٧١هـ).

٢ ـ بشمال إفريقية: دولة الموحدين، والقائم بالأمر منهم: أبو حفص عمر المرتضي بن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ ـ ٦٦٥هـ).

٣ ـ وبالجزائر: الدولة الزيانية، والقائم بالأمر منهم: بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ ـ ٦٨١هـ).

٤ ـ وبتونس: الدولة الحفصية، والقائم بالأمر منهم: أبو عبد الله محمد المستنصر بالله أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ).

٥ ـ وبمراكش: الدولة المرينية، والقائم بالأمر منهم: أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ ـ ٦٧٥هـ).

٦ ـ وبمصر: دولة المماليك البحرية، والقائم بالأمر منهم: المنصور نورالدين علي بن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ ـ ٦٥٨هـ).

٧ ـ وباليمن: الدولة الرسولية، والقائم بالأمر منهم: المظفر بن يوسف بن المنصور عمر ابن علي بن رسول (٦٤٧ ـ ٦٧٤هـ).

٨ ـ وبصنعاء من أئمة الزيدية: المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ ـ ٦٨٠هـ).

٩ ـ وبالروم: من السلاجقة، ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ ـ ٦٦٦).

١٠ ـ وبماردين من الدولة الأرتقية: نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ ـ ٦٥٨هـ).

١١ ـ وبفارس من الأتابكية السلغرية: أبو بكر بن سعد بن زنكي بن مودود (٦٣٣ ـ ٦٥٨هـ).

١٢ ـ وبلورستان من الأتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ ـ ٦٥٧هـ).

١٣ ـ وبكرمان من دولة قتلغ: خان خاتون (٦٥٥ ـ ٦٨١هـ).

●● إجمال القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة (١٣٢هـ)، حيث بُويع لأولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة، واستمرت خلافتهم إلى سنة (٦٥٦هـ)، حيث سقط عبد الله المعتصم قتيلاً بين يدي هولاكو خان المغولي من أعقاب جنكيزخان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام.

جاءت الرايات السود من المشرق، فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية، وجاءت رايات التتر من المشرق فثلتَ عرشهم من بغداد زهرة المشرق، وجنة الدنيا. فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم. استمرت خلافتهم (٥٢٤) سنة استخلف فيها منهم (٣٧) خليفة، فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو (١٤) سنة، وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي (٤٦) سنة، وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية (١٠٠) سنة، لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي ـ ما عدا بلاد الأندلس ـ ، يقولون فيُسمع لهم، ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم، إلا منافسيهم في القرب من رسول الله ﷺ وهم بنو عمهم من آل طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمح، ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء، وهم: السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق سنة (٢٢٢هـ).

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من (٢٢٢) إلى (٢٣٤هـ)، أخذت الدولة فيه في النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التي كانت لهم في نفس الأمم الإسلامية، واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز. وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن، وآلَ الأمرُ إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق، والولاية العامة، وليس للخلافة من الأمر شيء.

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة. وهم: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي الذي ملك بنو بويه في آخر عهده. ومتوسط خلافة الواحد منهم ثماني سنوات ونصف، ولم يمت منهم موتاً هادئاً

إلا أربعة، والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع. وكان استيلاء بني بويه على بغداد سنة (٢٣٤هـ).

جاء بعد ذلك، دور ثالث من (٣٣٤) إلى (٤٤٧) ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلي لأمة فارسية، هم الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من بني بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يُراد منه لا ما يريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمباينتهم له في العقيدة. فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل علي وآل بيته على من عداهم، وإنَّما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هيناً يبقونه متى رأوا في بقائه خيراً لهم، ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم.

وقد قام في هذا الدور: المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم. ومتوسط مدة الخليفة منهم: (٢٢) سنة ونصف، والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه.

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة (٤٤٧) إلى سنة (٥٩٠هـ)، انتقل السلطان الفعلي فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد، وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالاً منهم مع بني بويه، فإن هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تديناً وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

وقد ولي في هذا الدور المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء. ومتوسط خلافة الواحد منهم: عشرين سنة ونصف، ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد؛ فإنهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلي في بغداد والعراق، والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم، وتفرقهم، ووقوع الحرب بينهم. وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتفي وانقضت دولة السلاجقة سنة (٤٩٠هـ)، على يد خوارزمشاه. ونفوذهم في العراق قد اضمحلّ تماماً.

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية (٦٦) سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد، بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الإسلامية، فأخذ أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيزخان سنة (٦٥٦هـ).

فللدولة العباسية أدوار:

(١٠٠) سنة، عصر القوة والعمل من...........................(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ).

(١٠٢) سنة، عصر استبداد المماليك الأتراك من ....(٢٣٢ ـ ٢٣٤هـ).

(١١٣) سنة، عصر استبداد الملوك من آل بويه من.............. (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ).

(٨٣) سنة، عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من........... (٤٤٧ ـ ٥٣٠هـ).

(١٢٦) سنة، عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم السياسي

مع تغلب القواد من ....(٥٣٠ ـ ٦٥٦هـ).

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف، ثم التلاشي:

١ ـ ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية، فهي التي كانت عماداً لتلك الدعوة. وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية، فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية، وهي قولهم: يا لفلان، وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعي بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله ﷺ - : ؛وسبب ذلك، أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها وكانت نتيجة ذلك، أن تآخى العدناني والقحطاني،والمضري والربعي، والقيسي والكناني ـ بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تحيط بهم، وبذلك تكوّنت الأمة العربية... الدين كونها، وهي نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر في نظر الأمم التي غالبها العرب على أمرها.

صارت الأمة العربية علي ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التي أنالها الدين قوة لا تقهر.

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى، ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات، إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود، وهذا أمر طبيعي لا تمكن مقاومته.

ولما حصلت الفُرْقَة بين علي ومعاوية، لم تكن فرقة عناصر، فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد. من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك، والنزاريون هنا وهناك وإنَّما كانت فرقة آثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين، وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الأمة العربية، فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق، وعرب العراق أبغضت أهل الشام، ونطق بذلك بعض شعرائهم؛ وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية، وكراهة أهل الشام لعلي. وقد أضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية.

انتقل الأمر إلى بني أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بني عبد مناف، فدانت له الأمة، وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضي عليه. وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحُسن الأثر. وقد اتضح ذلك وضوحاً جليًّا بعد انتهاء البيت السفياني وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائذ بالبيت، وهو عبد الله بن الزبير، فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن؛ من كلب وغسان والسكاسك. وناوأته قيس من عدنان، فكان النصر لمروان واليمانية، وأسرفوا في قتل قيس، فتأثرت بذلك أنفسها تأثراً تمكن منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلمته التي أولها:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

وفيها:

فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازة النفوس كما هي

وفيها:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس؛ وهما: زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمي بقرقيسيا وصارا يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة مجاوراً لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس، فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له:

ألا من مبلغ عني عميراً ... رسالة ناصح وعليه زاري

أتترك حي ذي يمن وكلباً ... وتجعل حد نابك في نزار

كمعتمد على إحدى يديه ... فخانته بوهن وانكسار

وقتل في بعض الأيام عمير بن الحباب.

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين في الأنساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم. فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء. وقد كان الأخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوي الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان، وجاء بقومه فبايعوا. قال الأخطل من كلمة لهم:

بني أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً ... فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر ... بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تصطك يوماً فتصطدم ... عليك أواذي البحور الزواخر
تكن مثل أقذاء الحباب الذي جرى ... به الماء أو جارى الرياح الصارصر
لقد حان كل الحين من رام شاعراً ... لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بجمر ليس يحصى عديده ... ويسدر منه ساجياً كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة:

بل سوف نبكيهم بكل مهند ... وننعي عميراً بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة.

وقد قال هذا الشيطان الخبيث في تلك الموقعة ـ بعد أن أثار غبارها ـ:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة ... إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة ... وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف:

أيا مالك هل لمتني أو حضضتني ... على القتل أم هل لامني كل لائم
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم ... بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميراً بسيفه ... إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حييت هذه العصبيات الجزئية، ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها، وكأن الولاة

بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية، فكان الوالي اليماني يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي. وكذلك كان الربعي والقيسي والتميمي. وكان يظهر ذلك واضحاً في الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان . ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت ترتكز على العصبية العربية؛ لأنها دولة عربية محضة، فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التي ترتكز عليها. وكان من الأمم التي ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيي ما اندرس من تاريخها. رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية؛ لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام. فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الإسلام، فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكانوا بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية، فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية. وإنَّما لم يجعلوا عمدتهم على العرب؛ لأمرين:

الأول: أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بني أمية؛ لأن العرب لم يمسّوا بأذى من جانب تلك الدولة، بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزّهم.

والثاني: أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم، فكان اليمانيون في جانب والربعيون في جانب، والمضريون في جانب. وأمَّا الفرس: فمن السهل إثارة عواطفهم؛ إما بحكم العصبية العنصرية، وإما بحكم الإسلام، ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول في الخاصة من أبناء الأمة الفارسية، وتأثير الثاني في العامة.

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد أزرها وتحمي بيضتها، وإنَّما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة، لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي إلى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذي يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الإسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصبية العرب، ولم يهملوا شأنها، بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ؛ إذ رأوا من الموالي نكوباً عن جادة نصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم، فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة، بل بالعكس وجد منهم

ما يدل على الميل على إنماء هذه العصبية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله، يمكن أن نقول: إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال، وثيقة العرى. وإنّما كان الإسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين، وإن كان جامعاً قويّا، لكنه لم يكن مدعماً بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته، إماتة العصبية الجزئية وسدّ الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب، ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان، فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك، عاجلوه. وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني وزيره الأول. ولأبي مسلم ما له من السابقة وحُسن الأثر في إحياء الدولة، ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه، وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة لذلك، فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بني عمهم من آل علي. ولما قتل أبو مسلم، قام بالثأر له قائد فارسي على دين قومه من الوثنية سنباذ، وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان، لولا أن غولب بالعصبية العربية. فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلي، وهو من رجال ربيعة، فكسر قوته. ويُقال: إنه قتل من قومه في الموقعة نحواً من ستين ألفاً. وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية في الهاشمية نفسها، فعوجلوا. والذي كان الفارس المعلم في يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة، وهو معن بن زائدة الشيباني.

والخلاصة: أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها. ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعِظَم شأنها ونفوذ خلفائها. وهذه العناصر هي:

العنصر العربي: وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية، وصرع بتأثير العصبية الجزئية.

والثاني: عنصر الموالي، وأهمهم أهل خراسان، ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقي؛ لاختلاف الغرض الذي يرمي إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر ـ وهو الموالي ـ، كان منتجاً بطبيعة

غلبة العنصر الذي هم منه ونيلهم حظاً في الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب، فقد اشتهر من الموالي عدد عظيم في الصدر الأول، تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة. وانظر إلى بيت خالد البرمكي وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده، فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك في مخاطباتهم وفي القصائد التي مدحوهم بها، ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال، وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم. وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم ـ وخاصة جعفراً ـ منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل علي ـ كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ـ ومع هذه التهمة السياسية، كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم ونسبة الزندقة إليهم. . إلى غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية.

ولا مراء في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين، وكان الداعي إليها هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وكان الذى ظنه الرشيد وهجس فى نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما وكان يحارب أحدهما الآخر، وينتفعون هم بنتيجة ذلك. وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم. ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ، بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس. ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده، بل إن المنازع السياسية وميل الموالي إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كبير.

انتهت حياة الرشيد، والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة. يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء، إلا أنه قلّما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم، وإنّما كانت العيوب التي تُسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها.

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون، فكان م ن نتيجتها، ازدياد قوة العنصرالخراساني؛ لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري ـ وهو أول بيت من الموالي ـ منح خراسان على طريقة الاستقلال، والذي كان يزيد في قوة هذه العناصر، أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة، يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر . ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال، و منهم من كان ذا بيت عريق في قومه، فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها

ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش، ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته، ويستغني عن العرب وعصبية العرب، وعن أبناء خراسان أيضاً، أما العرب: فلأمر ما، كان هو وأخوه قليل الاعتماد عليهم. ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم. وأما الأبناء أو الموالي الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء، وخرج كثير منهم عن طاعتهم؛ لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالي الأتراك؛ ظنًّا من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها، وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم؛ لشجاعتهم وقوة أجسامهم، وهذا خطأ غريب، ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها، مع أن هذا العنصر يباينها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذي ينتمي إليه ولا ينساه.

إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم، فمن البديهي أن يكون صغوهم إليها وميلهم لها. وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس، فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بإله الآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصرالجديد في الدولة وما دريا أنهما بعملها هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك، يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة. ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدي الأغراض يسعون لغاية واحدة، لكانت المصيبة أعظم، ولكن كانوا على غير ذلك، حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولي على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة، كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يروق لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم.

كان في حياة هذا العنصر الجديد، ضعف العنصرالعربي ضعفاً عظيماً، فتفرَّق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون في حياتهم إليها، وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختل التوازن بين عناصر الدولة. ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به. وليس أمام الخلفاء إلا هم، فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين، حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم، وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم مايردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذي كان أول الخلافة شراً.

وأما هذا، فهو نهاية الشرور.

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس، ذا نتائج سيئة. فإنه أضعف صولة الخلفاء، وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم. وأما في الأطراف، فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم؛ لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية - في منتصف القرن الثالث - محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم - أحياناً - على السكَّة وإرسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد. قد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات؛ لأن غلمان الأتراك قلَّما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة، فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم.

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر. وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين - وهو يعقوب بن الليث الصفار - أن يستولي على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك، لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولي العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على الله - والذي أحيا فيه تلك القوة - أن العنصر المستولي على الدولة - وهو عنصر الأتراك - نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال، فضعف أمرهم. وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم، فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة، إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه؛ وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التي يمكن الاعتماد عليها، فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره. فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان؛ كنكسة المريض، عسير برؤها شديد أثرها. واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس ،والسلطان الحقيقي؛ لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة منَ بيت عريق في الشرف القومي وهم أولاد بويه، فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد، وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بني العباس. ومع ذلك، فقد أبقوا

عليهم، لأمرين:

الأول: مرضاة الجمهور البغدادي، فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل علي.

والثاني: أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه؛ لأنه لا مانع دينياً يمنعهم من ذلك.

أما الخليفة العلوى: فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية.

هكذا لعبت السياسة بالعقيدة، فأضاعت أثرها. ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان، فإنهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيراً بحاضرة الخلافة، بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفي أوائل المائة الخامسة، ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل في الإسلام حديثاً وفارق وطنه متجهاً إلى بلاد المغرب، وهو عنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار يمتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي، قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده، فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه. وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس؛ لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة الدولة الديلمية التي كانت غالية في تشيعها والإدلاء بالأموال إلى دولة أخرى تدين بإمامتهم واحترامهم.

وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دبّ إليهم ما دبّ إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسام، فكان ذلك مشجعاً بني العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصبية إلا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله.

من ذلك، يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو: فقد العصبية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء نفوذهم، فلما اختلّ هذا التوازن، اختلّ معه هذا النفوذ. والمقام الديني هو الذي ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالي.

* * *

٢ ــ مناسبة العلويين

لا مراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة، أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الإسلامية وهم لهم أطوع؛ لأن المؤثر الديني يكون مستحكماً، ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً في صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين، كل منهما يسابق الآخر في القرب من رسول الله ﷺ.

فأما أحدهما: فهو البيت العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعاصبه الوحيد عند وفاته.

وأمَّا الثاني: فهو البيت العلوي الذي ينتمي إلى علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثاني أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية، ففشل. قام الحسين بن علي مطالباً بها فقُتل دونها، وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين، فقُتل، دونها بالكوفة. وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد، فكانت نتيجته كأبيه، ذلك مع ميل الجمهور العراقي لهم وعطفه عليهم.

أمَّا العباسيون: فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم، وكانت الدعوة إليهم مبهمة في أول الأمر، لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ، إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه، وكانت النتيجة تمام النجاح، وساعدهم ضعف عصبية خصومهم، فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بني أمية.

حرَّك ذلك من غيرة بني عمهم منهم وحسدهم لهم، ومن المعلوم أن جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين، وكان بنو العباس على علم من ذلك، يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي. أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه؛ لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ ، وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصبية التي قامت

عليها الدولة انقساماً ولا يدرى حينئذٍ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين، راقبهم العباسيون سرّاً. وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح، فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بني عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززاً لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذي هم أولى به، وإذا كان غصب الأجنبي الحق مؤلماً للنفس، فرؤيته عند القريب أشد إيلاماً، ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعدونه على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية، خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة. وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه، ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية، ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك، أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم، فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم، وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأي بنو العباس أنفسهم مجبورين علي نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على علي بن أبي طالب، بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية، ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى - كما فعل الحسين بن علي - الذي ثار بمكة في مدة الهادي، سنة (١٦٩هـ)، فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى، فاتجه الأول غرباً مارّاً بمصر ومخترقاً شمال إفريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من الغرب. واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم، إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذي كان على بريد مصر، فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض

مصر، مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد، فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله في النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد في عقوبة من يتهم بالميل إليهم، وشدة التضييق على من بقي بالمدينة منهم، وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية ـ وهي أمة البربر ـ بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم، معتقدة أنها نالت حظًا أعلى من حظا سائر الأمم الإسلامية؛ لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي، ومن أبناء ابنته، واضطر الرشيد أن يزرع بإفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت. وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة، ماذا رأي؟ رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر، فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون، فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم. فاختار منهم علي الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده، ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين، وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضاً، ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه ـ وإن أرضى العلويين بهذا العهد ـ قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة، فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي، فلم يكن أمامه ما يرأب به هذا الصدع، إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل، بأن وضع له قوماً تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك علي الرضا، فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً، والقرائن تساعدهم، ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة.

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها، ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه. ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلي بن أبي طالب، وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه، حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة، شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن. فأمر ألا يدخلوا عليه، واضطر لأن يجاري أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بإفريقية وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد.

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة، وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد، أو في سامرا بعد اختطاطها.

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة، فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل عليّ على غيره من شيوخ الصحابة. وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد، إلا أنه زاد عليه، فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علي بن أبي طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون في قصائدهم فينتقصون آل علي ويفيض عليهم بالهبات الوافرة. وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشدد في ذلك تشديداً عظيماً، فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحتري لما مات وولي المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك، فقال:

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما ... أذيع بسربهم فانذعر
ونالت أدانيهم جفوة ... تكاد السماء لها تنفطر
وصلت وشوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حفظهم ما نأى ... وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا ... ء لا عن تباه ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم ... وإخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنت يدا نصرة ... وحدا حسام قديم أثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب ... وتتلى فضائلكم في السور
وإن علياً لأولى بكم ... وأزكى يداً عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو ... ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت إمام الهدى للهدى ... تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحتري له في المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة.

ثلم آل علي ثلمة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم ولم يفلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضى حياء وتخاف تديناً.

رأى العلويون في النصف الثاني من القرن الثالث، أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية، بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصا عُرف بنظام الدعوة، ساروا في ذلك على أثر الدعوة العباسية، إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعاتهم إلى جميع

الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً، ولما تهيَّأ لهم الأمر، أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شيء يمكنها من القضاء عليهم، وفعلوا في الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قال على أثرهم الفاطميون بإفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى، ثم مدّوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات، وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر، وخطب فعلاً للعلويين على منابر بغداد نحو سنة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم، اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن في نسب العلويين المصريين وكتبوا في بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بني هاشم، وقالوا فيه: إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح، وإنهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضي نقيب الطالبيين ببغداد قوله:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حمي
وإباء محلق بي عن الضيم ... كما راغ طائر وحشي
أي عذر له إلى المجد إن ذ ... ل غلام هم عمده المشرفي
ألبس الذل في ديار الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النا ... س جميعاً محمد وعلي
إن ذلي بذلك الجو عِزّ ... وأوامي بذلك النفع ري
قد يذل العزيز ما لم يشمر ... لانطلاق وقد يضام الأبي
إن شراً علي إسراع عزمي ... في طلاب العلا وحظى بطي
ارتضى بالأذى ولم يقف العز ... م قصوراً ولم تعز المطي
كالذي يخبط فى الظلام وقد ... أقمر من خلفه النهار المضي

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها في ديوانه وهي مشهورة عنه. ومن طراز شعره. وعلى الجملة، فإن مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما.

ومما زاد الأمر بلية، أن بني بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع، كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء، فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادمات لاطمات ينعين الحسين بن علي - ﷺ - وغير ذلك من العادات. وصار الناس يتقرّبون إلى السلطان

بالتشيع.

وفي أوائل القرن السادس، ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام، فأرهقوا الناس، وأفسدوا الدول، وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس.

واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب. واستمر مع الباطنية بفارس والشام. واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال: إن السبب في هيج التتار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهي الكرخ.

من ذلك، ترى أن النزاع بين العباسيين وآل علي، استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة. وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره، من خلل العصبية التي كانت عمدة العباسيين.

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول.

* * *

٣ ـ ضعف قيمة العهود

الوفاء العهد خلق عربي، حافظ عليه العرب في جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم. عرف لهم ذلك، من جاورهم من الأمم؛ كالفرس والروم. وحوادثهم في ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف. ولسنا بصدد أن نقتصها.

لما جاء الإسلام، أيَّد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً لا هوادة فيه. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]... إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية.

وعلى ذلك، سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم. وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى؛ لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها، بل يصح أن يُقال: إنها كانت دولة عربية محضة، وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد

(١) الإسراء: ٣٤.
(٢) النحل: ٩١.

ابن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته، وقالوا: إنها أول غدرة في الإسلام، وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد، فقال: حسن لو قتلته وحييت. فقال عبد الملك: أو لست بحي؟ فقال الشيخ العربي: حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد. فانظر كيف عدّ العربي هذه الحياة. كلا، حياة. ولم يصل إلى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل؛ لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي، ظهر منها ـ لأول نشأتها ـ حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة، فقد قتل المنصور في حياة السفاح بن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه، وكان الذي أشار بقتله أبـو مسلم الخراساني مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته. ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه، ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبدالله بن علي بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه. ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله ابن الحسن، وقال: إنه يعطيه الأمان. أجابه محمد بقوله: وأما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة؟ أم أمان أبي مسلم؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي، والسلام. وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير؛ لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذي حصل في صدر الدولة، كان مجرئاً لمن أتي بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة، فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها، وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى، الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور، فقدم عليه ابنه محمداً المهدي، وهذا التقديم ـ وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه ـ إلا أنَّا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة. وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل، وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما … إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم … كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدي مثل ذلك معه، فعزل عن العهد بمرة، وقد ارتكب من الوسائل

ما ارتكبوه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين سنة (١٩٤هـ) إلى سنة (١٩٨هـ)، قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة، ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل، محافظةً على العهود والمواثيق.

ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين، بل تتعداهم إلى القواد والأمراء، فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

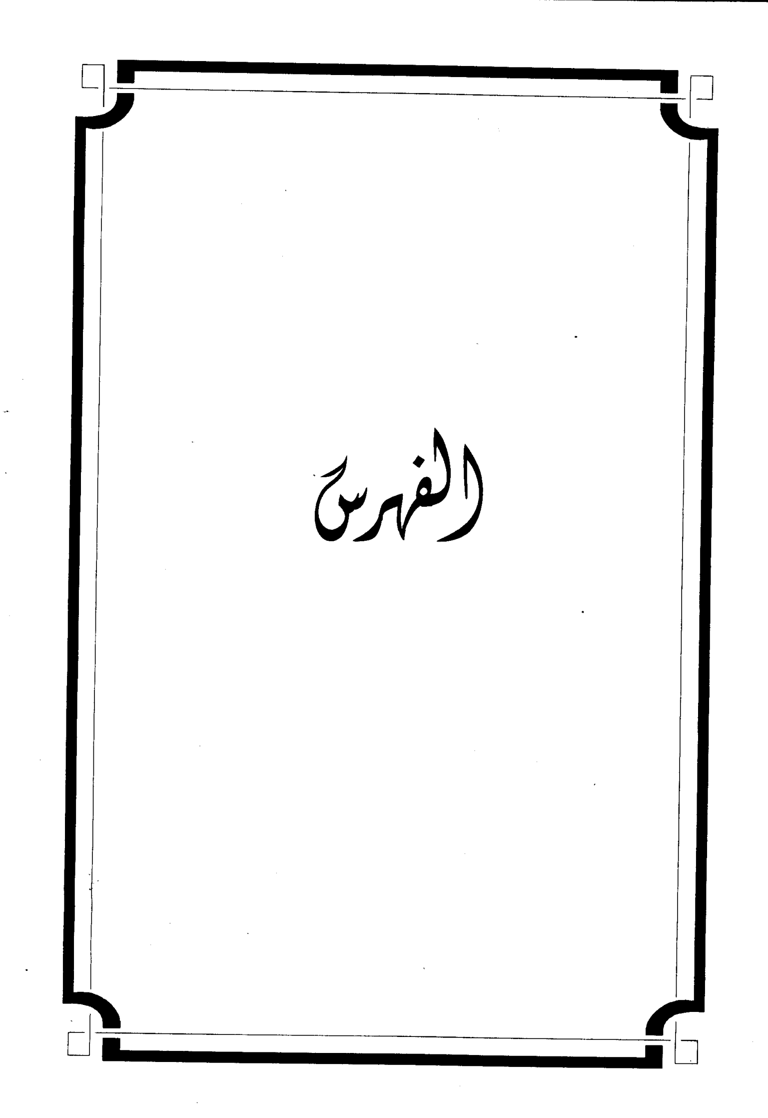
كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله، وأكد فيه غاية التأكيد، ولما ارتاب منه، صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك، فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء. ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدي الأوجه التي ينتقض بها الأمان.

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت، وتعدّت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية، يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

بعونه تعالى تم الكتاب


الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضـــوع | **الصفحة**

الموضـــوع **الصفحة**

الموضــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**